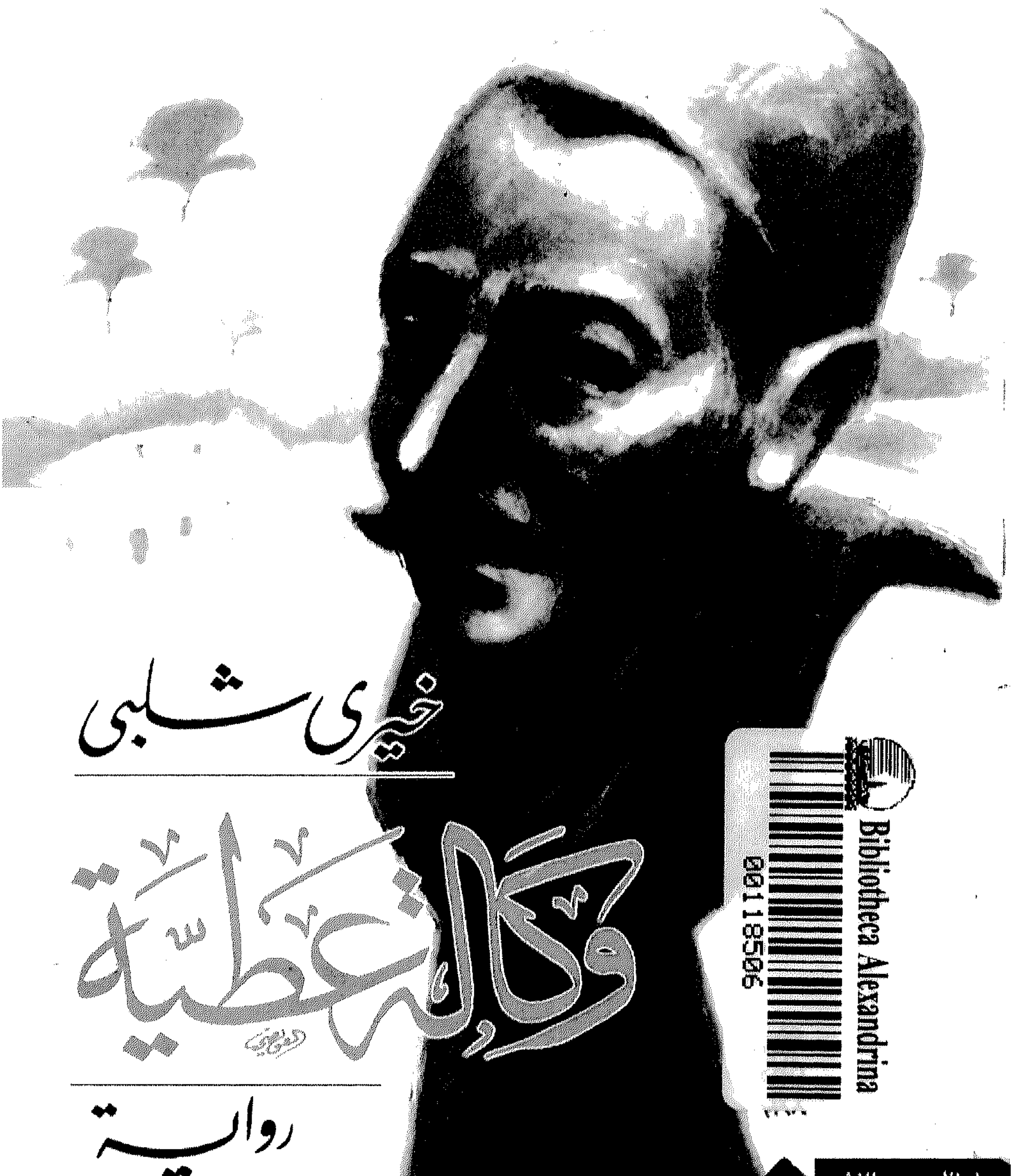


خيري شلبي

وكالة عطية

رواية

دار الأحمدي للنشر

Bibliotheca Alexandrina
00118506

وكالة عطية

رواية

دار الأحمدى للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت ـ تليفاكس / ٥٧٥٨٠٩٨

المنيـــا : ٧٣ طه حسين ـ تليفاكس / ٣٤٧٨٠٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٩

رقم الإيـــداع : ١٦٫٢٠ / ٩٩

الترقيم الدولى : 977 - 5887 - 13 - 5

طبع وفصل ألوان : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

خيري شلبي

وكالة عطية

رواية

دار الأحمدي للنشر

أغنية القمر

ياقمرنا يا هادي ..
يا لابس بغدادي ..
شيل حماتك وارقعها ..
خلي الدم يفرقعها ..
فرقعها لولي لولي ..
زي الشمع المحلول ..
حليته قبضه قبضه ..
زي الصندوق الفضه ..
خلى امي تطلع تغسل ..
تغسل لي ما تغسل لي ..
تغسل لي توبين حرير ..
وتنشرهم ع المنديل ..
والمنديل مليان حنه ..
آخد منه واتحنى ..
واطلع فوق العلوايه .. ..
وأقول : يا حدايه ..
ماتاخديش حناتي ..
لما ييجوا عماتي ..
عماتي خمسه سته ..
يلعبوا تحت الدكه ..
والدكه يا محلاها ..
شيخ العرب جواها ..
خدت محمد في كمي ..

نط ورايا دار أمي ..
دار أمي كبيره كبيره ..
فيها عسكر كتيره ..
واحده تشن ..
واحده تزن ..
واحده ترن ..
واحده تقول : يا عسكر قوم اسكر .

" أغنية شعبية من ريف الدلتا "

ما كنت أحسب أن الحال يمكن أن يتدحدر بي إلى حد قبول السكنى في وكالة عطية . بل ما كنت أتصور أنني قد صرت صعلوكاً حقيقياً ومن زمرة الصيّاع القراريين ، إلى حد أن أعرف مكاناً فى مدينة دمنهور إسمه وكالة عطية . إذ هو مكان لم يكن ليخطر لمثلي على بال مطلقاً ، ولم تكن لتقودني قدماي إلى هذا المكان البعيد المتطرف ، الذى قد لا يعرفه أبناء المدينة أنفسهم ، الذين جابوها من أقصاها إلى أقصاها وعرفوا كل خرم إبرة فيها .. لولا أنني - فيما اتضح لي - قد ضربت الرقم القياسي فى الصعلكة والصياعة واللف على غير هدى ..

المفروض أنني طالب بمعهد المعلمين العام ، أقصد كنت كذلك قبل ما يزيد على عامين . كنت على وشك أن أصير مدرساً بعد عام واحد ، حيث أظهرت تفوقاً فى دروس التربية العملية وفى نظم التدريس ومناهجه الحديثة ، إلا أننى رزئت بمدرس للرياضة كان سخيفاً وسمجاً وابن زانية : لم يعجبه أن أبناء الفلاحين المعدمين القادمين من القرى والعِزب أشبه بالجرابيع الحفاة ، يمكن أن يتفوقوا فى التعليم على أبناء المدارس الأصلاء من أبناء الذوات والناس الطيبين ، فصار يتصدى لي فى كل امتحان ، يتحداني بالنظرات الخشنة القاسية ، يحرر لي محضراً كلما اعتدلت فى جلستى أو كححت أو تلفت حوالي طالباً من أحد الزملاء مسطرة أو فرجاراً أو أستيكة ، تلك الأشياء التى لا أذكر أننى اقتنيتها أبداً طوال أيام الدراسة . وكان هو ممروراً من هذه الناحية ، وممروراً أكثر من أنني لم أشتر أى كتاب طلبه أو كراسة مربعات أوصى بضرورتها ، فما كان منه إلا أن منع الجميع من معاونتي بأي شيء ، بل عاقب بالطرد زميلاً سرّب إلَي فرجاراً ، ثم راح يتفنن فى إهانتي، فرحت أوجه إليه النظرات حاقدة مكبوتة ، بدرجة أغاظته جداً ، فسحب ورقة الإجابة بيضاء ثم - بكل بساطة وصلف - طردني . وقفت مسمّراً في مكاني أنتفض من الغيظ ، ولابد أن عيني كانتا توجهان إليه سهاماً حارقة ، إذ كشر عن أنيابه قائلا:

- " بتبص لي كده ليه ياد أنت ؟ مش عاجبك ؟ "

جعلت أواصل النظر لا أدري ماذا أو ما أفعل . ضربني هو بالشلوت ضربة ألقت بي على عتبة باب الفصل فانطرحت على وجهى ، أنا الذى كنت منذ قليل أتخيل نفسي مدرساً محترماً مهيباً. فطار صوابي ؛ لممت نفسي بسرعة . مثل كلب

مسعور متوحش ، رميت بنفسي فى كرش وائل افندي مدرس الرياضة بكل قوتي . صرت أنهش فى لحم وجهه بأسناني ، وأدق أنفه وأسنانه بمقدمة رأسي ، وأضرب بركبتي وقدمي فى محاشمه وقصبة ساقه، حتى تطوح منطرحاً على الأرض ، فبركت فوقه ممسكاً بتلابيبه وقد ماتت أصابعي الغاطسة فى لحم رقبته . هاجت اللجنة كلها. شعرت أن مدينة برمتها تنهال ضرباً على جسدي تحاول تخليصه مني دون جدوى ، ارتفع الصياح واشتغل الغش وظهر البرشام بالأكوام ، وجاء العميد يهرول فزعاً ، وجاء أكثر من شرطي وصارت الهراوة تنهال على ظهري ومؤخرتي ورأسي. كل ضربة أتلقاها أنفثها سماً فى وجه وائل أفندي ، بأن أرفع رأسه ثم أهبده فى الأرض كأنني أريد تنفيضه من المخ . حتى إذا ما خيل لي أنه قد لفظ روحه وتهاوت كل أعضائه وأصفر لونه واختفى بريق عينيه تماما تراخيت واستجبت للأيدي التى ترفعني عنه. فلما وقفت صرت أدبدب بقدمي فى بطنه ، فى محاشمه ، فى وجهه ، حتى تركته كومة من الخرق الممزقة مبقعة بالدم ، دمي ودمه ..

نقلوه إلى المستشفى فى حالة خطرة ؛ وسلموني إلى شرطة البندر فى حالة يرثى لها ، تشيعني لعنات العميد ووصفه لأهلي ولأمثالي بأنهم رعاع سفلة حقراء ، ولطه حسين بأنه خرب التعليم ودنسه بأولاد السفلة من أمثالي . وكنت أعرف أنه سيقول هذا ، لكنني لم أعره انتباهاً ؛ إذ كنت واثقاً أنني قد شفيت غليلي وانتقمت لكرامتي المهدرة ، وأن الكثيرين من زملائي كانو ينظرون يي بكثير من الأسف المشوب بشيء من الإعجاب ؛ ومع ذلك كنت أشعر أنني لم أكمل بولتي التى لابد أن أبولها فى حنك وائل افندي ، مادمت سأدخل السجن وأحرم من مستقبلي على يديه ، وأنني سوف أقتله حتماً حالما أتملك حريتي فى أية لحظة .

إلا أن المحكمة رأفت بحالي فحكمت على بستة أشهر سجناً مع إيقاف التنفيذ ، مع فصلي نهائياً من المعهد . ويوم ذهبت إلى المعهد بعد ذلك بعام ، بحجة سحب ورقي ، وبنية أن أغرز سكيناً فى كبد وائل أفندي ، فوجئت به قد بات مسخاً شائها أعور العين حيث تبين لي أنني فى جنوني فقأت إحدى عينيه ، وكانت أسناني لا تزال تحفر أماكنها فى جميع أنحاء وجهه ، وكان يمشي نحو الفصل فى انكسار ، متنازلاً عن عجرفته وغطرسته وقد انخفض صوته الجهورى الشاخط دائماً

بلسانه الذواتي الألدغ . أما أناقته التي كانت تميزه فقد بهتت تماماً . لحظتها تراخت يدي على قبضة السكين في جيبي ، وداخلني شيء من الإشفاق علينا كلينا . ولقد نظرني بطرف عينه السليمة لكنه لم يعرفني لأن شكلي كان قد طرأ عليه تغيير حاد، إذ طال شعري وتهوش بصورة لافتة ، ونبتت لحيتي ، وترهلت ملابسي ، وتراكم الصدأ على وجهي وأطرافي وثيابي لدرجة أن الكثيرين من زملائي في الفصل لم يتعرفوا عليّ أثناء مرورهم بجواري في فناء المعهد أو حجرة السكرتير. والواقع لقد استرحت لذلك فلم أشأ تذكيرهم بنفسي ، ولم أحرص على سحب الورق إلا لوضعه مطوياً في جيب الجلباب كبطاقة شخصية عند اللزوم.

ذلك الحدث كان معناه ألا أعود إلى قريتي مطلقاً ، وأن أجعل من شوارع المدينة موطني وسكناي . صرت طول النهار والليل أذرع شوارعها وحواريها وأحياءها من شارع السوسى إلى شارع المديرية إلى كوبرى إفلاقة إلى شبرا إلى أبو الريش إلى شارع النادى . أقضي بعض الوقت في مكتبة البلدية أقرأ القصص والروايات والأشعار أبحث عن عالم أفضل يأويني لساعات قليلة أستقبل بعدها شوارع دمنهور المسفلتة الناشفة الطبع لاتجن بقطرة خير على غريب ولاتأمن لعابر سبيل ، أخترق شارع السوسى من شارع الصاغة بعد أن أكون قد شبعت من رائحة الفول المدمس المتصاعدة من مطعم العاصي ، أشهر صاحب فول مدمس في مصر كلها ، إذ يقال إنه أهدى للملك فاروق قدرة من فوله المدمس ، فحين ذاق منها طبقاً في فطوره أرسل له لقب البكوية في برقية عاجلة ، ذلك اللقب الذى أصبح يمنحه له كل يوم عشرات بل مئات الزائرين لمطعمه من كل البلاد من أجل طبق فوله الشهير ..

حين أنعطف من شارع السوسى إلى شارع السوق تستقبلنى فواكه الفخرانى بحديقة كاملة من الروائح الشهية المهيبة ، يطيب لي أن أغرق في السوق ، لتختلط في خياشيمي روائح التفاح والبلح والجوافة والليمون بروائح الأسماك واللحوم والجرجير وروث خيول عربات الكارو . يلفظنى الشارع المزدحم ذو البلاطات العريضة المتشققة بأخاديد المياه القذرة ، إلى الشارع العمومي البالغ قمة النظافة ، البادىء من محطة السكة الحديد حتى كوبرى إفلاقة على ترعة المحمودية . تكون روائح الفلافل المقلية قد أسكرتنى وأدخلت في روعي أنني أكلت حتى امتلأت مع

أن جوفي خاوٍ تماماً . حتى إذا ما أقبل الليل احتواني الظلام فضغطني بين جنبيه فى قسوة شديدة إما بالبرد أو بالخوف أو بالضياع . عرفت النوم داخل المواسير وتحت الأشجار على الطرق الزراعية وبجوار الأفران الساهرة وعلى الأرصفة المتاخمة للمقاهى الشعبية . ورغم كل هذه البهدلة لم أكن عرفت بعد ، ذلك المكان المسمى بوكالة عطية .

الوَسَعَايَةْ

ينعطف الصعلوك على الصعلوك انعطاف السائل اللزج على منحدر . هكذا محروس وأنا ؛ كلانا انعطف على الآخر . رأيته أول مرة على الطريق الزراعى فى مدخل المدينة يجلس أمام كومة من حزم الفجل والجرجير مفرودة فوق جوال ، ينادى الزبائن بالمواويل التى تتغزل فى فجله وجرجيره بحرارة وحيوية تفوق غزل أبى نواس فى خمره ؛ فالعيون الخضر فى فجله ، أما الجرجير فهو رموش عين الحبيب، وهو شراريب ستائر غرف نومها ، وهو الوشم المدقوق على صفحة قلبه باسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام . جذبتنى حلاوة مفرداته وما تحويه من مشاعر حلابة صادقة ؛ فوقفت بجواره مدة طويلة ؛ فإذا هو لا يكرر مواويله أبداً ، بل يخرج من موال إلى موال ؛ فلابد إذن أن فجله وجرجيره هما رمزان لأشياء كثيرة جميلة فى نفسه . فلما شعر بأننى أستمع إليه باستمتاع فى وقفتى ، توهج حتى أمتعنى بحق ؛ فهززت له رأسى إعجاباً ثم انصرفت ..

بعدها بأيام كنت أمشى هائماً على وجهى فى شارع الخوالقة قبل غروب الشمس بقليل ؛ فإذا بدراجة تتوقف أمامى ، وولد وسيم حلو التقاطيع خشن الملامح يقرب وجهه من وجهى فاشخاً حنكه الواسع صائحاً بود وحرارة : " إزيك" . تذكرته فى الحال : " أهلاً أهلاً ! إزيك انت وازى فجلك وجرجيرك! " قال بمكر عجيب : " مالك ! حاجة ضاعت منك ؟ ". ثم قال مشيراً برأسه إلى المقعد الخلفى للدراجة : " إركب ورائى ! " . تصنعت الدهشة لإزالة الفوارق هكذا ببساطة : " لم ؟ وكيف؟ ". تجاهل جفائى : " أعزمك على واحد شاى فى قهوة الفرانين ! هنا قريبة ! أنت تحب المواويل طبعاً ! تعال أسمعك حتى تشبع " . ركبت وراءه . صرنا فى دمنهور القديمة بجوار محطة السكك الحديدية ، حيث تبدو القضبان فى السفح العميق ، وحيث - كما قال لنا مدرس التاريخ - يقوم هذا الشارع المرتفع فوق هديم المدينة الفرعونية القديمة ، التى كانت تسمى " دَمن حور"، أى مدينة الإله حور ، ابن إيزيس وأوزوريس الذى كان من المفروض أن يثأر لأبيه من

عمه " ست " إله الشر ، لكنه لأمر ما - إن لم تخنى الذاكرة - لم يستطع ، أو لعله لم يفلح . لقد نسيت التاريخ بل نسيت كل الدروس منذ أُلقى بى فى نهر الشارع دون زورق أو بجداف.

تباعدت المدينة الحديثة خلف ظهرنا . مررنا ببقايا هديم عتيق ، وجدران سائبة من الحجارة كجدران الهرم ، وجدران أخرى بأسقف جملون ، تمتد على مساحات كبيرة فلابد أنها مصانع أو محالج قطن أو فابريقات . حدثتنى نفسى بأن أجيء إلى هنا صباح الغد لأسأل فيها عن عمل بالشهادة الإبتدائية. عند حارة نابتة من الفراغ المحيط توقفت الدراجة فأسندها محروس قائلا :

- " دقيقة واحدة أرجع العجلة للعجلاتى ! "

وقفت فى انتظاره دقائق معدودة . سحبنى من ذراعى نحو عشة بديعة التكوين جدرانها من الخشب والصفيح ، تبينت أنها مقهى وغرزة لشرب الحشيش ، وإذا بمحروس معروف فيها جيداً حتى لقد جاء الشاى فى براد نظيف دون طلب . ثم قام محروس فاختفى لدقائق ثم عاد مبتسماً ، وفى أعقابه جاء رجل يحمل الجوزة . كانت هذه أول مرة أشرب فيها الحشيش ؛ وكنت جائعاً حتى العياء ، فدخت بعد بضعة أنفاس وشعرت بالغثيان . مع ذلك استمتعت جيداً بالمواويل التى راح محروس يغنيها بتدفق هائل كأنه مخزن لاينتهى . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين فاجأنى محروس بمفاجأة أذهلتنى جعلت الأرض تدور بى ، إذ قال فجأة :

- " على فكرة ! أنا مرة شفتك نائماً فى عز الليل تحت شجرة ! ومرة ثانية شفتك نائماً على رصيف قهوة فى شبرا دمنهور ! فأين تنام الليلة ياترى ؟! ".

لم أرد ، ظللت متحجر العينين متصلب اللسان لا أجد ما أرد به . أخيراً وجدتنى أقول :

- " أنام فى لوكاندة بعشرة قروش ! "

- " فى الشهر ؟ ! "

- " فى الليلة ! "

- " أنت إذن غنى ! موظف ؟ من الأعيان ؟ ! "

ضحكت . قال :

- " تعالى نم معنا بقرش واحد فى الليلة ! "

- " أين ؟ ! "

هكذا صحت بفرح شديد . قال :

- في وكالة عطية ! يمكن أن تدفع قرشين لتنام في حجرة ! أو تدفع قرشاً فتنام في الحوش ! كلها نومة سواد الليل والسلام ! والدار أمان ! "

- " وأين وكالة عطية هذه ؟ ! "

- " قم بنا ! "

فقمت فى الحال دون تردد ..

عواميد الكهرباء ممتدة إلى مسافات بعيدة على أرض مرصوفة ينعكس فيها خيال اللمبات المضاءة . على يميننا المزارع كبحر من الخضرة الرمادية لا حدود له . وعلى يسارنا بعض بنايات عتيقة كأنها مجرد طوب أحمر مرصوص فوق بعضه وملتحم بدفء الأخوة وطول العشرة ومقاومة الزمن ، وقد أربد لون الطوب وعلاه بعض الشيب وتسلقته الشيخوخة المقيتة . من الواضح أنها يباب تصفر فيه الريح . بعد مسيرة حوالى ربع ساعة اختفت المزارع وحل محلها جبل مرتفع ومنطرح على مساحة كبيرة على مرمى البصر . بدأت تظهر فى سفحه بعض أبنيات صغيرة تطول قامتها كلما اقتربنا منها . إذا بنا فى قلب مدينة صغيرة محندقة وذات طابع ريفى . سرعان ما فطنت إلى أن الطريق إليها يمكن أن يكون قصيراً بل قصيراً جداً إذا جئتها من ناحية حى صلاح الدين الذى يربط بين أقصى المدينة ووسطها بتخريمات كثيرة عبر حوارى عمودية ضيقة ، مما يشير إلى أن دمنهور أقيمت أكثر من مرة على امتداد التاريخ ، أو لعلها مجموعة ضواح صغيرة تزايدت مع الزمن وتمددت حتى تعاشقت فى بعضها بشكل سحرى عجيب ..

ساحة مربعة كالميدان الفسيح تحيط بها المبانى من جميع النواحى . فى المواجهة مبنى عتيق جداً ، المهابة القديمة تطرح عليه ثوباً من الهوان كعزيز قوم ذل . جدران من الحجارة المربعة ونوافذ مستطيلة ذات مشربيات خشبية تراكم فوقها الصدأ والظلام ، وحجارة الجدران تبدو بفعل الرطوبة كقطع من الهريسة ستتفتت بمجرد الأمساك بها . لها بوابة كبيرة بصدغين دائريين كالبرج ؛ نفس الطراز المعمارى

الذى رأيته كثيراً فى كتب التاريخ لوكالة الغورى والمساجد القديمة والمعابد الفرعونية ..

- " دى ، هى وكالة عطية " . هكذا قال محروس وهو ينفذ من ذراعى نحو فتحة البوابة . فى الحال تذكرت تراثاً كثيفاً من الصور والذكريات يتناقله الناس فى قرانا المتاخمة لمدينة دمنهور عن وكالة عطية . إنها فى الواقع ذات شهرة تفوق شهرة أى معلم من معالم دمنهور بالنسبة لنا نحن الريفيين على وجه خاص . بل إن وكالة عطية فى أذهان بعض أهل القرى تعنى مدينة دمنهور وإن كانت دمنهور لا تعنى وكالة عطية . على أنها شهرة مقرونة بالتدنى وسوء المصير والغمز الخبيث . فأى قتّال قُتلى يهرب بعد عملته يتجه البحث عنه فوراً إلى وكالة عطية ؛ وأى فتاة فلاحة سقطت فحدث لها أمر الله وهربت قبل ذبحها بسكين أهلها أو بألسنة أهل البلد تلجأ الجواسيس فى الحال إلى وكالة عطية فلربما تكون البنت قد وقعت فى يد محتال من الولدان الاشقياء المستوطنين فى وكالة عطية . وفى المقابل فإن الوكالة محوطة فى الأذهان بجو من السحر والفرفشة وليالى الأنس ، إذ يشاع أن معظم الغوازى والغوانى والألاتية وعوالم الفرح هم من خريجى وكالة عطية فى الزمن القديم . هذا ما كنت أسمعه وأعيه حتى قبل أن أصبح تلميذا فى مدرسة من مدارس مدينة دمنهور . وحين أخبرنى محروس أننا يمكن أن نبيت فى وكالة عطيه نظير قرش واحد لم أكن لأتصور مطلقاً أنه يعنى تلك الوكالة الشهيرة ، ربما لأنها كانت ذات وجود أسطورى فى داخلى يحول بينى وبين الإرتباط بها أو الإقتراب من شفير هاويتها ؛ فإذا بى فجأة مساقاً إليها بإرادتى كأننى أسعى لشىء جديد لم أكن أعرف عنه من قبل شيئاً ، أى شىء، فما أن رأيتها الآن رأى العين استوعبتنى فى الحال كواقع قائم بذاته مثير للإنتباه . إستيقظت الأسطورة القديمة لتلتحم بالواقع. خيل لى ان الوكالة على وضعها هذا أقل بكثير جداً من صورتها فى الأسطورة ؛ أقل سحراً ربما؛ لكننى مع ذلك شعرت برغبة عظيمة فى الإنغماس فيها حتى النخاع . إن الأسطورة التى كان من المفترض أنها تمنعنى عن الوكالة وتكرهنى فيها ، هى نفسها التى تكرهنى عليها ، تغرينى بالدخول فيها ، بل إنها لتزرعنى فيها زرعاً ، بكل ما فى السحر من قوة ، وبكل ما فى نفسى من استجابة

ورغبة في الرؤية والكشف والممارسة ..

كانت البوابة مغلقة بباب خيل لى أن عشرة رجال على الأقل يلزمون لدفع هـذا الباب حتى ينفتح . رفع محروس مطرقة نحاسية كبيرة معلقة في الباب ، وطـرق بهـا عدة طرقات خفيضة . ثم أشار برأسه نحو مبنى مجاور على مبعدة كبيرة يشـبه مبنى الوكالة في طرازه لكنه أحدث قليلا وأطول قامة وأكـبر مسـاحة ، حـافل بالشـبابيك ونوع من الشرفات المستطيلة ، والبوابـات، وعلـى كـل شـباك وبوابـة ثبـت تمثـال صخرى لرأس حصان شامخ . قال محروس :

– " الإسطبل الملكى ! هو الآن سوق للمواشى يقام كل يوم ثلاثاء ! تمتلئ هذه الرحبة بخلق الله من جميع الأصناف ! وهو اليوم الوحيد الذى أبيع فيه حزم البرسـيم والحشيش الأخضر مع الفجل والبصل الأخضر والكرات ! يجبرنى الله فأتعشى على التمام "

ثم أشار إلى مبنى بعيد من ثلاث طوابق يشبه طراز الوكالة أيضا لكنـه أحـدث، تحته مقهى صغير كالبوفيه يسهر حتى الصباح ؛ وهمس بصوت راعش متهدج :

– " أمـا هـذه فإنهـا – عـدم المؤاخـذة – الكرخانـة ! تصـور أن هـذه كـانت استراحة الملك ؟ هل تصدق ؟ صـاحب الوكالـة العجـوز يصحـو علـى تلـك الأيـام حيث كان للملك فؤاد أملاك هنا ! هى أملاك نسيبه شقيق زوجته التى اسمها شكار هانم ! هل الملك فؤاد كان له زوجه اسمهـا شـكار هـانم ؟ ألم يقولـوا لكـم هـذا فـى المدرسة ؟ يا أخى إن الرجل العجوز يقول أشياء غريبة ويحلف بالطلاق أنه شـاهدها بنفسه !! آه ! تذكرت ! شقيق زوجة الملك فؤاد هذا كان اسمه : محى الدين شرف الدين سيف الدين حاجة كهذه ! سأجره فى الكلام أمامك مرة ليحكى ! يقـول إن نسيبه هذا ضربه بالرصاص فى رقبته فخرمها فلحق به الحكماء وسـدوا الخـرم بجلبـة من الفضة كانت تصفر إذا ضحك أو زعـق ! والملـك فـؤاد أمـر بتسـفير نسـيبه إلى مستشفى المجانين فى بلاد بره !

معقول هذا ! لماذا لم يقتله ؟ ! المهم أنه استولى على أملاكـه هنـا ولعـب القمـار بنصف ثمنها وترك هذه الدار المحترمة لجارية كانت عنـده ! وأخـيراً جـاء إبنـه الملـك فاروق وصرف ثمن بقية الضيعة على النسوان ! صَدق ! إذا كان يغلي فى الحلة مائـة

زوج من الحمام الزغاليل حتى تصير مرقاً فيشربه قبل الأكل ثم يقوم فيرقع الواحد ! فمن أين يجيء بأبراج تكفيه ؟ رزق الهبل على المجانين ! الدار الآن أصبحت كرخانة بها رخصة من الحكومة !! يوم السوق تزدحم هي الأخرى والواحد بعشرين قرشاً ! وفي الأيام العادية بعشرة ! فيها نسوان مثل القشطة والمهلبية لكن القروش هي الأخرى في حنك سبع ! "

طرق على الباب ثانية طرقة أشد قليلا . لدهشتي إنزاح الباب كورقة في مهب الريح . أطل من خلف الدرفة المغلقة ضوء كاب منبعث من فانوس. ثمة يد كبيرة بأصابع كالثعابين تمتد لترفع شريط لمبة الفانوس . عمّ الضوء برحاية مدخل البوابة ، فإذا برجل يتمدد على مصطبة مبنية بالأسمنت لصق الحائط ، لايقل طولها عن ثلاثة أمتار ، يفترش ويتغطى بمجموعة من الأحولة المرقعة ببقايا بطاطين الجيش . شكله يقطع بأن جسده لم يعرف الماء طول حياته وأنها قد لا تصله في طعام أو شراب حتى أن الحشف والقشف جعلاه يبدو كجذع شجرة جزورين جافة أحرقتها شمس لاهبة . أصابع يديه وقدميه طويلة الأظافر كالمخالب المخيفة ، وجهه مثل قدر فخاري أسود ، بلحية منتصبة الشعر كالأسلاك الشائكة . تطل منه عينان كعيني الجمل العجوز ، يتطاير منهما الشرر الأحمر ، وفم واسع كفتحة المرحاض خال من الأسنان ، وأنف مثل كوز الذرة المشوي ..

قال محروس :

– " مساء الخير يا عم شوادفي ! "

طلع علينا صوت كهزيم الرعد ، ناشف هو الآخر :

– " أهلاً محاريسة ! من معك ؟ ! "

قال مشيراً إلى شخصي :

– " واحد قريبي ! ابن ناس طيبين ومعه الشهادة الإبتدائية ! يبيت معنا الليلة كلشنكان ! يفكر أن يقعد هنا على طول ! هو وظروفه ! "

قال هزيم الرعد كأنه لم يسمع حرفاً واحداً مما قيل :

– " بره ولا جوه ؟ ! "

قال محروس وهو يناوله قرشين :

- " الليلة برة ! وغداً يحلها ربنا ! "

غاب القرشان تحت مخدة صلبة لونها لون الأرض . وقال هزيم الرعد فيما يدفع الباب بشومة فيغلقه : " أنت تعرف السكة ! " . فدخلنا إلى فناء الوكالة ..

الفناء واسع جداً ، وبلا سقف ، منه للسماء مباشرة ، دائرى ، تكومت على أرضه مئات الأجساد كجثث خلفتها حرب ضروس منذ قرون طويلة فتخشبت فى أماكنها وأخذت لون الأرض ، مرتصة كيفما اتفق ، رأس الواحد فوق قدمى الأخر، وأقدام غيره فوق رقاب وبطون البعض . آخرون متلاحمون كأنهم جسد واحد . ومع أن الفناء واسع فإن الجميع يتركون الساحة الوسطى ويتكومون أمام البواكي يتحاضنون ..

الوكالة مكونة من طابقين اثنين رغم علو جدرانها ، حجرات صغيرة متلاصقة متداخلة ؛ كل حجرة يلتصق بها سلم حلزونى من الخارج متآكل الدرج يوصل إلى الحجرة العلوية . أمام كل حجرة مساحة يزيد عرضها عن المترين مسقوفة بالخشب الجملون فوق عمدان خشبية تأخذ شكل البواكى. معظم الحجرات مفتوحة فى الطابقين ، يطل من بعضها ضوء خافت ، مع أصوات خافتة بلغط كالعراك ، كالمودة ، كالمزاح ، كالمناهدة ، كالمواقعة الجنسية ، كل ذلك يطن فى الفناء الواسع. روائح تجثم على الأنف دفعة واحدة : عطانة ، عرق ،كحول محترق ، دخان محمص ، سردين ورنجة ، روث ، صنان ، لكن الهواء من حين لآخر يحمل لفحة عطر عابرة تلطش الأنف بزخم ثقيل كريه . شعرت بالكآبة والقرف والهوان ؛ أكاد أتقيأ أمعائى ؛ أيقنت أننى وقعت فى الخّية وسأكون الليلة صيداً سهلا لكل هؤلاء المتشردين والصياع واللصوص والشحاذين . يبدو أن محروس شعر برعشتى وجفاف حلقى ، فأشار إلى أكوام الجثث كأنما ليطمئننى :

- " إياك تتصور أنهم جميعاً رجال ! إن فيهم نساء كثيرات من اللائى يقابلنك فى الشارع ومعهن أطفال يطلبن منك المساعدة لله !! الأطفال لا يبيتون هنا ! بهذا يأمر عم شوادفى ! متعهد الأطفال هو الذى يبيت هنا فى حجرة من هذه الحجرات! وهن يتسلمن منه الأطفال صباح كل يوم ! يحاسبنه آخر النهار فتأخذ كل واحدة عمولتها ويذهب الأطفال إلى مكان لايعرفه غير المتعهد ! فى الصباح

يجيئون من تلقاء أنفسهم ليفطرون كل واحد شقة خبز فيها فلافل ! عمك شـوادفى رجل يعجبك ! يحكم هذه الوكالة بالحديد والنـار ! لا أحـد يقـدر يفتـح فمـه ! مـا يريده يكون ! لولاه لباظت الدنيا هنا ولأغلقها البوليس بالشمع الأحمـر ! لـو ضـاع منك مليم واحـد هنـا فسيفتش الجميع فـى كـل مكـان ولابـد مـن كـل بـد يـأتى بالسريقة، لكن عيبه أنه يأخذ نصفها كحلوان ! "

- " تقول إنها وكالة عطية ! فما شوادفى هذا ؟ ! "

- " شوادفى إستأجرها من عطية مـن حـوالى عشـر سـنوات ! ولم يقـدر علـى طرده منها حتى خسر الجلد والسقط ! فسقط مريضـاً ! والمائـة وسـتين قرشـاً إيجـار الوكالة فى الشهر لا تكفى دواء يومين ! وعطية لايقدر على بيعهـا لأنـه هـو الآخـر يستأجرها من الوقف من أيام زمان ! سوف أريه لك ! إنـه كثـيراً مـا يجـيء يتوكـأ على العصا ليشرب الشاى مع عم شوادفى ! "

إختار محروس مكاناً فى الوسط وتوجه نحوه وأنا من ورائـه أقـدم رجـلا وأؤخـر الأخرى ، أخوض فى صرر وأجولة وقفف وأقفاص وعكاكيز وبراميل سوداء تـبرق فيها عيون ولها أيد تلف السجائر . بقدمه دفع محروس جسداً منطرحاً ممدد الأطراف عن آخرها قائلا بلغة فيها من العشـم أكـثر ممـا فيهـا مـن الخشـونة : " إنـزاح يـاابن القحبة ! " ، فاعتدل الشاب فـى الحـال دون أن ينطـق ، فصـارت المسـاحة تكفينـا وتفيض . خلـع محـروس جلبابـه وصديريـه. كـوّم الجلبـاب وقدمـه لى قـائلاً : علـى ظهرى، وبدأت عينى تعتاد الظلمة المبرقشـة ببطـش مـن الأصفـر الشـاحب حدقـت طويلا فى السـماء ؛ ثـم بـدأت تـتراءى لى حجـرات الوكالـة مـن حـوالى فـى لـون رمادى، وفجأة طلع القمر . بـدا أن محـروس استغرق فـى النـوم وراح أنفـه يعـزف شخيراً خافتاً لكنه تقلب مقرباً رأسه منى هامساً :

- ستحبها ! لو كنـت جدعـاً بصحيـح إحجـز لنفسـك حجـرة بثلاثـين قرشـاً تدفعها أول الشهر ويبقى عليك ثلاثين قرشاً ، كل ليلة تدفع قرشاً عند دخولك مـن البوابة ! تأخذ مفتاحاً يساوى الدنيا كلهـا تضعـه فـى جيبـك وتغلـق الحجـرة علـى ثيابك وفلوسك ! ستون قرشاً فى الشهر وتأخذ مفتاحـاً يـا بـلاش ، الـودّ ودّى أن أفعل لكن الحشيش لا يوفر معى ثلاثين قرشاً أبداً ، إنه مزاجى وموّالى ولا أقدر على

الاستغناء عنه ، لا أرى النوم إن لم أضرب الحجرين آخر الليل كما رأيت ! واليوم الذي أوفر فيه عشرة قروش بعد حشيشي أقطع بها تذكرة لبلدتنا الطود لأرى أمي وأرجع ! والفجل لا يباع في بلدتنا وليس فيها حشيش فلماذا أقعد بجوار أمي ؟!" ثم قطع الكلام فجأة ورفع شخيره . بدأت الأصوات تتضح ، وكل شيء بدأ وفي أكثر من حجرة ناس يلعبون القمار وطرقعات الورق عالية . وفي أكثر من حجرة ناس يسكرون ويتعاتبون فيما يشبه العراك ، وفي أكثر من حجرة نساء تعلن عن لذتها بشكل واضح ومثير ، دونما حرج أو حياء . الأصوات مكتومة تحت ستار من الصمت الكاذب ، حتى خيل لي أني أتوهم ، خاصة أننى ألاحظ على نفسى فى عنفوان التعب أننى كلما لامست ظهرى صفحة الأرض تدب اللذة الجنسية فى أوصالى ؛ لولا أن صرخات ماجنة مقطوعة كانت تندلع من حين لآخر من حجرة لأخرى ، يعقبها سكون تام لبرهة ....

انطفأت كل الذبالات فى كل الحجرات واحدة وراء الأخرى ، حدثت كركبة استمرت بضع دقائق تعكس وقع أقدام تنزل من السلالم وتمضى هنا وهناك ؛ أعقبتها حركة فتح أبواب واغلاقها وصوت طقطقة عظام هشة ثم مالبث السكون حتى عاد مرة أخرى مصحوباً بملاءة رمادية اللون منسوجة من خيوط القمر البارز كأصبع الموز فى طبق من الفضة . كان كل شئ يغرى بالإنصات والتأمل والإستغراق ، لكننى كمن عثر فجأة على لقية ثمينة فى الطريق العام فأخفاها مؤجلا فحصها حتى يجين وقت فحصها بمزاج وفى نفس الوقت إمداد لخيط الأمل الخفى ودرء للتشاؤم والخوف من محتوياتها . رأيتنى أستسلم لنوم عميق لم أعهده فى حياتى من قبل حتى على الفراش الوثير. ثم رأيتنى أمشى متسكعاً بمزاج رائق وبلا أدنى خوف داخل غابة كثيفة الأشجار لاأول لها ولاآخر ، بجرد كتل من السحب المتراكمة ، أغوص فيها فإذا هي مورقة مفرعة تتسرب من خلالها خيوط ضوء رمادى باهت ؛ وكانت الذئاب والثعالب والكلاب والسباع والنمور نائمة تحت جذوع الأشجار تتثاءب فى ملل غير عابئة بخطواتى النشوانة الحمقاء ، التى كثيراً مالمست بعض أقدامها وفرائها ودست فى بطونها ؛ فلا يصدر عنها أكثر من زأرة أو هبّة على سبيل المزاح ترتفع لها فروة رأس قليلا ؛ وكان يبدو أننى أعرف كل هذه الوحوش معرفة

شخصية وأنها هى الأخرى تعرفنى حق المعرفة وأن بيننا وداً قديماً لعله رابطة البحث عن لقمة فى النهار ومأوى فى آخر الليل ؛ بل خيل لى أن بعضها يكاد يعزم على بنظرة جانبية ، يكاد يترك العظمة التى ينهمك فى نهشها ليقول لى : تفضل والحس لك لحستين ؛ وكنت أكاد أفعل ، لأن رائحة مرق المواسير والكوارع العجالى الساخنة كانت تسكر أنفى قادمة من مكان ما ، محملة برائحة التقلية التى أسمعها تطشطش . ظللت أنفذ من سحب مضيئة رطبة إلى سحب مظلمة أكثر رطوبة حتى امتد الخلاء أمامى فجأة عارياً من كل شئ ، والشمس كانت تميل برأسها الذبيح على كتف السحاب تنضح فوقه دماً قانياً ، فصرت أشعر بحرارة الجو شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت أتفصد عرقاً ، والثياب تلتصق بجسدى ، وثمة حركات عابثة لعلها أظلاف بعض حيوانات الغابة مشت خلفى وصارت تخمش ظهرى وتتقافز على وجهى ، ولامس التراب شفتى فحاولت النهوض، ففتحت عينى ... فإذا بى نائم وحدى فى قلب الفناء ، ويد شوادفى الغليظة الخشنة تدفعنى بقوة تهزنى لكى أصحو. فلما تخلصت جفونى بصعوبة من العماص المتكلس بينها رأيت وجهه الشبيه بوجه حيوان خرافى يبتسم ويقول فى نبرة تشبه الود :

– " يا ......ه لم تنم منذ سنين ؟ لما كل هذا النوم ياابن الحلال؟ أليس وراءك عمل ؟ " انتفضت قاعداً ، دعكت عينى. أشار بذراعه الشبيه بفرع شجرة جزورين نحو بقعة رطيبة فى آخر الفناء قرب البوابة. قال :

– " قم طس وجهك بحفانين من المياه ! " ...

تمعنت حيث أشار ، فتبينت طلمبة مياه بحوض صغير من الأسمنت ، نفضت نفسى واقفاً ، مشيت نحو الطلمبة مترنحاً. أمسكت بيد الطلمبة ، حركتها إلى أعلى ثم إلى أسفل عدة مرات وفم الطلمبة يصدر فحيحاً وخرخشة هواء . تذكرت أننى يجب أن أضع فى فمها قليلا من ماء الحوض لكى يستدر المياه من جوف الأرض تركت يد الطلمبة وكورت حفنتى واغترفت بها الماء من الحوض ، فإذا هو رطب مريح مغر ، فضربت وجهى ويدى بحفنتين ثم جففتهما بمنديل شبيه بالأرض يتكور دائما فى جيب سروالى الجانبى ، وكانت رائحة العرق فيه أشد استنفار من رائحة عطن المياه. تأهبت للخروج من الوكالة.

البوابة

حودت جانبا لأعبر البوابة ، رأيت شوادفى متربعـا علـى المصطبـة وأمامـه منقـد النار مشتعلا بالقوالح وفوقها كوز من الصفيح اسود له يد من السلك مبرومـة حولـه بإحكام . أمسكها شوادفى وجعل يهز الكوز برفق ورائحة الشاى النفاذة تصعد إلى خياشيمى...

– " أفوتك بعافية يا عم شوادفى "

– " إقعد اشرب لك شفطة شاى ! "

– " تشكر ! كتر خيرك ! "

– " إقعد قلت لك ! "

قالها فى حسم وبساطة وأريحيه ، وأشار إلى طـرف المصطبـة ، فجلسـت أراقـب الضحى العالى ينحبس فى قلـب الفنـاء الكبـير ويحتجـزه عـن الصبـاح المبكـر الـذى انضغط فى فتحة البوابة الرطبة ، التى كانت مفتوحة على الخـلاء الرمـادى. وفجـأة دهمتنى رائحة المرق الساخن والكوارع والليمون البنزهير. تلمظ شوادفى قائلا :

– " المرأة القرداتية هذى تطبخ كوارع من صبحيـة ربنـا لمـا نشـف ريقـى ! مـا أعرف ما الذى تضيفه إلى الشوربة لتصير مسكرة الرائحـة هكـذا ! إن لم ترسـل لى طبقا على الغداء سأنكد عليها عيشتها طوال الليل ! " ...

ثم فشخ حنكه الواسع بابتسامة عريضة ، وراح يصب الشاى فى الكـوب فـوق السكر ثم يعود فيدلقه فى الكوز ليصب من جديد فى الكـوب الصغـير الصـاج ذى الأذن .. شاى أسود محمر القلب. وضع أمامى الكوبة : " إشرب وهو سـاخن ! ". باستمتاع شديد شفطت أول شفطة. لم أصبر على الشوق ، تابعت الشفط بصـوت عال حتى أتيت على الكوبة وأعدتها إليه لكى يملأها لنفسه. شـفط شـفطة سـطحية ثم وضع الكوبة وسحب كيسا كالحا أخرج منه دفتر البافرة فنفخ فيه فارتفع طـرف ورقة فأمسك به ونزع الورقة ووضع فوقها قدراً من التبغ تبينت أنه أعقاب مفروطة. لف السيجارة ثم وضعها بين شفتيه ومـال برأسـه فـوق المنقـد تاركـاً إياهـا تلامـس

القوالح المشتعلة وهو يجذب الأنفاس باستمتاع هائل ، ورائحة التبغ المحمص يبعثرها الدخان حول أنفي. شفط شفطة أخرى أتبعها بنفس أعمق ثم قال:

- " اعمل حسابك الليلة ؟ ! "

- " إن شاء الله ! "

- " في الحوش أم في حجرة ؟ ! "..

- " أنا وظروفي ! ربنا يسهل ! "..

- " تدفع عربونا ؟ ! "..

- " سأدفع حين أجئ ! "..

- " تعال سواء كان معك أو ليس معك نقود ! "

- " يساويها ربنا ! "

- " تقول إنك من حملة الشهادة الإبتدائية ؟ ! "

- " وكنت على وشك أن أتخرج معلما لولا أنني فصلت من المعهد لكثرة الغياب! "

سدد إلى عيني نظرة مخيفة من عينين واسعتين محمرتين بلا رموش ولا بياض :

- " لابد أنك ولد بايظ ! وذيلك نجس ! أهلك يحرمون أنفسهم من الفاكهة والأكلة الحلوة ليصرفوا عليك في مدارس البندر وأنت تتصرمح هنا ؟ ! لك عين تقول : لكثرة الغياب ؟ ! لماذا الغياب بحق الشيطان ؟! أين تذهب ؟! "..

ندمت على قولي ، خاصة أنه فعص رأس الدمل بقوله إن أهلي يحرمون أنفسهم من أجلي وهذا حقيقي إلى حد كبير جدا . لقد تكلم بلسان أبي حرفيا. رحت أبحث عن ذريعة أخرى ؛ لكنه عاجلني :

- " أنت الآن صايع رسمي ! عدم المؤاخذة ! فما الذي تفعله الآن ؟ ! كيف تعيش ؟! هل تشتغل ؟! "

- " أبحث عن عمل ! "

- " تبحث ؟! "

ثم قدم لي قدحا آخر من شاي الدور الثاني الخفيف :

– " هذا أكبر دليل على بوظانك من غير مؤاخذة ! إن أحدا لا يبحث عن العمل ! إنه يجده ! يخلقه من الهواء الطاير ! العمل فى كل مكان على قفا من يشيل لكن مثلك لا يراه لأنك بسلامتك تبحث . يا رجل أذهب إلى محلج بركات أو محلج داوود أو محلج القفاص فى دمنهور محالج قطن كثيرة لا يكفيها آلاف من أمثالك إذهب إلى فرن إلى مقهى إلى فابريقة إلى محل تجارى إشتغل بائعاً سريحاً أم أنك تريد مكتبا وجرانا وفنجان قهوة وسيجارة ؟ إن عدوك أهبل الحكومة أفسدتكم وملأتكم بالنعرة الكذابة تربى لنا أفندية بجرائد وفناجين قهوة يعيشون على قفا الشعب المسكين ، عندى هنا فى هذه الوكالة جدعان يجلبون النقود من الهواء الطاير يلعبون بالذهب لا شهادة ولا دبلوم ، الحياة لا ينفع فيها غير الولد المفتح أبو مخ منير ! إسمع يا أخانا مادمت تركت المدارس فانس المدارس وأمورها وخش فى الجد ، تشرب دخانا ؟ طبعا إن ذلك واضح على شفتيك وبين أصبعيك خذ لك نفسين من هذه "

سحبت نفسا فكأنه سن المحراث يخترق صدرى. زكمت أنفى رائحة " السبارس" العطنة ، فصرت أكح بشدة ، لكننى سحبت نفساً آخر ، أعدت اللفافة إليه واقفاً:

– " عندى موعد مع شخص من أهل الخير سيجد لى شغلاً "

– " إقعد خمس دقائق أخرى فربما احتجناك "

وقدم لى قدحاً من شاى الدور الثالث الأخف والأحلى . ما كدت أنهى آخر شفطة فيه حتى دخل علينا اثنان : رجل وامرأة. أما الرجل فطويل كعمود نور برأس كرأس الهدهد وجهه ممسوح برئ كوجه العصفور ، أهتم ، أبيض البشرة كخواجة أخنى عليه الدهر فمرغه فى التراب والوحل ، يلبس جلباباً يمتلئ بالرقع من كل ناحية تبدو كجيوب سحرية. وأما المرأة فسمينة إلى حد ما ، ربعة القامة ، مبطرخة من كل ناحية ، بصدر بارز مترهل كأنه يضم مع الثديين طفلين صغيرين رأسها مستطيل مبروم كنمس البطيخ ، تعصب رأسها بتربيعة كالحة مبقعة بالزيت والوسخ؛ من تحتها شعر اسود خشن مضفور ، منتفخة العينين ضيقتهما كأن جفونها مشغولة بإبرة الترزى بعد أن طواهما إلى الداخل طوية عريضة كطوية رجل

السروال ، فبدت كأنها تتلقى الضرب المبرح على عينيها باستمرار. متهدلة الخدين ، تبدو بالقياس إلى الرجل في عمر أمه وإن كانت لاتزيد على الخمسين من العمر في حين لا يبلغها هو . كانا يبتسمان في كثير من الغبطة والخجل وكثير من السذاجة .

هتف شوادفي بوجه باش :

- " أهلاً بالعريس ! وأهلين بالعروس ! جئتما في وقتكما ! هيه ! جبرتما بإذن الله ؟! "

أقعى الرجل أمامنا على الأرض:

- " الحمد لله على كل حال ! "

وتدحرجت المرأة نحوى وانحطت بجوارى على المصطبة وهى تلهث . وضعت يديها على ركبتيها ناظرة لى فى تفحص من بين عينيها الضيقتين المزورتين :

- "إزيك يا جدع ! باين عليك ابن حلال ! "

صاح فيها شوادفي :

- " خلينا هنا ! تكلمى فى المهم ! بينك وبينه معرفة؟! "

تبسمت المرأة فى شئ كالحياء المصطنع . دبت يدها فى سيالتها ثم أخرجتها قابضة على حفنة نقود. صارت تعد الشلنات والبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية المضلعة والقروش الفضية المخرومة والبرونزية الحمراء المشرشرة وعشرينات الخردة والملاليم الحمراء. عدت حوالى ستين قرشاً قدمتها لشوادفى ، الذى كان يتابعها فى العد باهتمام. قبض شوادفى على النقود ودسها فى جيبه قائلا:

- " هذا هو إيجار الحجرة ! المهم عندى هو الأجر الذى اتفقنا عليه أين هو ؟! السكن عندى لن يتم لكما إلا على سنة الله ورسوله ! "...

نظرت المرأة إليه بطرف عينيها كما لو كانت تريد أن تثبت لى وله أنها خبيرة بأمور الغزل والدلع والإغراء النسائى. والحق لقد ظهر فى هذه النظرة كثير من العهر الذى تتمتع به . ثم لعبت حاجبيها فى سرعة عجيبة ، وأبرزت طرف لسانها فمررته على شفتيها بحركة ذات معنى. فغرز شوادفى نظرة مدببة فى عينيها كأنه يغرز سلاحه فى بطنها وقال من أنفه :

– " تحشمي يا امرأة ! أنا خلاص ! لم يعد في ركبي حيل ! خلصتني العاهرات من أمثالك ! من زمان ! الدور والباقي على الشباب ! "

– " وحق دى الليلة ومساها ما معنا ! هذا كل ما أكرمنا به الله طوال الجمعة الفائتة بعد تعبنا وشقانا ! اعتقنا لله من خمسة قروش ينوبك ثواب ! من أجل خاطر هذا الضيف الكريم ! "

– " لا شأن لك بالضيف ! "

ثم قبض على القروش فصار يقلب فيها ، فانتخب نصف مليم أعطاه للرجل الأهتم :

– " إشترى لنا فرخ ورق ! عريضة مسطرة ! من أى دكان! "

نهض الرجل متناولا نصف المليم ومضى ، ودس شوادفى القروش فى جيبه ، وبحث عن كيسة التبغ حتى وجدها تحت وركه ، فتحها ولف سيجارة رماها بجواره، ولف غيرها وقدمها لى : " عفرا!" ، ثم لف ثالثة لنفسه أشعلها من بقايا الجمر ثم أشعل لى . جاء الرجل بالعريضة المسطرة فناولها لشوادفى فناوله السيجارة:

– " نريد أن نزوج هذه المرأة لهذا الرجل !! "

لم أفهم ؛ صرت أنقل البصر بينهم فى حيرة :

– " ماذا قلت ؟! "

شوح كأنه ضاق بغبائى:

– " نريد كتابة عقد زواج ! إيه؟ الا تفهم؟! "

– " لكن هذا من عمل المأذون ! هل أنت مأذون شرعى؟! "

سلقنى بنظرة جافة :

اخترعوه حديثاً كسبوبة !! الزواج الشرعى هو موافقة الطرفين على النكاح !! "

لسعتنى السيجارة فرميتها بغيظ :

– " ولكن هذا عمل غير قانونى ياعم شوادفى ! "

شخر شخرة كبقللة المياه فى القلل :

- " كانون ؟! شي الله ياكانون ! الكانون يطبخوا عليه في البيت ياأخانا! أنت تفعل ما أقوله لك على ضمانتى ! سأعطيك أجراً على ذلك هاك قرش صاغ بحاله نظير كتابتك للعقد!! "..

ورمى في حجرى بقرش فضي مخروم ، فأزحته بعصبية :

- " لست أفهم في هذه المسألة ياعم شوادفي فاعفنى منها ! "...

قبض على ذراعى بأصبعين كالكماشة :

- " سأمليك ما تكتب ! لاتكن غشيماً وإلا زعلت منك ! أنصحك بعدم اللماضة معى ! حاول أن تكسبنى لمصلحتك ! هيا ! إكتب ! "..

عدلت الورقة على اللوحة :

- " أكتب ماذا ؟! "

إعتدل في جلسته رافعاً ركبته اليمنى سانداً فوقها ذراعه ، وراح يمليني :

- " أقر وأعترف أنا عبد الفضيل بيومى الطودى من بلدة الطود بحيرة ومقيم بوكالة عطية بآخر شبرا دمنهور القديمة وشغلتى حانوتى أى مغسل الموتى - أننى قد نكحت أى تزوجت من صبيحة البرشومى حسنين وشغلتها داية أى مولدة ومقيمة هي الأخرى بوكالة عطية ايضاً ، نكاحاً على سنة الله ورسوله بالمهر الشرعى المسمى بيننا ومؤخر صداق قدره خمسة جنيهات أتعهد بدفعه على داير مليم في حالة انفصالنا بالمعروف. هل كتبت هذا؟ إذن فمن أول السطر : أقر وأعترف أنا صبيحة البرشومى حسنين وشغلتى داية أى مولدة ومقيمة بوكالة عطية بآخر شبرا دمنهور القديمة قد رضيت بهذا النكاح على سنة الله ورسوله وقبضت المهر المتفق عليه وأصبحت ملك يمينه يفعل بى ما يشاء في حدود الشرع ! ويتعهد الطرف الأول عبد الفضيل أن ينفق على ويقوم بمطالبى من مسكن وملبس ومأكل وخلافه ... خلافه دى حطها بين قوسين عشان معناها الواجبات الزوجيه المعروفة - ويتعهد الطرف الثانى صبيحة البرشومى حسنين بأن تكون زوجة مطيعة ! ويتعهد الطرفان أن يكونا سمنا على عسل .. هل كتبت هذا ؟ عال عال ! هات أصبعك يارجل وهات أصبعك ياامرأة .. إكتب في وسط السطر : المقر بما فيه ، وتحتها عبد الفضيل بيومى الطودى وقصاده في آخر السطر صبيحة البرشومى حسنين!"

ثم نزع الورقة من يدى ؛ وأمسك بأصبع الرجل فبلله بريقة وجرى بسـن القلم الكوبيا فوقه حتى صبغه ، وضغط به على الورقة ، فـترك بصمة واضحة . وهكذا فعل بإصبع المرأة . ثم طلب كتابة صورة من نفس الكلام على الطرف الآخر من العريضة ، ففعلت ، فاجرى عليها نفس البصمات ثم أعاد الورقتين لى :

- " اكتب هنا : تحريراً فى يوم كذا !" كتبت التاريخ ، فـأخذ الورقة والقلم ، وبخط عاجز مرتعش رسم حروف اسمه ؛ ثم قدم لى الورقة ثانية :

- " إكتب نفسك شاهداً على العقد! "

- " لا! إعفنى من هذه أرجوك! "

إندب شعاع عينيه فى عينيى بحدة :

- " يا خسارة الرجال ! إن لم توقع فـأنت ولد خول ! من غير مؤاخذة ! ولن أحترمك بعد الآن ! هيا !كن رجلاً واشهد معى ! أنت لست أجدع منى!!"..

فأمسكت بالقلم وشخبطت شخبطة غامضة غير مفهومة . أخذ يتأملها بإمعان :

- " ولا توقيع رئيس المحكمة ! براوه عليك ! والآن ! سآخذ القرش منك عربوناً للمبيت ! أنت بالطبع ستبيت هنا الليلة ! فلك عندى قرش ! إن أردت المبيت فى حجرة فجئ بقرش آخر أو فتنم كالأمس فى نفس المكان ! تستطيع الآن أن تتكل على الله ! ربنا يوقف لك أولاد الحلال فى سكتك ! "..

وقالت المرأة :

- " رح إلهى ربنا ينور لك سكتك ! "

وقال الرجل :

- " معرفة خير بإذن الله ! "

أما شوادفى فإنه أطبق الورقتين وسلم واحدة لعبد الفضيل وأخرى لصبيحة فرد كل منهما ورقته إليه طالباً أن يحتفظ بها معه حتى لا تتعرض للفقد معهما . ثم قال لهما :

- " حجرتكما هى الحجرة التالية بعد حجرة القرادتـي ! إغربا عن وجهى !! أريد أن أسمع غنجك الآن ياامرأة ! وإن خسّع معك هذا العجوز فنـادنى أكن عند حسن ظنك ولو اقتضى الأمر أن أعصر عليك ليمونة !! "..

شخرت المرأة :

- " فشرت ! والنبى أشرف خليقة الله ما فى أنضف منى فى الدنيا اللى ارتوت بالنيل ! " ..

وحين خرجت من البوابة إلى الخلاء كان الحر قد اشتد ، واسفلت الطريـق يبـخ اللهب في قدمي ، فانطلقت في ضحـك أهـتز لـه جسـدى كلـه ، ولكـن كلمـات شوادفى الخاصة بالعمل راحت تطن في دماغي فتبدو منطقية إلى حد كبير .

حارة بنت عمي

شارع السوسى من أهم الشوارع التجارية فى دمنهور ومن أشدها زحاماً وحيوية . أستطيع أن أمشيه رائحاً غادياً طول النهار دون أن يلحظنى أحد . هو حميم جداً ، تفتننى زحمته الشديدة وروائح الفاكهة والمأكولات والأقمشة الجديدة، ومناظر الفلاحين المتقمشين القادمين من القرى المجاورة يتسوقون طلباتهم ويحضرون جلسات المحاكم فى قضايا لهم لاتنتهى ويعرضون أنفسهم على أطباء ومستشفيات المدينة ، ويأكلون أم الفلافل التى تعتبر بالنسبة لهم فاكهة يتذوقونها باستمتاع كبير..

علاقتى بهذا الشارع قديمة ، ففى الشارع الخلفى له مباشرة توجد مكتبة الحوفى التى تؤجر الكتب القديمة للقراءة مقابل خمسة مليمات ، وعلى مبعدة خطوات منه - فى الشارع الذى يقطنه محل العاصى المتخصص فى الفول المدمس - تسكن " وديدة " إبنة عمى ، المتزوجة من الحاج " مسعود القبانى " ، الذى يعمل صرافاً فى مبنى المديرية . ربعة القامة هو ، ضخم الجثة ، واسع الفم غليظ الشفتين إلى حد لافت للنظر بصورة تبعث على الضحك والإشمئزاز أحياناً . يرتدى القطنية الشاهى وفوقها الجلباب الصوفى ذو الكم الواسع ، صيفاً وشتاء ، والطربوش الطويل فوق رأسه المكلبظ ، يزيحه دائما إلى الخلف كى تظهر جبهته العريضة المنتفخة . يمشى نافخاً صدره مطوحاً ذراعيه كتجار القطن والباشوات . فإذا استدار ظهرت رقبته الغليظة من الخلف تتمدد فوقها بالعرض كتلة من اللحم الميت على شكل العرسة ؛ قيل إنها مرض جلدى وإنه صرف الكثير من الأموال على الأطباء وعلى الوصفات البلدى فلم يفلح فى إزالتها . إنه من أسرة كبيرة غنية بعض الغنى ؛ لكن مهنة الصرافة كانت فاتحة الثراء الحقيقى بالنسبة له فاشترى فى البلدة أفدنة كثيرة من الأرض الزراعية يفلحها أبناء إخوته الكثار ؛ واقتنى الكثير من قطعان الماشية والخراف ، ومد المحتاجين بأموال يقبضها بزيادة الربع والنصف أحياناً فى مواسم الحصاد ، واشترى ماكينات للرى تشفط المياه من أماكن شحيحة ، ووابورات للحرث وماكينات للتذرية وللدريس ، وابتنى سراية فى البلد ليقضى فيها

الإجازات؛ واشترى منزلاً في هذا الشارع من قلب عاصمة البحيرة ، مكوناً من خمس طوابق كل طابق عبارة عن شقة واحدة مكونة من ثلاث غرف ؛ أقام فيه وأولاده البالغ عددهم أحد عشر شخصاً : سبع ذكور واربع إناث : "حواس " الكبير في نهائي كلية الحقوق ؛ و "بديع " في نهائي كلية الهندسة ؛ و " مجيد " في كلية التجارة ، و " كرم " في معهد المعلمين ؛ ويعتبرونه قد باظ وفسد بدخوله معهد المعلمين الذى لا يدخله إلا الرعاع والفقراء الحفاة ، وكثيراً ما يعيرونه بفشله في السلك الجامعي الموصل إلى المحاماة والطب والهندسة والمناصب العالية المرموقة . و " صفوت " في التوجيهية ؛ و " شريف " في الإعدادية و " ميمي " في الإبتدائية.
أما الإناث فكبيرات مسنات ؛ " تهاني " متزوجة من ابن عمها في البلدة وهو يقارب أباها في السن ؛ و " بدرية " التي قيل إنها ولدت ليلة ظهور البدر ؛ و " يسرية " و " شكرية " ؛ وهن عوانس بلغن سن اليأس ولم يشفع لهن ثراء أبيهن لأنهن يشبهنه تماماً في غلظة الشفتين وتكور الجبهة وانتفاخ الكرش وعدم اتساق الجسد فيما عدا بدرية التي ورثت جسد أمها ووجه أبيها . لكل من هؤلاء واولئك غرفة خاصة بفرش وثير نظيف. وثمة غرفة للمسافرين ، أي الضيوف ، في أعلى السطح مع عشش الدجاج والبط والإوز ..

كنت أسمع عن ابنة عمي وديدة هذه منذ طفولتي المبكرة حيث لم تكن سيرتها تنقطع من مندرتها العتيقة ذات الدكك الخشبية العارية بعد أن كانت - يقولون - حافلة بأطقم الكراسي المنجدة قبل أن تتدحدر الأحوال بأبي الموظف الحكومي المحال إلى المعاش من سنين طويلة والغشيم في أمور الفلاحة إذ أخذ يبيع أرضه الموروثة قيراطاً وراء الآخر لينفق على أولاده الكثيرين من أربع زيجات . كان أبي يتوهج حينما تجئ سيرة وديدة ابنة عمي ، ويقول وقد أشرق وجهه العجوز الأمل :

- " إن شاء الله تكمل تعليمك في دمنهور وتسكن عند ابنة عمك بالمجان وتبقى تحت إشرافها وإشراف أولادها !! "

وكان أولادها هؤلاء يزورون مندرتنا في البلدة في بعض الأعياد فإذا هم أفندية وبكوات وهوانم يتأففون من تراب أرض المندرة وخشونة دككها ومن شاي أبي الأسود ومن منظر القلل المجير وحوافها المكسورة دائماً. وكنا مع ذلك نحتفي بهم -

وتحتشد مندرتنا بناس يسلمون عليهم ويتفرجـون علـى ملابسـهم الأنيقـة ويكتمـون الضحكات الخجلى لظهور عورات الرجال مجسدة مكورة فى حجر السـروال كمـا أن المؤخرات مفلوقة كل فلقة فى ناحية ، ناهيك عن المخنقة المتدلية من أعنـاقهم ؛ أما العطور الفواحة فكانت تملأ حارتنا كلها بالبهجة والفـرح. وكـانت أمـى وكـل أقاربى يتمنون أن اصبح مثل حواس ابن بنت عمـى أو أى واحـد مـن إخوتـه. وأنـا أيضاً كنت أتمنى ذلك ؛ إلى أن حصلت على الشهادة الإبتدائيـة مـن مدرسـة البلـدة التى كانت تمنح هذه الشهادة لأول مرة فى حياتها ، وتقدم مدرسنا الجليل بأوراقنـا إلى معهد المعلمين في دمنهور ، وتقدمنا للكشف الطبـى ، الـذى شـرط قبـولى بعـد عمل نظارة طبية ؛ فلما تجمع ثمن المنظار بعد لأى شديد سلمنيه أبى قائلا :

– " إذهب إلى حواس ابن بنت عمك ! وقل له جدك فلان يسلم عليك ويقـول لك انزل معى إلى الطبيب للكشف وإلى محل النظاراتى لعمل النظـارة! وإن نقصت الفلوس قليلاً فيدفع ! "

فلبست جلبابى الزفير المقلم الجديد ، المدخر من العيد الفائت لمثل هذه المناسبة ، والحذاء الأسود والشراب الأبيض ، وسافرت إلى دمنهور بعنوان ابنة عمى. فإذا بـى أمام امرأة كدلفين الماء ، برأس صغير جداً ورقبة طويلة جداً ، وجسم مبروم بـاللحم المكتنز ، تتلوى رقبتها عند الكلام فيتمـايل رأسـها الصغـير كـرأس الثعبـان ؛ ضيقـة العينين مليئة الوجه بالتجاعيد ، فى عينيهـا نظـرة تجمـدت علـى شـئ مـن الإشمئزاز والتأفف أو لعله القرف. نظرت لى مـن فـوق لتحـت وصـارت تلـوح بأصبعهـا فـى تنديد وسخرية مريرة:

– " إيه ده !! معندكش جلابية أحسن من دى؟! أو حتى حذاء أنظف من هـذه البرطوشة ؟! هل ينـوى عمـى أن يفضحنـى هنـا وسـط الجيران.!؟ مـاذا يقولـون؟! عائلتها شحاذين متسولين؟!.. "

صارت الدموع تتجمع فـى عينين وتتبخـر صانعـة ضبابـاً كثيفـاً ينـذر بـالرعود والبروق . وكان أولادها قد انزوا فى أركان فوق الأسـرة والكراسـى واندمجـوا فـى القراءة وهم يختلسون النظر إلى من حين إلى حين فى كثـير مـن الإسـتنكار الممـزوج بالحيرة والحرج ؛ فيمـا كنـت مـا أزال واقفـاً أمـام ابنـة عمـى ممسـكاً بحفنـة النقـود

المصرورة في طرف منديل محلاوى ، بعد أن سلمتها خطاب أبى . أخيراً رمت بالخطاب بجانبها وأشارت إلى ابنها حواس قائلة فى اشمئناط :

– " قم فاذهب معه !"

فى صوتها نبرة تقول إن هذه ضريبة علينا لابد منها وأمرنا لله ، وكان حواس قصير القامة عريض الوجه والكتفين . وجهه ممسوح من أى ملامح ؛ والغلظ فى شفتيه أقل بكثير جداً من أبيه وإخوته . فى عينيه بلادة كطبقة من التبن فوق مياة آسنة ؛ وإذ يتكلم تنثقب البلادة لتنط من ثقبها ومضة حارقة شريرة جارحة. فى لسانه عوج قليل جعلته اللهجة البندرية طابع حسن فى صوته المنطلق المتدفق ولكن بغير وضوح كامل ، حيث يختلط السين بالثاء والذال بالزين . من مكمنه خلف مكتب صغير فوقه أباجورة تكب الضوء فى عز النهار ؛ قال :

– " ولماذا لم يجئ أبوك ؟"

قلت مغالباً الدموع الحارقة :

– " هو متعب هذه الأيام ! " فزام وانكفأ على المكتب مفكراً

حولت ابنة عمى بصرها إلى ركن بعيد :

– " تروح معه يا بديع ؟! "

كان بديع مضطجعاً على السرير ممسكاً بإحدى المجلات المصورة. ورغم أنه الإبن الثانى فى الذكور فإنه يبدو دائماً كأنه الأكبر ، لرصانة فى ملامحه ه المنضبطة التى ورثها من عائلتنا ، واستقامة فى لسانه ومنطقه ، وصفاء فى عينيه الواسعتين كعينى أبى طبق الأصل ، وقامته المستطيلة النحيفة كقامة خاله محمود ابن عمى الذى يسكن فى جزء من دارنا فى البلد ، وبشرته البيضاء المحمرة كبشرتنا ؛ ثم لكونه حصل على لقب الباشمهندس منذ ثلاثة أعوام مضت ولم يبق سوى شهور قليلة ليصبح هكذا بالفعل . أزاح المجلة عن وجهه ، وبجدية هائلة قال :

– " كان المفروض أن يجئ أبوك نظراً لاحتمالات كثيرة !"

هنا ظهر الحاج مسعود هابطاً من سلم داخلى قرب الشرفة ، يرتدى جلباباً منزلياً من البوبلين بياقة وأساور ، وفوق رأسه طاقية من نفس قماشة الثوب ، صار يبرطم فى صوت يشى بالطيبة ، ويبغبغ بلسانه الأكثر عوجاً من لسان ابنه حواس ،

ولايني يمسح شفتيه الغليظتين بظاهر يده ، ومع ذلك لا يفلح في إيقاف اللعاب والرذاذ المتناثر من بينهما . فهمت أنه يقول لإبنه حواس :

– " ياابني كيف يجئ أبوه وهو رجل مُسِن ؟! أنه فوق السبعين من العمر ؟ وأنه صاحب وجع ؟ وأولاد كثار؟ قم يا ولدى ينوبك ثواب ! لاتكسف الجدع ؟ "

نفخ حواس بعصبية ، وأزاح الأوراق من أمامه في غضب ثم نهض فاختفى في باب سحرى مغطى بورق الديكور . كل ذلك وأنا واقف في مكاني لا أريم ، دون أن يقول لي أحد : إجلس ، وقد صارت الدنيا في وجهي ملاءة سوداء مبسوطة تتماوج . أخيراً خرج حواس مرتدياً بدلة كاملة برباط عنق ، وحذاء يلمع كالمرآة كشعره المصفف بعناية فائقة ، والمنديل الملون بلون رباط العنق عل شكل الأهرامات الثلاثة في جيب سترته على الصدر. اشار لي في ود مفتعل : " يلاّ ياحبيبي ! ". فمددت له يدى بصرة النقود ، فنحاها جانباً بيده : " خليها معاك !" . فوضعتها في سيالتي ، ومضيت وراءه كالخادم الجربوع . ولحظة أن شرعت أهبط السلم خلفه بخطوات مبطوشة جعجاعة أدركت أن المسافة بيني وبينه موغلة في البعد ، وأنني لن أكون مثله ابداً حتى لو وقفت السماء كلها في صفي . إن العمر المقبل كله ليس يكفي للحاق بذيله . ثم كرهته ، وقلت في نفسي إنني لا يشرفني أن أكون مثله .

ها أنذا اتوقف أمام محل العصير القائم علي ناصية شارعهم من إحدى الحوارى الموصلة اليه. ملايين المرات ضبط نفسي متلبساً بالإنسياق وراء خواطر توعز لي بأن أفعلها وأمرى إلى الله : أزورهم محاولا اقتراض جنيه كامل أو خمسين قرشاً من ابنة عمي أو حتى ربع جنيه أو على الأقل تغديني غدوة دسمة فيها لحم وخضار وأرز ، وقد يشفع لي أنني لم أزرهم منذ سنوات طويلة ؛ فلأزعم لهم مثلاً أنني قادم من البلد أنقل إليهم سلام خالهم محمود وستهم نُجية ، أمكث عندهم ساعة أو نحوها فلربما يكونو قد تغيروا خلال هذه السنوات ودخل التراحم إلى قلوبهم . وملايين المرات يدهمني نفس المشهد برمته فكأنني أعيشه لأول مرة : كان النظاراتي قد أعطانا موعداً بعد خمسة أيام لاستلام النظارة إمتدت إلى اسبوع نظراً لأنني غريب ومسافر ؛ النظاراتي اسمه عدس ، ويهودى ، وهو في الأصل ساعاتي ، ومحله أمام مبنى المديرية مباشرة ضمن صف من المحلات الفاخرة ذات البتارين المحتشدة بكل

مثير وغريب ولم يكن هذا بدعاً ، فجميع صانعى النظارات إذ ذاك هـم فـى الأصـل ساعاتية ، والعدسات والشنابر معروضة بين الساعات. انتقى لى حواس شنبراً علـى ذوقه وصورة طبق الأصل من نظارة غاندى . إضطررت للبقاء هـذا الأسبوع ضيفـاً على ابنة عمى. السرير الوحيد الذى اتسع لى هو سرير الولد شريف لأنه ولد ضئيـل الحجم. هـو سـرير بعمـدان وناموسية تلفـه مـن جميـع الجهـات ، فوقـه حشـيتان ووسادتان وملاءة وكوبرتة ولحاف ملبـس فـى كسـوة مـن الدبـلان. قـارنت ذلـك بالحصيرة فوق أرض القاعة فى دارنا على المصطبة المجـاورة لفـرن الخبـيز؛ وتذكـرت سهراتنا فى الجرن نستمع بإيمان حقيقى لسرحات الولد جنوم الذى كـان يؤكـد لنـا أن القمل شئ طبيعى فى جسم الإنسان كـدود المش منـه فيـه ، وأن الملـك فـاروق نفسه لابد أن يكون فى جسمه قمل وبراغيث. فلما انزلقـت علـى الفـراش الأملـس تحت اللحاف الرطب الجميل وصافحت أنفى رائحة الصابون المعطر أيقنت أن الدنيا أعمق وأدهى مما كنت أتصور ؛ ثـم طـرت علـى أجنحـة النـوم إلى مسـافات بعيـدة كنت أصحو خلالهـا علـى انتفاضـة الولـد شـريف وهـو يرمـى بنفسـه علـى الأرض صارخاً بغيظ شديد وحقد دفين : " مش معقول ! مش ممكـن ! " . فلمـا صحـوت قرب الفجر على الإستغاثة لاحظت أنه ليس ينام بجوارى. وفى الليلة التاليـة تـرك لى السرير وحدى . وفى أحد الأصبحة أحاطونى بغمز ولمز وضحكات ماجنة مكتومـة ومنفلتة ، وكلمات كثيرة فهمت منها أننى طول الليـل أفسـو وأمـلأ الحجـرة كلهـا برائحة البكبورت ، ناهيك عن رائحـة نـتن الجـورب فـى قدمـى ، والـبراغيث التـى جلبتها معى من حصيرة البلد وكيف أنها ستكلفهم قلـب البيـت كلـه رأسـهاً علـى عقب فى الشمس. وفى صبيحة اليوم الأخير اقتادنى الحـاج مسـعود إلى محـل عـدس فاستلمت النظارة وراجعها معى على لوحة الكشف فى المحل وتثبت من أننى رأيـت بها العلامات الدقيقة. ثم اقتادنى إلى محـل العصـير هـذا ، حيـث سـقانى كوبـاً مـن عصير القصب فاستطعمته لدرجة أن تمنيت واحداً آخر فى الحال كأننى أشرب مـاء المحاياة الذى أسمع عنه فى الحواديت والأمثال. ثم مشينا إلى شـارع المديريـة ، حيـث سلم على بيد غليظة كفردة البلغة ، قائلا فى هلضمة :

– " مع الشلامة ياابنى ! شلم على ابوك ! "

وتركنى ومضى نحو المديرية بخطوات سريعة. وحينما أوشك على الإختفاء تذكرت أن ماتبقى معى بعد ثمن النظارة حوالى أربعة قروش ونصف، فى حين أننى محتاج لسبع قروش أجرة العودة إلى بلدتنا. وكنت أهم بأن أجرى وراءه لأوضح له هذا الأمر ، لكننى لم أستطع ، فمضيت نحو المحطة ملتزماً بوصية عدس بألا أخلع النظارة أبداً حتى اعتادها ، فكانت الأرض تبدو تحت قدمى كالمنبعجة ومائلة ، مع أن الأشياء كلها مزهزهة ومضيئة ، والطرقات بدت لها أعماق بعيدة لم أكن أراها من قبل. قطعت تذكرة إلى مدينة دسوق ؛ ومن دسوق قطعت تذكرة إلى سنهور المدينة. وكان فى مخططى أن أزوغ من الكمسارى فى المحطتين الباقيتين لكننى لم أفلح ، وأصر على تطويقى ، لولا أن كرامة النظارة أتت بثمارها فى الحال ، إذ تمعن فى منظرى رجل طيب وقال: " باين عليه ابن ناس طيبين ! سيبه ياعم وخد فلوسك! " .. فتركنى الكمسارى أنزل فى محطة البكاتوش لأمشى إلى قريتنا ثمانية كيلو مترات .

إلا أننى أحس الآن أن لى مأرباً فى السير فى شارع السوسى غير مجرد تضييع الوقت والشبع من ريحة الطعام المجانية . سرعان ما تبينته .

هاأنذا أحوم حوله ، إنه محل " محمد أبو سْن " ، تاجر الأقمشة المتوسط الحال ، لا هو بالثرى ولا بالفقير ؛ يكفى أن محله فى شارع السوسى ، على واجهة ، ورفوفه ملأى بأثواب من جميع الأنواع والألوان لكنها ليست مكتظة وليست تنم عن مخازن خلفية أو راس مال كبير. غير أن المحل فى رواج مستمر ، خاصة بالنسبة لزبائنه الفلاحين القادمين من القرى والعزب المجاورة ؛ إذ أنهم يجدون فى المحل شخصاً قريب الشبه بهم ، يفهمون عنه بسهولة وبساطة ومصداقية ، ولذلك يستريحون له ، وكلمته عندهم واحدة. هو شخصية منبسطة حبوبة ؛ ضيق الجبهة والعينين قصير الأنف واسع المنخرين واسع الفم ينفرج دائماً عن أسنان مصفرة مفردة بين كل سنة والأخرى مسافة واضحة فكأن كل سن يبتسم وحده على طول الخط. غمازتان فى صدغيه ، وعلى الوجه مسحة من الصفاء والطيبة والبراءة تجذبك إليه كأنه أحد أقاربك ؛ لما فيه من الفة شديدة. يثق جميع زبائنه أن أسعاره أقل من سعر السوق بقرشين وربما عشرة قروش فى المتر الواحد؛ كما أن أقمشته مضمونة

الجودة . أما القياس بالمتر فيده فيه برحة ، قبل أن يقطع يبتعد عن نقطة القياس بخمس قراريط. ولقد كون هذا المحل بعرقه وشقائه المتواصلين على امتداد عشرين عاماً منذ كان بائعاً سريحاً بعربة يد. ذلك هو محمد أبو سن ، عضو بجماعة الإخوان المسلمين ، زبيبة الصلاة كالعصفور علي جبهته. لم يتعرض لتجربة السجن رغم أن جميع أصدقاء عمره الأعزاء قد أمضوا نصف حياتهم في السجن. السبب أنه ذكى جداً ، يبتعد عن التظاهرات والعمل السياسى المباشر ، يلتزم بالفروض والواجبات والسنن ، يتطوع بالوعظ الهادئ النبرة الخالى من أى غمز أو إثارة سياسية ، بكلام شديد الحلاوة رسخ فى ذهنه من عتاة المتكلمين الذين كانوا ينفردون بنا فى مقر الجمعية فى شارع النادى فيقسموننا إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية . هو الذى اقتادنى إلى فرق للكشافة والتمثيل والحرس الوطنى والمقاومة الشعبية. هو الذى اقتادنى إلى هذه الجمعية بطريقة غاية فى اللطف والحميمية. فأنا وإن كرهت الحاج مسعود وبنت عمى وأولادها كرهاً حقيقياً. بإرادة وتصميم وبدرجة تكاد تصل حد النقمة والعدوان ، إلا أننى مع ذلك استفدت من قرابتهم. فباسمهم تمكنت من التجوال فى هذه المنطقة بكل أمان وأريحية دون أن أتعرض لما يتعرض له الغريب فى مدينة كهذه ، يكفى أن يعرف أحد ابناء المنطقة أننى ابن عم الحاجة وديدة لزم ، حتي يتركنى جالساً فى مقهاه فترة طويلة بطلب واحد بل وأحياناً دون أن أطلب شيئاً بل ربما جاءني طلب على سبيل التحية ؛ أو أن يعطينى صاحب الدكان الأمان فيتركنى أسليه وقتاً فى انتظار الزبائن أو بين الزبون المنصرف والزبون القادم ، أو أن يسلم على بحرارة إذا قابلنى فى شارع آخر أو أن يدفع عنى عدواناً طارئاً..

بيت محمد أبو سن فى مواجهة بيت الحاج مسعود مباشرة ؛ والود العميق متبادل بين النسوان عبر الشرفات والمنازل ، وكلمات : ياطنط وياآبيه وياآنسة تملأ الأصبحة والأصائل بأصوات نسائية رخيمة بلهجات بندرية تشوبها لكنه فلاحية قاطعة. من حسن حظى أن محمد أبوسن رآنى فى الشرفة قبل أن ينزل إلى المحل بعد قيلولة جميلة ؛ ثم مررت عليه فى المحل مع حواس أكثر من مرة أثناء عمل النظارة لأنه فى طريقنا . ثم إننى أصبحت أمر عليه بعد أن انتظمت فى الدراسة وسكنت

مع ثلاثة من أبناء بلدتي في حجرة في كوبري إفلاقة على الشاطئ الآخر لترعة المحمودية حيث أن مقر المعهد فيها في بيت مستأجر من أحد المراكبية ، فكان أبو سن يلتقيني بحرارة شديدة ويقدمني لزبائنه وضيوفه بتفخيم كبير يخجل تواضعي ، وقد لاحظ أنني أهوى القراءة وأحمل روايات ودواوين شعر وكتباً في الأدب ومجلات ثقافية ؛ فصار يناقشني فيها بشكل أذهلني ، مما اكد لى أنه قرأ كل هذه الكتب والمجلات وله رأى فيها، بل صار يزودني بكتب أسمع عنها ولا أجدها، حتى روايات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي التي يهاجمها خطباء المساجد كانت في مكتبته ويعيرني ما أطلبه منها شرط أن أرده نظيفاً . هو الذى نبهني إلى سلسلة شهرية اسمها الكتاب الذهبي متخصصة في نشر القصص والروايات لكبار الكتاب ، وإلى سلسلة كتاب الهلال التي كانت عنده كلها ، كما نبهني للجانب السياسي في مؤلفات العقاد ؛ وقد أشبعني بكل مؤلفاته ومؤلفات طه حسين والمازني ومصطفى صادق الرافعي وهيكل وأحمد حسن الزيات وأحمد زكي أبو شادي والمنفلوطي ومحمد فريد أبو حديد ومسرحيات أحمد شوقي. الأجمل من كل ذلك أنه نقل لى خبراً أذهلني، أنبأني أن في دمنهور جمعية للأدباء ومقرها مقهى المسيرى ورئيسها عبد المعطى المسيرى صاحب المقهى ، وأطلعني على بعض كتب هذا الأديب القهوجي الأعجوبة ، وكتب الأدباء الدمنهوريين من أمثال أمين يوسف غراب ومحمد عبد الحليم عبد الله وأحمد محرم وعلى الجارم . وهو الذى نصحني في النهاية أن أنسى عبد القدوس والسباعي وأمثالهما لأقرأ بانتباه كاتباً مجهولاً يدعى نجيب محفوظ يصور الحكاية على حقيقتها ، وكم كان جميلاً أن يدعوني لزيارة قهوة المسيرى على مبعدة خطوات من دكانه ؛ حيث جلسنا على ترابيزة قريبة ورحنا نحتسي الشاى ، ونراقب الأدباء وهم يضمون الترابيزات ويتناقشون ويقرأ بعضهم وينصت الباقون بإمعان ؛ والمسيرى يتابع كل ذلك فيما يتابع سيل الماركات المنهال على منصته من يد الجرسون الذى هو ابن أخيه في نفس الوقت. في تلك الليلة اعترف لى محمد أبو سن أنه توقف في التعليم عند الشهادة الإبتدائية وانتبه للقراءة منذ وقت مبكر ، فازداد نهمه للقراءة بحكم عشرته لمثقفين كبار من جماعة الإخوان المسلمين ..

كان محمد أبو سن يعطف على كثيراً ، ويصر على أن يعشيني أو يغديني، وينفحني بعض القروش على سبيل السلفة الطويلة الأجل ، لكنني منذ فصلت من المعهد لم أره ؛ أصبح الخجل من الفشل يمنعني من المرور عليه. ثم بات سوء المظهر وشدة الرهق يحولان بيني وبين باب دكانه ؛ فأراني ألف من ورائه حتى لا يراني مع أنني في الواقع كنت أتمنى أن يراني بشرط أن يبدو ذلك صدفة محضة. فما بالى اليوم، مثل أيام كثيرة مضت ، أشعر أني أدبر كي يراني دون أن يبدو على أنني أتعمد ذلك ؟..

شارع الإخوان

مع أننى كنت بعيداً عن دكان أبى سن بمسافة كبيرة ؛ خلفه مباشرة ولكن من الحارة الملتفة حوله ، فإن قرينه قد التقانى . إذا بى أسمع صوتاً يهتف باسمى منادياً : يا فلان . ولأننى تذكرت الصوت فى الحال فإنى قد أسرعت فى خطوى . فإذا بالصوت ينادينى مرة أخرى من مسافة أقرب ، فضاعفت سرعتى ، حاولت الذوبان فى زحام حارة بنت عمى الواسعة الموصلة إلى شارع المديرية الكبير ؛ حيث يبدو مبنى المديريه أمامى ممتداً فى مواجهة الحالة كلوحة جدارية كبيرة تجعل القادم نحوها من الحارة كأنه شرع يدخل قاعة فى منزله. إلا أننى فوجئت بمن يقف أمامى قابضاً على ذراعى :

- " ماتريد أن ترد ياخسيس ياوغد ؟ "

رفعت رأسى كالمفاجأ ؛ صافح عينى وجه أسمر مشطور ككسرة الفول والطعمية . كل شئ فى وجهه مشطور أو مشطوف ، الأنف والخدين والذقن والجبهة ، كأن كل ملمح من هذه الملامح تم شطفه قبل تركيبه ، مع أن ظلالاً دائرية تتماوج تحت الجلد المدبوغ بحرارة الشمس وفوقه ، حتى لحيته السوداء المطلوقة ، هي الأخرى مدببة بشكل هرمي مستفز . يرتدى بذلة فوق فانلة قطنية خفيفة ويضع حزمة من جرائد مطوية تحت إبطه ، واضعاً يسراه فى جيب سرواله فيما قبضت يمناه على ذراعى . أخذنى الروع لبرهة لكننى سرعان ماضحكت فيما اسلم عليه بحرارة ..

إنه عبد الله أبو حنطور ، الصديق الصدوق لمحمد أبو سن . ذو مركز مهم جداً فى شعبة الإخوان المسلمين ، ومن عتاة المتكلمين فى أى مناسبة يشاء دون أن يبدو عليه أنه متطفل أو خارج عن الموضوع . تعرض للسجن أكثر من مرة منذ أيام إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء زمن الملكية ، وشارك فى المقاومة الشعبية فى الإسماعيلية وبورسعيد والسويس . يعمل مفتشاً للغة العربية بوزارة التربية والتعليم. ذو سطوة رهيبة بين جميع معلمى اللغة العربية فى مدارس المحافظة كلها ، لأنه رغم ما طبع عليه من روح خيرة سمحة متواضعة إلى اقصى حد ، فإنه لا يقبل الترخص

في شئون العلم مهما كانت الظروف والأسباب ، ولا يقبل الوساطة ، كما أنه ينفر كل النفور من التلاميذ البلداء الأغبياء ويلعن معلميهم قبل آبائهم. أغلظ لعنة عنده في أقصى حالات غضبه هي : " جاك عمى في عينك " ، أو : " الله يسامحه بقى اللى علمك ". منذ أن عرف بأننى طالب في معهد المعلمين عاملنى باعتبارى معلماً وخاطبنى دائماً بالأستاذ. لم يبخل على بكتب ثمينة . وكنت في حضرته أشعر بأننى شخص نجيب ذكي محترم وناجح ؛ أشعر بالخوف أن تهتز صورتى هذه في نظره لسبب من الأسباب ..

أهلاً أهلاً الحمد لله بخير . وكنا قد استأنفنا السير فصرنا على بعد خطوتين من مبنى المديرية المستطيل اللامع ، فجدرانه بيضاء رصينة ونوافذه المستطيلة المهيبة مزركشة بكرانيش من اللون الكنارى ، ودرفاتها مدهونة بالبنى المحروق ، وللنوافذ أفاريز بارزة من الرخام ، أما الباب الرئيسى في وسط الجدار فيرتفع عن الأرض بدرجات رخامية ، وشكله مهيب يغرى بصعود الدرج والدخول ؛ وأنواع متعددة من الناس مابين أفندية بطرابيش ومشايخ بعمائم وفلاحين بطواقى يصعدون الدرج أو يهبطون في مهابة وأبهة ، فكأننا نتفرج عليهم في مشهد سينمائى ، حيث تبدو هذه الصورة من بعيد كخلفية تسد الحارة ، تتباعد كلما اقتربنا منها ، لتظهر بعد قليل ناصية شارع المديرية المار من أمامها مباشرة. لم يبق أمامنا سوى أن نكسر يميناً في شارع المديرية ، لنمر بمقهى المالية الكبير المزدان بالمرايا في جميع الحوائط ، والترابيزات ذات المفارش النظيفة ، والنوادل بأجنحة بيضاء كالملائكة ، ورائحة المياه المكررة والشاى والبن والقرفة وتبغ النارجيلة تعطر الشارع بمزيج فريد من العطر. بانتهاء رصيف المقهى لا يبقى سوى خطوتين نكسرهما يميناً ايضاً في شارع السوسى لنصير أمام دكان محمد أبو سن القمامشى..

عبد الله أبو حنطور ليس سهلاً ؛ كسر بى كسرة حادة إلى اليمين فإذا بنا في قلب المقهى من الداخل . إختار ترابيزة مجاورة لشرفة مطلة على شارع المديرية ؛ فأشار لى على كرسى فجلست في قدر كبير من الخجل على الكرسى الملاصق للحائط ، ورميت ببصرى في المرآة المواجهة لى ، رحت أتفرج على القادمين نحوى في الشارع وهم في الأصل قادمين من خلفى . صفق عبد الله فجاء النادل فطلب

إليه التكرم ببراد شاى ونارجيلة نادية. فكأن المطلوب كان فى انتظار تشريفنا . قال عبد الله ، وهو يقلب السكر فى الشاى ناظراً فى عيْنى نظرة ثاقبة قوية لن ترضى بغير الصدق المباشر دون لف أو دوران:

– " إيه ، ماذا حدث لك؟ ما هذه البهدلة ؟ "

كان منظرى فى المرآه غير سار على الإطلاق : القميص يتكاثف عليه الوسخ عند الكتفين من أثر النوم به فوق الأرض ، والياقة متآكلة الأطراف، والسروال منبعج الركبتين منسول فى الأطراف وتنيته أيضاً متآكلة ؛ أما الحذاء فقد تكور وجهه وامتلأ بالتجاعيد والدمامل وتآكل كعبه تماماً . أما وجهى أنا ، فكان قريب الشبه منه إلى حد كبير. وجدتنى أنخرط فى البكاء ؛ نهر من الدموع انهمر تحت عدستى النظارة التى كانت ملحومة الإطار فوق الأنف لحاماً ظاهراً ؛ رمى عبد الله بمنديله نحوى فوق الترابيزة بحركة سريعة حاسمة ، وقد تقلصت عضلات وجهه بقسوة شديدة كأنها تشخط فى صائحة : كف عن هذه المعيلة . فمسحت دموعى على الفور ، ثم صادرتها بقوة ..

الواضح أننى حكيت له الحكاية من أولها إلى آخرها ؛ إذ بدا عليه الحزن الشديد؛ ركبه الهم حتى صار يشد أنفاس النارجيلة ثم ينفخها بغيظ . بقى صامتاً لدقائق طويلة . نهض واقفاً وانتزع من جيبه ورقة مالية بعشرة قروش رمى بها فوق الصينية وجذبنى من ذراعى ومضى ، واضعاً ذراعى تحت إبطه . تجاوزنا شارع السوسى ، فاسترحت لذلك بعض الشىء ؛ لكنه خرم بنا من شارع السوق إلى شارع الخيرى ، ثم إلى شارع السوق مرة أخرى . مررنا بمطبعة التوفيقية .. دهمتنى ذكريات مفجعة مبهجة معاً تخرج من هذه المطبعة مع رائحة الورق والأحبار مختلطة برائحة زفارة السمك وعطن المجارى : هذه المطبعة طبعت لى كتيباً يحمل قصة من تأليفى بعنوان : [الخد الأسيل] جمعت ثمنها بايصالات مطبوعة من زملائى ومعلمى فى المعهد ثم وزعتها عليهم ؛ وكانت أقرب إلى إمساكية شهر رمضان لكننى أحببتها بعمق ؛ إذ كان إسمى مطبوعاً فوقها بكليشيه كبير أسود ككبار الكتاب ، إلا أننى أصبحت أشعر بقلبى يهبط إلى ساقى كلما تذكرتها الآن ، إذ أن أهلى وأهل بلدتى كلهم وضعوها مع نسوان المدينة اللعوبات على رأس قائمة الأسباب

التى افسدتنى وحولتنى إلى ولد ساقط صايع. تذكرت أنها لم تعجب عبد الله أفندى أبو حنطور على الرغم من أنه شجعنى على طبعها بأن دفع لى جنيهاً كاملاً مقابل ايصال فارغ من أى بيانات ، مثلما فعل جميع معلمى فى المعهد. وحين قرأها فى ربع ساعة ونحن جلوس فى دكان محمد أبوسن لامنى بشدة على أننى لم أعرضها عليه قبل طبعها لكنه قرص أذنى على الفقرات الإنشائية اللامعة الكثيرة التى نقلتها من المنفلوطى ومحمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب ويوسف السباعى ثم حشرتها حشراً فى السياق، اذ كلما اردت وصف الحبيبة ذات الخد الأسيل إستعرت فقرة كاملة من أحد هؤلاء الكتاب قالها فى وصف حبيبة أخرى، والأمانة تقتضى الا أفعل شيئاً من هذا ؛ وإذا لزم الأمر فكان يجب أن أضع هذه الفقرات بين مزدوجتين وعلامة تنصيص تثبت فى الهامش بأنها مأخوذة من الكتاب الفلانى فى الصفحة الفلانية من الطبعة الفلانية؛ هذا إن جاز أن يحدث ذلك فى القصص والروايات. إضافة إلى هذا الدرس القارص لم يعجبه أى شئ فى القصة سوى حماستى إلا أنها زادت عن حدها فجرأتنى على الطبع والنشر بغير تبصر..

توقف بنا عبد الله عند محل كبير لبيع الأسماك والفسيخ ، حافل بالبراميل والطاولات والزبائن . فى ركن قصى منه يجلس رجل مربع الوجه ابيض البشرة كالشمع طويل اللحية فى جبهته زبيبة الصلاة كالتمرة الأبريمى ، غمزنى عبد الله بأن أبقى واقفاً فى مكانى ، ثم اخترق المحل . نهض الرجل المربع الوجه واقفاً فى تبجيل شديد ؛ فانحنى عبد الله على أذنه واندمج فى حديث هامس ولاحظت أن الرجل يختلس نحوى نظرات خاطفة مليئة بالحياء والتلقائية ؛ فابتعدت عن الباب معطياً ظهرى للباب . بعد برهة طويلة خرج عبد الله فتأبط ذراعى ومضى. دخلنا شارع الخيرى ، حيث خرمنا نحو حارات جانبية ، توقف فيها عبد الله عند محلات ومتاجر ثم اختفى قليلا وعاد ؛ ليمضى بنا إلى ميدان الساعة. كان الميدان جميلاً بحق ؛ أسوار مدارس معيطى ، وسينما البلدية ، وخلفها مكتبة البلدية ، الشبيهة بكل المبانى الرسمية فى كل العواصم تقول أنا مبنى حكومى ؛ وقهوة الطلبة ذات الجدران الزجاجية والردهة المستطيلة كالسامر والرصيف العريض المرتفع عن الأرض، حافلة دائماً أبدا بالرواد معظمهم من الطلبة والمعلمين وبعض الموظفين ورجال الأعمال ،

أجسام فتية مفتولة وآنسات ذوات مرايل زرقـاء وطاقية بيضاء وحقائب تحتضنها الصدور الناهدة ، صخبها لطيف يميل إلى الأنس والبهجة ، اصوات زهر الطاولة وقشاط النرد وتفنيط الورق وكركرة النراجيل وضحكات الإناث الرنانة ؛ والأكواب والبراريد والصواني براقة لامعة ، وكذلك الأرض ، ومفارش المناضد ، وزجاج الجدران ، حتى لتبدو المقهى فى الليل كحمام سباحة تحدد جدرانه لمبات النيون المتلألئة . أمامها شارع النادى ، مفخرة المدينة بنظافته وحديقته الممتدة الوارفة ، ونادى الموظفين ، وقطار الدلتا الذى يخترق جزءاً منه قادماً من قرى مجاورة ذاهباً إلى قرى أخرى او ضواحى متاخمة، يطلق صراخه الشبيه بصراخ الثكالى ، وعرباته شبه الفارغة إلا من بعض الفلاحين والأفندية والطلبة والمواشى المساقة إلى السوق أو إلى المذبح ..

كان عبد الله يتوقف عند بعض المحلات ثم يهم بالدخول ثم ينصرف فى آخر لحظة. إلى أن فوجئت به يتجه إلى مبنى شركة بيع المصنوعات المصرية ، يسحبنى داخلاً ، ليتوقف لحظات قليلة عند بعض الأركان والبنوك ، فيشترى لى سروالاً من قماش " الووتر بروف " الجميل الأزرق ، وآخر من صوف الفانلة الرمادى وقميصين بياقة عريضة ، وغيارين داخليين ، وجلباب للنوم ، وحذاء شبانى بدون رباط ، وجوربين ، ومنديلين . قاس كل ذلك على جسدى بإحكام وتدقيق فى مسألة اللون والذوق والخامة . ثم دفع مبلغاً كبيراً أذهلنى وأغرقنى فى بحار من الخجل والعرق على ارض خفية من الغبطة والسرور . حمل شيئاً وحملت أشياء ؛ ثم استوقف عربة حنطور ، دفعنى إليها ثم ركب بجوارى هاتفاً الحوذى:

- " صلاح الدين يا أسطى "

فشد الحوذى اللجام ؛ وانتظمنى قرع سنابك الخيل على أسفلت الشارع ، ثم على البلاطات العريضة فى حوارى حى صلاح الدين المقلقلة كجزر متلاحمة بين أخاديد من مياه المجارى والصرف. نزلنا أمام بيت عتيق ذى ثلاث طوابق بثلاث شرفات فوق بعضها متشابهة .. تقدمنى داخلاً ، صعدنا سلماً رخامياً متآكل الدرجات متعرجاً فى الطابق الثالث توقفنا أمام باب ذى درفتين يقابله باب آخر ؛ طرق هو على باب ، ثم استدار ووقف أمام الباب المقابل ، الذى انفتح بعد برهة

وظهر منه طفل صغير سرعان ما تركنا واندفع يجرى فى الداخل . الكنب البلدى في المواجهة منجد ومكسو بالقطيفة . فى مقابله طاقم من المقاعد الصالونية المذهبة ، وعلى الأرض قطعة من السجاد الثمين مزهرة اللون . على الحائط فى المواجهة صورة للشيخ حسن البنا ، بوجهه الوديع السمح وطربوشه القصير ولحيته القصيرة المتسقة كأنها بحرد دهان بالفرشاة خطته يد منضبطة. وعلى الحائط الجانبى صورة للبكباشى جمال عبد الناصر يلعب الشطرنج فى استغراق شديد. وعلى الحائط المقابل صورة عتيقة جداً لشيخ طاعن يرتدى العباءة والطاقية الصوف المبطوشة على شكل الطربوش المغربى ؛ تقول ملامحه إنه مغربى الأصل ، وأنه جد عبد الله أبو حنطور ..

أغلق الباب ووضع الأشياء على الكنبة ثم استأذن فدخل ؛ شد الستار على ممر مكشوف. جلست ، رأيت على الترابيزة الرخامية ذات الشكل البيضاوى أعداداً كثيرة من مجلات : الدعوة ومنبر الإسلام والرسالة والثقافة، وبعض مسرحيات إسلامية مدرسية من تأليف الشيخ عبد الرحمن البنا ، ومصحف كبير بتفسير الجلالين ، ومختار الصحاح ؛ ومن خلفى مباشرة دولاب كبير عريض بأبواب زجاجية مغلقة تظهر فيها صفوف المجلدات الثمينة مكتوب على كعوبها بماء الذهب أسماءها. ماكدت أقلب فى أعداد مجلة الرسالة حتى انزاح الستار وظهر عبد الله افندى مرتدياً الجلباب والطاقية الدبلان ؛ قال : تعال. فقمت ، مضيت خلفه فى الممر المستطيل ، مررنا بمطبخ مفتوح تظهر منه صفوف الحلل والأطباق وثلاجة وبوتاجاز ، وروائح سمن مقدوح وشواء شهى. عند الباب المجاور توقفنا ؛ إنه دورة المياه. أشار لى أن أدخل ، ثم أتى بيديه حركة دائرية حول رأسه وصدره وجسده. فدخلت ، رأيت الدش والليفة والصابونة المعطرة فوقها ، والبشكير الكبير معلقاً على مشجب فى ظهر الباب ، الذى انسحب بيد عبد الله من الخارج حتى طرقع الترباس فى مجراه . خلعت ملابسى كلها ، فتحت الدش ، صرت أدعك جسدى بالليفة والصابونة فى نشوة هائلة تحت وابل من المطر والوشيش ، الذى اختلط بصوت المذياع فى الردهة المجاورة ميزت فيه صوت محمود الشريف فى برنامج : " قِسَم " وهو يغنى طرباً : ياخال أنا خالى رَوَّقت لك بالى ! واللقمة تهنالى بين

أهلي وعيالى . ماكدت أغلق الدش فينقطع صوت الوشيش حتى علا صوت المذياع فجأة بصوت الناى المكثف بالزفرات الحارقة وفى أعقابه صوت رفيعة الشال يزفر : ياترى أنت فين يامرزوق. فى أعقابه صورة أمي وهى متربعة على عتبة دارنا فى البلد تبكى إذ تسمع هذه الجملة نفسها خلف هذا الناى مباشرة ، فكأنها لها هى الأخرى مرزوق غائب يأكلها الحنين للقياه.. شعرت بخطوات أمام الباب ، وتحنحة، وصوت نقرات خفيفة . لففت نفسى بالبشكير ، واربت الباب ، تلقفت الغيار الداخلى والجلباب الأبيض ، فأسكرت أنفي رائحة القماش الجديد. ثم خرجت من الحمام شخصاً آخر تماماً ، حتى أن عبد الله أفندى نظر فى وهز رأسه فى رضاء تام وهو يتقدمنى نحو الردهة التى بها المذياع ، لأجدها محتلة بترابيزة السفرة بكراسيها ودواليبها الزجاجية الحافلة بأطقم الأطباق الصينى والأكواب والفناجين والفضيات. كانت أطباق الطعام مرتصة فوق الترابيزة كالوليمة الحافلة يتصاعد منها البخار والأريج الشهى الحريف . جلس قبالتى مقدماً لى فوطة صغيرة مربعة فردتها تحت كوعى . بسمل ثم شرع يأكل ؛ فتبعته : أرز وفاصوليا وملوخية باللحم ؛ ودجاج محمر وسلطات ومخللات ، وموز وكمثرى وجوافة ، وأطباق مهلبية..

فى حجرة الجلوس أشعل سيجارة له وأخرى لى ثم قال:

- " قم جرب هذه الهدوم ! "

إرتديت قميصاً مع السروال الأزرق الخفيف الرطب ، والجورب ، ثم الحذاء الجديد . رأيتنى غارقاً فى رائحة عطرة جميلة كأننى فى يوم العيد أتأهب لقبض العيدية من أبى وللنزول للبرطعة فى الشوارع حيث أركب الأراجيح وأشترى الحلاوة الشعر والبخت وأعواد القصب والهريسة . إختفى عبد الله افندى ، لم أدر إلا وهو داخل وقد ارتدى ثياب خروج غير التى كانت عليه عندما قابلته . كان ممسكاً بحقيبة ملابس قديمة مفشخة مترهلة لكنها سليمة الأقفال واليد على كل حال. أسندها على الكنبة وفتحها ، فرأيت فيها ثيابى القديمة. قال وهو يشير إليها بلحيته :

- " يمكن أن ترميها فى أى مكان أو تتصدق بها! "

تم فرد فوقها جريده نفس اليوم ، ووضع بقية ثيابي الجديدة ، بعناية ؛ ثـم أغلـق الأقفال وأعطاها لي فأمسكتها فشعرت رغم رثاثة منظرها أنني قد صرت أفندياً بحق وحقيق. تقدمني فسحب الباب فنزل وأنا في أعقابه ..

عربة حنطور أخرى أسقطتنا في أول شارع السوسي ، حيث حودنا على دكان محمد أبو سن مباشرة . كان جالساً كالعادة خلف البنك بجوار البـاب، تاركـاً أمـر البيع لولدين كبيرين في مثل سني لكنهما مدربين تدريباً هائلاً ، الولـد منهمـا عفـي يمسك بثوب القماش على كف يسراه ، وينطقه كالكرة ليفك ثنياته قبـل أن يشـرع في القياس بالمتر الذى هو مجرد علامتين بالحفر الخفيف على خشـب البنـك نفسـه ؛ لديه صبر طويل مستمد من إيحاءات معلمـه أبـو سـن ، يتمشـى مـع الزبـائن خاصـة النساء الفلاحات اللائي جئن يقطعن كسوة للعروس ؛ لامانع أن يصعد السلم بدربة ورشاقة عشرات المرات لينزع بعضد الأثواب من بين كتل الرصات المتجـاورة ، ثـم ينزل فيفرده على البنك ، ممسكاً بطرفه فيفركه بأطراف أصابعـه بحركـة ذات معنـى ليثبت للزبون أن القماش سخي ولا يتكرمش متـين النسـج ولا ينسـل ؛ ربمـا أشـاح الزبون بوجه في الحال وطلب ذلك الثوب البنفسـجي الـذى قـرب السـقف ؛ ففـي الحال - دون أدنى غضاضة - يصعـد فيـأتي بـه وبشـبيه لـه بـالمرة؛ إلا أن الـزوج أو الحماة قد ترفضه قبل لمسة مشيرة إلى ثوب في ركن بعيد ؛ فيسحب السلم الخشـبى النقالي ويمضي به إلى ذلك الركن البعيد فيأتي بالثوب . المهم أن يرضى الزبون علـى البضاعة ؛ أما الخلافات حول الأسعار فإنها لاشك محلولة بمجرد أن يتدخل أبو سـن في الحوار بالكلمة النهائية ، لينصرف الزبون شارياً مرضياً أربعة وعشرين قيراطاً ..

نهض محمد أبو سن منتفضاً ، أخذني بالحضن في تهليل كبير :

- " يا ...ا...ا...ه يا عكـروت ! وهـل هـذا ينفـع ؟! أنـت كنـت ؟! مـا الـذى لـمّكما على بعضكما ؟! كنـا فـي سيرتك بـالأمس ! عبـد الله افنـدى هـو الـذى تذكرك وهو اللي التقاك فلا إله إلا الله !! "..

رفعت غطاء الممر النافذ في البنك وعبرته إلى الداخل أمـا عبـد الله افنـدى فقـد اقتعد البنك ولعب بساقيه قليلا في مرح الأطفال ثم برم جسده إلى الداخـل ونـزل. لحظتها مر القهوجي الجوال حاملاً الصينية عليها الأكواب والبراد الكبـير السـاخن ؛

صب لنا الأكواب الصغيرة المخندَقة . شاى أميز من شاى المقاهى بنكهة عجيبة طازجة ذات طابع بيتى حميم ...

فى بضع رشفات موجزة ، وبلغة فائقة لخص عبد الله أفندى مشكلتى بكل حذافيرها ، – كأنها شئ لم يكن – غطاها بقوله:

– " المهم الآن أن نبحث له عن عمل يستند عليه ربما تمكن من تغيير سلك تعليمه أو يفعل الله به ما يشاء! "...

حينئذٍ كانت عينا محمد أبو سن قد سافرتا إلى مجاهل بعيدة ، فبدا مثقلاً إلى حد الرهق ، حتى لقد شعرت أن أبى نفسه لم يحزن لأجلى كل هذا الحزن. ثم إنه تنهد من أعماقه ، واستل صوته من جراب صدئ

– " والحاج مسعود ؟! ما موقفه ؟! هل علم بما حدث ؟! "

نكست رأسى بحثاً عن جواب مناسب ؛ لكن عبد الله افندى عاجلة بذكاء حمدته له :

– " حاج مسعود مَن ياعم؟! خليها على الله! أنت تعرف الأمر ومافيه! الحاج مسعود يستطيع التبرؤ من جلده! أنسيت كيف اشترى هذا البيت الذى يسكنه؟! كيف تنس هذه المأساة البشعة وأنت جاره وشاهدتها بعينيك وأنت طفل ؟! "..

ثم وجه الحديث إلى ، لثقته اننى ربما لم أعرف شيئاً عن قصة هذا البيت الذى امتلكه زوج ابنة عمى فى أهم وأخصب منطقة فى هذه المدينة التجارية الكبيرة:

– " هذا البيت ورثة رجل غلبان حرمه الله من الخلفة ! كان مصاباً بداء القمار! وكان مديناً للحكومة بسلفية من البنك بضمان حجة البيت ! خسر السلفية فى صفقة تجارية مغامرة خائبة! حجزت الحكومة على البيت! وكان الحاج قرد هو المنوط بمهمة التحصيل خاصة أنه يسكن فى نفس البيت! قام بلعبة جعلت المزاد يرسو عليه فاشترى البيت كله بثمن غرفة واحدة منه! بعدها مباشرة مات الرجل! وقيل إن الحاج قرد قد دس له السم البطئ فى كئوس من الخمر! والله أعلم لكن الحاج قرد لاتواخذنى ليس رجلاً !! "..

كان الحرج الشديد ظاهراً بوضوح على وجه محمد أبو سن ، بعد أن رفع يده عده مرات لإسكات عبد الله افندى مشيراً بذقنه نحوى إشارة إلى أن هذا الطعن

يسيئ إليّ لأن الحاج قرد هذا هو في النهاية زوج لابنة عمي التي هي في مقام شقيقتي. إلا أن عبد الله أفندي كان ممروراً من هذا الرجل، ليس فحسب لأنه لص ضلالي مستتر في ثياب الحجاج ، إنما ، بالأخص ، لأنه : " معندوش أي وفاء لقرايبه!".. وأضاف باشمئزاز :

– " شف كيف تعامل مع ولد غلبان كهذا !! اليس هذا في مقام شقيق زوجته؟! شف كيف احتقره واشمأز منه ! لو كان عنده ذرة دم واحدة لأسكنه في أي حجرة فوق السطح !! " ..

تذكرت أنني لابد قد حكيت لهما طرفاً من المعاملة التي عوملت بها يوم جئت لعمل النظارة الطبية وكيف استقبلوني على مضض ، كما حكيت لهما اطرافاً كثيرة عن ابي المسن وماضيه الحافل في الثراء والسياسة وحزب الوفد ، وكيف كان يفصل من عمله بمجرد سقوط الوزارة الوفدية . نعم لابد أنني قد حكيت ذلك دون أن أدري ثم نسيت أنني حكيته ؛ ولابد أن هذا هو سر تعاطفهما معي . قال عبد الله أفندي بحسم :

– " مهمتنا الآن أن نشوف له شغلة عاجلة ! "

قال محمد ابو سن وهو يزفر مفكراً:

– " المحل عندي لا يحتمل ثلاثة ! لكنني سأكلم خالي أمين صقر ليلحقه بمحلاته الكبيرة تحت رعاية أخي ! إن خالي رجل طيب ! وأخي الصغير محمود يعمل عنده على بنك الأزرار! المحلات كبيرة تبيع جميع أصناف الخردوات! قسم الأزرار وحده يحتاج لكثيرين من نوع خاص ! لبائع رقيق الطبع هادئ الأعصاب عطر الأنفاس مؤدب حلو اللسان لأن معظم زبائن هذا البنك من النساء ! أرى أنك تصلح لهذا البنك وسأكلم أخي محمود لياخذك معه ! المهم الآن أين تسكن ؟! كيف تبيت واين؟! "..

غمز له عبد الله افندي بشفتيه غمزة ذات معنى ، إضطر إلى توضيحه قائلاً :

– " إنه ياموﻻي كما خلقتني ! وقد أكرم الله الإخوان فجددنا له الثياب ! فعسى ان نجد رزقاً آخر للمبيت ! وهذه مهمتك! "..

قال أبو سن :

- " هل تركت الحجرة التى كنت تسكنها مع زملائك ؟! ".
- " من زمان ! "
- " فأين كنت تبيت ؟! "
- " فى لوكاندة الفردوس خلف المحطة ! "

لوى الإثنان شفتيهما اشمئزازاً ؛ وقال أبو سن :

- " ألم تجد غيرها ؟ مرتع الصياع واللصوص والنصابين والمحتالين والشواذ جنسياً! والقمل والبراغيث والبق !! عمرها لايقل عن مائة عام ! فرشها لم يتغير منذ افتتاحها ! وزبائن القرى الطيبين يتعرفون على البق بحكم العشرة الطويلة !! من يبيت فيها لا يحترمه أحد! الحكومة تهاجمها باستمرار لتأخذ منها النزلاء بالجملة " ..

شعرت برعشة الخوف ؛ فإذا كان هذا الكلام يقال عن لوكاندة مرخصة وذات إسم براق ، فما الذى يمكن أن يقال عن وكالة عطية؟ بل ما الذى يمكن أن يقوله لو علم أننى فى أعماقى أميل إلى وكالة عطية. فإذا كانت لوكاندة الفردوس التى تعمل برخصة رسمية وتتقاضى عشرة قروش فى الليلة عن أحقر سرير ، وتطالب النزيل ببطاقة شخصية وبيانات دقيقة ، لها مثل هذه السمعة التى يذكرها أبو سن ، فإن وكالة عطية لا تمثل مستوى أدنى .

فجأة قال محمد أبو سن :

- " ما رأيكما فى عشاء ؟! "

نظرت حولى فوجدت الليل قد احتاط بنا منذ وقت طويل ، وأننا قضينا وقتاً طيباً فى كلام لم اسمع ثلاثة ارباعه على الاقل. وقال عبد الله أفندى :

- " تغدينا عندى ولكن الله ليس ضد العشاء! خاصةعشاءك الذى تتفنن فى صنعه !

- " ورقة اللحمة هى الوصفة الناجعة ! "

وأشار للولد حندوقة على البنك المواجه ، فقفز عابراً البنك كالبهلوان ثم اختفى فى شارع السوسي . وبعد حوالى ربع ساعة عاد يحمل على صدره حجبة كبيرة فيها لحم وبصل وليمون وطماطم وثوم وجرجير. خرط كل ذلك إلى قطع صغيرة وضعها فوق بعضها فى مستطيل لفه بورقة سلوفان ثم لفه ثانية فى ورق اللحم التخين ثم

ذهب بها إلى الفرن البلدى حيث دفع بها الفران إلى جوف اللهب لمدة ساعة ؛ ثم عاد بها محمولة على كومة من الأرغفة الساخنة. فوق فرشة من الجرائد انفتحت اللفة فإذا سمفونية من روائح عبقرية تنبعث فتبعث الشوق والطرب والإنسانية. فليأت شارع السوسى برمته اصحاب دكاكين وزبائن لكي يشاركونا الوليمة فحتما سوف تكفينا وتفيض ، لكن آه من وسع البطون ؛ إنخرطنا فى الأكل حتى أتينا على كافّته في دقائق معدودة . مر بائع الشاى وبائع الفانلات والسراويل الواقف بعربة يد بجوار محل ابى سن ، وصبي محل العصير الذى ما إن رآنا وهو يمر حتى طاف بذهنه أربعة زجاجات اسباتس يمكن أن تطلب منه الآن ، فتلكأ حتى أكل نصيبه هو الآخر وجاء الولد الذى يشحم مجارى الأبواب فوجد الورقة ماتزال تحفل بالدهن وفتافيت اللحم وكلاكيع البصل والطماطم والجرجير وبقايا أرغفة ، فأكل بشهية ، ولم ينس إزاء كل لقمة أن يرسل الدعوات لنا بالستر وعمار البيت ، ثم تكفل بجمع الورق والبقايا واحتجازها معه ليرميها في علبة القمامة المعلقة فى عامود النور فى الشارع العمومي ؛ وتطوع فمسح البنك بكم قميصه . إنبسط منه محمد أبو سن فأمر له بزجاجة اسباتس هو الآخر حتى لا نكون قد أجحفناه بأخذ دعوات اقل مما أعطينا ؛ وفوق ذلك غمزه بالحسنة المعتادة مقابل تشحيم الباب..

بعد هذه العشوة الدسمة مضينا نحو حي أبو الريش ، لكننا لم نكد نبتعد حتى توقفنا أمام مبنى مضاء من الخارج بلافتة مكتوب عليها : لوكاندة الأمراء . دخلنا . إستقبلنا رجل بلحية طويلة وزبيبة صلاة بارزة على الجبين كحبة التين ، يمسك بيده مسبحة . تقدم منه محمد أبو سن ممسكاً بكتفي :

– " إزيك ياحاج صلاح ! الراجل ده يهمنا أمره ! دعه يبيت عندك مدة من الأيام ! خل بالك منه ! إختر له سريراً في حجرة مستقلة تليق بشخصه ! هاك أجر اسبوع كامل ! بعد ذلك يحاسبك هو يوماً بيوم أو ربما شهراً بشهر ! "

بسمل الحاج صلاح وحوقل ثم فتح الدفتر الطويل السميك المبطش بالوسخ وزيت العرق . طلب بياناتي . أمليتها عليه ..

– " معك أمانات ؟!"

– " معي حقيبة هدومى ! "

– " خلها معك فالدار أمان ! إنمـا قصـدت بالأمانـات أشـياء ثمينـة مثـل النقـود الكبيرة أو المسبوكات الذهبية أو خلافه مما يغري بالسرقة لكي نضعها لـك هنـا فـى دولاب الأمانات لتأخذها وقتما تريد ! " ..

– " تشكر ياحاج صلاح! أنا على فيض الكريم ! "

نادى : ياريس . فخف إلينا شاب أسود خفيف الظل مفلوج السن . قال الحاج صلاح وهو ينزع من لوحة خلف راسه على الحائط مفتاحاً ملحقاً برقعة نحاسية عليها رقم محفور :

– " إذهب بالأستاذ إلى نمرة خمسة وأربعين ! "..

الحجرة كانت محندَقة ، فيها سرير جميل بعمدان نحاسية ، مع دولاب مستطيل بدرفتين ، وترابيزة خشبية صغيرة ، وكرسى من الخيزران . فوق الترابيزة حرنـال مفروش قديم ، وطفاية سجاير ، وكوب ماء . دفعنى أبـو سـن إلى الداخل واضعاً يده في يدى فـإذا بجنيـه كـامل يستقر فيهـا ؛ فاقشـعر بدنـى مـن الغبطـة والشـعور بالعرفان . ثم وضعته فى جيبى . قال :

– " دعنى اراك باستمرار ! أعطنى نصف شهر لتدبير العمل مع خالى ! تصبح على خير! "

ودعتهما حتى باب اللوكاندة. عدت إلى الحجـرة. تذكـرت أننـى طـوال النهـار اشتاق لسيجارة ؛ فقفلت عائداً إلى الشارع لأشترى سيجارتين ماركة هوليود. فلما نزلت شعرت بمدى لذة أن يمضى الإنسان ليلاً فى شوارع المدينة وهو موقـن مـن أن له مأوى فى المدينة سيعود إليه وقتما يشاء ؛ فمضيت أتجول شاعراً بلذة فائقة .

يا عليشي يا واكل عيشي

واظبت على زيارة محمد أبو سن في دكانه كل مساء ، فأمكث معه حتى تبدأ السهرة في بيت صديق يدعى " سيد عليشي " . هو طالب في السنة الثالثة بكلية الحقوق ، وعضو بارز في جمعية الإخوان المسلمين ، وله نشاط حافل في الشعبة ، إذ يحبه الشبان يلتفون حوله للبحث في مشاريع فنية ورياضية وكشفية كثيرة . كان يغرم بالرحلات ، خاصة إلى الأماكن البعيدة كالوادي الجديد والفيوم وسفاجة والغردقة للتعرف على شباب القطر من إخواننا الكثيرين . مبدؤه أن كل شخص جديد تعرفه إنما هو كتاب قرأته وتعلمت منه ، فضلاً عن العزوة التى تشعر بها كلما كبرت عائلتك من الأصدقاء والمعارف . يتميز باللطف الشديد . ربعة القوام ، مدكوك الجسد جالس الملامح ، كل ملمح فيه مستقر في مكانه راسخ ؛ كبير الرأس والوجه، حليق الشعر على طريقة الأفندية المحترمين ، حليق اللحية ايضاً احمر الوجه كقرص الشمس ساعة الغسق ، باسم على الدوام متأهب لإطلاق ضحكة جزلة جبورة بصوت لاذع كدق الهاون . منضبط السلوك مهذب الحديث على قدر هائل من الأدب والخجل . محتشم في ملبسه واختيار الوانه. متحفظ في مشيته ونظراته بما يليق بوكيل للنائب العام أو محام كبير بعد شهور معدودة . أبوه تاجر غلال كبير عتيق ، ورث هذه المهنة أبا عن جد ، لدرجة أن المسنين من أهل حي صلاح الدين يقولون إن المحل الذى يتمركز فيه الحاج سالم العليشى الآن هو نفس الدكان الذى تمركز فيه جده وجد جده من قرون طويلة مضت ؛ كل ما طرأ عليه من تغيير هو تجديد طلائه وإضافة بعض المقاعد الحديثة الطراز ، حتى الدكة الخشبية العتيقة المثبتة فى مكانها بجوار الباب يقال إنها من عمر الدكان . يقولون إنه من عصر المماليك إلى عصر الحرب العالمية الثانية تكررت الهتافات أمام باب هذا الدكان ، يقوم بها الفقراء وجموع الناس الجوعى ، يهتفون في تنديد :

- " ياعليشى يا واكل عيشى !! ".

ذلك أن الجد عليشى الأكبر كان متكفلاً بمحاصيل المديرية يجمعها للسلطان من الفلاحين ؛ فكان يتفق مع السلطان على كمية معينة من المحاصيل يدفعها من مخازنه

ليتصرف هو مع الفلاحين ، على أن يتكفل السلطان بدعمه بالحراسة والشرطة التي تساعده في التحصيل باستخدام القوة إن لزمت أو نزع الملكية إن اقتضى الامر. ورغم أن هذا النظام قد بطل مع الزمن فإن العليشى الثالث أو الرابع أو الخامس كل منهم في عصره كان خبيراً بأمور السياسة في البلاد يدرس أحوال الإقتصاد وأحوال المحاصيل الزراعية فيقوم بتخزينها وقتاً طويلاً لبيعها وقت الشحة بأضعاف اضعاف ثمنها ، خاصة في أوقات الحرب أو الجفاف ؛ مما جعل الناس كلما تأزم وضع الخبز تنصرف أذهانهم إلى العليشى الذى بات رمزاً لشحة الخبز ، فيتجمعون أمام هذا الدكان العتيق ويندون به في ثورة غاضبة : ياعليشي يا واكل عيشى ..

سيد عليشي نفسه هو الذى يحكى هذا التاريخ في كثير من المرح والسخرية بأهله تجار الحبوب والمحاصيل الذين أصبحوا يملكون نصف عمائر حى صلاح الدين الجديدة والقديمة ، وأرضاً زراعية في زمامات كوم حمادة وإيتاى البارود وغيرها ؛ ومعظم أراضيهم جنائن تنتج العنب والبرتقال والجوافة والمانجو والكمثرى والموز ؛ يقوم على حراستها ورعايتها نفر من أبناء العليشيين الجدد الذين تزوجوا واستوطنوا حيث توجد هذه الحدائق . هدايا العليشى لأصدقائه وزملائه تتراوح بين أقفاص العنب وصناديق المانجو وسلال البرتقال واليوسفى وسبائط البلح بجميع أنواعه . ورغم أن الأكل في بيوتهم بغير حساب فإنه يعشق العشاء ليلياً في مطعم ختعن الشهير النظيف ، حيث يلقى فيه عناية كبيرة تليق بمقام أهله المادى ، فتجئ له أطباق الكباب والخضراوات بالموزة والأرانب والحمام المحشو بالفريك . في أربع ليال في الأسبوع يعزم شلته المفضلة التى منها أبو سن وأبو حنطور ، ومحام عتيق يدعى محمود أبو طور ، ومحام شاب يدعى سليمان بلبع ، ومدرس لغة إنجليزية في المدارس الثانوية يدعى صلاح العسكرى ، وطالب في كلية الآداب اسمه عمر اللقاني. هؤلاء لم تكن صلتي بهم تتجاوز معرفة الإسم والعمل واللقاءات التى تجمعنا بسيد عليشى ، حيث يغلق ابو سن دكانه في حوالى العاشرة مساء ، او ينصرف في التاسعة تاركا ابن شقيقته الذى كثيراً ما يخرج من المدرسة الثانوية ويجئ لكي يساعد خاله فيجلس على " الكيس" يقبض ثمن المبيعات بدلاً منه في لحظات غيابه ؛ وهو ولد مؤدب ذكي اسمه فكري فايد ويشبه خاله في كل شئ ..

عبد الله افندى حنطور ومحمد أبو سن وأنا نتوجه إلى مقهى فى شارع الخيري ، حيث يتجمع الأصدقاء . يتوجه الركب إلى مطاعم ختعن لتناول العشاء ، أو عند سليمان بلبع أو عمر اللقاني في منازلهم فى الليالي الثلاث الباقية من الأسبوع ، فيقل مستوى العشاء بكثير جداً ، وربما يتم بشكل تلفيقى مثير للرثاء خاصة عند عمر اللقاني نظراً لظروف أمه المريضة لأنه مضرب عن الزواج مؤقتاً احتجاجا على موجة التهتك والإباحية التى أحدثتها ثورة يوليو بين الفتيات المصريات باسم التحرر والسفور وما إلى ذلك من تحلل يبشر بقيام الساعة . بعد العشاء نتوجه إلى بيت العليشى فى شارع صلاح الدين ، فى سيارة أبيه ماركة البويك ، التى يستخدمها فى الليل فحسب كانت تستوعبنا جميعا بكل راحة ؛ فيتركنا ويرتد عائداً فى لمح البصر ليأتى بأبيه الذى يكون قد شطب العمل فى المحل ومكث فى انتظاره والباب نصف مغلق .. البيت مهيب ، مبنى على مساحة كبيرة تحتل ناصيتين ، بأربع طوابق ، وشرفات دائرية واسعة مزركشة بأفاريز ودرابزينات من حديد مخروطى ملون. الغرف واسعة، حتى السلم درجاته عريضة جداً وطويلة من الرخام النقى الحر. نصعد الطوابق كلها حتى السطح . أرضية السطح مغطاه بالبلاطات العريضة الملونة . أصص الزرع مرتصة فى حلقة دائرية على حوامل حديدة مثل حوامل الأزيار . أما السور الدائري السميك ففي جوفه أحواض مستطيلة مبنية بالآجر ومزودة بتربة سمراء تنبت فيها ورود وزهور عطرية . فى المواجهة فى ركن كبير من السور بناء جميل تظلله أشجار اللبلاب وعناقيد العنب وخيوط من زهور الفل والياسمين ؛ تلك هى الحجرة الخاصة التى كانت فى الأصل معدة لغسيل الثياب ولكن سيد استولى عليها منذ امتحان الشهادة الإبتدائية وجعل منها محرابه الخاص للمذاكرة والقراءة واستقبال الأصدقاء . هى تحفة حقيقية ، على مساحة تصلح لإقامة شقة كاملة . ما أن تدخلها حتى تفاجأ بمكتبة كبيرة حافلة ؛ الحوائط كلها أرفف أنيقة ملهونة بالأويما ، تمتلئ بعشرات من المجلدات الكبيرة والصغيرة لكتب ومجلات وصحف ، وتماثيل من النحاس والبرونز والرخام ؛ الأرض مفروشة بسجاد ثمين ؛ فوقها عدد كبير من المقاعد من طراز فرنسى ، وكنب بلدي . ثمة درابزين صغير يلتحق به مايشبه الباب على يمين الداخل . تفاجأ بأن سلماً خشبياً شديد

الأناقة والنظافة يهبط إلى أسفل ، إلى الشقة التى تسكنها أم سيد وإخوته ، فى حين تسكن الشقة المقابلة زوجة أبيه الأقدم من أمه . وفى بقية الطوابق يسكن أعمام سيد وأولادهم المتزوجون . كثيراً ما يتركنا سيد ويهبط هذا السلم الداخلي ، ليعود بعد قليل حاملاً الشاى أو القهوة أو عصير البرتقال والليمون وأطباق الفاكهة النادرة فى غير مواسمها ، مثلجة شهية ثم تبدأ السهرة بقراءة عبقريات العقاد ، أو الفتنة الكبرى لطه حسين ، أو : من هنا نعلم ومحمد والمسيح وإنه الإنسان والوصايا العشر لخالد محمد خالد . كل واحد يقرأ حتى يجف ريقه فيترك الكتاب لغيره . وبين كل بضع صفحات ترتفع الأصوات كلها دفعة واحدة فى مناقشة غوغائية بعض الشئ ، سرعان ماتنتظم قليلاً ليقطعها القارئ مستأنفاً الإسترسال طالباً تأجيل النقاش حتى ينتهى هذا الفصل على الأقل ..

تنبهت فى الأيام الأخيرة إلى سيد العليشى ؛ إندهشت كيف كان غائباً عن فطنتى منذ بدأت عصر التشرد الأليم ؛ مابالي لا أكلمه الآن عن ظروفي الشخصية عسى أن يجد لي عملاً فى مخازنهم العامرة العتيقة ، أو على الأقل يتوسط لى لدى واحد من طبقة كبار التجار فى المدينة أولئك الذين تتكوم البضائع أمام محلاتهم بغير حساب كما يكثر عندهم عدد العاملين . إن مدينة دمنهور حافلة بالمحلات ذوات البنوك الكبيرة الممتدة على مساحات عميقة ، مثل محلات محمود الخوالقة تاجر الصيني ، تحتوى محلاته على كل مايخطر او لا يخطر على البال من أشياء تخص مطابخ المنازل وجهاز العرائس حتى لقد يحتاج الزائر لمحلاته إلى يوم بليلة لكى ينتهى من المرور على جميع بنوكه وأركانه . ومثل محلات المسيرى تاجر الفانلات والسراويل والمنسوجات القطنية ولوازم الفرش والحمامات ، يملك مصانع كبيرة ويصدر للخارج . ومثل محلات غراب تاجر الخردوات الذى تعلن لافتات محلاته عن وجود مائة ألف صنف بدون مبالغة . كل واحد من هؤلاء له حياة هى العجب العجاب ؛ وأعجب ما فيها أن أهل المدينة كلهم يرونها رؤية العين ويلمسونها لمس اليد ويصيبهم من جرائها بعض الخير او بعض الشر ومع ذلك لايصدقونها إن هى حكيت لهم ؛ فليس يصدق أحدهم إذا قيل له إن تاجر الصيني أو أنداده لديه محل خاص بالجزارة مهمته بالدرجة الأولى تمويل البيت باللحوم الطازجة المضمونة ، أما

البيع فغناوة على الهامش ؛ أو أن أحدهم لديه شقة ليس فى الإسكندرية فحسب بل وفى لندن وباريس وفرانكفورت وسويسرا ؛ فضلاً عن محلات جانبية للحضراوات والفاكهة والدواجن . كل هذه المحلات الفرعية ليست تعانى من أى نقص فى المواد، لأنها تمول من مزارع وحدائق يتملكها الواحد منهم فى ريف البحيرة الخصيب . وليس ثمة من مشاكل بين هؤلاء القوم وبين مصلحة الضرائب ، لأن الجميع يبيت متعشياً أربعة وعشرين قيراطاً .. فكم يكون جميلاً ورائعاً لو أن سيد العليشى - وهو أخ فى الله كما يُرينا دائماً - إستطاع أن يلحقنى بمعية واحد من هؤلاء الأباطرة ككاتب للحسابات أو بائعاً على بنك . وكم يكون أروع وأجمل لو أنه تاثر بظروفى النفسية والسكنية فأذن لى بالسكنى أو حتى بالمبيت معه مؤقتاً فى هذه الغرفة البديعة النظيفة ..

وهكذا استقرت نيتى على اختيار لحظة مناسبة لأكلمه فى أمري ؛ ولكن خاطراً طاف بذهني : إذا كان ذلك ممكناً بالنسبة لسيد العليشى فلماذا لم يطف بذهن محمد أبو سن وهو يفكر فى كيفية تقديم المساعدة لي ؟ .. خفت ؛ إن أنا كلمت العليشى فى موضوعي أن يغضب أبو سن .. رأيت تأجيل ذلك حتى يبلغني ابو سن أنه قد يئس من محلات خاله . وفى الليلة التى اقتنعت فيها بأنني يجب أن أعطي العليشى مجرد فكرة عن ظروفي أمهد بها لما سوف اطلبه صراحة ؛ حدث ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق : كنا قد تعشينا على حسابه حماماً مشوياً عند ختعن ، فتخدرت أجسادنا من الإفراط فى الشبع ، وفترت حماستنا للقراءة خاصة أننا انتهينا بالأمس من كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق فى طبعة نادرة مهربة ، ولم نستقر بعد على الكتاب الجديد الذى نبدأ فى قراءته . تمطرقنا فوق الشلت على السجادة ندخن بشراهة ونرشف الشاى الثقيل .حينئذ قال اللقاني فجأة للعليشى :

- " الأخ عبد الحميد مهينة سأل عنك مرتين فى الشعبة بالتليفون وبشكل ملح"

تكرشم أنف سيد العليشى ، وشوح بذراعه علامة القرف والإشمئزاز ؛ مما حدا بعمر اللقاني أن يستدرك : " أوشكت أن أجئ به معي "

فانتفض سيد العليشى جالساً يلوح بأصبعه فى تهديد جاد :

- " إياك إياك إلا إذا كنت تريد أن تخسرني "

فاحمر وجه اللقاني كقلب البطيخة الشيليان من شدة الحرج وعدم التوقع :
- " لِمَ ؟ إنه ولد غلبان ومكافح قلبه أبيض يحبك حباً صادقاً لا ريبة فيه .ثم إنه مؤدب وملتزم بفروضه وقرآنه ومشاعر اصدقائه وحسب علمي أنك تحبه " .
عقد سيد العليشي ما بين حاجبيه ولوى عنقه إلى بعيد علامة الضجر ؛ ثم كأنه يتذرع بالهدوء :
- " كل هذا أعرفه ! وهو صحيح وإلا ما كنت ساعدته ، أنت تعرف أنني أنفقت عليه مئات الجنيهات ومستعد لمواصلة الإنفاق مئات أخرى ، مستعد للدفع مصاريف دراسته فى الأزهر حتى يتخرج وشراء كسوته وكسوة أهله من جُعل الزكاة الذى يخصصه أبي كل عام وهو كثير والحمد لله . لكنني غير مستعد لان أجالسه أو أعطيه فرصة لأن يكون صديقي يجالسني نداً لند ، إنه من بيئة وضيعة جداً فأبوه من قبائل الغجر الرُّحّل ثم إنه حسود وأنا أكره الحسود ، إنك إن جالسته انكسرت هيبتك فى نظره وإذا انكسرت هيبتك تجرأ عليك وهزأ بك واستحالت الصدقة التى تمن عليه بها إلى شبه إتاوة ، إنني أعرف هذا الصنف من الناس ، دكان أبى معرض كبير أورانى الكثير منهم وأوقفنى على طبائعهم . وعلى كل حال دعنا منه الآن نريد أن نصفى أذهاننا لنقرأ كتاب " إبليس " للعقاد .. فصمت اللقاني صمتاً كظيماً كأنه قد أهين . الغريب أن أبا حنطور وأبا سن كلاهما لم يراجعه فى كلامه ؛ لكن شيئاً من الإمتعاض ظهرت آثاره على وجهيهما بوضوح . بعد هنيهة مد أبو حنطور رقبته الطويلة بوجهه المشطوف الذى بدا فى انعكاس الأضواء الركنية كمجموعة من المثلثات متداخلة فى بعضها ؛ وقال بخبث جميل شديد العمق والتورية فى صيغة نكتة مرحة :
- " وما الداعى لإبليس الليلة.؟ إننا محتاجين الآن لطرده بدلاً من استحضاره ..
فتبسم أبو سن عن أسنان كبيرة ، بسمة تنضح بالذكاء والغباء ؛ أسقط فكه الأسفل بحركة ذات معنى كأنه يخشى مغبة هذه الغمزة القارصة . وهكذا أيقنت فى الحال أن عشمي فى سيد العليشى مساو لعشم إبليس فى الجنة . كما ايقنت أنه لو علم بأني شوهت خلقة مدرس الرياضة وانقضضت عليه فانفصلت من المعهد وصرت متشرداً إضافة إلى أنني فى الاصل ابن ناس فقراء معدمين فلسوف يحتقرنى

أشد الإحتقار ، وربما أوصى بعدم اصطحابهم لي عند المجئ إليه ، فاستفزني ضميري أن أبالغ فى احتقاره ، أن أمتنع عن المجئ من تلقاء نفسي ، أن أشعره بعدم الاهتمام إذا لقيته صدفه ؛ ذلك أنني لن أذهب إلى شعبة الإخوان بعد الآن مطلقاً ، فلست عضواً بعد فى الجماعة ، كما أنى لم أعد أنبهر بمواعظهم كلما تقدمت فى القراءة معهم أو مع نفسي ، وإن كنت أحب الكثيرين منهم حباً عميقاً وأحترمهم اشد الإحترام .. ولقد حدث . فأما الشعبة فلم أكن فى الأصل متعلقاً بها منذ أن وجدت ضالتي فى مقر الحرس الوطنى بحديقة نادي الموظفين الحافلة بملاعب للكرة بجميع أنواعها ومنصات للملاكمة والمصارعة الحرة بل وساحات للجرى وللقفز على الحواجز العالية ورمي الجلة والتدريبات العسكرية وما إلى ذلك . صلتي كانت بفريق التمثيل ، الذى يضم نخبة من شباب المدارس والجامعات من أبناء دمنهور الذين يتعلمون فى الإسكندرية ويسافرون إليها كل يوم فى القطار ، ونخبة أخرى من راسبي الشهادات مثلي ومثل وائل أبو النصر أحد راسبي التوجيهية الذى يجيد العزف على العود والساكسفون والأوكورديون ويموت عشقاً فى التمثيل نظراً لإتساق شكله ووسامة ملامحه ؛ إذ هو مديد القامة ، ممشوق القوام ، غزير الشعر مصففه بخصل تنحدر قليلاً نحو الجبين مفروقة من الوسط . هو ممثل جيد بالفعل بل لا يمكن إلا أن يكون ممثلاً من خصلة شعره هذه إلى حذائه اللميع الأنيق . وقد أصاب شهرة كبيرة فى المجتمع الدمنهوري من الساحة الشعبية إلى نادي الموظفين إلى حفلات المدارس الكبيرة إلى الحفلات الرسمية التى تقيمها المحافظة أو هيئة التحرير فى المناسبات الوطنية كعيد الجلاء أو عيد الثورة ؛ بل إنه كان يظهر فى الأفراح العائلية سواء فى مسرح سينما البلدية أو منصة فى الشارع يؤدي بعض منولوجات من تأليفه وتلحينه أو تأليف أحد رجالي دمنهور كحامد الأطمس أو حمدي النعناعي أو عبد المطلب منجي ، يتخلل المنولوج مشاهد تمثيلية على درجة كبيرة من الإتقان فى الأداء إذ هى نكات أو نوادر مرويّة حول أنماط شعبية ملموسة لكافة المجتمع الدمنهوري . كان يقوم ببطولة مسرحية (الشرف الرفيع) التى ألفها ويقوم بإخراجها لفرقة تمثيل الحرس الوطني ، ودوره هو دور الشاب الجامعي الذي يتميز غيظاً من الإحتلال الإنجليزي وحقداً عليه فيتطوع للقتال فى مدينة الإسماعيلية مردداً

بيتاً شهيراً من قصيدة لأمير الشعراء : " لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم " ؛ إذ أن للحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق . وكنت قد أعجبته ، وتأكد من صدق ميولي نحو التأليف والتمثيل ومن وعى ملاحظاتي الفنية على بناء مسرحيته وعلى تمثيل الإخوة ؛ فوضعني في دور الباشا كبديل إحتياطى لصديقنا مأمون فريد غانم الطالب بآداب الإسكندرية الذى قد تمنعه ظروف المرض المفاجئة من الحضور ، فحفظت الدور عن ظهر قلب وصرت أؤديه فى التدريبات الليلية فى الأوقات التى يغيب فيها صديقنا كان ذلك مما يسعدني غاية السعادة يجعلني أمشي فى شوارع المدينة آخر الليل وأنا شاعر بأن لي بعض كيان ، على الأقل لساعات معدودة ينهار كل شئ بعدها على رصيف النوم . وإذ تذكرت أنني انقطعت عن التدريبات لبعض الوقت داخلني شعور عميق بالإبتهاج كأنني اكتشفت براحاً جديداً فى سجن الليل . فى الحال فتشت فى ذاكرتي عن السبب الحقيقي الغامض الذى منعني من حضور التدريبات فى الليالي الكبيرة الماضية ، فتبين لي أن الثياب الرثة والمظهر البائس هما اللذان أخجلاني من الظهور فى ساحة النادي أو حتى المرور من أمامه . فلما رأيتني متقمشاً بالجديد الذى لم يفقد نكهته بعد ؛ وجدتني أمضي فى حماسة إلى النادي فى خطوة شبه عسكرية حاولت دائماً أن أقلد بها مشية الأفندية من أولاد المدينة . غير أنني فى الغالب كنت أصل إلى هناك بعد التاسعة مساء إذ أنني أمر على دكان محمد أبو سن لأمكث معه ريثما أشرب كوبة شاى فى انتظار أن أسمع خبراً عن الشغل الذي يحاول تدبيره لي فى محلات خاله . إلا أنني مالبثت حتى سئمت من المرور اليومي عليه بدون جدوى ؛ فصرت أذهب يوماً وأفوت يوماً . وكانت مدة الإقامة فى اللوكاندة قد انتهت لكنني مستمر فى المبيت على حساب أبي سن . إستمر ذلك شهوراً طويلة ؛ حتى فوجئت ذات صباح بالرجل السُني يوصيني - بكل أدب جم - ان أخذ معى حقيبة ملابسى ، ففهمت تلقائياً أنني لا ينبغي أن أعود إلا وفي يدي نقود . تقبض قلبى ، هاهي ذي الثياب النظيفة ستؤوب إلى الوسخ من جديد باستئناف التشرد فى وساحة الليل وتراب ارصفته وبلل طلّه .

بدرية

لم يكن معي أى نقود على الإطلاق ، وقد بدت الحقيبة كعبء ثقيل كمشكلة عويصة ، فأنا لا يمكن أن أظل ماضياً بها فى الطريق إلى مالا نهاية . كان لابد من التخلص منها فى مكان أمين . ألهمنى الله بالمرور من أمام دكان صديقى حمدي الزواوي بائع السجائر والدخان المعسل وبعض أنواع الحلوى . كثيرا ما كنت أقف معه ساعات طويلة نتحدث فى أى حديث ، فإن طال الحديث وندرت الزبائن جلست فوق البنك مدلدلاً ساقى فى عتبة الدكان وكوب الشاى فى يدي ، وحمدي الزواوي بجواري من الداخل يميل مرتفقاً البنك ينبهني إلى أجساد النساء اللائي يراهن تحفاً فنية صورها جل جلاله تبارك الخلاق فيما خلق . كنا فى الظهيرة والشمس تضرب خيامها أمام دكانه توقد ركية نار فى أفقها ؛ مما اضطره إلى فرد التندة الكتانية ، ووقف خلف البنك منهمكاً فى عصر ليمونة فوق طبق الفول الذى تهتف رائحته قائلة : يحيا فول العاصى ..

حودت ، فامتد ظلي الممطوط فغطى طبق الفول والرغيفين والبصلتين وطبق السلاطة بالطرشي . رفع قامته ، جحظت عيناه فيما يقرب من ذهول المفاجأة . لم يكن رآني منذ وقت طويل جداً ، فانحنى فارداً ذراعيه عبر البنك ، مبربشاً بعينه اليُمنى ذات الغشاوة الخفيفة ، ماداً أنفه المستطيل الرفيع كقلم مبطط ، وحاجبيه الرفيعين الثقيلين بظلال سوداء ، وفمه الدقيق ينوء بشارب كثيف سُوى بعناية الملقاط والفتلة ، حتى أن بقايا النتف واضحة وضوح الشارب . ملت عبر البنك فحضنته بادلته القبل فى خديه ، ثم ركنت الحقيبة على سطح البنك بطريقة فهم منها أننى أحملها وألف بها فى الشوارع منذ شهور طويلة مضت . قفزت جالساً بجوار طبق الفول مباشرة . مد رقبته الطويلة المبرومة نحو الشارع صائحاً : ياد يافهمي . فجاء صبي فى العاشرة من عمره مثل رجل صغير القوام يرتدي بذلة كاملة محندقة برباط عنق ، يقابله قدر كبير من اللباقة واللياقة معاً ، ذلك هو فهمي الناظر ابن أخت حمدي الزواوي من الصائغ المجاور لدكانه مباشرة ، وهو تلميذ فى الإبتدائية وعضو فى فريق تمثيل الحرس الوطنى ويمثل دور ابن الباشا اللبيب المتكلم

بكفاءة مدهشة حقاً . سلم فهمي علي بحرارة الرجـال ، باعتبارنـا زمـلاء فـي فريـق واحد ونمثل معاً فى مشاهد عديدة نداً لند . صـاح فيـه خالـه : " طبـق فـول واربـع أرغفة بسرعة " . ففي الحال لم نـره ، وفي الحـال ظهـر مـن جديـد ملوحـاً بذراعيـه للخلف في حركة رشيقة تعني القول : جاى حالاً . وبـالفعل ، ماكدنـا نـأتي علـى الطبق حتى دخل علينا شـاب يرتـدي المريلـة البيضـاء مكتـوب علـى صدرهـا اسـم العاصي بغرز التريكو الأحمر وبجواره رسم لقدر فول تطل مـن فوهتهـا يـد الكبشـة الأنيقة . وضع صينية الطعام بأطباقها الثمينة وانصرف ..

ماكل هذه الشهية ؟ كان حمدي الزواوي قد انسحب فى هـدوء فأشـعل وابـور السبرتو تحت البنك ووضع فوقه براد الشاى الذى راح يغلـي ويرسـل عطـر الشـاى النفاذ ، فيما أنا مستمر في فرد اللقيمات ومسح أطراف الطبق بها فى لـذة هائلـة . وحين أمسكت بكوبة الشاى الزجاجية الصغيرة المخمليـة المرغيـة كـان فمـي يلـوك آخر لقمة طوحتها فيه . فبلذة فائقة رشفت رشفة شاى لتختلط ببقايـا الطعـام ، إلا وحمدي الزواوي يغمزني بسيجارة هوليود طازجة النكهة ، ورص الأطباق وازاحهـا إلى بعيد وارتفق مكانها بجوارى كعهـده دائمـاً صار يجـذب أنفاسـاً مـن السـيجارة فتنضغط أصداغه غائصة فى فراغ حنكه فيما تتكرمـش شـفتاه كأنـه يرشـف القبـل العميقة من ثغر بنت من بنات الحور ، ففى كل حركاته وسكناته وكلماته كثير مـن الشهوانية الغريزية اليقظـة ، والشبق العميـق الدفـين ، راح يرسـل سـحب الدخـان الغزيرة ، وصوته يبعثرها فى حلقه :

- " يبدو أنك لا تُعاشر ! أين كنت ؟ هل هذا ينفع ؟! "

لكزته بأطراف اصابعي في شعر رأسه الجعد :

- " الحياة لهو وقرف وطينة ! هكذا اتفقنا دائما ! "

كعادته لم يسألني عن تفاصيل أى شـئ ، رغـم استعداده الدائـم للإسـتماع إلى مالا نهاية ، ولأنني كنت موقناً من ثقته التامة فى وفي كل ما أقول ، وإحساسي بأنه لن يتورع عن إفراغ درج البنك فى جيبي إذا طلبته علـى سـبيل السـلفة أو علـى أى سبيل ، لذلك كنت دائماً أبدا أحجم عن محاولة الإفتراض منه ، إذ تتجلى الطيبة فى عينيـه ، فاتخيلـه - لا أدرى لمـاذا - بائسـاً مضحوكـاً عليـه فـى نصبـة كبـيرة أودت

برأسمال دكانه وهو واقف حائر وديع لا يدري ماذا يفعل سوى أن الدمع يبكي من عينيه إذ يتلقى تقريع أهله المسبوطين وتعييرهم له بأنه الوحيد الذى خاب فى إخوته لشدة طيبته وغفلته ، فكل إخوته بين محام وطبيب وضابط شرطة ومدرس وناظر مدرسة وصاحب مانيفاتورة ، إلا هو ، حصل على الإبتدائية بشق النفس وشطر على نفسه الطريق المدرسي حتى بات معرة أبيه وأخوته لبضع سنوات ، إلى أن ساعدته أمه الميسورة باستئجار هذا الدكان وملء رفوفه بالبضاعة تاركة إياه يسبح فى بحر الحياة مسئولاً عن نفسه ، فكان ان تعب أشد التعب لكي يقف على قدميه ، ولولا أن الشقة التى يقيم فيها من ملك أبيه في بيتهم لضوعف تعبه . وقد نوى حمدي ألا يتزوج حتى يستريح تماماً ..

شكله دائماً فى نظرى مثير للشفقة خاصة حين يستعد لمجيء "التروسيكل" بالسجائر ، فيروح يدبر قيمة الفاتورة ، فيبدو فى غاية من الإرتباك والتعاسة ، مع أنه يكون قد تبرع منذ قليل بجنيه كامل لعمل خيري لو احتفظ به لاكتملت قيمة الفاتورة على التمام . الوحيد الذى يمكن أن يقرضني أى مبلغ دون تلكؤ أو سؤال عن أى تفاصيل ، أحدني غير متحمس على الإطلاق للإقتراض منه ، مكتفياً بتدخين السجائر التى يغدقها على بغير حساب طوال وقفتي معه ، مع الشاى أكثر من مرة..

كان ثمة طنين يملأ سماء المدينة يصنع أرضية كثيفة لأصوات السيارات وآلات التنبيه ونداءات الباعة فى سوق الخضار وسوق السمك وشارع السوسى خلفنا مباشرة . سرعان ماراح الطنين يقترب شيئاً فشيئاً يتجسد فى موسيقى القرب والطرمبيت والبروجي والآلات النحاسية ، إنها فرقة موسيقى الشرطة ، مالبثت حتى ظهرت طاغيه مدوية زاحفة على أرض الشارع تجر خلفها أرتالا من العماليق لابسي الأصفر فى اصفر متقمطين بالأحزمة والأشرطة الحمراء. ، خلف الفرقة طوائف من عساكر الشرطة يمتد موكبهم الطويل على مدى البصر يمشون فى خطو عسكري مبهج على إيقاع الطرمبيت ، بعض السيدات فى الشرفات يتطوعن لتحيتها بالزغاريد ترفرف فوقها رنانة ريانة تدفع حمدي الزواوي إلى الهتاف بهمس مبحوح متهدج بنار الوجد :

- " ياو ...ا ...ا ل ..د .. آدي الجد ولا بلاش ، هذه هي الشرطة الحقيقية فى البلاد ، الشرطة تستعرض قوتها براحتها كما تريد إنما شرطة الزغاريد هى الأنقح والأقوى " .

مع ذلك يحلو لنا أن نخرج مثل كل الناس لنقف على الباب تتفرج على استعراض الشرطة الذى تقيمه مديرية الأمن بشكل منتظم كل أسبوع تقريباً كل طائفة وراء الأخرى بلباسها المميز : شرطة المرور ، شرطة الأمن العام ، شرطة المطافئ ، شرطة المرافق ، شرطة التموين ، في ذيلهم طلبة المدارس يحملون الأعلام واللافتات بأسماء مدارسهم أو معاهدهم بموسيقاهم الخاصة على قلهم يلبسون لبس الكشافة بأشرطة خضراء وحول الرقبة وسراويل قصيرة وقمصان من الكاكي الأصفر . بقليل من الإنقباض تذكرت أنني كان منالمفروض أن أكون بينهم الآن لولا أنني بسوء مسلكي طردت من جنة الأفندية وأصبحت شريداً أو مندساً فيه بغير رخصة شرعية ..

وكانت أذيال الموكب الصغيرة القصيرة القامة تنسحب بطنينها الشديد وتتباعد حينما سلمت على حمدي الزواوي ورجوته أن يحتفظ بحقيبتي عنده لحين عودتي لاستلامها بعد وقت قد يقصر أو يطول حسب التساهيل. ماكدت أخطو حتى ناداني وهز علبة هوليود كانت في يده ونظر فى جوفها مضيقاً عينيه فوجد بها ست سجائر ، طوح بها نحوي ، تلقفتها دون كلمة شكر ومضيت مسرعاً كأن ورائي مسئولية الدواوين . رحت أتسكع فى شارع الصاغة بغير هدف وقلبي يحدثني بأن أتوجه إلى وكالة عطية لكن كيف أذهب بغير نقود؟ إمتلأ عقلي بالضباب فرحت أمشى على غير هدى اتفرج على الفتارين كأني أخطط لسرقتها أو احتلالها.

مرق من حوارى طيف يطرق الأسفلت بكعوب ثقال منغومة فى رشاقة موقعة : تك .. تراك .. تك تراك . تأملت الجسد من ظهره . إنه ليس غريباً على ، هذا الظهر القائم فى رسوخ واضح الفلقتين من الكتفين العريضين حتى الخصر الرفيع ثم العجيزة الكبيرة المستديرة كالقبة . هيكل ينضح بالأنوثة والشهوة ، عملاق يوحي بأنه غير قابل للشبع إلا من إله الجنس ذاته . ساقان مبرومان ، سمانتان فى بياض وسخاء الرخام . كعبان فوق كعبي الصندل اعتقلت فيهما الدماء الغضة القرمزية .

كانت فرحة ، خاصة أن الثوب الذي ترتديه ضيق يبرز كل نتوء خفي في جسدها بوضوح تام ، وشفاف ، تظهر من تحته حمالة القميص الداخلي ذي اللون البمبي المتسق مع لون الجسد نفسه ، الذي تظهر منه جزر صغيرة بين الكتفين والذراعين والعنق المتخفي تحت شعر أسود غزير لامع، معتقل على الجبين بشريط أحمر منطرح على الظهر على هيئة المقشة ، كل من كان يمشي وراءها أسرع فى خطوه حتى حاذاها ليهمس فى أذنيها بشئ فيما هى مارقة كالسهم المنطلق لا تلوي على شئ وإن بدا عليها أنها سعيدة مبتهجة مختالة بما تحدثه من ربكة فى الشارع ، لكن المار بحذائها ما أن يقع بصره على وجهها حتى يتقهقر منسلخاً عنها لاوياً وجهه ، وربما أطلق صيحة استنكار مصدومة وربما تمتم فى غير خجل ولا حياء بـ : " أعوذ بالله ـ سبحان الله اللهم لا اعتراض " ذلك أن الفرق شاسع وهائل بين وجهها الخلفي ووجهها الأمامي ، لكن الأمر مع ذلك لا يعدم ناساً ثقلاء يمعنون فى التعرض لها ومضايقتها ، فحينئذ تتوقف هى لبرهة ، ناظرة إليه فى غضب جنوني وتأنيب حاد ، وربما بصفعة على وجه أحدهم بجرأة مخيفة رادعة ، وربما طلبت له الشرطة ..

أسرعت بدوري خلفها كأنني غير منتبه اليها . وكانت قد توقفت وراحت تهدر بكلمات غاضبة فى صوت خفيض متوعد ، فى وجوه بعض الشبان الواقفين على إحدى النواصي ، تجاوزتها قليلاً ثم استدرت عائداً كأنما بطريقة عفوية ، لأصير فى مواجهتها تماماً . ياللحرج ، إنها بدرية القباني ، إبنة بنت عمي ، التى شارفت سن الأربعين ولم تتزوج بعد ، نظراً لغلظ شفتيها فحسب ، إذ كانت سبحان الله كالقمر المنير حقاً ، يتفجر وجهها بالضوء والحيوية والجاذبية ، لولا أن غلظ شفتيها بهذه الصورة المدهشة غير الطبيعية كان يصدم الرائي على الفور ، ولابد من عملية جراحية تختصر هذين الكيسين الدهنيين ؛ لعله يتصور نفسه وهو يقبلها ليغيب برأسه كله بين شفتيها اللتين تبدوان كزلومة الفيل أو كحنك جوال مربوط بحبال متينة .

قلت لها :

- " مالك يابدرية ؟ ماذا حدث ؟ "

تدفق الدم فى وجهها واتسعت عيونها فوق اتساع حتى شعرت أننى غرقت فى عينيها السوداوتين ، قالت بترحاب حقيقي حار : " أهلاً أهلاً " وسلمت على

بحرارة ، فغابت يدي النحيلة في قبضة يد رخوة ندية ناعمة بذراع بضة ورسغ مليء بالأساور الذهبية .

ثم قالت :

- " لا شيء ، عيال صياع يقفون على النواصي "

وكان الأولاد قد انزووا في ركن بعيد وتصنعوا الإنشغال في خجل وحرج شديدين . قلت لها : " لا يهمك أى خدمة ؟"

قالت : " شكراً " واستأنفت السير محركة رأسها حركة تعني : تفضل وامشي معي . فسرت بحذائها . قالت بعد برهة :

- " كيف حالك ؟ لم نرك منذ مدة طويلة عامل إيه في المعهد ؟

قل لي ما هذا الخبر السيء الذي نقله أخي كرم من المعهد ؟ هل صحيح أنك أردت قبل مدرس الرياضة ففصلوك من المعهد " ؟

شعرت كأن الأرض تميد بي . قلت : " نعم حدث" نظرت لي باستنكار غير مصدقة :

- " كيف ؟ لماذا هل هذا فعل تفعله يا راجل ياطيب ؟ منذ متى كان في أسرتنا قتالين أنا لا أصدق أنك فعلت هذا ؟"

حكيت لها بسرعة وإيجاز حقيقة المسألة ، فبدا عليها التأثر والأسف الشديدين .

قالت :

- " حرام ضيعت مستقبلك في شربة ماء وماذا تفعل الان ياترى ؟ لقد زعلتني والله يا شيخ "

- " سوف أسافر إلى الإسكندرية للعمل في مصانع كبريت البنا ـ إنه كما تعرفين من أعز أصدقاء أبي قبل أن يغتني أيام كان فقيراً معدماً في بلدتنا "

تدلت شفتها السفلى عن أسنان متسقة جميلة ، قالت :

" وهل يفتكر البنا أيام فقره ؟ وكيف يتأتي لك أن تقابله ؟ هل عندك واسطة؟"

لم يكن قد خطر في بالي هذا الموضوع من قبل على الإطلاق ، ولابد أنه كان مدخراً في باطني ولم يظهر سوى الآن بهذه العفوية .. وجدتني أقول ما افكر أن أفعله :

- " معي جواب من أبي وجواب من عم البنا في البلد سأبعث بهما من بوابة المصنع وأنتظر الإذن بالدخول"

- " إه .. ربنا معاك "

فوجئت بأننا صرنا أمام بيتهم ، فتوقفت أنا فيما واصلت هي . وإذا بها ترتد نحوي خطوتين :

- " لماذا وقفت ؟ "

- " أدعك في رعاية الله"

نظرت في وجهي باستنكار لا يتفق مع برود أهلها :

- " وهل هذا يصح ؟ هيا ادخل "

ووضعت يدها على كتفي ودفعتني برفق لأعبر الباب إلى السلم مباشرة . قلبي بين الضلوع ينتفض في رقصة غامضة سريعة الإيقاع تفح في داخلي مزيجاً من مشاعر الخوف والبهجة والإغتباط والقلق ..

حركة البيت على غير العادة ساكنة سكون الموت. درجات السلم نظيفة مغسولة بالمياه حديثاً . باب الطابق الأول مغلق ، وكذلك الثاني ، والثالث . عند الطابق الرابع توقفت بدرية على البسطة فيما توقفت أنا أسفلها ببضع درجات مستنداً على درابزين السلم ، فكان أنفي يكاد يغوص بين الإليتين الضخمتين القويتين ، ورائحة عطر أنثوى فياض تسكرني تطير لبي . فتحت حافظتها فأخرجت المفتاح وفتحت الباب ثم دخلت ، فدخلت وراءها . في هذا الطابق تنام كل من بدرية ويسرية وشكرية ، في شقة مكونة من أربع غرف وردهة مربعة مفروشة بمقاعد على الطراز الأسيوطي . من هذه الردهة ينزل سلم حلزوني رفيع إلى الطابق الثالث المكون هو الآخر من أربع غرف وردهة حيث ينام الحاج مسعود والحاجة وديدة ، ومن ردهتها ينزل سلم إلى الطابق الثاني حيث ينام كل من ميمي وشريف

وصفوت وكرم . أما الطابق الأول - فوق الأرضي المشغول بدكانين لبيع الأثاث - فيقيم الثلاثة الكبار : حواس وبديع ومجيد ، وفيه تستقبل ضيوف الأسرة كلها ..

جلست في الردهة على المقعد فميا اختفت بدرية في غرفتها ، وبعد برهة قصيرة خرجت من غرفتها ترتدي قميصاً منزلياً واسعاً بغير أكمام ، هفهاف من الحرير الشفيف ، وقد عقصت شعرها في ربطة واحدة كالقبعة ، ثم سلطت عينيها في عيني :

- " أجيب لك جلابية ؟ "

ودون أن تنتظر جوابي اختفت في السلم الحلزوني فأخذت الدرجات تئن وتصدر صريراً. اخذت أجيل البصر حولي مندهشاً : أين ذهب القوم؟ إن البيت خال تماماً إلا منها ومني . بدأ صرير الدرجات الخشبية ، ظهرت بدرية حاملة إحدى جلابيب أخيها كرم الذى يماثلني في السن لكنه اضخم بعض الشئ. رمت الجلباب بمرح تجاهي متعمدة أن يسقط منفرداً فوقي ، ثم أطلقت ضحكة رنانة وهي تتفرج على إذ أخلص رأسي من الثوب. قالت :

- " هيا خفف نفسك من الثياب وقم لتساعدني في المطبخ "

ثم مضت نحو المطبخ الذى لا يبعد أكثر من خطوتين . قمت واقفاً ففككت حزام السروال تركت السروال يسقط ثم خلصت قدمي منه ، خلعت القميص . طويتهما فوق ظهر المقعد وارتديت الجلباب ودست على الأرض حافياً :

- " أنت وحدك هنا يا بدرية ؟ أين ذهب الناس ؟"

- " سافروا كلهم بربطة المعلم إلى البلد العقبى لك لحضور فرح سمير ابن أختي تهاني تركوني في حراسة البيت لأن أعداء الحاج كثيرين والجميع طامع فينا لسوف ألحق بهم بعد أسبوع يكون الحاج انتهى من محاسبة الناس هناك بشأن محاصيله الزراعية فيجئ مع أختي شكرية لأسافر أنا أعمل لك شاى ؟ أم تشرب كازوزة مثلجة؟ سنتغدى معاً بعد وقت قصير "

كان الفول متكلساً في بطني :

- "اشرب كازوزة "

فأشارت بذقنها نحو الثلاجة فيما راحت تغسل بعض الأواني على الحوض كانت هذه أول مرة في حياتي أفتح فيها ثلاجة وأراها من الداخل ، فإذا هي طاقات من الضوء الملون حافلة بالرفوف والأركان والأدراج الممتلئة بلحوم وأسماك ودجاج وأطباق فاكهة وزجاجات مياه وكازوزة . تفرجت على ذلك بلذة وسحبت زجاجة كازوزة ثم أغلقت باب الثلاجة ، ورأيت فاتح الزجاجات متدلياً في حبل من مسمار في الحائط . فتحت الزجاجة وصرت أرشف السائل الغازى اللاذع في استمتاع كبير. صارت بدرية تتحرك أمامى بكل حرية ، تميل لتفتح خزانة ، فينحسر طوق القميص عن صدرها فيندلق الثديان نافران طليقان بينهما برزخ لا يبغيان وتزنقنى مؤخرتها في وقفتي فأتصبب عرقاً. رمت لى بشرش البصل:

- " قشر هذا البصل سأغديك حماماً محشواً بالفريك الصعيدى تراك لم تذق طعم الحمام منذ مدة "

- " أكلته منذ أيام قليلة في مطعم ختعن "

- " أكلت عصافير ناحلة الحمام الحقيقى سنأكله الآن وختعن لا يحشو بالفريك الصعيدى وختعن ليس بدرية طبيخ بدرية ليس له مثيل في دمنهور ولا في البر المصرى كله ، سيئ الحظ من لم يتزوجنى لأنه يحرم من أحلى طعام في حياته "

- " هذا من حسن حظي يابدرية "

وصرت أقشر البصل وعينى تهطل بالدمع وبدرية منغمسة في الضحك على منظرى. كنت أحاول طرد خاطر خبيث يتسلط على خيال ى. يجعلنى أمعن في مراقبة جسد بدرية وهو يتلعبط تحت القميص الحريرى كبلطية في قلب الموج ، يكاد خصرها الرفيع يتلاشي تماماً من فرط رقته حتى لتبدو كأن نصفها الأعلى بصدره البارز وكتفيه العريضين يرتبط بصفها الأسفل بإليتيه البارزتين القويتين بواسطة جاذبية خفية وما بينهما مجرد هيكل يمثل من الأمام بطناً ضامراً ن ينحدر في تكور وانسياب مخروطى كالقرطاس ، وتحت القميص الشف سروال كرقعة صغيرة كورقة التوت التى قيل إنها كانت تغطى عورة أمنا حواء . رغم رغبتى القوية في طرد الخواطر الخبيثة ، ومحاولة كف البصر عن هذا الجسد العبقرى ، وتركيز الإنتباه، فحسب ، على تلك اللمعة الخفية بين الملامح تذكرنى بهيكل أمها ولمعة

ظللها لابد أنها شفرة الدم التى ارى لمعتها الخفية فى جميع وجوه عائلتي وإن تغيرت ملامحهم وتباينت رغم ذلك شعرت بأنني فى حقيقة الأمر أشتهيها حقاً أم أنها نار الكبت والحرمان تضطرم بأعماق فيرتفع لظاها ليحرق أذني؟ ..

أسرعت فغسلت يدى وعينى وجففتهما ، ثم خرجت الى الردهة . انتبهت إلى وجود راديو كبير ماركة فيليبس موضوع على خوان في الممر بجوار باب المطبخ. فتحته بلذى ، فانبعث صوت عبد الحليم حافظ مدندناً بهدوء متسلل بالشجن : ظلموه ظلموه القلب الخالى ظلموه وعدوه . صاحت بدرية من المطبخ فى طرب : إرفع الصوت شوية . طغى صوت بدرية على الصوت رغم ارتفاعه مصاحبة لعبد الحليم فى الغناء بشكل مؤثر جداً ، وصوت أرق من صوت عبد الحليم كثير جداً بل أشد حساسية لإلتقاط الأنغام الدقيقة الزخرفية . وقع بصرى على الغرفة المواجهة، من الواضح أنها غرفة شكرية ، فها هى ذى صورتها فى برواز على الكومدينو بجوار السرير ، وبعض ثيابها وقمصانها متدلية من مشجب خشبى واقف بحذاء الدولاب ، أما السرير فخشبى حديث الطراز غراق فى الفرش الوثير المليء بالزخارف . إقتحمت الغرفة بلذة راعشة ، تمددت على السرير ، صرت أتمرغ فيما لم يكن مباحاً لى ، كأننى أتمرغ فوق جسد شكرية لأسحق كبرياءها الزائف ، صغرلهن هي وأحلاهن ، ها أنذا أضغط نفسي في السرير . ثم انتابنى شعور غامض باللذة والعدوان معاً ، فنهضت واقفاً صرت أمسك بالقمصان والثياب أشمها امررها على وجهى وشفتى ثم أعيدها حيث كانت . ثم رأيتنى أنتقل إلى الغرفة المجاورة ، أنها غرفة يسرية ، بنفس النظام وإن كانت أكثر انضباطاً وأميل إلى الحشمة ، تمددت على سريرها أتمرغ أدفن رأسي بين الوسائد ، انتقلت الى غرفة بدرية أكبر الغرف واوسعها ، تطل على المنور وعلى الشارع الخلفى بشباكين يحاصران الشمس والقمر في زوايتين يستبقيانهما مدة طويلة فى الحجرة أما السرير فمن النحاس اللامع بعواميد مضلعة وناموسية وردية اللون مفتوحة كباب الخيمة ، دخلت فيها ، صرت أتمرغ فوق السرير أتذكر أن لو كان الحاج أو الحاجة أو أحد الإخوة هاهنا الآن لما قدرت على دخول البيت بل أن أتمرغ فى أسرة البنات هكذا بكل حرية . إرتعشت أوصالى قليلاً ، لكننى بكل لذة صرت أمعن التمرغ كأننى – بكل لذة

أيضاً - أهزأ بالحاج والحاجة وبكل أنوف أبنائها المتعجرفة الثقيلة الظل . ساءلت نفسي بحيرة : كيف جرؤت بدرية أن تدعونى للدخول فى عرينها وهى لاشك تعرف مشاعر النفور المتوفرة فى أهلها تجاهى ؟ ماذا لو طب علينا الآن أحدهم ؟ إنه الدمار لاشك ، لى ولبدرية ، لابد أنها واثقة تمام الثقة من أن سفرهم سيطول كن كيف تحدت مشاعر اهلها ودعتنى هكذا بكل بساطة وتتحرك أمامى بكل حرية شبه عارية، صحيح أننى - فى العرف العائلى المنقرض - أكاد أكون فى مقام خالها إذ أن أمها بنت عمى لزم ، ولكنها لم تكن لتسلك معى هذا السلوك لو أن أحداً من أهلها هنا ، ففى الأسبوع الذى مكثته هنا ذات يوم لم يكن يسمح لى بالصعود إلى الطابع الرابع بالذات وكن هن ينزلن إلى الطابق الثالث للغداء الجماعى حيث ترابيزة السفرة الكبيرة التابعة لجهاز أمهن العتيق متمركزة فى ردهة هذا الطابق منذ أن دخلت فيه عروسة بالإيجار قبل أن يصبح البيت كله ملكاً لهم . كن ينزلن بملابس رسمية محتشمة ولايضحكن بمرح . فما الذى - ياترى - حدا ببدرية أن تتحرر معى هكذا ؟ أتكون الأسرة كلها قد تغيرت فى غيبتى فرقت مشاعرها ؟ أم أن بدرية مختلفة عنهم جميعا ؟ ..

سرعان ما صار قلبى يدق بعنف ؟ إذ تذكرت فجأة كثيراً من الأخبار المقلقة كانت تتردد فى محيط اسرتى فى سنوات طفولتى وصباى حول بدرية هذه بالذات فمرات كثيرة تناهى إلى علمنا أن البنت ليست طبيعية وأن عقلها ممسوس بعشرة خفيفة بعض رجال أسرتى أرجعوها الى عقدة نفسية ألمت بالبنت نتيجة بوار سوقها وعدم تقدم أحد للزواج منها رغم ثراء أبيها وما قد ترثه منه فيعلق سعد ابن عمى ، الذى يكبر أبى فى العمر ومع ذلك يقول له بكل توقير : ياعم ، يعلق قائلاً إن الحاج مسعود لا يعاشر وأن البنت حتى لو كانت سنيورة ملكة جمال ، حتى لو كانت بلا شفايف على الإطلاق فإن أحداً لم يكن ليتزوجها منعاً للإحتكاك بأبيها ذى الطابع الحيوانى المادى الفظيع ، الدليل على ذلك أن البنات كلهن فاتهن قطار الزواج ، ولو لم يجن أبناء عم يتزوجنهن كأختهن تهانى فسوف لن يتزوجن بالمرة ، وحتى ابناء أعمامهن لا يفكرون فيهن . بعد صمت طويل يعلق أبى فيقول إن بنات الحاج مسعود كلهن غليظات الإحساس من المستبعد أن يصبن بأية عقد ، إنما لا

تنس أن اختلال العقل ظاهرة متكـررة فـي عائلـة القبـاني ، بسبب زواج الأقـارب أنسيتم أن أم الحاج نفسه وهي بنت عم أبيه قد مـاتت فـي مستشـفى العباسـية ؟ أنسيتم أم العز العبيطة التى كانت تمشي مع الدراويش لابسـة خـرق الصوفيـة؟ إنهـا بنت عم الحاج لزم ، ولماذا تذهب بعيداً ؟ الحاج نفسه كثيراً مايخرج عن طوره لأقل الأسباب فلا يرى ما حوله وتتقطع الأسباب كلها بينه وبين كل شئ فى الحال ، فى مرة أطلق الرصاص على حصيرة مبرومة مسـتندة علـى الحـائط نسيها نسـوان عمـه وكان هو مقبلاً آخر الليل من سهرة مفى سقى الأرض ، فأخترقت الرصاصة الجدار واستقرت فى رأس ثور مسكين فى الزريبة ، ومن شدة خللـه واسـتعباطه رفـض أن يدفع لعمه نصف ثمن الثور كما حكم بذلك كبراء العائلة ، واشتبط فشنع على عمه تشنيعات كثيرة مدعياً أنه كان يتربص به لقتله وأنه كان ملتفاً بالحصيرة ...

خطوات الشبشب الحريمى تزحف مقتربة مع صوت بدرية: "هو راح فـين ؟!"..
دخلت الغرفة فتشت ، لمحتنى ممدداً خلف الناموسية، تبسمت رغماً عنها ، صـاحت بلهجة لم أدر إن كانت تستنكر ما فعلت أم تغرينى بالإستمرار :

-" عينى ياعينى !! فرصة !! إياك أن تنام ! الغداء يجهز بعد دقائق ! "

وترددت فى وقفتها قليلاً كأنها تفكر فى ماذا تفعـل ، كلنهـا اتجهـت إلى مـرآة التسريحة وأخذت تنظر فى وجهها وتمر بالمشط على جوانب شـعرها ، وكنـت أري نفسي بالسرير فى مواجهتها فى المرآة ، وكنت فى وضع يمكننـى مـن رؤيـة ظهرهـا كاملاً ووجهها كاملاً ، فلم أستطع السيطرة على نفسى ، شـعرت بدبيـب نمـل فـى عروقى ، ثم صرت أتمدد شـيئاً فشـيئاً حتـى أرتفـع الثـوب فـوق سـاقى ، فشـعرت بالحرج الشديد فدفنت نفسى بين الساقين بقوة لكننى انتفضت متمرداً بقوة أكـبر ، لحظتئذٍ وقع بصرها فى عينـى فـى برهـة خاطـة ، فتبسـمت بسـمة ذات معنـى ، ثـم أردفت فى نبرة تحاول الإنتصار على شعور داخلى بالحسرة :

- " بذمتـك ودينـك يـافلان هـل أنـا دميمـة ؟! هـل فـى أى عيـب حقيقـى؟! صارحنى بدون أى خجل !".

لاحظت أنها تحاول تقليـص شـفتيها قـدر الإمكـان بحركـة تلقائيـة . فوجدتنـي أنتفض قاعداً ، ثم أهبط عن السرير وأمضي نحوها فأقف خلف ظهـرا واضعـاً ذقنـي على كتفها بجوار رأسها ، هكذا مباشرة ، لأقول :

- " جمالك أمر لاشك فيه ! لا ينكره سوى أعمى أو غشيم لا يتذوق النساء !"

وكنت أتوقع أن تصفعني أو تدفعني عنها وتعطيني ردساً في الأدب ، لكنها سلطت عينيها في عيني بدهشة تنم عن رضاء ، بل إنها مالت بصدغها فـوق رأسـي هـامس بصوت متهدج :

-" تجاملني ياعكروت ؟!"

قربت نفسي من ظهرها بأن صلبت قامتي :

-" أنت وأبي تتفقان في هذا الرأى ! هو دائماً يقول لى مثل هـذا الكـلام حتـى لايكسر خاطرى ! يحس دائماً بالذنب نحوى ! يقول إن غلظ شفتيه هو المسئول عن عدم زواجي ! هلـى شـفتي غليظـة بشـكل منفـر ؟! أشـعر بهـذا مـن وجـوه النـاس وكلامهم حين ينظرون في وجهى ! حتى البنات يبدو عليهن النفور من وجهى !!"

ألصقـت نفسـي بظهرهـا حتـى اختفيـت تمامـا بـين الإليتـين ، ومـددت ذراعـي فطوقت صدرها متلقفاً كل ثدى بيد ، صر أضغـط عليهمـا برقـة مرتعشـة مضطربـة باللهفة السخنة ، أقو بصوت متهدج :

-"أرنى هاتين الشفتين حتى أختبرهما ؟!"

شببت على أطراف أصابع قدمي حتي اقتربت بشفتي من شفتيها ، ثـم عوجتهـا قليـلا فـانطوت ، كالخيزرانـة ، فـانقضضت علـى شـفتيها لثمـاً وتقبيـلاً ، فوجئـت لدهشتي باختفائهما تحت شفتي وتحولهما إلى شفرة شديدة الحرارة . إذا بها تـتراخي وتتهاوى فوجئت بأنني قد سحبتها نحو السرير ، طرحتها ، نزعت قميصها فإذا هـي لوحة حية كالتي أراها لكبار الرسامين بمفاتن قاتلة ، اصابني الجنون غبت فـي حلـم سرمدى لا أدرى كم مر من الساعات لكننـي كنـت أرى خـلال الغيبوبـة النشـوانة وجوه الحاج مسعود والحاجة وديدة وحواس وبدعي وكرم وتهاني ويسرية وشـكرية تطوف بذهني أثناء الفوران ، فلا تزيدني إلا حماسة واندفاعـاً وانخراطـاً ولـذة فائقـة كأنني أعجنهم جميعاً اطحنهم تحت سيفى البتـار ، ممـا كـان يضـاعف لذتـي يعمهـا

يمنحنى الراحة الشاملة والفرحة الغامرة ، أما هى فكانت أمرأة اخرى تماماً ، كـانت كتلة من اللهب تتلظى وتطقطق وتصدر عشرات الأصوات والفحيح بصورة طـيرت كل أبراج عقلى ، إلا أنها انتفضت فجأة تصيح وقد أفاقت :

– " الطعام على النار! زمانه احترق !"

أفلتها ، فأندفعت تهرول نحو المطبخ فاندفعت خلفهـا أطفـأت النـار ثـم مضـت عارية كالفهد فدخلت الحمام فدخلت وراءها هطل المطر فوقنا تبادلنا الدعك بالليفة نشفتنى بالبشكير كأننى طفلها ..

تناولت أشهى طعام فى حياتى أيقنت أن من ينس شكل هاتين الشـفتين سـيظفر بامرأة لا مثيل لها فى الوجود ، شربنا الكـازوزة وأكلنـا الفاكهـة المثلجـة وقمنـا إلى جولة أخرى كنا فيها أكثر حنوناً أشد قوة أطـول مـدى بعدهـا اسـتغرقت فـى نـوم عميق ، رأيت نفسى خلاله أقوم بنفس الفعل مع الحـاج وديدة نفسـها أمـام الحـاج نفسه وجميع أبنائها وكانوا جميعاً راضخين بأنف كسير ، حين فتحـت عينـى كـان القمر قد نزل ضيفاً على الغرفـة وكـانت بدريـة جالسـة أمـام المـرآة تسـرح شـعرها انتفضت جالساً قالت بدرية :

–" على فكرة ! يمكن أن تبيت هنا الليلـة ! وفـى هـذه الحالـة تـنزل لتبيـت فـى حجرة الصبيان فى الطابق التحتانى !"

–" لماذا ؟!"

–" تحسباً للمفاجآت ! فربما طب علينا أحدهم فيراك فى الموضع الطبيعى !"

ثم وجهت لى نظرة ساحرة :

—" تتعشى ؟!"

–" لا بأس !"

أعدت ترابيزة المطبخ " الإيديال " فردت عليها بعض ارغفة مع اطباق من انـواع مختلفة من الجبن والعسل النحل والزبادى والبيض المسلوق .. اثنـاء الطعـام وجدتنـى أقول :

– " هناك سؤال يحيرنى !"

– " أعرفه !! "

- " إذن فما جوابه ؟!"

- " إنه صاحب هذا البيت لا تجوز عليه إلا الرحمة ! إغتصبني في بئر السلم وهو سكران ! كنت صبية صغيرة ! بعدها عرض أن يتزوجني ! أبي لم يوافق ! جاء أولاد عمي فاعتقلوه في مكان بعيد وهددوه بالقتل ! في النهاية تنازل لي عن هذا البيت كثمن لغلطته بشرط الا يشتكوه أو يثيروا فضيحة ! بعد التنازل دسوا له السم في زجاجة خمر فمات حتى يظل الخبر سراً !!كان ذلك منذ عشرين عاماً ! وقتها كنت عبيطة وكنت مريضة بالأعصاب ! ولكن قل لي أنت : اين تبيت ؟! "

قلت لها إنني قد استأجرت بالأمس حجرة في حي إفلاقة كمسكن رخيص وأنني محتاج لبعض نقود كي اشترى بعض الفرش . قالت :

- "لا تحمل هماً ! جهزها مؤقتاً حتى نستأجر لك شقة في مكان نظيف لكي أجيء لك فيها !!"

- "ما رأيك لو تزوجنا ؟!"

ضحكت بمرح :

- "سنفكر في هذا الأمر من عدة نواحٍ "

بعد العشاء توجهنا تلقائيا الى الغرفة من جديد . ثم ادركنا ضحى اليوم التالي ، فالثالث فالرابع فالخامس ، على نفس الوتيرة بنفس الجنون الشرس الأعمى ، في ضحى اليوم السادس كنت أهبط السلم وحدى ، أحمل على كتفي لفة تحتوى على بطانية ولحافة ووسادة من مخلفات الأسرة دبرتها لي على مسئوليتها ، وفي جيبي ثلاث جينها كاملة ، ورقم تليفون منزلهم على قصاصة من الورقة لكي أطلبها حينما أريدها باسم محسن الكوافير ..

في الشارع توقفت لبرهة . إستوقفت عربة حنطور . مررت على حمدى الزواوى فاستعدت الحقيبة ، ووجهت الحوذى نحو وكالة عطية . وقد ادهشني وسرني في نفس الوقت أنه لم يعرفها ولم يسمع بها ، فشعرت بزهو كبير وأنا أشير له أن يحود شمالاً أو يميناً ، وهو من حين لحين يرسل لي من فوق كتفه نظرة فيها الكثير الكثير من الدهشة والإسترابة .

حجرة بعصطبة

وقع حوافر الحصان على اسفلت الشـوراع ، وقعقعـة عجـلات الحنطـور ، لهمـا صوت يسكرنى يشعرنى بالتدلل والغندرة ، تلقائيا أجد جسدى يتمـايل مـع حركـة العجل ، ليس لأن الحركة تدفعنى إلى التمايل والتململ فحسب ، بـل لأننـى كنـت ارى فى طفولتى مفتش الوسية وأبناء البكوات أصحاب الضياع فى بلدتنا يتمـايلون فى طرب ونشوة مع حركة "الكارتة " التى يجرها الحصان فى شوارع البلدة ، حتـى ليترنج شعر النساء على وجوههن فى نشوة هو الآخر ..

حركـة الحنطـور ليسـت سـريعة لأن الشـوارع مـاتزال حافلـة بالمـارة والباعـة والمركبات . عينى على الشارع وفى أعماقي أمنية بأن يرانى على هذا النحـو بعـض الذين سبق لهم رؤيتى على نحو بائس ، علهم يتأكدوا بأننى لست فى كل الأحـوال بائساً ، لكن أحداً لم يرنى مع الأسف ، مع أننى رجوت الحوذى أن يطـوى سـقف الحنطور إلى الخلف حتى أظهر بكامل هيـأتى منجعصاً ، ولفـة البطانيـة واللحـاف والوسادة تحت قدمى ، وفى فمى سيجارة مشتعلة . شيئاً فشيئاً بـدأت الحركـة تقـل والزحـام يخـف . فطنـت إلى أن الحنطـور يخترق الشـارع المـوازى لمحطـة السـكك الحديدية ، فيدخل إلى الحى الهادئ القابع فى بطن المدينة القديمة والذى بدا كمنشـأة جديدة تميل إلى الطابع الشعبى . هو عبارة عـن شـارع طويـل ممتـد إلى تخوم اراض زراعية بعيدة تبدو عند انطباق الأفـق شـريحة خضـراء مرمـدة . هـا هـو ذا الحـوذى يخترقه لكى يطيل المشوار . تلك حيلة فطر عليها ، إذ أن كـل مـن يركـب الحنطـور اليوم إنما يركبه للنزهة أساساً ومن ثم فعلى الحـوذى أن يفرجـه علـى أمـاكن كثـيرة طمعاً فى بقشيش إضافى كبير . إلا أنه توقف عند إحدى النواصـى ، واسـتأذن فـى أن يشترى بعض العلف للحصان ، ففهمت أنه جاء بنا مـن هنـا لهـذا الغـرض علـى وجه التحديد منتهـزاً فرصـة سـكوتى عـن توجيهـه . صـرت أتـأمل فـى الشـارع ؛ إجتذبنى منظر امرأة تشبه بلدتنا تمام الشبه ، تجلس على الرصيف مرتدية جلبابـاً مـن الشيت الرمادى وعلى كتفيها ملاءة سـوداء تغطـى رأسـها حتـى الرقبـة والصـدر ؛ يمكن أن تكون أماً لبضعة رجال محترمين ؛ بوجه بيضـاوى دقيـق الملامـح وإن امتـلأ

بالتجاعيد والأخاديد والكرمشات ؛ وفمها أهتم ومطبق يشبه حافظة نقود النساء الصغيرة ؛ لكن عيناها واسعتان جداً بصورة لافتة للنظر قوية الإشعاع تبعثهما هنا وهاهنا في شبه تلصص خفي كالمستريب من شئ غامض . أمامها قفص من الجريد كبير ، وضعت فوقه لوحاً مسطحاً من الخشب ذا حواف بارزة ؛ نثرت فوقه ألواناً من الحلوى الساذجة : نبوت الغفير، موز من عجينة سكرية هشة ، عسلية ، كفوف حلاوة سمسمية ؛ لعلها هى نفس المرأة التي تجلس في مدخل بلدتنا على الطريق ، تتصيد الأطفال القادمين من الحقول لتبيعهم هذه الحلوى بأى ثمن ، بكوز من الذرة، حفنة قمح ، حزمة برسيم ، حزمة حشيش أخضر للأرانب ، رغيف وقطعة جبن . عجبت حقاً أن توجد مثل هذه المرأة فى المدينة البندر ؛ وراق لى أن أعرف بأى مقابل تبيع هى الأخرى ، بأشياء أم بنقود ؟ لكننى خمنت أنها تبيع بالنقود لأن بجوارها مقطف من الخوص مقلوب على فمه . وقد وقعت عينى فى عينيها عدة مرات فخيل لى أنها تعرفنى ؛ حيث كانت هوايتى وأنا صغير أن أتسلل فى الضحى والناس نيام لدى القيلولة ، فأعبر سطح بيتنا إلى سطح منزل عمى ، لأحشو جيوبى بكيزان الذرة التي ينشرونها فوق السطح لتحمصها الشمس فتصبح قابلة للطحن أو التدشيش بالرحاية ؛ ثم أنطلق من فورى إلى تخوم الغيطان فى مدخل البلد ؛ أو ربما صادفتنى فى الطريق أكثر من امرأة أخرى فأشترى من كل واحدة منهن شيئاً آكله فى الطريق إلى الأخرى . هممت بالنزول إلى هذه المرأة لأكلمها ، والواقع أن لعابى سال على موزها الذى كنت أضع الأصبع منه فى فمى فأقرشه فإذا به قد ذاب فى الحال كأنه هواء متجمد لايبقى منه شئ أبتلعه ؛ لكن الحوذى عاد ، فاهتزت العربة هزة شديدة فيما هو يقفز عليها متخذا وضعه . شد السُرع فاستأنف الحصان الهرولة. وفيما كان مبنى الوكالة يقترب ، كنت من مكانى فوق عربة الحنطور أتكشف أبعاداً لم أرها من قبل ، مثل المنزل العتيق المكون من طابقين خلف الوكالة مباشرة تفصل بينهما حارة ضيقة ؛ ينحدر بحذائه صف من المنازل المتهالكة يتضاءل حجمها إلى أن يصير مجرد عشش من البوص والطين والجريد . كان باب الوكالة مواربا . فبدفعه يسيرة إنزاح . إصطدمت بعينين صقريتين يطق فيهما الشرر ؛ فما أن خطوت نحو شوادفى المضطجع على المصطبة يسلقنى بنظرات حادة لايبدو فيها

أدنى معرفة بشخصى . قالت السلام عليكم . فمن ضجعته رفع ذراعه مشيراً لى نحو الباب فى نبرة خشنة حادة : " إخرج فى الحال كما كنت !" . فتسمرت فى وقفتى متأبطا اللفة التى تضم البطانية واللحاف والوسادة ؛ وقد اضطربت مفاصلى من شدة الذعر . إن الذى أراه الآن ليس شوادفى الذى شربت معه الشاى والسبارس فى ود عميق وشاركته فى كتابة عقد النكاح لمخبولين من نزلاء وكالته . ليس أمامى الآن سوى وحش حقيقى إن لم أمتثل لأمره فى الحال فربما انقض على وغيبنى فى جوفه . شعرت بكثير من التشاؤم فيما أستدير ببطء ذليل لكى أخرج . إلا أننى فوجئت بوجهه ينبسط قليلاً كأنه تذكرنى وداخله الأسف على سوء استقباله لى ؛ ثم أردف مع مشروع ابتسامة :

– " أخرج ثم اطرق الباب اولاً فأقول لك ادخل أو لا تدخل "

فعلت ذلك بشكل مسرحى ساخر . فاعتدل فى جلسته وسلم على بحرارة حقيقية . وسع لى مكاناً بجانبه ، مال نحوى قائلاً فى ود عميق : " اعمل لك شاى؟! " . شكرته ، عزمت عليه بسيجارة بلمونت من علبة كانت معى . فتأمل العلبة بغبطة وأتى بأصابعه حركة ذات معنى كأنه يقول بها : " دهده دهده ! إيه العز المفاجئ ده ؟! " . ثم سحب سيجارة ؛ وبسرعة أشعل لى ثم له ؛ ثم سحب منقد النار ، وكسر فيه بعض القوالح المتفحمة ، ونفخ فى الرماد حتى كشف بصيص اللهب فأوصله بالقوالح الجديدة فشبطت فيها النار ؛ وأمسك القلة بيمناه والكوز الصفيح الصدىء بيسراه فدلق فيه بعض الماء ثم هزه ومصمصه وألقى بالتفل فى عتبة البوابة الرطبة ، ودلق ماءاً جديداً فى الكوز ووضعه وسط اللهب الهادئ الرزين ثم مدد ساقيه بعرض المصطبة فطقطقت ركبه ومفاصله برنين كثيف :

– " أين أنت من زمان ؟! "

– " كنت فى البلد طوال الأيام الفائتة !"

– " وازى الجماعة ؟ بخير والحمد لله ؟! "

– " يسلمون عليك ! "

– " الله يسلمك ويسلمهم ! "

ثم راح يطوف بنظراته في ملبسي وشكلي النظيف المستحم ، ويقف عند حقيبة ملابسي ، واللفة الموضوعة فوقها تحت المصطبة . رفع ذراعه باسطاً كفه العريضة الطويلة الأصابع كالمسامير الحدادى ؛ فارتسمت على صفحة وجهه عبارة : " آخر شياكة ونظاكة " ، أما فمه فقد نطق عبارة أخرى تكمل العبارة غير المنطوقة :

– " أنت الآن تصلح عدة !! "

تمايلت على المصطبة وتقبضت كل عضلاتي استياءاً من هذه العبارة السيئة السمعة في بلدتنا . فلفظة " عدة " تطلق على الولدان الشواذ جنسياً ؛ أشاعها في بلدتنا التلاميذ الذين يتعلمون في المدينة مقلدين بها لهجة أبناء البندر ؛ وهي من العادات القبيحة الكثيرة التي لحقت ببلدتنا من جراء اتصال أبنائهم بالبندر الفاجر القبيح . على أن شوادفي لم يكن في وجهه أي بارقة تشير إلى هذا المعنى ، بل إنه في الحال إستدرك : " لو رآك سيد زناتي لضمك إلى فريقه !"

وانحنى يتابع غليان الشاى ، يمسك باليد السلكية للكوز فيهزه ليخرط الشاى ويختلط ببعضه فيما يقول :

– " على فكرة ! إياك أن تكون أخذت على خاطرك من شخطتي فيك ! أنت فجعتني بدخلتك وبهدلت أعصابي ! ظننتك منهم ! إخواننا البعداء ! المخبرين السريين الذين يرمون بلاءهم علينا وعلى الناس كل ساعة ! تصورت أنك مندوب المباحث أو بوليس الآداب جاء يتسلى بإثارة أعصابي حتى أغمزه في النهاية برشوة مقدارها مقدار ما بثه في قلبي من رعب ! لكن على من ؟! إنني أعاملهم مثلما رأيت ! بنفس الطريقة ! فحينما يكشف لي عن شخصيته فإنني أبالغ في تطييب خاطره بكلمتين أؤكله الأونطة أشعره بأنني عبده وهو سيدى ولكن بالذوق ! أخيفه قبل أن يخيفني ! لابد أن يعرف أن لحمي زفر وهو على البوابة حتى إذا ما أعطيته شيئاً قليلاً بدوت في نظره كأنني أتعطف عليه إذ أنني في النهاية قادر على شلفطة وجهه !! "

يصب الشاى في لذة فائقة . قلت ساخراً :

– " ياعم شوادفي وهل يعقل أن ضابط سيجيئك حاملاً لفة كهذه وحقيبة كهذه ؟! "

ركز عينيه فى عينى كأنه يدق مسمارين ملتهبين فى محجرى ؛ ثم سحب شخرة رنانة كصوت الرعد :

– " إنهم يجيئون فى ثياب النساء صابغين وجوههم بالبودرة والأحمر واللبان يطرقع تحت أشداقهم ! أنت عدوك أهبل أم ماذا ؟! "

وقدم لى كوبة الشاى ، وتناول كيس تبغه ليلف سيجارة ، فقدمت علبتى ، فمد أصبعيه ليسحب واحدة لكنه تردد ثم شوح بيده :

– " لا ياعم ! هذا دخان رهيف لا يكيِّفنى ! إنما يكيِّفني هذا الدخان الخشن !"

وجعل يلف سيجارة على مهل :

– " نويت الإقامة عندنا إن شاء الله ؟! "

– " نعم ! "

– " إذن فهى حجرة بقفل ومفتاح ! "

– " يستحسن ! "

– " ما رأيك فى هذه الحجرة ؟! "

وأشار إلى حجرة تجاور الحجرة الملاصقة للبوابة :

– " إنها من نصيبك ! يبدو أنك ابن حلال فهى تنتظرك ! هى الوحيدة التى بها مصطبة كهذه ! كانت مؤجرة لولد أفندى مثلك وابن حلال أيضاً لكننى لا أدرى ما عمله بالضبط سوى أنه يجئ ليمكث بها أسبوعاً أو عشرة أيام على الأكثر ليختفى شهوراً طويلة حاملاً مفتاحها فى جيبه دافعاً أجرتها على طول المدة ! يدفع شهراً شهرين ثلاثة مقدماً ! فإن طالت غيبته فإن طواف البوستة يجئ لحد عندى بحوالة بريدية أرسلها لى من المكان الذى هو فيه ! فأخطف رجلى لأصرفها من مكتب البوستة ! إنما هو فى هذه المرة طالت غيبته ! دخلنا الان فى سنة لم يصلنى منه أى مكتوب ! وأنا أشعر أن هذا الولد وقع فى شر أعماله فقفشته الحكومة متلبساً بشئ فسجنته ! أقطع ذراعى إن ما كانت نظرتي سليمة ! شف يا أخانا ! خذها من فمى ! الشخص منا إذا لم يكن صريحاً صادقاً فى كل شئ فإنه يكون لئيماً خبيثاً خسيساً بمقدار مافيه من قلة صراحة وصدق ! تعرف ؟! إننى لا أخاف من الكذابين الصرحاء ! يعنى الذى يعرفون أنك تعرف أنهم كذابين !! يكذبون

بوضوح دونما أى حرج ! هؤلاء لا أعمل لهم حساباً بل أعطيهم مؤخرتي لا ليعبثوا بها بل لتشبع وجوههم الكريمة ضراطاً وروائح زكية !! إنما الخوف كله من الذى يدعى الصراحة ويلبس قناع الصدق متسقاً عليه ! أعرفه فى الحال ! أكرفه ! إن القناع سيضغط على وجهه لابد ! وسيتألم فيبدو الألم على وجهه ! سيحاول ترييح عضلات وجهه من ضغط القناع ولو لبرهة ! حينئذ يقع بين يدى ! فأتلقاه قائلاً : تعال على حجر أخيك الشرقان الشقيان التعبان ! ياويله منى !! إنما هناك عيالاً تكذب بخفة دم وقلب أبيض لكى تمشى حالها وهى فى العادة لاتضر كثيراً وشرها قليل !! إلا صاحبنا مستأجر هذه الحجرة ! كنت أحبه وأقدره وفى نفس الوقت أرى أن وراءه أمور وأمور ! لأنه لم يحدثنى عن نفسه أبداً ! ولا عن أى شئ سوى الكلام فى الأمور العامة ! فإن سألته شيئاً عن نفسه عن عمله عن أهله عن بلده عن أوضاعه زوّغ منى بصنعة لطافة وقال عبارة غامضة تفهم منها ماتفهم ! وآخر فهم وافقنى عليه أن شغلته مفتش فى البلدية !! ههاأواو !! مفتش من هذا الذى يجئ ليسكن هنا ؟! صحيح إنه نظيف الملبس لا يرتدى إلا المكوى المنضبط ! وكلامه حلو ! ومؤدب ! لكنه فى النهاية بائس من جواه ! المهم أننى يئست من عودته ! فتحت القفل جمعت كراكيبه التى هى عبارة عن حقيبة قديمة وبعض مجلات وجرائد وورق يحوى عناوين وأرقام تليفونات وأسماء بلدان ! وبعض ملابس بالية وأحذية مبرطشة ولحافاً مثقوباً من كل ناحية وحصيراً منسولاً ! عبأت كل ذلك فى جوال رميت به فى مخزن المهجورات حتى يبين صاحبنا ! للحجرة شباك على الشارع له أرضية عريضة تتسع لهذه الحقيبة ولصفوف من الكتب !! إن فتحت درفته العليا وواربت باب الحجرة تصادم الهواء واجتمع عليك كأنك على شاطئ الإسكندرية !! والآن كم شهراً ستدفع ؟! ..

فوجئت بالسؤال. تدبرت أمرى قليلاً ثم اندفعت قائلاً :

– " شهرين! أو قل ثلاثة ! "

– " قبّضنى !"

قبضته مائة وثمانين قرشاً ، نزعتها مغمض العينين بسرعة ، كالذى يغمض عينيه ويسد أنفه وهو يجرع الدواء المر . كنت أخشى التردد والرجوع فى كلامى

لضخامة المبلغ ضخامة تهز ميزانيتي هزا عنيفاً ؛ لكنني سرعان ما استرحت ؛ إذ ضمنت أنني وجدت مكاناً يأويني لثلاثة أشهر كاملة قادمة ؛ أستريح فيها من العذاب اليومي بحثاً عن مأوى حتى لقد أصبحت أمنية كبيرة أن أستقبل الليل يوماً واحداً بدون رعب أو قلق أو كآبة . إن ليل دمنهور جميل خفيف الظل نعم ؛ لكنني مع ذلك لا أحبه لأنه في النهاية ليل يلبسني فلا ألبسه . كم تمنيت الجلوس ليلاً في مقهى المسيرى لأستمع إلى مناقشت الأدباء بدماغ صافية، أو السهر مع محمود نعينع تاجر الخردوات ومؤلف الأغنيات الطريفة التى يسميها بالـ " مودرن " ؛ أو السهر في نادى الموظفين مع الفرقة المسرحية ؛ أو التمشية على ترعة المحمودية فى الشارع المرصوف مروراً بمدرسة الصنايع ومدرسة الزراعة حتى قرية شرنوب نتكلم فى الفن والأدب؛ كم تمنيت أن أفعل هذا دون أن يخفق قلبى مع كل خطوة يزحف بها كلكل الليل فوق يافوخى . الآن فحسب أستطيع أن أفعل ذلك لمدة ثلاثة أشهر بمائة وثمانين قرشاً لاغي ر. أما الأكل فمقدور عليه ؛ لقد اكتسبت قدرة هائلة على احتمال الجوع أياماً طويلة؛ كما أن أكثر من صديق أو غير صديق فى دمنهور يمكن أن يغديك أو يعشيك لأكثر من مرة ولكن ليس من صديق واحد يستطيع أن يأويك فى بيته ليلة واحدة ..

قال شوادفى وهو يسحب مفتاحاً صغيراً من تحت مخدته :

- " معرفة خير بإذن الله ! إطمأن قلبى إليك لأنك صريح لا تعرف اللف والدوران ! وطالما أنت هكذا تكسبنى على طول الخط تجدنى فى صفك على الدوام! وأما مسألة الشغل هذه فلا تحمل همها ! ربنا يقدرنا ونحلها لك !"

تذكرت كلمته التى أوجعتنى ، قلت بابتسامة مرتعشة:

- "ما معنى قولك أننى أصلح عدة !؟ أنت قلت هذا منذ قليل ولم تشرح لى قولك !!" ضحك بخشونة ضحكاً مكتوماً :

- " عدة شغل يعنى ! سوف تفهمها بحكم العشرة! لا تتعجل فستفهم وترى أشياء كثيرة ! عندى هنا سيلما وأفلام فشر أفلام جميع السيلمات ! ولكن أنا لم أقصد إيذاءك بأى معنى يخطر على بالك ! أعرف أن هذه الكلمة عندكم فى

الفلاحين لها معنى معين لكنني لم أقصده ولم أنتبه إلا بعدما رأيت الإنفعال على وجهك منها ! والآن قم ضع أشياءك فى الحجرة وعاينها واسترح قليلاً ! "

قمت إلى الحجرة ففتحت قفلها الحدادى الغليظ المشبوك فى رزة تفززت فى خشب الباب عشرات المرات فانخلعت وأعيد تركيبها عشرات المرات بمسامير معوجة . نويت أن أعيد تثبيتها جيداً وربما تغييرها وتغيير القفل نفسه فى فرصة مناسبة . إندفع الباب متقهقراً . تقدمت ففتحت درفة الشباك العلوية المطلة على الشارع العريض الواسع كالميدان اللامع بالأسفلت ؛ فتدفق الضوء الجميل فغمر الحجرة بلون السماء التى لم يكن يظهر سواها . المصطبة جميلة جداً ، ممتدة خلف الباب بطول الحائط ، ويستطيع المتمدد فوقها أن يتكئ بمرفقه على أرضية الشباك ليقرأ وينظر فى فناء الوكالة . الحجرة جميلة بالفعل وأرضها مستوية. رأيت على أرضية الشباك بقايا جرائد ففتحتها فإذا هى بضعة أعداد من جريدة الأهرام تحمل صفحاتها أخبار القرار الجمهورى بحل الأحزاب .كانت أوراق الصفحات الأولى مصفرة شائطة أما الصفحات الداخلية فما تزال جديدة بيضاء . فرشتها على طول المصطبة وعرضها الذى يتسع لجسدين . فرشت البطانية مطوية بالطول . وضعت المخدة لصق الحائط فوصل طرفها إلى حافة أرضية الشباك . طويت اللحاف أربع طيات ووضعته فى نهاية المصطبة ، ثم وطنت النفس على شراء إبرة وخيط لكى أخيط هذه الخروق القليلة التى تطل منها نتف القطن . وضعت الحقيبة على أرضية الشباك . طوفت ببصرى فى فراغ الحجرة بنظرة استطلاعية أخيرة ، فلاحظت وجود مسامير كبيرة معقوفة مدقوقة فى الحائط كمشاجب لتعليق الثياب عليها ؛ ففرحت بها فرحاً شديداً ؛ وباستمتاع كبير خرجت ساحباً الباب خلفى ، حشرت نتاية الرزة فى ذكرها وشبكت القفل ضاغطاً عليه حتى تك منغلقاً فشددته بيدى بقوة لأختبر انغلاقه فوجدته متيناً فاطمأن بالى ففتحته ثانية ودخلت الحجرة وقد خطر لى خاطر نفذته فى الحال : أخرجت النقود المتبقية معى وحشرتها فى قاع الحقيبة بعد أن لففتها فى ورقة وبعد أن احتفظت بعشرة قروش فقط للصرف منها على القوت الضرورى ؛ ثم خرجت فأغلقت القفل ، وانطلقت إلى شوارع المدينة حراً رائق المزاج كأننى أتعرف على دمنهور لأول مرة .

شــــوادفى

كنت جالساً مع شوادفى جلستى المفضلة عصر كـل يـوم أرقـب الشـمس أثنـاء انسحابها من فناء الوكالة ، لتبدو الحجرات تتحلـق الفنـاء يغمرهـا لـون رمـادى ، وكبقايا أطلال من العصور الوسطى يدهشك أن أنفاس الحيـاة مـازالت تنبعـث مـن ثناياها . وفجأة رأيتها تدخل مـن البوابـة ، تلـك المرأة التـى رأيتهـا ذات يـوم تبيـع الحلوى على الرصيف . هاهى ذى تحمل القفص الجريد وقد امتلأ بالدجاج المسـتكن يطلق قأقأة هزيلة خافته كشفت عن وجوده إذ أن القفص كان ملفوفاً بخرقة ، ومـن فوقه القفة ملآنة هى الأخرى . قالت :

- " سالخير ياشوادفى ! "

- " ما أخبار الفراخ ؟! "

توقفت . همت بالجلوس وكشف بضاعتها . إكتفت بالقول :

- " فل بالصلاة على الحبيب! لكنك لا تشترى ! "

مضت إلى حجرة فـى مواجهـة حجرتـى تمامـاً علـى الصـف المقـابل . هـى إذن تسكن هنا . كان فى وجهها شئ قريب جداً لى ، أكاد أجزم أنها هى بنفسها التـى تجلس فى مدخل بلدتى وكل القرى ، بنفس الملامـح الطفليـة الـودودة التـى كـانت تناديني بها طفلاً لكى أشترى منها ، وها هى ذى الآن تنادينى لكى أتحدث معهـا ، متوقعاً أن تسألنى عن صحة الجماعة أهلى . لكنها مدت ذراعها خلف ظهرهـا عـبر كتفها فسحبت ضفيرة من الخيوط الصناعية مضفورة ببقايا خصل من شعرها الأحمر المضمحل . فى فتلة من شرابة الضفيرة مفتـاح قفـل مربـوط ؛ أمسـكته بأصبعيهـا ، بحركة مدربة غرزته فى أسفل القفل وحركتـه فـانزاح قـوس القفـل منطـوراً لأعلـى فعوجته وخلصته من دكر الرزة . بركبتها دفعت الباب ؛ هبطت بقامتها قليلاً حتـى تمكنت من الدخول ثم تربعت فأنزلت القفص ؛ فهاجت الفـراخ وقأقـأت فـى ذعـر بشكل جماعى فوضوى ..

حينئذ رأيت على سلم الحجرة التى فى مواجهة بوابة الوكالة تماما ً، رجلاً ربعة القوام متين البنيان ، أحمر الوجه كخواجة متنكر ، كالبرنس ، وجه كالفطيرة ممتلـئ

الخدود يتسلقها شارب شامخ الجناحين يكاد شعرهما المبروم الواقف يتصل برموش عينين صغيرتين لكنهما جوهرتان ثمينتان تبرقان بريقاً يخطف البصار يجذبها بقوة ، فإذا الأبصار المنجذبة تبحث لنفسها عن خلاص بعد برهة وجيزة من فرط الرعب وربما الربكة التى تثيرها نظراته القوية الثاقبة المقتحمة لا تعرف حياءاً ولا خشا . عريض الصدر ممتلئ الكتفين والثديين بعضلات بارزة مثل كتل من الصخر تتحرك تحت جلد صدره وسمانتى ذراعيه المشمر عنهما كم جلبابة الفلاحى الواسع ، ذى اللون السمنى من الحرير الذى يسمى بالسكروتة والذى لا يلبسه سوى أبناء الذوات والعمد . ينتعل خفاً منزلياً من الجلد الرقيق قوامه نعل وشريحة على هيئة مثلث يحشر فيها أصبعى القدمين . ولد عايق حقاً ، تفوح منه رائحة عطر صابون الوجه المختزن ..

نزل الدرج فى غبطة طفولية ورشاقة كراقص الباليه لا صوت لوقع خطواته . إقترب ؛ عمره لا يزيد عن منتصف الثلاثينيات أو أقل قليلاً . بحركة مؤدبة جداً رفع يده نحو رأسه بالتحية العابرة على طريقة العياق فيما هو يتبختر نحو حجرة المرأة حاوية الدجاج ، وقد أزاح طاقيته الدبلان البيضاء عن مقدمة رأسه المليء بشعر غزير خشن . قلت من ربكتى رداً على تحيته : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. فمن وراء ظهره العريض الصلب حيانى بيده مرة أخرى ؛ وساقاه يبرزان من شفافية الجلباب فى ضوء الشمس كفرعين من السنط أحسن تشذيبهما وإن بقيت كتل الشعر المتكورة عليهما كنتوءات استعصت على سلاح التشذيب . قال بلهجة ممطوطة قصد بها أن يقلد لهجة البندريين وفى نفس الوقت يسخر منها :

– " سالخير يا قطيـ .. يـ .. طه !"

– " تعال يا معلم سيد ! فضلة خيرك اليوم حظك من السما ! فراخ برابر هندى!"

وأمسكت إحداها من أسفل جناحيها لتعرضها عليه مبرزة انتفاخ وركيها وصدرها باللحم المكتنز :

– " ستلاقى فى بطنها عنقود بيض طرى ! "

شوح بأصابعه الطويلة الحافلة بخواتم ذهبية:

- "على البركة ! نقى سبعة !"

ثم ارتد خارجاً :

- " تعالى ورايا هاتى واحدة واحدة !"

تقرفص فى الفناء ، أخرج من جيبه مطواة قرن غزال فتحها بسرعة فتدرج صوتها إلى التكة الأخيرة فاستوى النصل حاداً لامعاً. جاءت قطيطة بالدجاجة ممسكة بها فى وضع الذبح مقربة رقبتها منه . فمد أصابع يسراه فأمسك الرقبة متمتماً فى خشوع حقيقى :

- "باسم الله الله أكب را اللهم صبرك على ما بلاكى ويجعل موتك أفضل من حياكى !".

ونحرها بحزتين فرمى بها فى الفناء فاندفعت تجرى بسرعة ورقبتها منكسرة تبخ الدم ..

صار الفناء يشغى بدجاج يجرى مكسور الرقاب يخطط الأرض بالدم ويتهاوى هنا وهناك . كان كثيرون من سكان الوكالة قد جاءوا لا أدرى متى فاشتروا فراخاً من قطيطة هذه لكى يذبحها لهم سيد فى وقفته هذه بالمرة . أخيراً مسح سيد نصل المطواة فى خرقة قدمتها له قطيطة ثم اعتدل فاتجه إلى الركن الذى رمى فيه بفراخه فجمعها ؛ وأخرج من سيالته ورقات مالية كورها وغمز بها يد قطيطة فوضعتها فى سيالتها دون أن تعدها . وهكذا فعل الآخرون ، وكأنهم متفقين على سعر معين ليس من حقها أن تناقشه . راح سيد زناتى يصعد السلم حاملاً على يديه الاثنتين كومة هائلة من الدجاج المذبوح ؛ فيما رحت أتابعه من جلستى على المصطبة بجوار شوادفى ، وكوبة شاى الدور الثالث فى يدى ..

هذا إذن هو سيد زناتى . هكذا قالت عين شوادفى وهو يشير بأصبعه نحو السلم فى حركة من يتغزل فى فتاة عذراء هو شديد الوله بها . قلت :

- " ما شغلته ؟! "

قال بغبطة وحسد مبطنين بالإعجاب :

- " عنده عدة !! "

شعرت بدبيب الخجل يسرى فى قدمى :

– " العدة مرة أخرى ؟! "

– " ولد عترة يستاهل السلامة! ولد يعجبك ! مع الرحل أرحل ! مع الند أندل ! مع الحريم كورقة البافرة !! في نعومة شفرة الموس !! إذا استشعر خشونة إحداهن كشطها لكي ينعمها ! إنه فنان في كشط الخشونة من طباع البني آدم د أن يريق قطرة دم واحدة ! وإني لأحسده على هذه الموهبة ! إن أتخن ضابط بوليـ لا يحتمل في يديه غلوة ! فنان في أكلهم والمزمزة بعظامهم وهم مع ذلك يقدمـ أنفسهم له طواعية لكي يسكر ويمز بلحومهم !! لولاه لأغلقت وكالتي هذه بالضـ والمفتاح ! إنما هو يعرف الخروم التي في شخصيات البوليس فيسدها بطريقتهالفنيـ مرة بالفلوس ومرة بالكلام الحلو ومرة بتسليم رؤسائهم قضايا كبيرة لم يكو يحلمون بإمساكها لو ضاجعوا أنفسهم وهو مع ذلك لا يغدر بأحد أبداً !! فكيـ يعرف القضايا ؟! لن تصدق ! إنه يفلي الجرائد كلمة كلمة ويدرس الحواد المنشورة فيعرف مداخلها ومخارجها ويكشف عن شخصيات المتهمين فيها : يذهب إلى المسئول فيقدم له أوراقاً مكتوبة بخطه يقول فيها .بما أن كذا كان كـ وحدث كذا بسبب كذا فإن الجريمة تكون كذا وكذا ودوافعها كذا وكذا وأصلـ وفصلها وبناء عليه يكون الفاعل هو الشخص الفلاني أو عليكم يا حكومة الإتجـ إلى الشخص الفلاني ففيه مفتاح القضية أو إلى المكان الفلاني فتعثرون على دليل ولد مخه جوهرة يا أخانا ! لو تعلّم لصار الان وزيراً للداخلية !!"

إزداد أمره غموضاً في نظري :

– " لكنك لم تقل لي ما شغلته بالضبط ؟ وهذه العدة ما تكون ؟! "

باستمتاع شديد انخرط في لف سيجارة من كيس السبارس :

– " اللقمة التي تفتش لا تؤكل !! والبيوت أسرار يا أخانا !! إن طاب لـ العيش هاهنا فسوف تعرف كل شئ من تلقاء نفسك ! أما أنا فلا أقول شيئاً ! إنني في قعدتي هذه أرى كل شئ يدور في كل هذه الحجرات حتى وهي مغلقـ الأبواب ! لكنني الباب الأكبر الذي يقفل في النهاية على أسرارهم ويسـ عوراتهم!! هم يعرفون أنني أعرف ولذلك لا أحد يخفي عني شيئاً ! هم يعتقدون أ أي مشكلة يقع فيها أحدهم أو تقع بينهم وبين بعضهم البعض فإنني الذي يحلها فـ

النهاية ! يعنى لابد أن تعرض عليّ فى نهاية المطاف !! هم يتكتمون على بعض المشاكل والخلافات ظناً منهم أننى لست على علم بها ! وأنا لا أسألهم ماذا فعلتم فى الشئ الفلانى لأننى واثق أن الواحد منهم لابد أن يجئ من تلقاء نفسه فيجلس فى مطرحك هذا قائلاً : بأقول لك أيه ياعم شوادفى ! فلا أفتح فمى تاركاً حنفيته تسرسب كل ما فيها من مياه مخزونة عطنة !! يقول ما كنت أعرفه قبل أن يقوله !! أنا لست أضرب الرمل طبعاً يا أخانا لكننى تجيئنى الأخبار كلها وأنا فى قعدتى هذه دون أن أطلبها ! تجيئنى من خلل العراك ! من العتاب ! من لوى البوز من تجاهل العين للعين ! من ناس يتطوعون بتفسير مايرون ! بحكى مادار فى بلاد الهند والسند وبلاد تركب الأفيال !! عمرى فى حياتى ما قلت لواحد عبارة : إيه الحكاية ؟ أو ماذا حدث ؟ أو حتى مالك يافلان !! هذه عبارات لم يعرفها لسانى أبداً !! ولماذا أحتاجها ؟! إننا يا أولاد العرب نحب دائماً أن نفتح الخُرج خاصة عندما نجلس للراحة !! نحن أبناء الفضفضة والبحبحة !! مغزى كلامى كله : إياك إياك أن تستغفلنى أو عدم المؤاخذة تستلطخنى فى أى شئ !! هذا إن كنت تريد أن تكسبنى وفى نفس الوقت تكسب الراحة والأمان !! "..

مرت قطيطة أمامنا ممسكة بزجاجة فارغة متجهة صوب البوابة :

- " ساالخير ! "

رشقها شوادفى بنظرة :

- " السبرتو ؟! "

- " نعم! "

زام زومة عميقة ذات معنى . وضح أنها فهمت معناها ، إذ شوحت بالزجاجة فاشخة حنكها الأهتم بما يشبه الإبتسام :

- " تعرف أننى لا أحب سوى شاى السبرتو على السبرتاية !"

قال بخبث شديد :

- " طبعاً طبعاً يا قطيطة ! مرادى أن تذيقينا هذا الشاى مرة واحدة ! ولو شفطة ! "..

أشارت إلى عينيها :

- "من دى شفطة ! ومن دى شفطة ! يا رجل يا أبو شفطة !"

شوح بذراعه :

- " طب روحى يا قطيطة !"..

مشت خارجة ..

- " قطيطة هذه ما حكايتها يا عم شوادفى ؟! "

- " أظنك رأيت بنفسك !"

- " لكننى رأيتها تبيع الحلوى للأطفال !"

- " فهذه شغلتها الأصلية !!"

- " ولكن ! الدجاج ؟! "

- " فهذه شغلتها الجانبية !! الإنسان الجدع يقلب عيشه! تجده فى كل مصيبة ! يفوز باللذات كل مغامر ! ويموت بالحسرات من يدرى العواقب ! ألم تأخذ هذا الشعر فى المدرسة؟! إذا لم تكن أخذته فخذه الآن منى بالمجان ! إسمع كلام شوادفى! إذا كنت تريد أن تفعل شيئاً إفعله حتى لو خربت الدنيا !! أما إن رحت تفكر وتفكر فإن الوقت يفوتك وأنت لم تنته من التفكير بعد ! يكون كل من هب ودب ركب البولمان وأنت فى السبنسة ! أنت مثلاً! تجىء لتسكن فى الوكالة مع أنك متعلم فلابد أن لك هدفاً معيناً ! وهنا أنصحك بالمشاورة ! المشاورة مهمة أيضاً خصوصاً لمن هم فى مثل سنك ! النصيحة غالية حتى لو لم تفدك فى الحال ! إنها رصيد سوف تجده فى اللحظة التى هى !! الدنيا ملآنة بأولاد الحلال يمكنك أن تبحث عن رجل مجرب مثلى فتعرض عليه مشروعك حكايتك نيتك !! أوصانا سيدنا النبى أن نخلص النصيحة لمن يطلبها منا ! الولد عبد العزيز مثلاً ! عبد العزيز القصاب ! الذى كان يسكن حجرتك قبلك ! لم يطلب النصيحة أبداً !! كان طالعاً فيها ! يظن نفسه سليمان الحكيم ! وكنت أراقبه الليالى الطويلة وأنا متأكد أنه جوعان عطشان عريان بردان واقع فى ألف مشكلة تشتت دماغه تتصادم فى بريق عينيه ! وكنت أتمنى أن يجلس مكانك ليحدثنى عما يوجعه لكى أساعده ! لكنه أبداً لا يرينى وجهه ! يعوى من الألم وحده ! أنا الآخر صرت أتلذذ بعذابه تاركاً إياه فى حالة لعل حاله تنفعه !! هاهوذا قد اختفى حسه وانمحى اسمه ! والله كان بودى

أساعده بشرط أن يتكلم ! كنت أحب الإبقاء عليه لأنه زبون هادئ في حاله لا تأتي من ورائه المشاكل ! نهايته ! الله يكرمه مطرح ماهو الآن !! "..

وعادت قطيطة بالزجاجة ممتلئة بالكحول الأحمر ذى الرائحة القوية النفاذة ، وفي يدها الأخرى لفة فيها شاى وسكر وورقة دخان مضغة وعلبة نشوق ؛ وتحت إبطيها رغفين وحزمة فجل وقرطاس طعمية . صاح فيها شوادفى مشيراً إلى الطعمية والفجل :

– " يا وليه برّى نفسك ! أنت تقبضين الشئ الفلانى كل يوم ! هاتِ لك بيضتين اسلقيهما أو نصف كيلو لحمة أو حتى علبة سلمون !"

توقفت رافعة حاجبيها :

– " فشرت ! وشرفك عندى ستشم رائحة الفارخ المحمرة بعد قليل ! هذه تصبيرة حتى أطبخ الطبخة ! "

– "طبعاً سأشم رائحة الفراخ المحمرة ولكن ليس من عندك يا قطيطة ! بل من عند الذين استأهلوها بالهناء والشفاء ! أهم شئ عندنا الآن هو انتظار شاى السبرتو!!"

– " عينى ! "

ومضت تهرول نحو حجرتها . بعوجة يسيرة من رقبتى كشفت نظرتى عمق حجرتها في الركن . لا حظت أنها اندفعت بسرعة فسحبت شكارة صغيرة ، أمالت فتحتها فوق حلة صغيرة ، رفعتها ؛ فاندلق في الحلة سرسوب من حبات الذرة الشامى ، كادت الحلة تمتلئ ؛ فأمسكت بخناق الشكارة وأعادتها إلى القفة . ثم أمسكت بزجاجة الكحول ، صبت منها فوق الذرة حتى غطته بالكحول ، واستبقت مقدار عقله أصبع من سائل الكحول في الزجاجة صبته في وابور السبرتو. وأمسكت بالقلة فصبت منها بعض الماء فوق الذرة . وبيسراها أمسكت بالكنكة الصدئة فدلقت فيها قليلاً من الماء وهزتها بنشاط ثم دلقتها على الأرض ثم ملأت الكنكة بالماء ووضعتها فوق وابور السبرتو ثم أشعلته بعود من الكبريت ، وقلبت في اللفة حتى أمسكت بقرطاس الشاى ففكته ودلقته كله في قلب الكنكة ثم فتشت في اللفة حتى أمسكت بقرطاس السكر ففكته ودلقته هو الآخر في قلب

الكنكة فوق الشاى ثم سحبت كوبة من الصاج صغيرة وكوزاً من الصفيح كان فى الأصل علبة سلمون فغسلتهما وأعدتهما بجوار الوابور . أخيراً استدارت وراحت تقلب بكفها فى حلة الذرة ثم غطتها بغطاء محكم وجلست ساحبة الرغيفين وقرطاس الطعمية وحزمة الفجل وجعلت تلوك الطعام فى صبر شديد ..

رائحة الكحول كانت فاقعة ، بشكل غير طبيعى ، تفوح به كل أركان الوكالة كأننا فى مصنع خمور بدائى . جاءت قطيطة بالشاى ممسكة بالكوبة والكوز بيديها. قاربتنا . شوحت بذقنها فى وجه شوادفى مبرطمة بحنكها الأهتم :

- " الكوبة الراقية ذى اسم الله على مقام أمه ! أصلك لا تعرف تمسكها يا شوادفى ! الشرب منها لا يكيِّفَك !"

وقدمتها لى، والكوز لشوادفى . رشفت رشفة ، كاد صوابى يطير من لذة الشاى ونكهته الدسمة الشهية . لاحظ شوادفى تلذذى ، فأومأ بحاجبيه فى تأييد وأضاف : آه ؛ وواصل الشفط بصوت علا :

- " الله يعمر بيتك يا قطيطة ! ويوقف لك فراخ الحلال فى كل ناصية ! أقصد ولاد الحلال ! أقصد العيال الذين يشترون منك الحلاوة! إنهم فراخ أيضاً !"..

واستأنف الشفط؛ فبدت على وجه قطيطة وفى عينيها نظرة بليغة تقول دون أن تنطق بحرف : آه يانا منك آه !؛ ثم شوحت تستحثه على الإسراع: " إشرب وهات الكوز ". قدمت لها كوبتى :" كتر خيرك يا خالة قطيطة !".سطع وجهها بالبشر: " صحتين وعافية ياخوية ! كل ما تحب تشرب شاى نادنى ! فى أى وقت يعجبك ! لو جعان أغديك ! لو عريان أكسيك !"..

ونظرت إلى شوادفى وأكملت بلهجة ذات معنى : ".. ولو مبحتر أَلّمك !!"

حدجها بنظرة داعرة ؛ سحب النظرة ووضعها بين ركبتيه فوق تكة السروال ثم أرسل خيطاً من النظرة إلى عينيها قائلاً :

- "إتلّمى يا مرة ! يا عجوزة يا هتمة ! هو الداء فيكم من المهد إلى اللحد؟! خذى ! إمسكيه جيداً !!"..

كان يقصد الكوز بالطبع ، لكن لهجته الداعرة كانت ترمى إلى شئ آخر . فشدت منه الكوز بعنف مصطنع ، ومضت سعيدة بخيائها الأنثوى المفاجئ .

قطيطة

- " الفاضى يعمل قاضى ! "..

رنّ هذا المثل فى أذنى فيما كنت مضطجعاً على مصطبة حجرتى وقد شبعت نوماً لكننى لا أجد مكانا أذهب إليه . كانت قطيطة هى صاحبة الصوت ، فعرفت أنها تشاكس شوادفى وهى خارجة لتبدأ يومها الجديد ، فكأننى اكتشفت اكتشافاً ملهلاً ؛ إذ نفضت نفسى بسرعة عن المصطبة واقفاً فى الأرض . خلعت الجلباب وارتديت القميص فالسروال فالحذاء ، وانطلقت خارجاً . صبَّحت على شوادفى ، لاحظت أنه مندمج فى فتل حبال من ليف النخيل بمهارة فائقة ..

إحتفظت بمسافة طويلة بينى وبين قطيطة . تركتها تقودنى حيث تشاء . خطر لى أننى يمكن أن أقضى صبحية جميلة بقروش معدودة بين كسرة فول ساخن ما أحلاها وكوبة شاى بالحليب على مقهى ما أروعها ، وأتفرج على الناس وهى تتدافع مذعورة ملخومة ملهوجة فى الطريق إلى مكاتبها مصانعها محلاتها مدارسها قطاراتها ؛ كأننى أريد أن أقول لنفسى : ها أنذا أستمتع بجمال الصبح فى المدينة دون أن يدفعنى الذعر والخوف إلى اللهاث وراء موعد رسمى لا مفر من الوفاء به ؛ أغلب الظن أن وجود ثمن الكسرة وكوب الشاى واللفافة هو الذى يعطينى هذه الروح المفعمة بالسعادة المطلقة . متعتى الوحيدة الآن هى قطيطة ، وكيف تسوى حياتها ، كيف تخرج من منزلها صباح كل يوم كالموظفين لتؤدى عملها فى مكان ما من المدينة ، لتعود عقب النهار كسبانة ربحانة ما تشترى به رغيف وحزمة الفجل وقرص الطعمية . ومن المؤكد أنها تدخر الكثير ؛ أما لمن تدخره أو لماذا أو لأى زمن تدخره فعلم هذا عند الله ، وربما عند شوادفى كذلك ..

دوختنى من السير ؛ شحططت قلبى ، أكثر من مرة نظرت فلم أجدها تحت بصرى مختفية بين الزحام أو داخل بعض المحلات لتشترى منها بضاعتها التى ستفرش بها على ناصية حارة ما من هذه الحوارى . أيتها الملعونة اللطيفة لكأنك تقودينى بقصد ووعى لكى تفرجيننى على الحوارى الدمنهورية الحقيقة العتيقة ، التى كم تمنيت رؤيتها ، والتى لم يكن يدور بخلدى أن أستطيع الوصو إليها بغير دليل مثلك..

أما الحى الذى صرنا فيه فإنه حى أبو الريش . أعرفه ومشيت فيه كثيراً وطويلاً ؛ لكن ما كان يبدو لى سابقاً أنه مدخل بيت عتيق إذا به الآن يتضح أنه مدخل حارة شديدة العمق والعجب . كأننى دخلت مدينة مسحورة بمعنى الكلمة ؛ إذا بى فجأة داخل سرداب ممتد كالشرخ في قلب المدينة بل في أحد أركان أمعائها الخفية : صفان من البيوت العتيقة على الطراز المملوكى ، كلها متشابهة من الخارج ، وكلها من ثلاث أو أربع طوابق - الطابق الأول بالطوب ، بقية الطوابق من خشب البغدادلى المغفق بالجير بعد لياسة الطين ؛ الشبابيك مستطيلة كنزة بمشربيات علاها الصدأ الرمادى الكالح لكن الزمان رطبها بزخم حذاب حلو التقاطيع ؛ الأبواب بوابات تشبه إلى حد كبير بوابة الوكالة ؛ تظن وأنت فى مواجهة الحارة من بعيد أنك داخل إلى بيت مستقل ينتهى عمقه بعد مسيرة قصيرة عند هذه الشرفة الخشبية ذات الإفريز الحديدى التى تبدو من بعيد كأنها تسد الفراغ النهائى المواجه لك ؛ وتشعر كلما مشيت تجاهها أنك قاصدها إذ عندما سيتم استقبالك كضيف سمح له بالتوغل فى أحشاء البيت ؛ لكنك بعد قليل تتجاوزها دون أن تدرى ؛ تشغلك عنها شرفات ثانية وثالثة ورابعة بنفس الشكل ونفس الموضع المائل الذى يحتل فراغ ناصية الهواء من اليمين أو الشمال فتبدو وكأنها فى الصدارة ؛ تشغلك أيضاً عن العمائر الحديثة العالية التى تواكب امتداد الحارة على الجانبين كأنها ديكور كونى أعد خصيصاً لاحتواء هذا العالم القديم فى شرخ طويل متعرج . يدهشك أيضاً وجود محلات بقالة محندقة وترزية وقماشين وورش نجارة أبرز مافيها عدة وبنك ، وورش بلاط بأبواب قزمية ضيقة وأعماق ممتددة كالسرداب ؛ ومقاه على غاية من خفة الدم ؛ عبارة عن رصيف ضيق تحت باب كان فى الأصل شباكاً وعليت أمامه الأرض فحولته إلى باب ، تهبط منه إلى مندرة رطيبة حميمة يتصاعد من أرضها بخار ورائحة مياه الجوز والشيش التى تندلق باستمرار ، ورائحة جاز الوابور الذى يوش تحت الرمالة وشيشا عذبا مونسا ، ورائحة احتراق الشاى المطبوخ النفاذة ، ورائحة الفول المدمس الطازج من المحل المجاور أو القدر فى عربة يد مارة أو فى الطبق أمام العيال الصنايعية إذ يفطرون فيقرشون البصل فى شهية فاتحة للشهية . ورائحة مياه الحموم المندلقة لتوها فى البالوعة أمامك بشكلها القريب جداً من لون الدخان ؛

دلفتها كاعب حسناء ناهده الصدر بسيطة اللباس يكشف عن جسدها بقاع ضوء كهرمانى لامع شهى ، ومضت تتبختر عجيزتها المبرومة تحت جذع سمهرى وفوق ساقين عبلاوتين حاملة " البستلة " الفارغة تحت إبطها المكتنز السخى ؛ ثم تختفى في عطفة جانبية أو داخل بيت أو ربما اتجهت إلى حنفية " الصدقة " المنتصبة على مقربة فى ساحة ضيقة مليئة أرضها بالبلاطات العريضة المتشققة ومن حولها المياه غير مقطوعة ولا ممنوعة ومن فوقها دكة خشبية صغيرة يقتعدها خفير معجبانى لعل اسمه الأسطى حسن يفتح الصنبور بالعدل والقسطاس لسرب من الصبايا تحلقنه يمضغن اللآدن ويسرسعن بكلام غير واضح ويضحكن فى مجون مفاجئ بصوت تتفتت فى رنينه كل الأسرة والألحفة والحشايا واللون الوردى الشهى الراعش من أظافر القدم إلى شعر الرأس ؛ يرد عليهن نداء الباعة كأنما الحوار قائم ومرسوم سلفاً : "باسم الله عليك ياحلو !"؛ والحلو عنب وتين ورمان وبصل وطماطم وسمك وبطيخ سارح فى الحارة . النسوان ينادين من الشبابيك من خلل المشربيات يستمهلن البائع يسألنه عن أسعار يفاصلنه بصبر جميل قبل أن ينزلن للشراء فإن نزلن فربما صدمهن مستوى البضاعة فيرتددن على أعقابهن كالفهود المعلوفة يتبخترن بقمصان البيت بكعوب حمراء مكتنزة حافية لكنها تبدو مع ذلك كأنها لم تطأ الأرض من قبل ..

أوشكت أن أنسى قطيطة. فمنذ ان شفطنى فى الحارة شفاط سحرى دفع بى إلى قاعها البعيد المسدود بعمارة هائلة لعلها محلج قطن أو فابريقة تبغ ؛ رحت أبدئ وأعيد رائحاً غادياً إلى أن احتذبتنى هذه المقهى فارتميت عليها لا من التعب بل من شوق عارم كما يرتمى طفل على ثدى أمه بعد اغتراب طويل مع بزازة اللبن الصناعى . الكراسى مصنوعة من القش المضفور على قوائم من الخشب ، بعضها بمسند وبعضها بغير مسند ، قريبة إلى الأرض ؛ وثمة ما يشبه المناضد أو الطقاطيق مصنوعة من أعواد حديد التسليح بسطح من الصفيح المشعث بطول الزمن والإستعمال. جلست فى الداخل قليلاً ، فشعرت بمتعة لا حدود لها ، إذ أرى الناس فى الحارة مجرد سيقان وأقدام منتعلة أو حافية تتهادى أو تهرول تبطئ أو تسرع تتعثر او تسلك فى انسياب بين عربات يد ودراجات وزحافات تحمل زجاجات الكوكاكولا . كان الصنايعية قد شرعوا يفطرون ، فوحياة دين النبى محمد لابد أن

أن أجابر الزاد . أفطرت معهم بالمجان ؛ كنت أطلب كسرة فإذا بى أطوح فى جوفى رغيفين ونصف دون أن أرى من حلاوة الفول والبصل والجرجير والليمون واللفت المخدق والباذنجان المتبل . بالهناء والشاء، هكذا قال الولد القزم وهو يبتسم فيما يرانى أملس بكفى على بطنى علامة أنها امتلأت ؛ ثم هتف فى صوت خافت وأخوى : "شاى ؟" . قلت : " نعم " ، ثم أضفت : " هى الشيشة عندكم بكام؟!" فقال : " مايهمكش ! " ؛ وهرول بنشاط نحو النصبة البدائية البديعة ، فسكب الشاى فى الكوب الزجاجى الكبير الشديد النظافة واللمعان ، فوق ثلاث قوالب من السكر كحجر الدومينو ، وملأ كوباً أكبر منه بالماء ، وسحب صينية صفراء لامعة بحجم الكراسة ؛ وضع فوقها الكوبين وجاء نحوى . بخرقة مشبوكة فى ثوبه بدبوس أعاد مسح الطقطوقة ووضع الصينية ثم استدار فسحب الشيشة ونفخ فى ليها مفرغاً ماءها ؛ ثم نزع قلبها فملأها بالماء فأعاد تركيب القلب ثم أعاد النفخ حتى ضبط صوت الكركرة تماماً ثم جاء فوضعها أمامى أنيقة شامخة مزركشة تتدلى من حرف طاستها ماشة نحاسية صغيرة مشبوكة فى سلسلة . ما أن جربت صوتها حتى جاء الولد القزم بالحجر الكبير فوقه نار ، ألبسه فى قلب الشيشة ضاغطاً عليه لضبطه ؛ ثم وضع فوقه الكسوة النحاسية المخرمة التى تقيه هبوب الهواء والمطر حتى لا يشيط التبغ أو ينطفئ قبل شربه ؛ ثم نظر لى قائلاً : " أي خدمة " . أحببته حباً عميقاً عبرت عنه بشكرى الحار ؛ إذ رفعت كف يمناى مفروداً بحذاء أذنى على الطريقة العسكرية لا هازءاً بل جاداً بكل القصد والنية . فلما شعرت باطمئنان عظيم شعرت أيضاً بحالة لذيذة جداً كأننى قد توافقت أخيراً مع نفسى . صوت أستشعر بكل لذة طعم الصباح وهو ينضج على مهل تحت حرارة الضحى ؛ وصوت جلال معوض العميق النبرة يقرأ نشرة الأخبار كأنه يحدث نفسه بغير انفعال . فى عمق الشعور باللذة والراحة النفسية الخالية من كل أنواع الهموم تذكرت قطيطة . إنتفضت واقفا ً؛حايرت نفسى ؛تذكرت القعدة على الرصيف ، طلبت شاياً جديداً واقتعدت ركناً بديعاً قائماً بين جدار المقهى وجدار المنزل المجاور البارز عنه فى الشارع بمقدار عرض الرصيف ،كأنه معد لى وحدى وفى انتظارى منذ زمن بعيد..

وهكذا ركنت الكرسي الصغير في تجويف الركن وجلست في شبه خلوة واستقلال . أول خاطر استهواني لحظتئذ هو كتاب حميم أمسك به في جلستي هذه على وجه التحديد لأسبر غوره على النحو المرجو . شعرت أنني سأجلس هذه الجلسة مرات قادمة لا حصر لها ، ففرحت لذلك فرحاً يفوق الوصف . و..

هذه هي ، قطيطة ، متربعة على الأرض على ناصية عطفة بعيدة تخلو تماماً من المارة ، هي على وجه التحديد كما هو واضح عبارة عن منور مستطيل كحارة سد. كانت قطيطة فارشة حلواها على لوح فوق القفص ؛ ممسكة بيدها مذبَّة تنش بها الذباب عن الحلوى ؛ وعينها لا تستقر على حال ، تتلفت يمنة ويسرة في تلصص طفول ؛ ثم ترمي بالمذبة وتسرب يدها في حجرها وتخرجها قابضة على حفنة من الذرة ثم تميل بجنبها وتنثرها في الحارة بدربة هائلة ثم تعود إلى الإمساك بالمذبة ؛ وبعد برهة وجيزة تواصل نثر الذرة مرات متوالية حتى نفضت حجرها . هاهي ذي تعتدل في جلستها محاولة نسيان الأمر تماماً ؛ راحت تطلق بعض نداءات ساذجة الصوت نبراتها بعيدة عن الحرفنة وإن كانت الكلمات مصكوكة بعناية تستحث الأطفال على المجيء لتذوق موز الملوك وبراغيث الست ونبوت الغفير . يتضح من صوتها أنها تتمنى ألا يسمعها أحد أو يستجيب لها أى طفل . جاءني القزم بالشاى فرضعه أمامي قائلاً وهو يدارى عينيه عن وجهي :

– "الشاى الأولاني علينا ! هذا نظامنا عدم المؤاخذة ! مع كل وجه جديد على رأى بتوع السيما ! أولنا هذا الشاى مع هذه الشيشة ! أجهز لك حجراً جديداً ؟"

– " كل شئ منك حلو !"

– " كسبنا صلاة النبى !"

إستدار ومضى . فما إن انتهيت من تقليب الشاى حتى رأيت مبسم الشيشة يمتد نحوى ، فعدلت قعدتي تبعاً لراحة الشيشة ؛ إنجعصت مستندا للحائط ورميت بصرى في نهر الشارع الذى امتلأ فجأة برجال شيوخ مكحكحين ، وبعض رجال أشداء ، وبعض فتية ، يهرولون ممسكين بالمسابح ، تابعتهم ، رايتهم يدخلون بابا بعيداً على اليمين بحماسة مندفعة . بعد برهة سمعت أذان العصر ينبعث من هذا الباب من رجل واقف على عتبته . ثم شاهدت الترزى وهو ينحى الثوب عن

ركبتيه وينهض ؛ والبقال المسن يعبر البنك ويمضى تاركاً الدكان مفتوحاً لطفل يحرسه ؛ وسمعت أكثر من صوت يردد في أماكن مجهولة : الله أعظم والعزة لله . شعرت باهتمام مفاجئ يغمر الجو كله بمناخ متهجد حتى خيل لى أننى تخلفت عن شئ شديد الأهمية وأننى يجب أن أمضى مهرولاً فأنضم إلى هؤلاء ؛ لولا أننى كنت فى تهجد آخر وصلاة أخرى ؛ أجذب أنفاس الشيشة وأنفاس العصرية الطرية . أرى شباناً يرتدون القمصان الأنيقة والسراويل المخزقة على أحدث طراز والأحذية بكعوب عالية مدقوق فيها وفى نعلها فصوص من الحديد ويصدر عن بعض الأحذية أزير رتيب من ضغط الهواء يسمى بالمزيكة يضبط إيقاع المشية ؛ وفتيات ناهدات عائدات من المدارس يحتضنّ الحقائب ؛ ونساء خارجات على سنجة عشرة لابد أن وراءهن مواعيد عند سينما الأهلى أو سينما البلدية أو حديقة نادى الموظفين أو ترعة المحمودية أو قهوة الطلبة ..

تذكرت قطيطة مرة أخرى ؛ رميت بصرى إلى الناصية . لم أجدها . شعرت بقليل من الذعر ، داخلنى شعور طفل تاهت منه أمه فى الزحام ، كدت أصرخ من خوف ومن فزع فى طلبها . ضحكت ؛ وقفت ؛ ناديت القزم . طلب ثلاثة قروش، يابلاش . أعطيته ثلاثة قروش ونصف . رد لى النصف شاكراً :

– " لمؤاخذة ! لا نأخذ بقشيشاً ! نحن أصحاب المحل !"

ربت على كتفه فى امتنان ، مضيت عجلان ملهوفاً إلى تلك الناصية . رايت أرض الممر مبذورة بعدد كبير جداً من الدجاج منطرح على الأرض فاقد الوعى سكران بفعل الكحول الذى شربه الذرة بالأمس وألقى إليه منذ قليل . كانت قطيطة مندمجة فى الإمساك بها من أرجلها ثلاثاً ثلاثاً أربعاً أربعاً ؛ لترمى بها فى القفص حتى امتلأ فصارت تحشر فى القفة ، وطرحت فوق القفص جلباباً قديماً وطرحت آخر فوق القفة وثبتت القفة فوق القفص ، وركست بركبتها على الأرض، بدربة هائلة رفعت الحمولة بيد من أعلى ويد من أسفل ثم أسندتها على ركبتها واستعدلتها ثم رفعتها على رأسها ثم نهضت كما ينهض الجمل واستدارت لتمضى ؛ فأدرت وجهى بسرعة ومضيت نحو المقهى . بعد قليل نظرت إليها فرأيتها تمضى بخطوات واثقة راسخة لا تلوى على شئ .

تعــارف

أدمنت زيارة هذه الحارة الشبيهة بجيب سحرى فى بدن المدينة المنتفخ المليء بالكروش . وذات عصرية فيما أنا أتسكع تمهيدا لمغادرة الحارة رأيته مقبلاً من نهاية الحارة مركزاً بصره على بشكل أرابنى ؛ فرأيت ان أتحداه أنا الآخر بتركيز البصر فيه، لكنه ابتسم فيما يقبل نحوى قاصداً إياى . كان شكله مألوفاً لى ..

– " مساء الخير يا سيدنا لفندى !"

– " مساء النور ياخويه أهلاً وسهلاً !"

– " يلزم أى خدمة من هنا ؟!"

قالها بغمزة خفية أنبأتنى بأن هاهنا أشياء خفية يمكن أن يطلبها الزوار . لكننى نظرت فيه بمزيد من الإسترابة . فاتسعت ابتسامته :

– " إنت لمؤاخذة مش فاكرنى ولا إيه ؟!"

رحت أتأمله ؛ عجوز أهتم رفيع كالزعزوعة ، يرتدى ثوباً من الكتان الزرق ملطخ الجنبين بتراب الفحم ووسخ العرق . أخرج من جيبه على صدره سيجارتين ملويتين ؛ قدم لى واحدة ووضع الخرى فى فمه ..

– " شكراً شكراً !"

– " على الطلاق لازم تولعها ! ما تكسفنيش !"

– " ماشى !"

أشعلها لى. فى عشم كبير سحبنى من إبطى :

– " تعال اشرب شاى ! فرصة سعيدة أن أراك هنا !"

ولما رآنى متردداً ومندهشا توقف صائحاً بلهجة احتجاج :

– " يا سيدنا لفندى ! لحقت تنسى ؟! لم يمض وقت طويل على كتب كتابى الذى كتبته لى بخط يدك الكريمة ! مع شوادفى فى الوكالة !"

لم أتمالك نفسى من الصياح :

– " أهلا .. ا.. ن ! إزيك يا عريس ! ما حال الزواج ؟!"

– " عال العال ! نحمده ونشكر فضله ! ربنا أعطاني بنت الحلال بحق ! ونعم الأخلاق التعاونية على المعايش !! زى بركة ورثى وبركة ورثها أيضاً ! فأنا ولد أعجبك !!"

مشيت معه بقليل من الحرج . قال بشئ من الصراحة :

– " ظننتك تريد حاجة من هنا قلت اخدمك قبلما تقع في يد العيال التى لا ترحم !"

– " حاجة مثل ماذا ؟!"

– " أن تشرب لك حجرين !"

– " حجرين معسل ؟!"

– " حجرين حشيش ! هذه الحارة منبع الحشيش والأفيون فى العبّ كله ! فيها عيال كالقشاط وعيال كالعسل وأنت ونصيبك حسب ضميرك !"

وخلص ذراعه من إبطى ؛ أشار لى وهو ينعطف إلى مدخل بيت متهدم الأطراف يبدو من الخارج كأنه بقايا هديم . إذا بالهديم هو بيت كان مجاورا وقد تخلفت عن سقوطه باحة صغيرة وارتفعت أكوام الهديم حتى غطت الطريق إلى البيت المجاور فحجبت مدخله ؛ فمضينا فى باحة داخلية عريضة تطل عليها مجموعة حجرات كلها مغلقة البواب فيما عدا حجرة واحدة على اليسار يتصاعد منها لغط ووشيش وكركرة وكحة وضحكات ، وأنفاس عطرة . مال على أذنى هامساً :

– " أنا أشتغل عند الرجل صاحب هذه الغرزة ! نسقى بالمصفاة ! سأسقيك حجرين فى التمام !!"

تطلعت إليه فى دهشة :

– " أنت قلت فى عقد القران إن شغلتك حانوتى !!"

إنفشخ حنكه الخرب عن ضحكة خشنة تزيّق أصداؤها فى صدره كصهيل الخيل:

– " الطب تقدم يا سيدنا لفندى ! أصابنا بوقف الحال ! أصبح الموت نادرا !! نحن الآن فى موسم الولية امرأتى !! سوقها رائجة على الآخر !! تولد فى اليوم الواحد خمس نساء ! الواحدة منهن تلد اليوم وبعد تسعة أشهر تلد مرة أخرى !

نسوان مصر باسم الله ماشاء الله يحبلن على الأربعين !! الله طارح فيهن البركة بصورة مدهشة !!" وتقدمنى داخلاً :

- " ساالخير عليهم !"

تطلع إليه الجالسون كلهم بنظرة استرابة . كفت الكركرة لبرهة وجيزة مشحونة بتوتر خفي دفين ؛ ثم مالبثت الكركرة حتى عادت متباطئة حينما سحبنى الرجل إلى جوار النصبة فأجلسنى على دكة خشبية تترقص وتجعجع بمجرد اللمس . قال للواقف خلف النصبة :

- " عشرة حجارة هنا يا معلم وواحد شاى على حسابي ! البيه تبعى !"

ثم استدار ساحباً جوزة من برميل المياه فصار ينفخ في جوف البوصة طارداً بعض المياه ليضبطها ؛ ركنها على الحائط بجوارى وراح الى الوجاق الكبير المشتعل فانتخب جمرة كبيرة أخذ يطحنها في المصفاة . أمامي ثلاثة رجال من الواضح أنهم سماسرة في سوق الخضار يتكلمون عما فعلوه اليوم كأنهم يحكون لشخص مجهول معني بمعرفة التفاصيل وتفاصيل التفاصيل مع أن ماحدث حدث لهم هم ، وشافوه بأعينهم بل عاشوه . بجوارهم شاب في حوالى العشرين من العمر، أمامه حجارة ممضاة بالحشيش في انتظار الصبى الذى راح يغير ماء الجوزة . بجوار الباب رجل ممصوص شارد لا يطرف له جفن وليس أمامه شيئاً ..

أزاح المعلم كوب الشاى على رخامة النصبة بجوار كتفي قائلاً بشئ من الخشونة وعدم الصفاء : " الشاى !". هززت رأسي أن شكراً ؛ وجعلت أقلب سكره بالمعلقة. جاء الرجل الحانوتى فأقعى أمامي على الأرض ، فنزع من خلف أذنه قطعة حشيش في حجم حبة الفول السودانى ، صار يقتطع منها نتفاً كقشر اللب يضعها فوق الحجارة . قدم لى البوصة : " مساء الخير !" . أمسكت طرفها بأطراف أصابعى وسحبت نفساً خفيفاً فاستحثنى بأن خبط بحافة المصفاة على البوصة فعمقت النفس فضرب البوصة ثانية فسحبت النفس بكل قوة ثم تركت البوصة لتندفع من فمى ومنخارى سحب الدخان الأزرق كثيفة ذات نكهة منعشة . التعميرة فعلاً نقية وجيدة . شعرت بالمعلم ينظر لى من تحت لتحت فى شئ من الإندهاش والحسد ، لم يكن يظننى حشاشاً قرارياً ، هكذا تقول صفحة وجهه حينما رفعت عينى إليها

مستطلعاً سر نظراته . البوصة دخلت عليــه ، أمسـك بهـا وسـحب أنفاسـاً متمهلـة وقعتها كركرة الجوزة فى ترتيلٍ متصاعد كصوت محرك السيارة حين يدوس السـائق على البنزين ، ثم أسار إلى قائلاً للحانوتى :

– " أمال اللفندى يبقى مين ؟! منين ؟!"

تردد الحانوتى وتحير . أسرعت قائلاً:

– " تعرف صراف المديرية ؟!"

تفكر قائلاً :

– " أظن اسمه الحاج مسعود ؟!"

– " بالضبط ! الحاج مسعود القبانى !"

– " ماله ؟!"

– " إنه زوج أختى ! وأنا محسوبك فلان ! طالب !"

– " أهلاً بيك ! باين عليك حشاش جامد !"

دُوعب غرورى :

– " إن بجوار بلدتنا قرية صغيرة معظم أهلها يتاجرون فى الحشيش ! وهو تقريبـاً بلا سعر فى نواحينا !! كل الناس تشربه ولا تشربه فى نفس الوقت لأنه إن لم يجـئ فلا احد يسأل عنه !!"

– " بكم القرش عندكم ؟!"

– " بحوالى عشرة قروش !"

– " يابلاش !!"

هكذا قالا معاً ، وأضاف المعلم :

– " هنا بخمس وعشرين للبريمو !"

واستدرك الحانوتى :

– " خذنى إلى بلدتكم مرة أو مرتين !"

– " يساويها ربنا !"

وقال المعلم :

" على فكرة ! أنا أعرف هذه البلدة ولى فيها أقارب في عائلة الجعيدية ، هل تعرفها ؟!"

قلت مشوحاً بما يعنى أنهم نار على علم :

- " مصباح الجعيدى والحاج مسلم الجعيدى وشعبان الجعيدى وعلى الجعيدى!"

أشرق وجهه فهتف :

- " آ.. يوه ! شعبان الجعيدى هذا ! أمه تقول لأمى يابنت خالتى !"

- " نحن أصهار إذن !"

- " وأنا أى خدمة فى أى وقت ! المحل محلك !"

كانت الحجارة العشر قد انتهت، فتأهبت للقيام فاستبقانى المعلم بحركة من يده:

- " عشرة من عندى سأمضيها أنا ببصمتى ! تعميرة أحلى !"

- " يكفى هذا فقد انبسطت !"

شوح بذراعه ، لعَّب ملامح وجهه المكلبظة الشبيهة بوجه الممثل حسن فايق :

- "مادمت من نواحى بلدة الغلاوشة فأنت لا تشبع ولا تنسطل ! إسألنى عنكم!!"

ثم إنه استدرك بسرعة فيما يقضم تعميرة الحشيش يبططها بأصبعيه ليفردها فوق التبغ المعسل :

- " لكن من أين عرفت هذا الجدع ؟!"

وأشار إلى الحانوتى . قال الحانوتى :

- " البيه أصله صاحب شوادفى بتاع وكالة عطية !! صاحبه الروح بالروح !!"

برقت الدهشة المنذهلة فى عينى المعلم ، فشعرت بخجل شديد :

- " إنها صدفة والله ! عرفته قريباً جداً بواسطة صديق ! أقصد بواسطة واحد أعرفه !"

- " ظننته من نواحيكم ! هو على فكرة حريف كبير فى التخزين !!"

إنزعجت :

- " تخزين ماذا ؟!"

– " الحشيش ! لكن ! يظهر أنه الآن خفف من هذه العملية ! لكنه منذ مدة كان خبيراً فى إخفاء البضاعة للتجار الكبار ! ولو فتشت الحكومة وكالته شقاً شقاً فلن تجد أى شئ ، مع أن الحشيش ربما تحت أقدامهم وعيونهم لكنهم لا يروه !! ياما فتشوا عنده لدرجة الفحت فى الأرض ! وفى الاخر يئسوا منه فتركوه فى حاله يخزن كيفما شاء !! إنه جبار ! كفاك الله شره ! يخرج من المصيبة كالشعرة من العجين !!"

كان الحانوتى قد جعل يرتعش من الحرج والتوجس ناظراً للمعلم محاولاً تحذيره من الإستمرار فى الكلام . فلما لم يستطع قال لى هاتفاً :

– " أنا لم أقل لك شيئاً مما سمعت ! ولم أسمع أحدا قال لك شيئاً !! إعمل معروفاً أنا لست جمل شوادفى !!"

إنفجر المعلم ضاحكاً فى مرح كبير ، وغرق الحانوتى فى خجل طفولى مضحك وهو يقول :

– " لا داعى يا معلم نُنّ !"

لكن المعلم النُنّ حدَّجه بنظرة ماكرة :

– " ياجبان ! إحك للأفندى كيف كان يخفى البضاعة !"

ثم وجه الكلام لى مشيراً إلى الحانوتى بيده :

– " صاحبك هذا كان يشتغل صبياً لتاجر كبير ربنا يغنمه السلامة فى سجنه ! كانت مهمته المجئ بالبضاعة من مخزن شوادفى إلى مكان التسليم ! قل له يا جدع ليعرف فجر هذا الرجل ! لاتخف ! إن شوكته انكسرت الآن فلم يعد يخيف !!"

حينئذ انفشخ حنك الحانوتى وبدا كطفل شقى عابث قليل العقل :

– " أتعرف كيف كان يخفى البضاعة ؟ فى جوف بالوعة المجارى فى عتبة البوابة الثابتة للوكالة ! التى كانت تفتح على زريبة المواشى ! فللوكالة زريبة جنب الطلمبة لتنام فيها ركايب السكان والمواشى التى سيطلعون بها السوق فى الصباح ! وفى مكان أخر من الوكالة أيضاً كان يخبئ المسروقات !! كان لابد أن أدخل فى صورة شخص جاء يكسح مجرور الوكالة أو يسلكه ! لم تكن المجارى دخلت بعد ! فألبس الخرق القديمة ! أجئ بالجردلين والشومة لأعلق كل جردل فى طرف منها

أحعلها نيراً أحمله على كتفى ! حردل ورائى وحـردل قدامـى ! أغـرف الغـائط مـن البالوعة وأمضى به بعيداً لكى أدلقه فى حقل بعيد أو منطقة مهجورة حيث ينتظرنى طفل أو شحاذ أو بائعة فجل أسرب لها أكياس البضاعـة الملفوفـة فـى قمـاش وورق لاصق ومعبأة فى أكياس من الجلد !! البضاعـة تكـون موزعـة فـى عيـون مبنيـة فـى حدران البالوعة من الداخل ليضع النازل قدميه فيها عند النزول إلى عمقها لتسليكها أو كسح قاعها !! فضونا من سيرته عليه اللعْنة !!"

ووقف متناولا السيخ فراح يسيّخ الجوزة بعناية فائقة وبنشاط يجسد عليه من هو في مثل سنه وشكله الصحى ، فيما راح يواصل الحديث بصوت مغلق خشن بسبب الأفيون الذى ينشف الريق ويذبذب الحبال الصوتية كما قرأت ذات يوم فى إحـدى مقالات مجلة المختار من الريدرز دايجست فى مكتبة الحوفـى . كـان الحـانوتى يبـدو وكأنه وجد موضوعاً يعشق الحديث فيه :

– " يوه يا سيدنا لفندى ! هذه الوكالـة أكلـت عمـرى ! كرهتهـا ألـف مـرة ! لكننى لم أسلها أبداً ! ياما جاءتنى الفرص للسكنى فى بيوت محترمة بإيجـار رخيـص وأصحابها يصبرون عليـك فـى مسـألة الدفـع شـهراً وشـهرين وثلاثـة ! لكـن هـذه المخروبة بنت المخروب تسلبنى عقلى ! معمول لى فيها عمل !! وكـل مـن يسـكنها لأكثر من شهر توقعه فى هواها فلا يسلوها حتى لو أسكنوه فى قصر المنتزه !! فيهـا ناس يسكنون منذ أربعين سنة ! لا يخرج الساكن منها إلا مطروداً أو ميتاً !! تسألنى ماذا فيها يجعلها هكذا ؟ أقول لك لا أعرف ! يمكن أن يكـون لأنهـا مثـل صنـدوق الدنيا ! ويمكن أن يكون لأنها مثل السيلما ! ولكن عقلى يقول لى أن الحياة فيها لهـا طعم مختلف ! إن الواحد فيها يستطيع أن يفعل كل مشتهاه ! كل مالا يستطيع فعله فى سكن غيرها ! فلا أحد فيها ينتقدك أو يتدخل فى شئونك أو له أى دعوى بك! إن عرف أنك عدم المؤاخذة لصاً أو قتال قتلى أو قاطع طريق أو حتى معَّرساً فإنه لا يحتقرك ولا يخاف منك ولا يضايقك !!"

وانتهى من غسل الجوزة وتغيير مائها ، فركنها بجوارى ، وجعل يطحن النار فـى المصفاة بقوة ، ويحرك ذراعه بالمصفاة كالمرجيحـة فـى سـرعة هائلـة دون أن تسـقط جمرة واحدة . ثم أقعى أمامى ومد البوصة نحوى :

– " الوكالة يا سيدنا لفندى دولة وحدها !! ملكها ورئيسها هو شوادفى ! هو جمال عبد الناصر بتاعها ! إنتزعها من صاحبها عطية ومن وزارة الأوقاف كما انتزع عبد الناصر حكم البلاد من الملك فاروق إلا أنه كان أبرع من عبد الناصر لأنه أخذها بدون جيش أو ثورة مباركة ! بصراحة ربنا يا سيدنا لفندى هو أجدع من عبد الناصر فى حكم الوكالة !! ناب أزرق لا تعرف له ملة ! قالوا إنه فى الأصل قبطى من أسيوط ! وقالوا بل يهودى بدليل طباعه ! وقالوا إنه مسلم موحد بالله ! أما هو نفسه فيقول إن أجداده خليط من الترك والعرب وإن جده الكبير البعيد كان من خصيان السلطان عبد الحميد القديم !! لأ ياربى ! هذه الإشاعة الأخيرة أطلقها عليه عطية صاحب الوكالة !! وحينما سأل الخبثاء شوادفى عن حقيقة هذا النسب شخر لهم قائلاً : مالى أنا ولجدى إن كان خصياً المهم أن لى طرفاً أدكه فى عشرة نسوان يقفن وراء بعضهن لينفذ من مؤخرة الواحدة إلى فرج الأخرى وأستطيع به رفعهن جميعهن ومرجحتهن كيفما أشاء وهن مشكوكات فيه !! إنه تحفة نادرة يا سيدنا لفندى ! إنه متعة لمن يفهمه ويحبه ! من يحبه هو الوحيد الذى يستطيع احتماله ليستمتع بنوادره واطواره . يكفى يا سيدنا لفندى أنه يحكم فى الوكالة مللاً وأجناساً !!"..

سحب البوصة منى ليسحب الأنفاس المتبقية ؛ كتم الدخان فى أنفه فأحدث زعيقاً كصوت فرملة السيارة المفاجئة . ثم استطرد من خلال سحب الدخان المتدفقة من فمه وأنفه :

– " شف يا سيدنا لفندى ! فى الوكالة غجر وحلب وتتر ونَور !!"

– " فما الغجر وما الحلب وما التتر وما النور ؟!"

– " المرأة الغجرية مثلاً تلف الغيطان كغازية ترقص لتخدم عصابتها ! تبيع جسدها بالشبر والبوصة لتعود آخر الليل متعشية اربعاً وعشرين قيراطاً ! هكذا الغجر !"

– "فما الحلب؟!"

– " هم أعفّ الناس من ناحية العرض والجسد ! لكن نساءهن يسلبن الرجال أموالهم الكبيرة بحيل جهنمية !!"

- " والتتر ؟!"

- " أتتن الخلق ! نساؤهم يتخصصن في سرقة النسوان الهوانم بحيل جهنمية ! ورجالهم يتخصصون في سرقة حبال الغسيل ! وجمع السبارس !"

- " يبقى النَوَرْ !"

- " أجارك الله منهم !! أوطى طائفة ! رجالهم ونساؤهم يبيعون شرفهم ! الصراحة هم بلا شرف ! لكنهم بقدرة قادر رائجون ! يستأجرهم الناس للكيد والتطفيش والتفضيح والقتل والشهادة الزور في المحاكم وخطف النسوان الغريبة وتقديم نسوانهم للزبائن الغرباء كله ماشى عندهم !!"

سحب نفساً عميقاً من الجوزة ، واستدرك :

- الله لا يكتبها عليك يا سيدنا لفندي ! يبدو عليك أنك ابن ناس طيبين ! فما الذى رماك في طريق شوادفي ؟ إنه لايقع في يديه سوى الضائعين المشردين من أمثالنا والهاربين من الحكومة والقانون والمجتمع !!"..

لم أتبين ما إذا كان هذا الحانوتي اللطيف قد كرَّهني في الوكالة أم أغراني بها ؛ إذ راح قلبي يرتجف لدى استماعي لهذه الأساطير لكن خيالي في نفس الوقت قد اتقد وشبطت فيه نار حامية تدفعني إلى الجرى نحو الوكالة لا خارجها ، كأنها المكان الوحيد الذى يستطيع إطفاء هذه النار ..

وراح المعلم النن يواصل إمضاء الحجارة بتعميرة سخنة ؛ وراح المساء يطل من ناروزة في السقف ضيقة . ومن نافذة أمامي بدت العمائر الشاهقة بظهرها العارى من الطلاء على الطوب الحمر كعضلات بطن قوية سوف تهضمنا إن عاجلاً أو آجلاً . ثم إنها اختفت فاستقر بصرى في داخل القاعة مستنيماً إلى الضوء الشاحب المنبعث من كلوب معلق في السقف لا أدرى متى اشتعل . وحين كان الحانوتي يوصلني إلى منتصف الحارة ثم إلى نهايتها كنت كأنني أخرج من أعماق زمن سحيق انقطع فيه التاريخ تماماً . ولم أكن أشعر أنني قد صرت في دمنهور مرة أخرى إلا حين رأيتني أتطوح ذائباً في الهواء ؛ بينما أعبر الجسر المرتفع المحاذى لمحطة السكك الحديدية ، في طريقي إلى الوكالة .

دُميانة والقرد

كنت موقناً أننى لن أستطيع النوم بسهولة هذه الليلة ؛ لأننى نمت طول النهار فوق هذه المصطبة الجميلة نوماً عميقاً لم أشهد خلاله أية أحلام على الإطلاق كأننى فى موت مؤقت . وهاهى ذى الساعة قد جاوزت منتصف الليل بكثير، وأطفأ شوادفى لمبته الصاروخ وسحب البطانية الكالحة فوق رأسه واستغرق فى النوم . كان باب حجرتى نصف موارب ؛ وكنت فى ضجعتى على المصطبة استطيع رؤية الجزء الداخلى كله من الفناء الواسع ، وزاوية من أبواب بعض الحجرات العلوية التى كان معظمها مفتوحاً ومضاء تسمع منه أصوات ساهرة من الواضح أنها تلعب القمار أو تسكر أو تتضاجع أو تتعاتب أو تخطط لأعمال وربما لمصائب وكوارث ستحل بأبرياء مجهولين غداً أو بعد غد . يبدو أننى قد أدمنت هذه الضجعة على هذه المصطبة فى مثل هذا الوقت من كل ليلة ، وأننى أصبحت أميل إلى النوم مبكراً لكى أتمكن من الصحو للفرجة على هذه الحجرات وما تحويه من أسرار يقشعر منها البدن . ورغم مرور عدة ليال على هذا النحو فإننى مازلت فى حيرة كالواقف على شاطئ بحر عريض عميق لا يعرف من أى بقعة آمنة ينزل إلى عبابه ، حيث كل البقاع تبدو آمنة وسطح الموج يبدو ساكناً .. إلا أننى واثق أن الخطر كل الخطر إنما يكمن تحت هذا السطح الساكن الهادئ . إن كل الحجرات تستثيرنى فأرانى أتنقل بسرعة خاطفة كالطائر المذعور من باب إلى آخر دون أن أستقر على حجرة أبداً بتركيز الإنتباه عليها ..

على أن الجدار المواجه لنومتى على المصطبة راح يسخر من هذه اللحظة الهادئة ، إذ ينبعث من خلفه هدير وهبد ورزع وقلقلة مفزعة لا يمكن أن تعطى النائم على هذه المصطبة فرصة للنوم . رأيت أن لا مفر من القيام وإيقاظ شوادفى من النوم فربما استطاع إسكات هذه الزلزلة التى تهدر بجوار أذنى مباشرة . وعندى مبرر قوى للشكوى ؛ فهذه الظاهرة تتكرر كل ليلة أو كل ليلة والتى تليها . وكنت أتصور أنها مجرد شئ عارض فإذا هى طقس متكامل يستغرق زمناً طويلاً ربما امتد إلى ساعتين أو ثلاثة ؛ فلابد أن جارتى دميانة لا تدرب قرودها الأربعة إلا فى عز الليل

هكذا . ثم قفزت واقفاً فى غضب ؛ خطوت خارجاً فى الإتجاه إلى مصطبة شوادفى. ناديته فى همس رفيق :

– " عم شوادفى ! يا عم شوادفى !"

دفع الغطاء واعتدل جالساً تاركاً ساقيه ممددين :

– " من ؟! ماذا ؟!"

– " أنا فلان !"..

– " خير يا فلان ؟!"

جلست على حافة المصطبة ، ملت نحوه مدمدماً بصوت واطئ فى غضب مكتوم :

– " ما أنا بقادر على النوم يا عم شوادفى ! هناك زلزال فى حجرة دميانة القرداتية ! كأنها فوق راسى ! الجدران تهتز ودرف الشباك تصطك فى بعضها!!"..

زام بلهجة فهمت منها أنه كان واثقاً من أننى سأتقدم بهذه الشكوى ذات يوم. ورغم أن عتبة البوابة كانت ظلماء تماماً فإننى شعرت بابتسامة صفراء تنضح خبثاً فى الكلام :

– " هذه المرأة المجنونة لا تنوى أن تجيء البر !! الذى فيها فيها !! لا فائدة من الكلام أو حتى الضرب !! إننى والله مبق على العشرة فحسب !! يصعب على منظرها ساحبة قرودها باحثة عمن يقبل أن يسكنها فى بيته ووراءها أربع قرود أشقياء !!" ..

وسحب كيس السبارس ، وجعل يلف سيجارة لم يستغرق لفها أكثر من ثانية ؛ فجأة رأيتها مشتعلة بين أصبعيه ، ولا يضعها بين شفتيه ليسحب النفس ، إنما يكور قبضته ويضع بوزة على حافة القبضة ويشفط ، فتتوهج السيجارة فيخرج الدخان من منخريه معبقاً الجو برائحة حريفة فى العطن . واصل كلامه بهدوء دون أن يرفع صوته :

– "إنه القرد العجوز عليه اللعنة ! يدوخها ! لأنها تدوخه ! إنه معذور يا أخانا ! أليس يكفيه أنه شقيان طول النهار مع من يستأجره ؟ هو الوحيد الآن الذى يجرى عليها ليطعمها ويكسوها ويسكنها !! مع ذلك تقسو عليه بنت القحبة هذه !! ما

أدرى والله كيف يحتملها ؟! مصيره أن يخرج عن طوره ذات لحظة فيمزق لحمها!!"..

أصابني الخرم ودب الصحو المستثار في عروقي، فاشعلت نصف السيجارة الذى كنت حفظته في جيبي منذ حوالى ساعتين ، حاولت التأثير عليه :

- " أنت يجب أن تنذرها بشدة ! تحتم عليها أن تدرب القرود في النهار وتترك الليل لنا نرتاح فيه ! فأنا بصراحة لا أستطيع أن أفهم أى تدريب هذا الذى يزلزل الأرض ويحدث أصواتاً كرعد السحب حين تتلاطم ؟!"..

قال كأنه يتضامن معي :

- " تدريب مهبب بهباب الفرن !! القرد العجوز دائماً أبدا يحرن ! يتمرد على أوامرها ! تسوية بالخيزرانة على الجنبين ! يقفز من ركن إلى ركن في عنف واندفاع وخوف كأنه صخرة تقع من قمة الجبل إلى الأرض !! أعرف هذا يا أخانا بل سمعته بنفسي ! الجنزير مع ذلك في يدها ترخيه وتشده ! فمن عنف اندفاع القرد المكمم ينشد الجنزير من قبضة يدها فيكر على الأرض خلف القرد فتظل هي تحاول الهجوم عليه من ركن إلى ركن تصطدم بالقرود الصغيرة المربوطة من أعناقها في أوتاد متينة في الأرض ! ولابد أن تمسك به في النهاية ! إنها امرأة جبارة حقاً يا أخانا ! ذوبت في حياتها خمسة أزواج كأنهم أزواج من الأحذية السوقي !! شاهدت منهم ثلاثة ماتوا في وكالتي في حجرتها هذه واحداً بعد الاخر ! آخرهم كان رجلاً حكيماً طيباً وعجوزاً قال لى إن لحمها زفر !! ليلة ينام في حضنها لاصقاً بطنه ببطنها يصبح شاعراً أن لحم بطنه قد ساح وصار مثل الرقاقة ! أصح واحد فيهم وكان شاباً استهلكته في سنتين اثنتين ! إنها في الأصل من النَور أباً عن جد ! النَور كلهم من نواحي سيناء !! طولها ثلاثة أمتار وعرضها عرض الباب ومؤخرتها تملأ زكيبة وكل ورك من وركيها كورك الجمل !! حين تتخانق تستطيع أن تهزم بلداً بحالها دون أن ترفع سلاحاً أقوى من لسانها وإن اضطرت للضرب فبالنبوت كالرجال وبالركبة والفأس والدماغ وكل ما يقع في يدها !! وجهها دائماً منفخ كالكرة لا يتثنى ولا يتكرمش لأنها كما صرح لى زوجها الأخير تدعك لحم وجهها بمنى الثور ولست أعرف يا أخانا كيف تحصيل هذه الشيطانة على منى الثور!! وفي صباها وشبابها

تربت على أطعمة غريبة يا أخانا ، وحتى الان تذهب إلى السواق فى آخر الدنيا لتشتريها بغالى الأثمان : كبد الذئب وقلبه ! بيض نسر ! أحليل الحصان ! ثم إنها طباخة ماهرة مع ذلك يا أخانا لا يسكرني طبيخ كطبيخها ! وهى كريمة أيضاً ! كلما طبخت شيئاً نادرا أرسلت لى طبقاً وربما فرقت على بعض خلصائها فى الوكالة ! لا تعرف الأكل إلا بالمخلاب ولا اللحم إلا هبراً هبراً !! يكفيك الله شرها يا أخانا فحاول أن تكسبها فى صفك أحسن لك !! إنها مفيدة ويمكن إذا وثقت فيك أن تقرضك مالا لحين ميسرة !!"..

وسحب الغطاء فوق ساقيه ، إشارة إلى إنتهاء المقابلة ؛ فلما لم أقم تمدد من جديد ساحباً الغطاء نحو رأسه . ثم قال كانه ينهى المقابلة بالفعل :

– " وعلى كل حال فإن الأمر على وشك النهاية ! فما تكاد تصل إلى حجرتك وتتمدد حتى يكون القرد قد همد من شدة التعب واستكان وامتثل لها !!"..

وأكمل سحب الغطاء فوق راسه فغطاه تماماً ؛ ثم سرعان ما انتظم تنفسه . قمت متجهاً إلى حجرتى بخطوات لا صوت لها . فلما دلفت إلى الفناء جابهني على الأرض منظر فى غاية من الجمال والإبداع : خريطة مبهرة مرسومة على أرض الفناء بخيوط الضوء المنساب من خصاص الأبواب المواربة والمفتوحة والمقفلة فى الطابقين ، تتداخل فى بعضها كخيوط النسيج صانعة دوائر وقباب ومآذن وأسهماً وأشكالاً غريبة كعرائس الخيال كالجنيات المحلولات الشعر ؛ تصنع بطانية ثمينة الشكل فوق جانب كبير من الأجساد المتمددة فى الفناء أمام البواكى وتمتد بقيتها إلى مسافات كبيرة لترق كلما تباعدت فتلتحم خيوط الضوء بجسد الظلمة الغامرة لكن شبح الطلمبة بحوضها الأسمنتى المستطيل تبدو كشاهد قبر موحش . أخذت أتمشى فوق هذه الخريطة مخترقاً رسومها وأشكالها بحذاء أقدام النائمي ن؛ فإذا هى تتسلقنى قبل أن أدوسها ، فتظل عالقة بقدمى وصدرى ورأسى حتى أجتازها إلى الهامش المظلم . وهكذا رائحاً جائياً عدة مرات مشبكاً ذراعى خلف ظهرى كمدرس اللغة العربية وهو يمضى بين صفوف التخت فى الفصل أثناء قراءتنا فى حصص المطالعة ليتوقف من برهة لأخرى مستديراً إلى الإتجاه المعاكس ، فى رجعة من الرجعات سلطت عينى على باب حجرة دميانة ؛ فلاحظت ماسورة من الضوء رفيعة جداً تنبعث من

خرم فيه رجحت أن يكون خرم كالون تم نزعه لتركيب رزه قفل بلاً منه ؛ وهو أمر يحدث لكل هذه البواب لضياع المفاتيح من أصحابها أو حلول سكان جدد يخشون من ألاعيب السكان القدامى الذين يحتمل وجود مفاتيح معهم . تتبعت ماسورة الضوء حتى الباب ، فإذا الخرم في حجم المليم البرونزى الأحمر ؛ لكننى انعطفت على باب حجرتى فدلفت داخلاً ؛ فما كدت أدخل حتى جابهنى صوت الهبد والرزع ولكن مكتوماً هذه المرة وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة : دبدبة سريعة ثم تخاذل مفاجئ ثم نفضة مفاجئة قوية أخمدت في الحال . ظللت واقفاً في مكانى لاصقاً أذنى بالجدار لدقائق طويلة شملها السكون المزيف حتى وضحت من خلاله أصوات نقيق الضفادع في الغيطان البعيدة ، وأصوات ورق اللعب وهو تطرقع في بعض الحجرات ، وطشات عيدان الكبريت وهي تشعل السجائر ، وصوت سائل يصب في الأكواب مقرقراً . ثم مالبث أن تسلل صوت جديد سرعان ما راح يعلو ويتضح ويسيطر ، صوت فحيح نشوان قوى يخرج من الحلق ولكثافته الشديدة يضيق به الحلق فيخرج من الأنف مجلجلاً في هدير أو مكتوماً في غنج . إنسابت مفاصلى ؛ تكورت أصابع قدمى في الشبشب الزنوبة ، صرت أرتعش ، تتلاحق أنفاسى بشدة ؛ أسمع دقات قلبى . إندفعت خارجاً ، على أطراف أصابع قدمى تسللت بجنبى خطوتين حتى صرت أمام باب دميانة . وضعت عينى على الخرم ؛ هالنى ما رأيت ؛ كتمت صرختى بقوة كادت توقف قلبى عن الخفقان ، بل كدت أتهاوى على الأرض من فرط النفضة المذهلة ، إلا أننى سرعان ما التصقت بالباب متناسياً كل شئ وقد أغرق البلل ساقى : دميانة كالذبيحة الفطسى، منجضعة على ظهرها، رقبتها معووجة إلى الأمام ، كجذع شجرة جميز عتيقة ، فاشخة وركيها كاسرة ساقيها فوقهما بلياقة بدنية مذهلة ، والقرد العجوز مغروز بين ساقيها تعلو مؤخرته الحمراء وتهبط ، بنفس الطريقة التي يقلد بها عجين الفلاحة ؛ فيما هي ممسكة بخاصرتيه لتتمكن من تحريكه ؛ تدفع نفسها نحوه لتطوله ، وتجذبه نحوها ليطولها . دقائق طويلة هكذا ؛ والقرد مغلوب على أمره مذعور مندهش متألم ، يطلق سرسعة تتبعها زومة فحمحمة فلهاث ؛ يفرك ذيله الطويل في الأرض ينتفض.

فما أن فكت ذراعيهـا عنـه حتـى انسـلت متهاوياً برجليـه الأمـاميتين علـى الأرض موجهاً إليها نظرة ارتياب مذعورة ؛ ثم قفز ناحياً ، لينكمش في ركن قصي ..

إنسحبت بظهرى إلى حجرتـى ؛ فـارتميت علـى المصطبـة متمـدداً علـى ظهـرى أحاول ضبط دقات قلبي المتسارعة العنيفة ، فيما أشعر بغثيان شديد .

على رِيق الصُبْح

بزغت خيوط الشمس فامتلأ فناء الوكالة بالخلق من مختلف الأشكال والألوان . إرتفع ضجيج هائل ، أبرز ما فيه صوت الطلمبة وهى تدور ليغسل الناس وجوههم وأرجلهم ؛ كل واحد يدير للآخر يد الطلمبة . معظمهم يجفف وجهه ويديه فى ذيل جلبابه ، أو يترك الماء على وجهه ويديه حتى يجففه الهواء. ثم بدأ الزحام فى الفناء يخف تدريجياً . فى ظرف دقائق معدودة كان آخرهم يخرج وهو ينفض الماء عن يديه . أولئك كانوا الذين ينامون فى الفناء على الأرض مقابل قرش واحد . وحل بالفناء هدوء صباحى رطيب انبعثت خلاله روائح طازجة . لم يستمر سوى دقائق معدودة ، بعدها انفرطت الحياة فى الفناء ..

صارت المشاهد تترى أمامى عبر فتحة الباب : هذا أفندى محترم جداً ، سعادة الباشا يرتدى بذله أنيقة على أحدث طراز ، فوقها المعطف الجبردين المعتبر ، ينتعل حذاء شديد اللمعان ، يمسك بيده حقيبة جلدية لامعة الأزرار كحقيبة القاضى أو الوزير ؛ إنه من عليه القوم ، حليق الذقن مصفف الشعر تفوح منه رائحة كولونيا الياسمين ؛ إلى جواره ، متأخرة عنه قليلاً ، سيدة كهند رستم الممثلة بل أجمل منها وأوزن ، محتشمة فى لبسها بعض الشئ ، الفستان الحرير المقور الصدر لا يظهر منه سوى النحر بجذعه المضئ تشف عنه الطرحة الحريرية من الحبرة ، الكم حابك على الرسغين ؛ الصندل اللميع يكشف عن كعبين كريالين من الفضة ؛ قوام لا يتمتع به إلا بنات الحور اللاتى نسمع الكثير عن أو صافهن ؛ فى المعصمين البضين أساور وفى الأصابع خواتم وعلى الصدر عقود وفى الأذنين قرط كل ذلك ذهب فيما يبدو ؛ وكأى سيدة بالغة الإحترام تتأبط حافظة يد سوداء . أفى الوكالة مثل هؤلاء الناس من ذوى المهابة والأبهة ؟! هذا بك آخر يمضى وبجواره سيدة أنقح من السابقة . وهذا حضرة العمدة ، يرتدى الجلباب الكشمير وعلى كتفيه العباءة الجوخ السوداء وفى قدميه مركوب من الجلد الطبيعى وعلى رأسه طربوش أحمر زاهى اللون أسود الزر ، والعصا البنوس فى يده يوقع بها خطوة الوئيد المتزن . بجواره السيدة حرمه المصون بحق وحقيق كما تبدو ، إذ تلف نفسها بالملس الأسمر المليئ بدروب من

الكشكشات والبروزات ولكن لفة الجسد المحكمة تشير إلى أنها سيدة بكل معنى الكلمة ، إضافة إلى الوجه البارز من تحت الطرحة بملامح مضيئة بأنف مستطيل ورموش مشرعة كأعواد الحلفاء . بحق الله ما كل هذه ؟. هذا شاب أشقر سمهرى القوام يرتدى سروالاً من صوف الفانلة وقميصاً وشرزا من الصوف المضفور باليد بدون أكمام فلابد أنه من طلبة الجامعة بدليل حافظة الورق الجلدية الأنيقة التى يتأبطها . وهذه أمه بلاشك ، تمشى بجواره ملفوفة فى الملاءة بطريقة محتشمة غير حابكة على تفاصيل الجسد فلابد أنها ست الحاجة متوجهة فى صحبة ابنها إلى سفر أو زيارة أضرحة لتشترى له شيئاً ..

جعلت الحجرات تسرب إلى فناء الوكالة أشكالاً وألواناً من البشر يمضون فى احترام ووقار شديدين ؛ حتى ليصعب التصديق بأن هذه الوكالة فيها كل هذه المستويات المهيبة ؛ فلو قابلك أحدهم فى أى مكان لأعطيته حقه الواجب من التقدير والإحترام . كنت قميناً بأن أهتز من مناظرهم وأرتج رهباً ؛ لولا شوادفى كان يشيع كل عمدة أو باشا أو بك أو شهبندر تجار باللقب الذى يستحقه عند الوداع : "مع السلامة ياد يا ملعب !".. " نهارك فل يا زقلط !".. "ربنا معاك يا زعبلة !".. "قلبى معك يا ابن القحبة !".. إلخ.. إلخ.. مما أدخل فى روعى أن حجرات الوكالة هذه ليست إلا كواليس مسرح وهاهم الممثلون يخرجون إلى خشبة المسرح مرتدين ثياب ادوارهم ، فداخلنى شعور بأننى يجب أن أقوم أنا الآخر لأرتدى ملابس دور ينبغى أن أخرج لأؤديه . لحظتئذ جوبهت بحقيقة تقبض لها قلبى بشكل قارص حاد ، حتى كدت أطلق آهة عميقة ضجرة ، تلك هى أننى ليس لى أى دور على خشبة أى مسرح ، ولا حتى دور الكومبارس . رأيتنى أنخرط فى بكاء عنيف مكتوم أجاهد حتى لا يصل صوته إلى خارج الحجرة . لقد تنبهت إلى أننى أصبحت خاوى الجيب تماماً . كما أننى خاوى البطن منذ ليال طويلة ماضية .رأيت فى الضباب أبى الكهل يتوكأ على عصاه عند القيام وعند الجلوس ومع ذلك يسعى إلى الرزق فى مدينة البندر كل يوم ؛ تنطق عيناه اللوزيتان الكليلتان بالصدمة الأسيفة كلما رآنى . رأيت أمى تحوش بيض الدجاج كى تبيعه لتغمزنى عند السفر بعشرة قروش زيادة على المصروف ؛ هاهى ذى قد تقرحت جفونها من البكاء حزناً

علي ما حدث لي . رأيت كذلك جدتي ـ أم أمي ـ تتكفل بملبسي وإيجار مسكني في هذه المدينة ترسل كل شهر من بلدة بعيدة تعيش هي فيها ؛ هاهي ذي في ناظري لم تعرف خبر طردي من التعليم حيث أشفقنا عليها من الصدمة فلم تبلغها ، ومازال تعتقد أنني على وشك التخرج . رأيت زملائي الذين أصبحوا الآن مدرسين في وزارة التربية والتعليم يقبضون راتباً شهرياً ويحلهم القوم في الرواح وفي المجيء ؛ وفي حين أراني بلا راتب بلا مركز بلا مسكن بلا كيان ؛ حتى وكالة عطية التي يأنف الناس من ذكرها سأعجز عن الإستمرار فيها وربما طردت منها بعد ايام قليلة ؛ وصديقي محمد ابو سن ، يئست من المرور عليه بين ليلة وأخرى .. فماذا أفعل ؟ أين أذهب ؟ لماذا أظل متراخياً دائماً حتى أجد نفسي ذات لحظة مفاجئة مضطراً إلى البحث عن حل سريع مؤقت ؟!..

طرأت بدرية على بالي ؛ إستحسنت فكرة الإتصال بها : أنا محسن الكوافير أعطني الآنسة بدرية من فضلك . بحثت عن رقم الهاتف ، وجدته ؛ تقبض قلبي ثانية بنفس القرصة المؤلمة ، إذ تبينت أنني لا أملك القرش الذي يجب أن أدفعه ثمناً للمكالمة . ضاق صدري ؛ كورت الورقة ورميتها في جيبي ؛ تهاويت جالساً على المصطبة فكأنني أجلس بعد عام كامل من الوقوف على قدمي ..

يزحف ظل ثخين جداً على الأرض في بحر الصفرة الساخنة الذي دفعته الشمس فوق حوض الفناء . بعد برهة مرت الداية . في أعقابها زحف ظل آخر ولكن بشكل عمودي متجه نحوي : الحانوتي يقف أمامي وجهاً لوجه ، على وجه بسمة طفولية لطيفة ينفرج منها حنكه الأهتم . هتف بنبرة أسيفة أليمة :

ـ " وقعت في الخية يا ابن الناس ؟! لا عليك ! كنت أعرف أنك لابد ستقع في هوى الوكالة ! الآن لا أقول ربنا يتوب عليك منها فهذا لن يكون أبداً عدم المؤاخذة !! هذا هو الدعاء الوحيد الذي لا يستجيب له الله سبحانه وتعال ى! كل ما أدعو به ينجيك من شرها !!"..

لم تكن دموعي قد جفت بعد ؛ لكن الحانوتي رآها شيئاً آخر ، إذ بحلق فجأة في عيني متسائلا :

- " أنت لتوك صاح من النوم ! يظهر من عينيك أنك نمت نوما عميقا لمدة طويلة !"..

صفعني الشطر الخير من العبارة :

- " نعم ! ومازلت نائما !"..

- " أليس وراءك مدرسة ؟!"..

- " عندي إجازة مذاكرة !!"..

حلو ! أنا أيضا عندي اليوم إجازة ! شغلي يبدأ بعد المغرب فأنا جمعة بالنهار وجمعة بالليل ! الولية امرأتي ذهبت في مشوار إذا وفقها الله لك الحلاوة ! ستوفق رأسين في الحلال ! العروس غنية والعريس أغنى !"..

- " سوف يوفقها الله بالتأكيد ! إنها ولية واعية !"..

- " إدع لها يا سيدنا لفندي ! إن المسألة ليست سهلة كما تتصور !! العروس غنية أي نعم ! وسوف تنغنغ عريسها بالعفش والمفروشات والأطعمة والمدخرات ! لكن منظرها أستغفر الله العظيم ياجدع !! صراحة ربنا هي جسمها حلو مفيش كده ! يوقع اجعص جعيص ! لكن وجهها أستغفر الله !!"..

وجدتني أقول على سبيل المزاح والتداعي :

- " شفتاها غليظتان !!"

- " عليك نور ! بالضبط كذا !!"..

ثم استدرك وقد تضاعف ذهوله :

- " الله ؟ أنت تعرفها ؟! كيف ؟"

استرسلت في المزاح المرتجل :

- " ولابد أن بيتها في شارع الصاغة ! أمام محل الفول المدمس الشهير ؟!".

بدا عليه التشكك والحيرة ؛ صاح :

- " أنت تكلمت مع الولية امرأتي ؟! كلمتك عنها ؟! إن هذا الموضوع سر لا يعرفه أحد سواها وأنا !!"..

ذهولي كان أشد من ذهوله . أردت أن أقطع الشك باليقين ، وقد داخلني شيء كاليقين أن النكتة لابد أن تكتمل نهايتها بالتطابق المذهل . قلت :

- " .. وبالأمارة اسمها بدرية ؟!"..

فتح الحانوتي فمه وبقي صامتا يهز يديه ورأسه في حركات موتورة ، وبدا عليه أنه يتخيلني عفريتا أو ساحرا يضرب الرمل . ثم زاد التوتر في ملامح وجهه المضطربة بين الشعور بالحرج والخوف والمرح ، فشعرت أنه يستريب في أمري الان بصورة جدية، وثمة خاطر يجول بذهنه ويجد حرجا في مجابهتي به . شجعته :

- " تريد قول شئ ! قله !"

فتسلح بابتسامة خجولة لطيفة والقى بالقنبلة في وجهي :

- " الخوف يا سيدنا لفندى أن تكون مخبرا او ضابطا !! أنا على كل حال لم أقل لك شيئا واضمن أن الولية امرأتي لم تقل لك شيئا هي الأخرى فكيف بحق من جمعنا على غير موعد عرفت هذا الموضوع ؟! على فكرة ! أنا شخصيا لم أر العروس إلا مرة واحدة ! الصلة كلها بأمها ! إنها والحق يقال إمرأتي سخية اليد ! إننا نعيش على حسابها شهورا وأعواما ! نأكل من طبيخهم ونلبس من خليعهم ونصرف من هباتهم ! هذا الجلباب الذي ألبسه الآن في يوم اجازتي جلباب زوجها الحاج !"..

قاطعته:

- " الحاج مسعود ! والحاجة وديده ؟!".

وقف فزعا :

- " شف يا سيدنا لفندى ! هذه المرأة بنت أصل ! ما أستطيع أن أنكر ! لكنهامسكينة ! تريد أن تزوج ابنتها المسكينة هي الأخرى بأى شكل !! والولية امرأتي لم تغرها بشئ ولم تشجعها على شئ لكنها تعرفها من زمان إذ كانت تخدم في منزل مجاور لمنزلهم والست دائما أبدا هي التي تغرى الولية امرأتي بأن تبحث لابنتها عن عريس لقطة !! وامرأتي لا تتوصى في هذه المسألة ! تعمل بكل وسيلة لاصطياد عريس محترم !! أنها تتعشم في مكافآة كبيرة وتتعشم في توفيق رأسين في الحلال !! إنني وامرأتي يا سيدنا لفندى جدعان نعجبك ! وليس في طبعنا أن ننصب على أحد ! عمرنا ما فعلناها !!"..

وقدم لى سيجارة هوليود ، فاعتذرت قائلا إننى لم أفطر بعد . فرمى بها فى حجرى : " سنفطر سويا بعد قليل !. وأشعل العود وقربه منى ؛ فأشعلت السيجارة فجذبت نفساً شعرت على أثره بدوخه لذيذة . قال وهو يكاد يضؤل ويتلاشى :

– " لكن حضرتك فى الآداب ؟! قصدى بوليس الآداب أم فى المباحث العامة؟!"..

ضحكت رغما عنى :

– " ياعم وحد الله أنا ماقلته لك يوم التقينا فى تلك المقهى ! طالب ! وبصراحة لكى أطمئنك : المعهد رفدنى بسبب الغياب ! وأنا الآن أبحث عن عمل!"..

نظر لى بطرف عينه نظرة ارتياب صارخة بالمرح والسخرية والتوجس :

– " آ.. آ.. آ.. ها أنت ذا تثبت لى أنك فعلا فى المباحث ! على كل حال لا يهم ! أنا يمكن أن أساعدك فيما تود معرفته عن سكان هذه الوكالة فردا فرداً بشرط أن تراعينى ! أنا رجل غلبان وأريد آكل عيش بعرق جبينى ! لا يغرنك شغلى فى الغرزة ! إننى مجرد صبى باليومية ! وأنا أقطع ذراعى إن ما كنت تعرف كل هذا حق المعرفة !"..

جال بذهنى خاطر خبيث يوحى لى بأن أترك الحانوتى على عماه فيعتقد أننى ضابط مباحث ؛ فربما استفدت من هذه الرتبة التى لاشك سيمنحها لى على نطاق واسع ، فتكون لى هيبة ؛ لكنى سرعان ما رأيت الجميع كأنهم حضور فى حالة سخرية منى حينما أقع فى يد البوليس متلبسا بتهمة انتحال شخصية ليست لى . رأيت أن حجابا حاجزا قد قام بينى وبين الجميع ؛ يعاملوننى بخوف أو بحذر أو بكذب ، وحتى إذا أمكن لواحد كشوادفى أن يصدق هذه الإشاعة الكاذبة فإننى لا يجب أن أقبل هذا الوضع الذى يصر الحانوتى على وضعى فيه . فجأة قال كأنه يبادر بتقديم الرشوة لى :

– " ماذا تحب أن تفطر ؟ على حسابى ! أنت اليوم ضيفى من طقطق لسلام عليكم ! على فكرة ! إذا نحن أفطرنا هنا فإن شوادفى لابد أن يشاركنا ! فالأحسن أن تقوم فتلبس هدومك لنفطر فى البلد على كيفنا ! دعنى أفطرك على مزاجى!!"..

- " أشكرك على هـذه الدعـوة الكريمة ، ولكننـى أحـب أن تكـون واثقـا مـن شخصيتى الحقيقية التى عرفتك بها اليوم التقينا فى قهوتك !"..

إنتفض كالملدوغ بالسم :

- " يقول قهوتك ! يا سيدنا لفندى قلت لحضرتك أننى بحرد رحـل علـى بـاب الله !".

- " أقصد القهوة التى تشتغل فيها !"..

- " إذا أردت أن أتركها ! بل أضربها بالجزمة !! أشوف لنفسى شغلة أخـرى ! أزور محـلات الحانوتيـة التـى كنـت أتعـامل معهـا وهـى ستكـون سـعيدة بعودتـى ! الأرزاق على الله والرحل الجدع مثل حالاتى لا يغلب ! الكريم لا يضـام يـا سـيدنا لفندى !!"..

إنى أعترف لنفسى بأنه رحل جدع ، وصاحب واحب، ومن الخطل أن أخسـره وأنا فى احتياج لكل من هب ودب . قمت إليه مبتسما ، ووضعت يدى علـى كتفـه فى ود شديد :

- " يا رحل يا طيب ! هـل تظـن أن ضابطـا أو حتـى مخـبرا كحيانـاً يمكـن أن يكون فى وضع كوضعى هذا ليس معه سيجارة ولا يجد ثمن فطوره ؟!"..

رفع وجهه مركزا بصره فى عينى بنظرة ثاقبة متشككة فيها مع ذلك عشم كبير:

- "يعملونها كثيرا يا سيدنا لفندى ! هذه هى شغلتهم وأنت سيد العارفين ! يا سيدنا لفندى أنت قلت لى عن شئ لا يعرفه مخلوق فمن أدراك بكل هذه المعلومـات التى قلتها لى ؟!"..

- " يـا راحـل يـا طيـب ! إلا تذكـر يـوم سـألنى معلمـك عـن بلدتـى وأصلـى وفصلى؟!"..

- " نعم أذكر يا سيدنا لفندى !"..

- " ألا تذكر أننى قلت له إن الحاج مسعود القبـانى صـراف المديريـة هـو زوج لابنة عمى ! بل قلت إنها أختى ! حاول أن تتذكر هذا "..

برقت لمعة الفرح فى عينيه فأخذت تتسع شيئا فشيئا ثم صاح :

- " أى نعم ! صحيح ! أى والله صحيح هذا حدث ! أنت قلت هذا فعلا "..

- " والحاجة وديدة إذن هي بنت عمسى لـزم ! وبدرية العروسة تقـول لى : يـا خال ! يعنى أنا فى مقام خالها "..

إنطفأت لمعة الشك فى عينيه تماما ، ويظهر عليـه الهـدوء والإطمئنـان ؛ وحلـف بالطلاق أن أقوم فأرتدى ملابسى لنفطر فى أحسن المطـاعم ، علـى حسـابه . رغـم عدم ثقتي - وعدم ثقته أيضا - فى حدية يمين الطـلاق هـذا فـإننى طاوعتـه ؛ فتناولنـا وجبة الفول المدمس فى المطعم المتاخم لبيت ابنة عمى ؛ وزرنـا الغـرزة التـى يشـتغل فيها صبيا ، حيث جلس بجوارى كزبون هذه المرة مـن حقـه أن يخدمـه صبـى مثلـه، وأن يتأمر عليه ، ويلفت نظره إلى نواقص الخدمة واصول إكتمالهـا . قضينـا يومـا لا بأس به ، ثم تواعدنا على اللقاء بحجرتى فى مثل هذا اليـوم مـن الأسـبوع المقبـل إنْ عشنا وكان لنا عمرا ، أو كما قال .

القرد يحسب غلّته

أصبحت مفتونا بالأصبحة في فناء الوكالة أتفرج عليها من ضجعتي فوق المصطبة في حجرتي . أصبحة فاتنة ، تغير ألوانها في بطء جميل ساحر ، من الإردوازى إلى الطباشيرى إلى الوردى إلى الذهبى ، عابقة بروائح طازجة . وفي مرحلة الإردوازية من هذا الصباح كنت مندمجا في قراءة ديوان بيرم التونسي تستلبنى حواريه المصرية العتيقة بناسها ولبطها ووحلها ونسوانها الشبقات السليطات ؛ حينما سمعت صوت شوادفي يخاطب شخصا على البوابة بقوله :

– " إنها هناك في ثانى حجرة على يمينك وأنت داخل "..

ثم هتف بجعير خشن :

– " واحد يسأل عنك يا دميانة "..

إنفتح باب دميانة وخرجت هي صائحة :

– " يا مرحبا "..

وأقبلت حتى باب حجرتي ، ليلحق بها الرجل . نظرت في حجرتي قائلة بوجه زعزعت الإبتسامة هضابه وتضاريسه المكتنزة السمراء :

– " صباح الخير ياجدع "..

إعتدلت جالسا :

– " صباح النور ياخالة دميانة "..

دخل الرجل في الصورة أمامي : شاب في حوالى الثلاثين من العمر، صدىء الوجه خشن الملامح رث الثياب ، يلبس فوق رأسه طاقية من الصوف تنسدل تحتها خصل من شعره كالأنثى ؛ يلف رقبته بتلفيعه حائلة منسولة الأطراف ، ينتحل بلغة فلاحية لكنها بيضاء كأبناء سوق المدينة ؛ يمسك بيده خيزرانة رفيعة . كان طويلا بعض الشيء ، نحيفا ، ناشفا . صار هو ودميانة في فتحة بابي كعامود يلتصق بصخرة جبلية رمادية اللون . قال لها :

– " أنا محسوبك عبد الحسيب الشبشيرى "..

بشت في وجهه :

- " عارفاك ياحبة عينى ومربياك ! إزى أبوك وأخواتك ؟!"..

- " أنا من طرف عم حسن زرزور ! اليوم هو بعافية ! ما يقدر يقوم من الفرشة فبعثنى أسرح بالقرد بدلا منه ! بأمارة مـا عنـدك رهينـة القـرد سـاعة جيـب ماركـة الترماى وخاتم دهب " ..

- " يادار ما دخلك شر ! إدخل فخذه ! لكن الشمس لا تغرب عليك إلا هنا ! أتسمع كلامى ؟!..

- " بإذن واحد أحد !"..

تركها ومضى إلى حجرتها . بعد برهة قصيرة خرج ساحبا القرد العجوز ، الذى راح يتبخـتر فـى رهـق شـديد ومـزاج منحـرف ولا مبـالاه ؛ وقـد أضيـف إلى عبـد الحسيب رق صغير بلا شخاليل . شيعتهما دميانة .

- " ربنا يسهل لكما ويفتحها فى وجهكما يـاكريم يـارب ! إلآهـى يرجعكمـا مجبورى الخاطر بحق جاه النبى !"..

وقال شوادفى من فوق مصطبته بلهجة مسموعة :

- " ياولية غذى هذا الشقيان ! إذبحى له أرنبا أو دجاجة ! حـرام عليـك هـذا ! ها هوذا يجر ساقيه مهدود الحيل !!"..

صار القرد أمامه ، فشيعه بنظرة إشفاق :

- " ربنا يقويك يا بطل ! يا عائل اليتامى والأرامل يا قائماً بـالواجب كأحسـن الرجال ! روح العب عجين الفلاحة وعروس ابن العمدة وارقـص مـا شـئت ! والله لك الجنة !!"..

- "بطل نق ياخويه ! أحسن أخليه يرجع ياخدك قلمين "..

ومضت ترفع إلية وتخفض أخرى ، ليميل جنبها اليسر مع ارتفاع إليتها اليمنى ، وجنبها الأيمن مع ارتفاع إليتها اليسرى . ثم اختفت فى حجرتها ..

وصل الصباح إلى المرحلة الطباشيرية حيث ألقت السماء على أرض الفناء بصمة سحبها الشبيهة باللبن المتخثر . لحظتها كنت أفكر بأننى ربما أكون قد رأيت دميانـة هذه فى غير هذا المكان من قبل ؛ وحين أمسـكت بديـوان بـيرم التونسـى تذكـرت قصيدة أم خليل فجعلت أبحث عنها بين صفحات باشتياق شديد ..

- " السلام عليكم !"..

رفعت رأسى كان الحانوتى قد دخل حاملاً علـى صـدره لفـة كبيرة فـى جعبـة ورقية ، وضعها على المصطبة . إعتدلت جالسـا ، يضمخنـى شـعور فـارط بـالخجل وربما الأسف . وخرج الحانوتى فـى اتجـاه حجرتـه ؛ فسـمعته يتبـادل مـع شـوادفى كلمات غامضة لم أتبين منطوقها جيدا لكننـى لم أهتـم بهـا . فبعـد دقـائق معـدودة دخل ممسكا بعدة اشياء ، وابور سبرتو ، وعلبة من الصفيح كانت فى الأصـل علبـة سمن هولندى ، ونارجيله من النحاس من النوع المسـمى بـالبورى أقـرب إلى الجـوزة لكنها بمقعد يثبت على الأرض ، بدلا من البوصـة أو اللّـى خرطـوم مـن البلاسـتيك المزوق بخطوط حمراء وخضراء . هبط علـى الأرض بكـل ذلـك ؛ فوضـع كـل شـئ بجوار الآخر ثم وقف مشمرا ذراعيه وراح يتكلم فى غبطة كبيرة وصدغاه ينصفطان وينتفخان مع حركة شفتيه الضامرتين بحنكه الأهتم الضيق :

- " نفطر اليوم فطور الناس الذوات أصحاب الميسرة الشبعانين ! كل يوم نفطـر الفول والفلافل ! فلنفعل اليوم مثل الأغنياء من نفسنا !! هم ليسوا أجدع منا ! نحـن أيضا نستطيع إقامة سفرة كسفرتهم !!"..

فرط اللفة : ورقة ملفوفة على قطعـة مـن الجـبن الأبيـض ، وأخـرى مـن الجـبن الرومى ، وثالثة علـى حفنـة مـن قطـع البسـطرمة ، مـع بيضتـين ، وعلبـة بولوبيـف صغيرة، وستة أرغفة سـاخنة مـن الخـبز البلـدى ، وبـاكو مـن التبـغ المعسـل ماركـة الغزالة، وكيس صغير من الفحم المفتت ، وجريـدة الأهـرام . فـرد كـل ذلـك علـى المصطبة بعناية ثم تراجع قليلا ونظر إليه نظرة شمولية متمنعة كفنان يلقى نظرة أخيرة على اللوحة بعد انتهائه من رسمها :

- " منه فطور ومنه غداء !"..

ونزع المفتاح الملتصق بعلبة البولوبيف ، شبكه فى ذيل بارز فى حافة العلبة ، لفه حول نفسه مع دوران العلبة فازال غطاءها ثم دلقهـا فـى الطاسـة ، كسـر البيضتـين فوقها ؛ وضع الطاسة فوق وابور السبرتون أشـعله وصـار يقلـب فـى الطاسـة بعـود نظيف من الحطب ، فإن هى إلا ثوان حتى ارتفعت رائحة شهية ؛ تركها تطشـطش وخرج صائحا : " يلا ياعم شوادفى !". دخل حجرته ثم عاد يحمل البراد وكوبتـين

من الصاج وعلبتين من البلاستيك في إحديهما شاي وفي الأخرى سكر . رفع الطاسة عن الوابور وركنه في ركن ووضع البراد فوقه ؛ ثم وضع الطاسة على المصطبة ..

جلس الحانوتي على الحافة المتاخمة للباب ، وبقيت في قعدتي ، واقعى شوادفي على الأرض مبسملا . على عكس ما توقعت كان شوادفي أول من شبع ؛ لم يكمل الرغيف . أما الحانوتي فقد أكل رغيفين ، وأكلت أنا رغيفين واللقمة المتبقية من شوادفي ..

مع الشاي كان الفحم قد اشتعل ؛ وخرج شوادفي إلى البوابة متعجلا ليستأنف شغلته الإضافية التي يجني من ورائها ربحا كبيرا : فتل حبال من ليف النخيل لحساب بعض المراكبيه ومقاولي البناء والصيادين . قدم لي الحانوتي مبسم النارجيلة بيد ، وجريدة الأهرام باليد الأخرى هاتفا :

– " شف لنا ماذا في الجرنان ؟! يظهر أن في الأمور أمور خطيرة الشان ! رأيت الناس يتزاحمون على باعة الجرائد بلهفة يتضاربون كأنهم يطلبون خبزا ! والبلد ليست على بعضها ! شكلها لم يعجبني ! الناس تبرطم بكلام لم أفهمه ! وبعض التجار شاردين يبيعون بنصف انتباه !! شف لنا ما الحكاية ؟!"..

سحبت الجريدة ففردتها . في الصفحة صف من الصور لوجوه بعضها ملتح وبعضها حليق ؛ تحت عنوان كبير : القبض على مجموعة من أعضاء الجهاز السرى للإخوان المسلمين .. العثور على أسلحة ومتفجرات بكميات كبيرة في حوزتهم .. العثور على أوراق ومستندات وكشوف تضم أسماء شخصيات عامة كبيرة من المرجح أنها مرشحة للإغتيال . قرأت ذلك بصوت علا فيما الحانوتي يستمع في اهتمام شديد ويعلق من حين لآخر تعليقات سريعة تدل على أنه يفهم ما معنى الجهاز السرى للإخوان بل ويفهم طبيعة العلاقة بين الأعضاء ، وبينهم وبين الحكومة الثورية الناصرية كما أسماها . قرأت عليه أيضا كل أخبار الصفحة الأولى . ثم باعدت بين ذراعي فاتحا الجرنان ؛ فاقتربت الصفحة الأولى مفرودة أمام وجه الحانوتي ؛ فإذا به يصرخ كالملسوع بالنار :

– " هو ! هذه صورته ! أسرع يا معلم شوادفي ! تعال شف صاحبك !"..

ونهض مهرولا ينادى شوادفى بحماسة ورعب . قفز هذا عن المصطبة وجاء يهرول :

أسرع الحانوتي فاختطف الجرنان ، فأشار باصبعه إلى صورة في الوسط هاتفا :

- " آهو ! عبد العزيز افندى !"..

صاح شوادفى كمن أفاق من خديعة محكمة :

- " يا بن الكا.. ا.. ا.. لب . فعلا هو ! نظرتي فيه جاءت سليمة ! نظرتي لا تقع الأرض أبدا !"..

راح يتأمل الصورة بإمعان ؛ ثم قدم لى الجريدة طالبا أن أقرأ عليه ما فيها ؛ وجلس على حافة المصطبة منكسا راسه في تمعن وإنصات . طلب أن أعيد القراءة ثانية ؛ ثم : معلهش ، مرة ثالثة . أخيرا رفع ذراعه كأنه يبرئ ذمته أمام تحقيقات النيابة :

- " يعنى إسم الوكالة لم يجئ في الخبر را هل تعتقد يا أخانا أن سيرة الوكالة يمكن أن يجئ في التحقيق مع هذا الجدع ؟! وعلى فرض أنها ستجئ ! مالى أنا ؟! أتذكر يا أخانا ما قلته لك ؟! لم أكن مطمئنا لهذ الجدع ! كنت أشعر أن وراءه شئ!! يموت المعلم وهو بعد لم يتعلم ! هذا ولد استطاع أن يخدعنى ! يوكلنى الأونطه ! الله أعلم كم من أمثاله سيضحكون على ذقنى !!"..

ووجه لى نصف عين ، فأحسست أن الغمزة قد أوجعتنى . مع ذلك ابتسمت وقلت له على سبيل المزاح :

- " ربنا يستر يا عم شوادفى ! دعها على جناب الله !"..

حينئذ شرع في النهوض واقفا ، لكنه استدرك فجلس ثانية :

- " قلبى يحدثنى بأن أقوم الآن فأحرق متروكاته التي جمعتها في جوال في المخزن ! أم أنكر معرفته من الأساس ؟! بما ذا تشير أنت يا أخانا ؟!"..

قلت محذراً !:

- " أياك أن تفعل هذا ؟ إن الحكومة التى قبضت عليه على علم بأنه كان يسكن عندك ما في ذلك شك ! فإن حاولت أنت أن تنكر معرفته من الأساس فإنك تضع الشك في نفوسهم من ناحيتك ! ستجعلهم يفتشون عن السبب الذى

دفعك لذلك ! وأنت في غنى عن التفتيش ووجع الدماغ ! لقد قلتها كلمة حكمة : مالى أنا ؟ نعم ! مالك أنت ؟! هذه وكالة وكل الناس من كل لون تسكن فيها ! فهل أنت مسئول عمن يسكن عندك ؟! هذه واحدة ! الثانية هي الأشياء التي تركها عندك ! تستطيع أن تكسب بها ود الحكومة إذا جاءت تسألك ما الذى تعرفه عن هذا الشخص باعتبارك عاشرته فترة طويلة عن قرب ؟ فتقول لهم : والله ياسعادة البيه ماكنت أعرف عنه أى شئ لأنه لم يكن يتكلم مع أحد وأنه اختفى دون أن يدفع الحساب وهذه هي كل متروكاته خذوها فربما تنفعكم ! سيشكرونك في هذه الحالة بدلا من ضربك أو تشميع الوكالة !"..

وكان قد راح يرقبنى بعينيه الإثنتين في ترقب شديد كأنه يشرب كل حرف أقوله لعله يعرف منه حقيقة أمرى وشخصيتى . لحظتئذٍ كانت تدور بخلدى نية أبيتها على أن أغريه بعد أيام بأن يعرض على هذه المتروكات لأتفحصها جيدا فلربما أفادتنى في معرفة شئ من تفاصيل هذا العالم المثير الذى يلعب دائما بخيال ى: عالم التنظيمات السرية المناهضة للحكومة واقتناء الممنوعات من منشورات وأسلحة ، والتدريب على الإغتيالات السياسية التى كثيراً ماخلبتنى منذ رأيت صورة العيسوى قاتل أحمد ماهر باشا في الجرنال واقفا كالفارس الأسد وكل الناس تنظر إليه بدهشة وإعجاب . لهذا فضلت أن أترك شوادفى حائراً فى تفسير شخصيتى ، فلا داعى للمبالغة في طمأنته بخصوصى ، دعه يفرك ، يتصورنى مـا يتصورنى ؛ فلعلى على هذه الأرضية النفسية الممهدة أستطيع التأثير عليه فلا يتردد فى إطلاعى على متروكات عبد العزيز ؛ ولا يزمزق عندما أتأخر في دفع الإيجار . وجدتنى أقول له فيما يشبه الأمر بلهجة واثقة :

- " إفعل ما قلته لك ؟ وانس الموضوع تماما حتى يطلبوك للتحقيق ! وعموما فربنا معك ! لاتخف !"..

واكتشفت أننى نطقت : لاتخف ، هذه ، بلهجة من يقول : أنا معك أساندك وأنجيك من أى مأزق ؛ الأمر الذى جعل شوادفى يحملق في وجهى وقد خفقت الدماء تحت جلد وجهه الصدىء ، فبدا على وشك الإرتعاش ، وبدا كأنه يتضاءل حجما ، كالقط الشرس الذى يتوتر من الخوف والغضب معا . هز راسه في امتثال،

وكان واضعا يديه على ركبتيه كتلميذ مذنب ، فرفعهما فى تلويحة هزيلة قائلا فى تسليم :

– " خلاص ! أمرك ! لن نخسر شيئا على كل حال !"..

ثم نظر متوترا إلى النارجيلة وصار يتشمم رائحة الحشيش مصطنعا الدهشة كأنه لم يكن يعرف أننا نفعل ذلك . وصار ينظر إليها فيما يشبه الإحتجاج ، ويتمتم على مضض :

– " أظن أن هذا ليس وقته الآن ! فربما يهبط إخواننا علينا الآن ! إنهم كالقضا المستعجل كما تعرفون !"..

خطر لى أن أصيبه بالضربة القاضية ، خاصة بعد أن لاحظت استعداد الحانوتى للخوف وشروعه فى لم عدته وإيقاف الشرب ، مددت ذراعى بحركة واثقة معناها: دع كل شئ كما هو . ثم قلت لشوادفى :

– " أنا المسئول ! هذه حجرتى ! وإذا هاجمونى فيها فأنا المسئول عما يدور فيها لا أنت !"..

بصوت خافت قال :

– " الشرارة تصيبنا جميعا يا أخانا "..

– " لى كلام معهم !"..

رشقنى الحانوتى بنظرة استدراك على مافات من حديث بيننا ، كأنه يقول : ألم أقل لك إنك من أخواننا البعداء ؟!.. تبسمت وكتمت ضحكة عالية ، لأننى كنت على شئ من الثقة بان أحدا لن يجئ ولن يسأل . مع ذلك ظل شوادفى جالسا معنا يشاركنا شد الأنفاس فى شهية مفتوحة ، كأنما خاف أن ينتقل إلى مصطبته فى البوابة وحده . ظللنا طول الوقت نتكلم فى عبد العزيز نفس الكلام بحذافيره نعيده مثنى وثلاث ورباع ، نتوقف عند نفس الصفات ، نـدلى بنفس التعليقات والتعقيبات، يحكى الحانوتى حكاياته وملاحظاته عن عبد العزيز للمرة المائة دون أن يضيف شيئا . وشوادفى الذى كان يعترض على الشرب صار على امتداد الجلسة ينسى فيسأل الحانوتى ، لماذا توقفت عن الرص فيقول الحانوتى : نفذ المعسل ؛ فيقوم شوادفى فيأتى له بورقة معسل ؛ ثم يعود فيسأل مرة أخرى بعد حين : لماذا

توقفت عن الرص ؟ فيقول الحانوتي : نفد الحشيش ؛ فيقوم شوادفي فيختفي في مكان مجهول ثم يعود بعد دقائق فيرمي في حجر الحانوتي بقطعة حشيش تزن درهمين . لحظتها تبادلنا أنا والحانوتي نظرة هلعة ، فقال شوادفي : " الباقي ترده لي!"، فرد الحانوتي وهو يغمز بعينيه وخديه غمزات مرنة : " طبعا طبعا !". ثم هبر منها هبرة ملء أصبعيه دون أن يشعر شوادفي فسربها تحت مخدتي بحركة من يبحث عن شيء ؛ ثم أخذ يواصل الرص بإخلاص وإتقان شديدين ؛ فتمتد إلينا عدوى الحماسة للشرب فنمعن في جذب الأنفاس بشغف واستمتاع .

فرغ النهار ، ونامت الشمس في الفناء تحت ملاءة رمادية رقيقة . وإذا بطرقة الباب تدق على البوابة ؛ فانتفضنا جميعا في رعب حقيقي . تحامل شوادفي على نفسه واقفا ثم خرج إلى البوابة ؛ فخرجنا في أثره واقفين على الباب نتابع الطارق . فلما فتح شوادفي باب البوابة إندفع القرد العجوز داخلا يتبختر تهتز مؤخرته الحمراء العالية ، ومن خلفه ذلك الذي أخذه في الصباح ..

- " إتفوه عليك وعلى أصحابك ومن اقتنوك ومن سرح بك !"..

فتوقف عبد الحسيب محتجا . فصرخ فيه شوادفي : خش ، فانتفض عبد الحسيب واحمر وجهه لكنه مضى خلف القرد ..

وكانت دميانة قد سمعت فخرجت من حجرتها والتقت بغائبها في منتصف الطريق حيث مالت لتتلقى القرد في أحضانها بشوق ولهفة . القرد العجوز الخبيث يستكن في حضنها وتلقائيا يهز مؤخرته رائحة جائية ، مما جعلنا نضحك دفعة واحدة . تناولت دميانة مقود القرد ، فشدته قليلا فانسلخ القرد ولف حولها . قالت لعبد الحسيب :

- " حاسبني !"..

مدَّ عبد الحسيب يده في سيالته ثم أخرجها مطبقة على حفنة من البرايز والشلنات وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش والتعاريف والعشرينات الخردة . تلقتها دميانة في راحة يدها ؛ بدربة شديدة فنطت القطع كما تفنط ورق اللعب ، إذ جعلت البرايز متجاورة ومن بعدها الشلنات فالقروش المخرومة فالقروش المصمتة فالتعاريف فأنصاف الفرنكات فالعشرينات الخردة ؛ حتى تكون من ذلك جسر

إسطوانى يبدأ من فوق الرسغ بدائرة متسعة وينتهى عند أطراف الأصابع وقد ضاقت الدائرة كمجرد ظل ، بنظرة سريعة جمعت قيمتها ؛ رفعت عينيها إلى وجه عبد الحسيب بنظرة استنكار يشع منها نذير غاضب بالفضيحة :

– " إيه دول ياروح امك ؟! "..

هكذا دفعة واحدة ؛ مما جعل عبد الحسيب يدارى حرجه وخوفه قائلا بود مفتعل :

– " إيه دخل أمى هنا بقى ؟ تعالى نخش جوه نتفاهم ! "

فإذا بدميانة تسحب شخرة رنانة هادرة ثم تلكزه برفق فى كتفه . تطوح ثم اعتدل .. فواصلت :

– " مفيش دخول جوه ! تخش جوه بتاع إيه ؟ دى غرفة ولّيه ! يدخلها راجل ازاى ؟ حاسبنى هنا قدام الكل عينى عينك !! "..

فك عبد الحسيب تلفيعته وأعاد لفها :

– " وكيلك ربنا ! هذا ما رزقنى به الله ! "..

وكان القرد العجوز قد أخذ لفته حول ساقيها ووقف بينهما كأنه يستعد للحجز بينهما إذا نشبت المعركة ؛ وراح يتابع الموقف فى ترقب ذكى خفيف الظل جدا . قالت دميانة مشوحة بذراعها نحو القرد :

– " سرحته تعمل جنيهين فى اليوم ! ويوم السوق تعمل خمسة ! "..

– " فتشينى يا خالة ! "..

وأمسك بسيالته وراح يهزها وينفضها ؛ فإذا بالقرد البارع يقفز جاة على صدر عبد الحسيب ؛ يضع يده فى قلب طوقه نحو جيب الصديرى ؛ بل – يا للشئ المذهل – يخرجها ممسكة بجنيه كامل ، ثم يقفز من صدره إلى صدر دميانة ..

أذهلتنا المفاجأة . قالت دميانة فى تشفٍ :

– " شفت يالص ؟! إن القرد يعد عليك قرشا قرشا ! هكذا علمته بتربية يدىّ هاتين !! رآك وأنت تفك الفلوس لأحدهم من إيراده وتضع الجنيه فى جيب آخر فلم ينس! والآن أرنى جيوبك كلها ! "..

إستسلم عبد الحسيب ليديها الغليظتين اللتين راحتا تخترقان صدره وجنبيه بقسوة حتى خرجت إحداهما ممسكة بورقة من فئة الخمسين قرشا ، راحت ترفرف بها في وجهه وهو صامت على شفتيه ابتسامة شاحبة واهنة ..

- " إياك أن تتبجح وتقول إنها كانت معك من الأصل ! أنا أعرفك وأعرف أباك ! طول عمركم شحاذين لا يحتكم الواحد منكم على مليم أحمر ! بفضل هذا القرد الشقيان أمسكت خمسين قرشا لأول مرة في حياتك! خذها ! هي أجرك وأنا سامحتك فيها ! إتكل على الله وأرنى عرض أكتافك من هنا ليوم القيامة ! أما الذى بعثك إلىّ فلى معه كلام ثان!!"..

وحشرت الورقة المالية في طوق جلبابه واستدارت ساحبة القرد إلى حجرتها . وكان شوادفى متكئا على المخدة القش الصلبة بكوعه الأيمن يتابع الموقف بغاية من الإستمتاع ؛ فما أن انصرف عبد الحسيب منكس الرأس حتى صاح في صوت غليظ بهيج متحشرج بالإنفعال:

- " شفت ياحانوتي ؟! لو أن أحدهم سرح بك أنت نفسك لاستغفلك ببساطة!"..

صاح الحانوتى من حنكه الأهتم اللطيف:

- " وهل أنا تربيت على الغالى مثله ؟!"..

ثم دخل في أعقابى ضاحكا يقول : " القرد فوقنى !"، وكأنه قدم مبررات كافية لإشعال الفحم ، لنستأنف الشرب من جديد .

الداية والحانوتي

قال الحانوتي :

- " أظنك ياسيدنا لفندى زمانك الآن تقول فى نفسك : هذا الرجل الأهبل فى يده صنعة أصلية هى صنعة الحانوتية . فلماذا يتركها ويشتغل صبى غرزة يعرض نفسه للمخاطر ؟!..

قلت له إننى فى الواقع لم أفكر هذا ولكننى حتما كنت سأفكر فيه ذات لحظة، وإن كان فى حقيقة الأمر لا يعنينى كثيرا أن أعرف السبب ، فكل واحد يشتغل ما يحلو له من الأشغال طالما يكسب رزقه بعرق جبينه . إلا أنه حدق فى تحديقا لم أفهم له معنى ؛ ثم استطرد :

- " أصل الحكاية أن الواحد منا يحب الفضفضة ! الفضفضة حاجة مهمة ياسيدنا لفندى ! أنت تفضفض لى وأنا أفضفض لك يستريح كلانا من حمله الثقيل!! أم تراك تحب الكتمة ؟! أنا لا أظن هذا فى شخص مجدع مثل حالاتك ! أنت عدم المؤاخذة رجل مفتح ودابر وما دمت وصلت إلى وكالة عطية فأنت ولد دقرم !!"..

كان من الواضح أنه يريد استدراجى لكى أحكى له قصة حياتى . هكذا نحن المصريين نعتاد هذه الطريقة الجهنمية فى الكشف عن غموض بعضنا البعض ؛ فأسلم طريقة لاستدراجك للحكى عن نفسك عن أصلك وفصلك هى أن أبدأ فأحكى لك مقتطفات من حياتى ، لا يهم إن كانت صادقة أم كاذبة ؛ كلما كانت متقنة مستوية أوحت بالصدق ؛ وياحبذا لو كنت صادقا تماما فى الحكى عن نفسك ؛ لابد أن تنتقل العدوى إلى جليسك فيبدأ فى الحال دون أن يدرى فيحكى لك ربما أدق التفاصيل فى أسرار حياته خاصة إذا أشعرته أنت بشئ من الإطمئنان والسرية والندية ..

تبسمت قائلا :

- " طبعا طبعا ! لولا الفضفضة لطق الإنسان ومات !"..

- " تعجبني ياسيدنا لفندى ! عليك نور ! الحكاية وما فيها ياسيدنا لفندى أنني لم أكن في الأصل حانوتيا ! كنت فلاحا أسرح في الغيطان بالأجرة على ذراعي عدتي ، فأس أحملها على كتفي للعزيق لتطهير المصارف لحفر الترع والقنوات! وكنت ولدا على كيفك أعول أبي العجوز المريض بالطحال وأمي الكسيحة ! أمي هذه ياسيدنا لفندى كانت ملكة جمال أيامها ! من سوء حظها أنها ولدت وعندها ذلك المسمى بشلل الطفال ؟ تراها وهي جالسة صبية ولاكل الصبايا ! أما حين تقف لتمشي فقلبك لابد أن يتفزع من منظرها !! فلكي تخطو خطوة عليها أن تبرز صدرها وهي تدفع ذراعيها بكل قوتها فترتج بقية جسدها فيخيل إليك أن كل أعضاء جسمها ملتصقة في بعضها البعض بالغراء وأنها ستتطاير في الهواء ذراعاها في ناحية ورأسها في ناحية وبقية جسمها في ناحية !! نصفها الأعلى يتفصص حتى تنقل قدمها اليمنى خطوة لتجر خلفها اليسرى بسهولة !! الكل يطرى جمالها والكل يضن عليها بالزواج ! إلا أبي فقد كان رجلا بمعنى الكلمة يفهم جمال خلقة ربنا حتى لو بعاهة مستديمة ! قال الله ولأتزوجن بها ورزقها ورزقي على الله! شغلة أبي خفير على الأجران في مواسم الحصاد نظير جُعل من المحصول يُكال له! أمي أنجبت له أربع صبايا يقلن للقمر قم لنقعد مطرحك ! لكن سوقهن بار في البلدة لخوف العرسان من أن ينجبن لهم عيالا مصابين بشلل الأطفال !! فكانت أمي تستلم ببصرها قمة مئذنة المسجد فجرا وظهرا وعصرا ومغربا وعشاءً تتلقف كل كلمة من الكلمات الآذان والإستغاثات لتضع فوق جناحيها دعوات وابتهالات لاحصر لها ! تعتقد أن كلمات الأذان والإستغاثة تطير في الفضاء إلى بارئ السموات والأرض فهي إذن كساعي البريد يمكن أن يحمل رسائل أمي إلى الله !! كل طلبها أن يستر الله عرضها في بناتها فيرزقهن بأولاد الحلال المؤمنين بقضاء الله وصنعه ! طب ما قولك ياسيدنا لفندى أن الله لم يكسفها ؟ رزق إخواتي البنات بأربع عرسان مؤمنين مصلين صالحين : واحد معلم في مدرسة وواحد فراش في نفس المدرسة وواحد بقال على قد حاله والرابع أسطى في ماكينة الطحين في بلدة مجاورة ! بقيت أنا وأمي وأبي وأخ صغير هو الآن عامل في كفر الدوار مبسوط! أصيب أبي بمرض الطحال من كثرة الشرب من المصارف الراكدة والبرك فكانت

بطنه في أواخر أيامه مثل فنطاس له رأس وذراعين وقدمين ! وعمرى وقتها على وشك أن أختم فى القرعة لأدخل التجنيد وكنت سأدخله فرحا لولا أنهم أعفونى لإعالة أبي وأمي ! الشغل عندنا مواسم مواسم"! ما بين المواسم جدب وقحط وصرمحة ! أصبحت رجلا شديد البنية كبيرا حينما حل بالبلدة فجأة ذلك الوباء المدعو بالكوليرا ! حكمة ربنا أن أول واحد يموت فيه من البلدة كان الحانوتي مغسل الموتى ومكفنهم ! وكان قريبا لنا إذ أن زوج أختى البقال كان ابن أخيه! الناس كشّت منه ! دخلت أنا بقلب جامد نزعت ثيابه غسلته مرشته مرشاً بالليفة والصابونة وكفنته وبالسلامة سلم لنا على الملايكة ! فى نفس اليوم مات شخص ثان كشّت الناس منه هو الآخر فقلت يا ولد أكمل جميلك فدخلت عليه بنفس الشجاعة التى لا أعرف من أين جاءتنى! ثانى يوم مات خمس رجال فقال الناس فى الحال : هاتوا فلان ! فجاءونى يستنجدون بى فرأيتها كبيرة فقلت يا ولد أهي ميتة أم أكثر ؟ خلعت ثيابهم وغسلتهم وبالسلامة أنتم أيضا !! أبى وبعض الناس يزجروننى كى أكف عن هذه الشمللة الخطرة لكن أمى تقول لا تخف يا ولدى فالكريم لا يضام وما عند الله لا يضيع ! ضع فى ذمة الله كل ما عندك من فعل الخير لا يخزيك أبدا ! خلصت الكوليرا على البلد وجاءت بعدها كوليرا من نوع جديد ! قالوا المحور وموسولينى وهتلر والعلمين ! قل إن الجثث كانت لا تكف عن المجئ كل يوم من هنا وهناك مقتولة فى الحرب فلا تجد آباءها أو أمهاتها أو أعمامها!! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل ! تعال يا عبدالفضيل صرت حانوتيا بالأمر الواقع ! صرت أقبض أجراً من اهل الله ! حسنت سمعتى فى الجرأة وحلاوة النفس لا أحد يضارعنى فى تغسيل جثث القتلى ! بيدى الحنونة أجمعهم فوق الضرابية الخشبية فأغسل كل قطعة من الأشلاء على حدة أتشهد عليها عشرات المرات ثم أضمها بحرفنة ومزاج أكاد أضع بينها تخشينات من القطن حتى يلتئم اللحام تصير كأنها لم تتقطع من قبل !! ألفها فى كفن محم كالجبيرة الصلبة يحفظها هيكلا متكاملا لتقابل الجثة الله بكاملها !! طلبنى معلم كبير شهير فى هذه المدينة لأشتغل فى محله المفتوح برخصة ولافتة وموظفى حسابات ! يملك ثلاث سيارات لنقل الموتى ولديه محل للفراشة ولديه مقرئين للقرآن الكريم على مستويات عديدة

يعني ياخذ الميت مقاولة بمبلغ كبير ، أى نعم لكنه يريحك من متاعب كثيرة أقلها أن يتكفل نيابة عنك باستخراج شهادة الوفاة وهى أمر صعب عليك سهل عليه لاتساع علاقاته وعمقها بموظفي الصحة ولذا فإن الموتى الذين يأخذ هو مقاولتهم لا تقف أمام شهادة وفاتهم عقبة ولا شبة جنائية ولا طبيب !! هذا غير الأبهة والفخامة يحاط بها ميتك كأنه عريس يزف إلى عروسه !! المعلم كان مدمنا للحشيش والأفيون ! إنبسط مني فاتخذني صبيا لسقياه ولشراء الصنف الجيد ! تغنغنى فى العز بصراحة ربنا ! لكنه مات ! بعد أن تغلغل الأفيون فى عظمى ! أولاده كانوا متعلمين فى الكليات دكاترة ومهندسين ومحامين لهم إخوة ورثوا مهنة أبيهم غير أنهم تشاءموا من المهنة بسبب نق إخواتهم المستوظفين الذين استعروا من هذه المهنة! تخصصوا فى الفراشة وحدها أما أنا فاتكلت على الله! محل يقبلنى ومحل يطردنى! أشتغل يوما وأبتطل عشرة ! والأفيون يزعق فى عروقى يطلب المدد كل يوم ! لجأت إلى التجار الذين كنت أشترى منهم لمعلمى أصبحوا يعطفون على من حين بلحسة أو بورق اللف أغليه فى الشاى !! شيئا فشيئا صاروا يكلفوننى بمشاوير نقل وتوصيل نظير عمولة طيبة ! أسنانى لم تقع من الأفيون وحده ياسيدنا لفندى ! إنما وقعت من الخوف والرعب ! لكن الحمد لله ربنا نجانى من قبضة البوليس فى كل مرة بعدما تكاد رقبتى تقع فى خية المشنقة !! إلى أن تعرفت على صبيحة! الولية إمرأتى ! هذه الداية ! إمرأة جدعة تساوى ثقلها ذهبا أجدع من قبيلة رجال ! كانت متزوجة من شحاذ مريض ومات . فجاءت تجرى لمعلمى تستنجد به لتغسيله وتكفينه فطردها شر طردة وقال لها إن محلى للآدميين وليس للحيوانات !! ربك والحق كرهته فى هذه اللحظة وتمنيت له الموت فى الصحراء تنهش لحمه الصقور والذئاب ! وصعبت علّى الولية ! فتسللت جريا فلحقت بها وذهبت معها فقمت بالواجب كله ودفعت ثمن الكفن من جيبى ثم جمعته فى السر من أهل الذين حضروا الجنازة !! لكن الولية لم تنسنى صارت تعزمنى على الغداء مرة ! والفطور مرة والشاى مرات ! فلما علمت أننى أسكن وحدى فى عشة فوق سطح فى شبرا دمنهور انتقلت وسكنت معى !! صرنا نعيش معا كزوجين دون أن نتزوج عند مأذون يسألنا عن شهادة ميلاد ووجع دماغ !! هذه الولية قوتنى على منع المشاوير

ثم ألحقتني بغرزة صاحبنا التي رأيتني فيها ذات يوم ! كان ذلك من سنوات طويلة مضت ! جاءت الثورة بالعمران وعلى أمثالى بالخراب ! مر البلدوزر فاكتسح المنطقة التى فيها العشش والبيوت لأنها أرض الحكومة ستقسمها وتبيعها للقادرين على بناء حي جديد !! لم نجد أمامنا غير الوكالة فلجأنا إليها فآوتنا فى أمان الله إلى أن زار الوكالة ولد صايع مخربش يعرفنى ويعرف صبيحة ! بات ليلته في حوش الوكالة وفى الصبح رأيت وجه شوادفي يتغير ويطالبنى بقسيمة زواج تثبت أننى وصبيحة زوجين على سنة الله ورسوله !! القسيمة أو يبيت كل منا في الحوش في مكان بعيد عن الآخر !! فرط علينا فاعترفنا بحقيقة أمرنا فتكفل بحل المشكلة كما حدث على يديك !! يرجع مرجوعنا لأبى ! جاءنى تليغراف يقول إحضر حالا! سافرت ! وجدت أن الله هيأ له من أكرمه بدفنة كريمة ، بعدها بحوالى جمعتين سافرت صدفة لأجل النصيب كي أدفن أمي بنفسى دفنة على مزاجى !! من يومها انصدت نفسى عن مهنة الحانوتية صرت أقرف من جثث الموتى ! وروائحتهم التى ماكنت أشمها أبداً أيام كانت تجيئنى تتنة ممزقة أصبحت أشمها والميت صاغ سليم !! مع كل ياسيدنا لفندى ! وحق من جمعنا على غير ميعاد أنا ما عندى مانع من الرجوع إلى المهنة في أى وقت ! إنها كلها مكسب ياسيدنا لفندى !! هذه قصتى من يوم ولدتنى أمى إلى الآن فما هى قصتك ياسيدنا لفندى ؟! إنى مصغ إليك!!"..

هكذا تركنى مبعثر الأشلاء في كل موضع ذهبت بى حكايته ؛ فجعلت أشد أنفاس النارجيلة بعمق شديد كأننى أستلهمها الرد المناسب . ولحظة أن اندفعت جحافل الدخان من فمى وأنفى بغزارة رطيبة تكاد تذوب إلى قطرات سائلة ؛ إقتنعت بأننى يجب أن أبادله الحكى ؛ فالشئ الوحيد – عند أمثاله من أبناء شعبنا الطيبين – الذى يثبت للواحد منهم أنك صرت صديقا جديرا بالمصادقة والعشرة هو أن تحكى عن نفسك مثلما حكوا لك عن أنفسهم ، أليست هذه حيلتنا ؟ أن أى واحد فى أى جلسة جماعية يحكى موقفا أو نادرة حدثت له أو مأزقا وقع فيه لابد في العادة أن يتلقف الخيط منه واحد آخر فيحكى موقفا مشابها ؛ ربما أنقح ، حدث له . ومن المرجح أن الوقت إذا اتسع فلابد أن يحكى الجميع مواقف مشابهة تؤدى نفس المعنى وتصل إلى نفس الغرض . فالحانوتى إذن لا يتطفل على حياتي

الشخصية ، لا يحاول التجسس على ؛ إنه فحسب يريد أن أفتح له صدرى فاطمئنه من جهتى ؛ إذا أننى سأعطى له حرية رؤيتى كما ينبغى من خلال ما أحكيه عن نفسى كما فعل هو ..

وكنت قد نجحت فى تجميع أطراف بعض وقائع من حياتى وشرعت أفكر فى المدخل المناسب والصيغة الملائمة التى تجعله لا يخطئ فهمى ؛ لكننى سرعان ما انعتقت من هذه المهمة ؛ إذ فجأة رأيناها أمامنا فى قلب الحجرة ؛ صبيحة الداية زوجة الحانوتى بموجب الورقة التى أملاها علىّ شوادفى وكتبتها ذات يوم بعيد على مصطبة البوابة ..

– " سالخير عليهم !"..

ودون إحم أو دستور حطت عن رأسها سلة كبيرة كسلال باعة الفاكهة ؛ ثم حطت مؤخرتها الأكبر على حافة المصطبة بجوارى ؛ ثم مالت علىّ بوجهها المضيم الضاحك :

– " سالخير يا جدع ! والنبى قلبى حبك يا ذا الجدع ! من يوم ما كتبت لنا الكتاب !"..

تذكرت تلك المهمة التى قال الحانوتى ذات يوم أنها مضت إليها ، ومرت شهور طويلة دون أن أعنى بالسؤال عن نتيجة المشوار والحانوتى بدوره لم يأت بسيرته رغم أن يوم إجازته النهارية السبوعية أصبح يقضيه كله فى حجرتى . إرتجف قلبى ارتجافا مدويا حتى خيل لى أنهما رأياه رأى العين . على أننى ابتسمت رغما عنى ؛ إذ رأيت الحانوتى قد انكمش قليلا على نفسه وبدا كصبى جالس أمام معلمه . كان منظره طريفا وهو يولى الحجر الذى بين يديه عناية خاصة بإضافة " زنبه " فى حجم الحمصة فوق التعميرة ثم يرص النار حولها بإتقان كعقد لولو منظوم ؛ ثم يدخل بمبسم النارجيلة إلى صبيحة الداية هاتفا فى جدية ودون أن يبتسم أو يبدو عليه الحرج :

– " مساء الخير يامعلمى !"..

رشقته صبيحة بنظرة جانبية تطفح بالأنوثة الساحرة الخشنة ، الماجنة ، فى طيبة ممزوجة بشقاوة تاريخية :

– " مساء الفل ياروح مامتك أنت يا صفنن يا شقى !"..

ثم قهقهت كأعتى الحشاشين الرجال مصعرة خدها نحوى منخرطة فى القهقهة يتقلص كل شئ فى وجهها ؛ أمسكت بالمبسم مسكة حريف قرارى ؛ راحت تشد الأنفاس على مهل شديد ، حتى إذا ما سحبت السحبة الأخيرة فطنت إلى المغزى الجنسى الذى رسمته هى بإيقاع السحب وطقطقة النار وصوت بقللة المياه فى النارجيلة . فعل ا، هى من حقها أن تُنادى بالمعلم . نفثت الدخان الغزير وعوجت رأسها ناحيتى وأخذت تحدق فى وجهى بعينين شبه فاجرتين ؛ فأيقنت ان كل امرأة لابد فيها شئ جذاب له متذوقيه ؛ وهذه المرأة جاذبيتها فى عينيها بصفة خاصة ، وفى خفة دمها بشكل عام . ولابد أن الأنوثة الطافحة فى هاتين العينين تعوض من يعاشرها عن شكلها المكلبظ الملخبط كجاموسة تمشى على قدمين ؛ ولكن لأنك تتوقع منها أن تكون مجرد جاموسة فإنك تندهش ويتعاظم اندهاشك بما يفجؤك فيها من خفة ظل وحلاوة لسان وحكمة قول ؛ فيقلب موقفك منها من النقيض إلى النقيض ، تصير شديد الإعجاب بها . ثم إن ما فى عينيها ليس أنوثة فحسب ، بل يكمن فيها ذكاء بارق خارق لماح كذكاء العباقرة الأفذاذ ؛ ولابد أن لها لعبقرية فى جانب ما . هاهى ذى تحدق فى ملامحى . مازحتها بما يقول الناس فى بلدتنا عادة إزاء مثل هذا التحديق :

– " تفصلين منى جلابية ؟!"..

تراجعت بذقنها ألصقته فى نحرها الثخين ، لعبت حاجبيها :

– " فشر ! أفصل منك بدلة ملوكى !"..

ومدت كفها مفرودة لألمسها بكفى المفرودة كما يفعل رجلان منبسطان يلتقيان على غمزة أو نكتة . قالت بجدية :

– " أنت فيك شبه من ناس أعرفهم وبالأمارة كنت عندهم الان ! سبحانك يارب ! نفس الدم ! نفس تدويرة المناخير وفتحة العين ! لولا غلظة الشفتين هناك لقلت إنك واحد منهم !!"..

خفق قلبى خفقة مزدوجة ، من ذكاء هذه المرأة وفراستها ودقة ملاحظتها ، ومن عودة الموضوع الذى أود أعرف نهايته . أحسست بنظرات الحانوتى منذهلة

تدور بينى وبينها ؛ فلما التقيتها قرأت فيها عبارة : آمنت بك يـارب . أفقـت علـى صوتى يقول لها :

– " بالمناسبة ما أخبارهم ؟! ماذا فعلت عندهم ؟"..

– " ربنا ما حرمنا جميعا من الأفراح والليالى الملاح !"..

لم يطق الحانوتى صبرا؛ هتف بفرح عظيم :

– " تأكدت والله من أول ما شفتك ، بصرف النظر عن هذه الشيلة التى معك تبشر بالخير ! لأن منظرك يقول إن الله وفقك !"..

خبطت بكفها على صدرها فى زهو كبير:

– " عيب ! أنا صبيحة والأجر على الله ! دخلة قدمى دخلة الخير دائمـا! أحمـد الله وأشكر فضله عمرى ما دخلت دارا إلا وقام فيها الفرح بعريس أو عروس بيدى هاتين جئت بهما من مكان بعيد ليلتقيا على القسـمة والنصيـب فـى مكـان بعيـد!! والله ياذا الجدع مالك علّى يمين هناك عرسـان وعرايـس سـحبتهم بيـدى هـذه مـن فروج أمهاتهم وتلف الأيام ويتم زواجهما على يدى !! أنا التـى أجـئ لكـل منهمـا بعدله ! لم يعطنى الله حق الخلفة لكننـى أم العيـال كلهـم !! اللهـم لـك ألـف حمـد وألف شكر ! رضى لمن يرضى ! اللقمة والهدمة والنومة المستورة هـي كـل حـاجتى من الله سبحانه لم يحوجنى لأن أطلبها منـه أبـدا !! دائمـا يعطيهـا لى قبـل أن أرفـع وجهى إليه ! تعرف ياذا الجدع ؟ أنا والله مكسوفة من ربنا ولا أقدر على رفع عينى فى وجهه لأنى لا أداوم على الصلاة ولا أعرف متى يهدينـى فـأداوم عليهـا الفـرض بفرضه ! إهدنى يارب بحق حبيبك النبى محمد !"..

أرسل الحانوتى إلّى نظرة ذات معنى يفصح قائلا إنها ولية فيها شـئ لله ، وقـال لها :

– " المهم ! أوقعت بالعريس ؟!"..

بلهجة تهكمية تأنيبية قالت :

– فشر! اعطيته هدية واعطيتها هدية ! أوقعت كل واحد منهما فى بئر العسـل! عريس لقطة لعروس لقطة !"..

– " ما شغلته ؟"..

هكذا سألت أنا فى لهفة . فقال :

- " متوكل وزارة الوقف !!"..

بشئ من حرج التلميذ يضطر لمراجعة أستاذه الكبير فى هفوة عابرة :

- تقصد وكيل وزارة الأوقاف ! إذن فهى طلعت من نصيبه! فرحت والله له ولها ! إنه رجل طيب !"..

قلت: " هل تعرفه ؟"..

لوح بأصابعه نحو صدره هاتفا بزهو:

- "حق المعرفة ! خدمت عليه ! نسيت أن أقول لك إننى اشتغلت مدة صبيا فى بوفيه وزارة الأوقاف ! أدخل بالشاى والقهوة للموظفين ! وأنا الذى عرفته بامرأتى! طلب مني مرة إن كنت أعرف سيدة تنظف له منزله وتغسل ثيابه إذ هو أعزب! فقلت : أعرف وبعثت له بالولية ثاني يوم لثقتى بأنه رجل كُمل ! وبتاع ربنا ! تصور ياسيدنا لفندى انه ظل أعزبا حتى ترقى إلى وكيل وزارة ؟! أصله بصراحة شكله هو الاخر لا يسر ! له ساقان مقوسان طويلان فيمشى مفرشحاً كالصبى المطّاهر! وله وجه كشر يقطع الخميرة من البيت! كل صاحب مصلحة يراه أول مرة يقول لنفسه فى الحال لن تقضى مصلحتنا طالما هذا الوجه الكشر فيها ! فما يكاد صاحب المصلحة يكلمه حتى يكتشف رجلا سكرة يوضع الجرح فيطيب ! ربما قام من على كرسيه وذهب معك إلى المكتب الذى يعاكسك فيهزىء الموظف ويوبخه ويربت على كتفك : معلهش يا ابنى امسحها فى ! مرتبه كله يدفعه ثمنا لتحية ضيوفه الكثار ! ويشرب فى اليوم مائة سيجارة بحارى وأزياراً من القهوة لو طالها!"..

أضافت الداية بحماسة شديدة :

- " .. وفى بيته ياذا الجدع ! يكون مسرورا إن أنا طبخت له الطبيخ وأكلته معه كله ! وفى غاية الأدب والكمال ياذا الجدع ! يتنحنح وهو داخل ! ويخبط على أى باب قبل أن يفتحه ولا يفتحه إلا إن تأكد أن أحداً ليس بالداخل ! سوف يسعد الصبية ! أنا ايضا قلتها بصراحة للصبية ولأمها كما أمرنى ونبه على بنفسه: هو باق له ثلاث سنوات فى الخدمة أى نعم لكن صحته بمب ! تعرف ياذا الجدع ؟

والله أنا وقرت هذا الرجل وتأكدت انه ابن ناس بحق وحقيق ، تتصور إن الحاجة أم العروسة كانت موافقة على أن تذهب هي في السر وتشترى الشبكة من حر مالها وتعطيها له ليتقدم بها إذ هي فرحانة به ، فسيقول الناس إن العريس في وظيفة كبيرة في الوزارة ! ولما قلت للرجل عن هذا الموضوع تبسم وضحك بكل طيبة قلب وقال: لا إن اب العروسة صديق في الشغل ولا أحب الدخول عليه بالكذب من أولها وانا لست فقيراً والحمد الله والكلام الأسلم ان أشترى الشبكة من حر مالى في حضور العروس وامها ، وبعد شراء الشبكة تشترى لها امها ما تحب ان تشتريه ويكون معروفا ان شبكتى هى كذا وكذا !! وقال ايضا إنه من أجل خاطر عيون البنية سيقيم لها فرحا كبيرا في نادى الموظفين وسيسافر بها إلى مرسى مطروح أو رأس البر لقضاء شهر العسل !! الحمد الله !! تعرف ياذا الجدع ؟ وحق ذى الليلة ومساها انني أشتغل على هذا الموضوع وحده ثلاثة سنوات ويمكن أكثر !! إننا لا نأكلها بالساهل ياذا الجدع ! لكن مهما أخذت ومهما شقيت فإن فرحتى الكبيرة هي لحظة اندلاع الزغرودة في بداية الفرح !! اليوم كانت أحلى عصرية شفتها من اكثر من سنتين !"..

أسرعت قائلا :

- " وتمت الخطوبة بالفعل ؟!"..

شوحت بعينيها كانها تقول لى هل انت حمار؟ ثم أضافت بكثير من الغبطة:

- " وكتبنا الكتاب ! سأذيقك الحلاوة الان ! معى أكثر من عشرين علبة حلوى ، العلبة وحدها فارغة تساوى الشيء الفلاني يمكن ان تضع فيها الدخان والفلوس والمجوهرات ! العريس كان يخاف أن يرجعوا فى كلامهم ؟ واهل العروسة كانوا يخافون ان يرجع فى كلامه !! محسوبتك هي التى عملت هذا الشغل !! آه لو رأيت فلوس المهر وهو يعدها وأبوها يقبضها ! عشت حتى شفت الورقة أم مية! ياسلام على منظرها ياذا الجدع ! تقول جوهرة ؟ عريضة ! عد منها الكثير ! وكل ورقة يتلكأ الحاج مسعود وهو يعد ها حتى تحييها الزغاريد لتنقل خبرها للجيران ! ربنا يفرحنا يا أولاد ! قادر يا كريم !"..

إنحنت على السلة ، راحت تعكرش فيها فتصدر عنها اصوات خرخشة جعجاعة؛ ثم استدارت نحوى وقد احتلت قبضة يدها علبة من البللور ذات غطاء محكم ملفوفة بورق السوليفان مربوطة بخيط ملون مشغول بخيوط الذهب والفضة؛ فوق غطاء العلبة قصاصة صغيرة مكتوب عليها : " بدرية – شعبان " ومن تحتها التاريخ وعبارة : العاقبة عندكم فى المسرات . إرتجفت يدى وهى تقلب العلبة الشديدة الفخامة ، المحشوة من الداخل بالملبس وقطع الحلوى الفاخرة ..

إذن فقد تزوجت بدرية ؛ أخيرا تزوجت بدرية . هكذا رحت أتمتم لنفسى فى ذهول . يبدو اننى قلت ذلك بصوت مسموع ، إذ فوجئت بالداية تخبط على صدرها منذهلة :

– " تعرفها ياذا الجدع ؟!"..

صاح الحانوتى كالمعلق على مباراة كرة :

– " الولية انذهلت !! ياولية ! إن اللفندى هو خال الآنسة بدرية ! فى مقام خالها !! ابن عم أمها لزم !"..

إتسعت عين الداية راحت تشع الكثير من بريق المودة المشوبة بشئ من عدم التصديق أو التشكك فى حقيقتى . قالت:

– " يا رجل قل كلاما غير هذا !!"..

– " وشرفك عندى اتكلم الجد !"..

تحيرت الداية ، بدا عليها الشديد والعناء الأشد لكى تمسك لسانها عن قول شئ. اخيرا قالت بغير حرج :

– " اسم الله على مقامك ياذا الجدع ! إنها عائلة كريمة غنية ! ناس طيبين ! هل يعرفون أنك ابن عم الحاجة؟!"..

إنفجرت فى ضحكة صاعقة ؛ كدت أطوق دماغ الداية هذا الطريف واقبل راس طفل شقى خفيف الظل ؛ لكنها استدركت:

– " الحاجة وديدة تعرف أنك تسكن فى وكالة عطية ؟! لو عرفت لوقعت من طولها !!"..

أسرعت قائلا :

- " لهذا أحلفك بالله ألا تخبريها ! لا هى ولا الحاج ولا حواس ولا بديع ولا كريم ولا يسرية ولا شكرية ولا بدرية ! لا يصح أن يظهر عليك أنك تعرفيننى من الأصل !!"..

تضاعف الذهول فى عينى الداية :

- " يبين أن كلامك صحيح ياذا الجدع ! إنك رصصت لى اسماءهم ! قلت لك إنك فيك شبه من ناس أعرفهم ! سبحانك يارب ! لا ! لاياذا الجدع إطمئن فأختك رحل ! لن أجئ بهذه السيرة أبدا أبدا ! الدنيا أسرار ياذا الجدع ! ولا أحد يعرف ماذا وراء جدران البيوت ولاجدران الصدور والقلوب !! الأكيد أن فى الأمور أمور فأنا لست عبيطة ! إذا كنت أنت من الفرع الفقير وبنت عمك أصبحت من الفرع الغنى فإن الغنى هو غنى النفس ! لا يهمك ! أهلا ياضنايا ! انت من يوم ورايح فى عينى الإثنتين من جوه ! يا سلام على الأيام ! سبحانك يارب !!"..

نكست راسها شاردة لبرهة طويلة ، كأنها أنشغلت بأمور شديد التعقيد ؛ لكنها سرعان ما رفعت رأسها ناظرة إلى وقد بان عليها تأثر شديد مفاجئ . وبصوت يقطر أمومة :

- " تعشيت يا ضناى ؟!"..

هتف الحانوتى بفرح طفولى غامر :

- " قولّى هل تغديت ؟!"..

حدقت الداية فىّ عينى بعينين واسعتين فيهما بريق غامض حرت فى فهمه . سبب الحيرة أننى شعرت فيه كأن الداية الأريبة تعرف ما قد حدث بينى وبين بدرية ذات لحظة سحرية من وراء الكون كله مرت كانها محض خيال . إلا أن الداية صارت تلوح باصابعها الغليظة الخشنة الصدئة بحركات طفولية إغرائية ، وفمها الغليظ الشفتين يردد :

- " سأعشيك من طبيخ بدرية !!"..

واستأنفت التحديق فى عينى مضيفة بلهجة فيها غنج خفى باهت:

– " تعرف طبعا طبيخ يدى بدرية ! العريس خرج عن طوره وهو يأكل ! المعمر والمحمر والمشمر والمحشو بالفريك والمكسرات ! والمسلوق والمسبك والمشوى ! والجلاش والبقلاوة والهريسة وعيش السرايا والبسيمة ! كل هذا الخير أعطتنى منه تعرف ياذا الجدع ؟ والله هذه البنت قلبها مثل الفرن السخن على طول ، أحسن واحدة فيهم كلهم ! فيها حنية تكفى بلدا بحالها من فاتته بدرية من العرسان فاته النفع ! ياحبى لهذه البنية !"..

شوح الحانوتى بنفاد صبر هاتفا :

– " ياولية جوعتنا بما فيه الكفاية ! نريد أن نتأكد مما قلته ! هيا اثبتى لنا كما يقول الأفوكاتوا بالدليل القاطع أن الست بدرية زعيمة الطباخين ! إفتحى خُرجك وفرجينا !"..

جمعت طرحتها الجربانة فى قبضة يدها مشوحة :

– " قم! تعالى يا جدع !"..

– " يجئ إلى أين يا وليه ! هاتى لنا هنا ! روحى سخنى عندك وتعالى تسقيك حجرين من فضلة خير شوادفى! ولا تنسى نصيبه مما معك ! إنه يفعل معنا واجبات كثيرة هذه الأيام ينفحنا بقطع الحشيش الذى لا ندفع فيه شيئا !!"..

إتكأت الداية على ركبتيها ونهضت واقفة . ونهض الحانوتى فساعدها على حمل السلة المفرطحة المتخمة بالأشياء والملابس النظيفة ذات الأقمشة الثمينة من الصوف والحرير والبوبلين . حين لمحها ركز عليها نظرة طافحة بالبشر والبهجة ترجمها قائلا : واكتسينا ايضا ؟. فلما ظاهرتنا الداية لتخرج من الباب خبطها الحانوتى براحة يده على فلقة مؤخرتها الكبيرة قائلا :

– " كلك خير وبركة ياحب عمرى الوحيد !"..

فبالفلقة الثانية دفعته فى ساقيه فتهاوى كالنخلة ثم ترنخ وهو يتشبث بالمصطبة ضاحكا . ودب فيه نشاط مفاجئ حميم ؛ ففك قلب النارجيلة وهزها بعنف وخرج يدلق ماءها أمام الباب مرددا من الخارج أن هذه المياه رائحتها تسمم البعوض وتصده من بعيد . رحت أدفع علبة الحلوى فى الهوء وأتلقفها كالكرة ؛ ولا أدرى لماذ تصورت أننى ألعب بقلبى ، فحوطت العلبة براحتى الإثنتين وضغطت عليها بما

لا أدرى إن كان غيظا أم فرط احتواء . بقيت هكذا منكس الرأس شارد اللب حتى انتزعنى صوت الحانوتى :

- "وحد الله ياسيدنا لفندى ! كأنك حضرت الفرح ! شف النصيب! شف العبر !"..

حدقت فيه لبرهة ؛ سربت العلبة تحت الوسادة ؛ مددت ساقى ، شعرت أن الأرض تدور فتمددت منطرحا على ظهرى مغمضا عينى . دخلت فى بحر الظلام كأننى لوح من الخشب يتهادى فوق موجات الظلمة مندفعا مع التيار إلى غاية مجهولة ؛ كل ما تبقى منى مجرد ومضة كبصيص جمرة تحت ركام الرماد الكثيف تتمنى لو تلتحم بالريح باحثة عن جسدى لكى تعيد إليه الحياة من جديد . وكان يخيل لى أن دهرا طويلا جدا قد مر بى فى أعماق رحلة مجهولة لا أذكر منها شيئا على الإطلاق ، حينما شعرت بغمغمة أصوات تطوف فوق رأسى ميزت فيها صوت الحانوتى :

- " دعيه الان ! سوف يفيق وحده بعد ثوان ! شربنا كثيرا على خلو بطن ! والظاهر أن الخبر هزه وأتعبه !"..

تشبثت بهذا الصوت الواضح المعروف لى ، فانتشلنى الإطمئنان من أعماق بئر سحيق ، ففتحت عينى بصعوبة ، لأفاجأ بأشباح كثيرة متضاعفة ظلالها متكررة . سرعان ما تبينت أن لا أحد معى سوى الحانوتى والداية ، التى انحنت فوق رأسى محدقة فى عينى وقد انشق وجهها بالعرض على هيئة ابتسامة كبيرة بين هضاب من لحم الخدين والصدغين . مدت يديها فامسكت يدى بواحدة وكتفى بالأخرى ؛ أنهضتنى جالسا . إذا بى قد أفقت تماما كأننى مستيقظ من نوم عميق ؛ لأرى الطبلية موضوعة على الأرض حافلة بعديد من الأطباق الألمونيوم وجفنان من الفخار تتصاعد منها روائح بدرية الشهية المكسرة ؛ فقفزت إلى الأرض جالسا أمام الطبلية فزنقتنى الداية عن عمد فى المصطبة ، فيما راح الحانوتى يعابثها :

- " ياولية خفى عن اللفندى خله يتنفس !"..

أخرجت له طرف لسانها مرقصة حواجبها ، مكورة قبضة يمناها تطحن بها فى راحة يسراها ، بينما هز الحانوتى كتفيه وهو يجلس قبالتنا متمتماً: إمرأة مجنونة بحق.

سحب ثلاث ملاعق ، إثنان منها من الخشب والثالثة من الالمونيوم ؛ قدم الأخيرة لى، ورشق واحدة فى الطبق أمام صبيحة الداية وأبقى الأخرى فى يده . نطقنا فى نفس واحد : بسم الله الرحمن الرحيم . أكلت بشهية فائقة كأننى أتذوق لحم بدرية وأنفاسها القريبة من نكهة القرنفل ، كانت تتمثل لى فى كل لقمة فى عينين واسعتين خجولتين خجلا فلاحيا مغلفا ببريق بندوى ينضح بالتحرر الذكى عينان تفيضان بالحنان والبساطة ، فصار قلبى ينعصر كالعجينة بين ضلوعى ، فينسرب عصيره إلى عينى بقطرات من الدمع الساخن الحراق صرت امسحها بظهر يدى محاولا الإيحاء بأنها من فعل سخونة الطعام وحرارته الحريفة . وكل ذلك يضايقنى لأننى كنت أتمنى لحظتها أن أنفجر باكيا بصوت عال ، أريد أن أنتحب . إلا أن بريقا مدهشا لمع فجاة فى عينى صبيحة الداية كأنها اكتشفت سرا خطيرا . ظلت لبرهة منذهلة جاحظة العينين تركز بصرها على المصطبة مرددة :

– " بسم الله الرحمن الرحيم ! آمنت بك يارب !"..

ومدت أصابعها وصارت تتحسس اللحاف والبطانية والوسادة ثم هزت رأسها وزامت كأنها فهمت كل شئ . أخيرا جعلت تربت على كتفى بحنان :

– " ما هو خسارة فيك يا ضناى ! هذا اللحاف وهذه البطانية وهذه المخدة ! تعرف ياذا الجدع ؟ كانوا من نصيبى أنا !! وعدتنى بدرية أنها ستعطيهم لى بعد أن تستأذن أمها ! تعرف ياذا الجدع ؟ أنا أعرف فرشهم من بين مفروشات الدنيا كلها! تعرف ياذا الجدع ؟ إضحك واندهش ! من جمعتين ثلاثة أربعة نادتنى بدرية إلى حجرتها وقالت لى : إذا سألتك أمى هل أعطتك بدرية لحافا قديما وبطانية ومخدة فقولى نعم وأنا أدبر لك غيرها لأننى تصرفت فيها لواحد قريب غلبان ! شف النصيب ياذا الجدع ! شف تصريف المولى! كنت غير مصدقة ولكن الله أراد أن يرينى صدقها ! بنت حلال كلها حنية ! قلبها كبير ! إنها كتمت خبر هذه الفرشة عن أمها كل هذا الزمن الطويل حتى شعرت أن أمها تبحث عنها !! على كل حال أنا وأنت واحد يا ضناى !!"..

وربتت مرة أخرى على ظهرى ، فيما رحت أنظر إليها منذهلا وقد شعرت أننى حوصرت حصارا محكما . يبـدو أن صبيحـة الدايـة رأت بـوادر انهيـار فـى عينـى ؛ وصارت هى تربت على ظهرى بكفها الغليظة :

- " عيط يا ضناى ! عيط كما تشاء حتى تستريح !!"..

فإذا بى أنخرط فى النحيب .

زينهم العتريس

حتى مطلع الصبح لم أكـن فطنـت إلى سر هـذا الإزدحـام الشـديد الـذى حـل بالوكالة بشكل غير طبيعى . إمتلأ الفنـاء عـن آخـره بالنـاس مـن مختلـف الأشـكال والألوان ، فصار يعج ويضج ، يتصاعد الصخب ليخفت قليلا ثم يرتفع بعد برهـة . ما يزيد على ثلاثمائة رجـل وامـرأة غـير الأطفـال يتحدثـون يلغطـون فـى آن واحـد بأصوات عالية حادة تطنه عراكـا لا ينقصـه إلا رفـع النبـابيت ؛ لكنـك سـرعان مـا تسمع بعض الضحكات العالية والأصوات الساخرة ..

كان من الصعب أن أخطو خطوة واحدة خارج باب حجرتى ؛ لأن الأجسـاد تمددت وتقرفصت وتورت وانحشرت فى كل بقعة . فكنـت مـن حـين لآخـر أقـف على باب حجرتى فألقى بنظرة تقفز فـوق الأرض المغطـاة بـاللحم البشـرى مـا بـين قاعدة ومتمددة متقرفص ومضطجع ومنبطح وواقف وقاعد فوق أجولة معبأة بأشياء أو فوق درابزين البواكى ؛ وثمة حمـير تـأكل دافنـة بوزهـا فـى مخـلات معلقـات فـى رقابها ، وتنهق وتنفخ ؛ وبعض عربات الكارو الصغيرة التى يدفعهـا الباعـة بـأيديهم منكفئة فى ركن بعيد خلف طلمبة الميـاه . العجيـب أن أحـدا لم يضجـر بـأحد ولم ترتفع صيحة احتجـاج واحـدة ربمـا لأن الفنـاء كـان يعـج بـأصوات تصيـب الآذان بالصمم التـام . الخـاطر الـذى طـرق ذهنـى لحظتئـذ أن هـؤلاء مسـاقين للعمـل فـى السخرة أو فى عملية ترحيلة تبع الوسية . وكان من المستحيل طبعا أن يطـرق النـوم جفنى وسط هذا الضجيـج المقيـم . علـى أننـى – مـع ذلـك – لم أشـعر بـالذعر أو الضيق ، بل على العكس صرت أشعر بنوع من البهجة والبهـرة اللـذان يشـعر بهمـا الإنسان حين يصير فجأة فى قلب مولد من الموالد الشعبية الحافلة ..

شعرت بونس مفاجئ، تمنيت لو استطعت اختراق هذه الجموع واختيار مجموعة منها للمسامرة وشرب الشاى طوال الليل ، ومن المؤكد أن فيهـم مـن قريتـى رهـط كبير لاحظت أن سيدنا زناتى يظهر واقفا بين مجموعة يسلم عليهـم بمـا لا أدرى إن كان توديعا أم اسـتقبالا وترحيبـا ؛ ثـم يختفـى فجـأة حتـى أكـاد أنسـاه لأفاجـأ بـه متقرفصا بين مجموعة أخرى . وهو بين مجموعة أراه منخرطا فى حديث جاد ينم عنه

مظهره العام وملامح وجهه البادية من على بعد ؛ وبين مجموعة أخرى أراه مندمجا في مزاح وتنكيت وضحك هستيرى صاخب . لم يكن هو وحده البارز ؛ إنما كان هناك الكثيرون ممن ألفت وجوههم من نزلاء الوكالة يقفون بين مجموعات كأنهم مجموعة من حروف الألف واقفة بين سطور ضخمة من الحروف المتكورة والمنبعجة. أخيرا شاهدت سيد زناتى وهو يخترق الصفوف نحو حجرته ممسكا بين أصابع يديه رزمة ضخمة من الجنيهات القديمة المزيتة بالغبار يعدها في سرعة مبسبسا بشفتيه فيما يتعثر في الأجساد ويمسك توازنه بدربة شديدة ..

ثم ظهر الشيخ زينهم العتريس مقبلا من البوابة ، يبصبص بعينيه العمشاوين ، يحاول رفع قامته المحنية دائما فوق عكاز ؛ وحول شفتيه المضمومتين على حنك أهتم بفك سفلى متدل كجورب طفل وليد ، تلمع خيوط خفيفة من الريالة السارحة بين شعيرات شاربه الكثيف المتدلى على جانبى فمه محترقة شائطة من لفافات التبغ ، تبغ الأعقاب (السبارس)، التى يتخصص في جمعها على نطاق واسع بواسطة أطفال كثار متشردين يشترى ملء الكوز بقرش تعريفة ، فيعود آخر الليل يحمل شكارة كبيرة متخمة يبيعها لسكان الوكالة وعلى رأسهم شوادفى ..

على أن هذه ليست مهنة الشيخ زينهمالعتريس ؛ فمهنته الحقيقية هى الشحاذة ، بأسلوب رسمى عتيق جدا لكنه ناجح ومريح . يلبس على رأسه عمامة كالحة بشال أخضر ، أو كان أخضرا ذات يوم بعيد . يحلف دائما بيمين واحد لا يغيره ولا يبدله على أساس أنه لا يحب أن يعرض الله لأيمانه حسب وصيته سبحانه وتعالى . يمينه المفضل الثابت ، الدال على أنه غير حانث ولا آثم هو حياة سيدة العتريس الذى يلبس هو عمامته الخضراء كواحد من قدامى دراويشه وأتباعه . ولقد جعل نهاره لنوع من الشحاذة ؛ وليلة لنوع آخر ؛ حيث يخرج فى الصباح الباكر ليبدأ السعى فى دائرة معروفة تستغرق منه أياما ربما وصلت إلى شهرين ثلاثة ليعود فيبدأها من جديد : يأخذ بيوت المدينة بيتا بيتا ، حيًّا حيًّا ؛ فالضواحي البعيدة ، فالقرى المجاورة. ورغم أن الناس يعرفونه جيداً وليسوا فى حاجة إلى أى كلام يقوله فإننى قد شاهدته أكثر من مرة أثناء سعيه على الأبواب حاملا بعض الأحولة ومن خلفه ثلاثة أطفال هم أبناؤه : أحمد وعتريس وعلى ، كل منهم يمسك بشئ . يتقدم هو

فيطرق باب البيت هاتفا : يا اهل الله ، ينطقها سريعة متداخلة الحروف ؛ وسواء أبطأ عليه أهل الله فى الدار أم أجابوه فى الحال فإنه يشرع فى إلقاء الخطبة اليومية المعتادة : " إلهى ما تقفوا وقفتى ! ربنا يزيدكم من نعيمه ! يا أهل هذا البيت يا من عرفتم بالكرم ! كتب الله لكم فى الآخرة حسنات بعدد شعر رؤوسكم ! الحسنة بعشر أمثالها ! الحياة فانية يا أسيادى ! لا يبقى سوى العمل الصالح ! يا بخت من أطعم جائعا وكسا عريانا واكرم عابر سبيل ! الأجر والثواب عند الله يا أسيادى ! يا من تتمنون الحظوة ببركة سيدى العتريس إكرموا أبناءه ومريديه !!"..

تابعته فى كثير من الأضاحى وهو يكرر هذه الخطبة دون ملل ، حتى بعد أن يخرج مندوب من البيت ليعطيه الحسنة يأخذها ويستدير مكملا كلامه بصوت خافت حتى إذا ما انتقل إلى الباب المجاور رفع صوته بنفس العبارات الموصولة . الحسنة فى العادة رغيف أو رغيفين ، معهما فى بعض الأحيان قطعة أو قطعتين من الجبن القريش ، حتى مطاعم الفول والفلافل لا يتركها فيأخذ قرصا من الفلافل أو كسرة خبز . كلما امتلأ جوال أو قفة تركه فى حراسة أطفاله على أى ناصية ريثما يأخذ لفته ويعود . مع احمرار شمس الأصيل يدخل الوكالة يحمل على كتفيه خرجا منتفخا من الأمام ومن الخلف ؛ فوقه جوال كبير ؛ وكل طفل من أطفاله يحمل شكاره أو مقطفا أو جلبابا قديما معقود الأطراف . إذ يؤوب إلى الوكالة لابد أن يتوقف على البوابة لدفع الجمارك ، مجموعة أرغفة طرية أو بعض فطائر أو أى شئ طيب من وراء بركات سيده العتريس ، ثم يمضى فى زهو كبير منقلا عكازه على إيقاعات دعوات شوادفى له ؛ بنفس الكلمات التى يلقيها هو على الناس لتحنين قلوبهم .. إشتغلت دائما بسؤال يلح على : أين تذهب كل هذه الأطنان من الأرغفة التى يجمعها كل مع العلم أنه وأولاده لا يأكلون إلا خبز السوق الطازج خبز الطابونة ؟! إن الحجرة التى يقطنها مع أولاده لا يمكن أن تتسع لكل هذا خاصة أن له زوجا وثلاث بنات على وش زواج : أمينة ورقية واعتماد وطفلة تحبو اسمها – وياللعجب – داليا ، ويدلعونها بدلدل . وقد سألته يوما عن الحكمة فى اختيار هذا الاسم الإفرنجى بعد أمينة ورقية واعتماد ؛ فابتسم ابتسامة عجفاء تختفى

دائما بين تجاعيد وجهه النحيل ، المتكاثفة بالطول وبالعرض في جلد وجهه المشعث كطين بعد جفاف طويل ، وقال :

– " وال لله.. ماني عارف يا مولانا ! لكن ! الدنيا بتتقدم يا مولانا ! أنـا بـاين انى سمعته فى الراديو – ولاّ يمكن شفته في السيما ! كانت هناك صبية حلوة واسمها داليا ! أعجبنى يا مولانا من غير ما أعرف لماذا ! حلفت لأخلفـن بنتا لكـى اسميها داليا!! إنما يا مولانا يهيألى والله أعلم أن الإسم معناه دالية ! مثل قطوف الجنة التى ستبقى دالية يعنى متدلية تمسكها بيدك وانت نايم ربنا يوريك ويورينا ! تجـئ لألـف لك سيجارتين وأعمل لك شايا أو إن شئت أغديك ؟!"..

العبارة الأخيرة سخنة استشعرت أذنى صدقها ، لدرجة أنه قالها وهو يدفعنى فى اتجاه حجرته بجدية بالغة كأننى قد وافقت بـالفعل . وقـد فعلتهـا ؛ ولم أنتظـر حتـى يكررها مرة ثانية ؛ إذ كنت مشوقا لدخول حجرتـه بـأى شـكل . هـو أيضـا شـعر برغبتى فى الموافقة ، فشدنى ، فدخلت ..

حجرتـه مجـاورة لحجـرة قطيطـة مباشـرة ، بينهـا وبـين حجـرة الدايـة وزوجهـا الحانوتى . فإذا هي أوسع من حجرة قطيطة ومن حجرتى بقليل صنـع فرقـا هـائلا . فى صدارتها – لصق الحائط – عنقريب متين من الجريدى؛ قال مزهوا إنه إشتراه من السودان أثناء زيارة للخرطوم بصحبة شيخ مشايخ العتارسة من زمن طويـل . علـى العنقريب بطانية قديمة من الأحرمة الصوفية المصنوعة فى بلدة فوة ؛ ومخدة عبارة عن جوال محشو بالقش . بجوار العنقريب صندوق مربع ، مرتفع قليلا ، مخروطى الغطـاء من الصناديق التى تعرض دائما فى الأسواق ومحلات الأثاث فى البنادر ! إذ هو مـن ضمن جهاز العروس رغم أن الدولاب بدأ ينافسه ويطغى عليه حتى بالنسبة للعرائس الفلاحات الفقراء ؛ وهو صندوق مخطط بالألوان كالحمار الوحشى ، محشو بالملابس والأشياء ، حين يفتح تتصاعد منه رائحة صابون الوجه الرخيص . بجـوار الصنـدوق صينية من الألمونيوم الصدىء عليها أربع قلـل فخاريـة مقطوشـة مخندقـة رطبـة تفتـح الشهية للشرب على الدوام . بجوارها – في الركن العميـق – يقـوم الجبـل ، نعـم ، جبل من الخبز الناشف مرصوص بطريقة فنية يجب أن يأخذ من رصهـا جـائزة نوبـل في الصبر والدقة وحسن التصرف وموهبة البناء ؛ لدرجة أن بعض الأولاد يسـتندون

عليه بظهورهم وهم جلوس ، وقد يتشاجر الواحد منهم ويتشاحن مع أخيه فيصطدم الجسدان بجبل الخبز فلا ينهار ولا حتى يتزحزح بل قد ينخدش دماغ الواحد منهم . لما رأوا دهشتي وإعجابي ببناء جبل الخبز الناشف قالوا لى إن اعتماد الصغيرة هى التى تقوم بهذه العملية بعد خروجها من المدرسة الإبتدائية ، التى تنوى أن هذا العام بإذن واحد أحد إلى الثانوية فالكلية إن وفقها الله إذ أن أباها حالف بحياة سيدة العتريس أن يصرف عليها حتى تصير دكتورة مذيعة كآمال فهمى تقول : هنا القاهرة ، سيّما ولسان البنت فيه لدغة كلدغتها ..

الحجرة مع ذلك تتسع أرضها لحصيرة عريضة متآكلة الأطراف تكفى لأن يتمدد عليها الجميع براحتهم . فى الركن المقابل لجبل الخبز وابور جاز ماركة بريموس برجلين اثنتين حيث استعيض عن الثالثة المفقودة بنصف قالب طوب يحفظ توازنه على الأرض ؛ تحيط به حمالة حديدية متينة تقوى على حمل وعاء مهما ثقل . إلى جواره ثلاث حلل من الألمونيوم بأحجام مختلفة ، وطاسة صدئة محروقة معرقة بالزيت الزنخ الرائحة ، ومصفاة ، وبرام وطاجن من الفخار ، وحوالى خمسة صحون من الصاج المزنك الملون . ومن تحت العنقريب يطل جزء كبير من طست غسيل متوسط الدائرة ..

زوجة رحاب أشبه ببرج الحمام الفلاحى ؛ رفيعة من فوق ، تزداد ضخامة كلما هبطت إلى أسفل ، طويلة القامة ، بارزة البطن متدلية الثديين الكبيرين تحت جلباب اسود على اللحم ، سمراء الوجه فى لون الفخار المحروق ، واضح أنها نورية من جذر عميق عريق ، لكن وجهها سمح ، منبسط الملامح حتى لتبدو صغيرة السن جداً، واسعة العينين بكحل ربانى غزير جداً فى شطان الرموش ؛ فى وسطهما حبتان سوداوتان تسبحان فى بحيرة من عصيرة القصب لكنهما كحبتى البلى مدربتين على خيط بليتى عينيك وإزاحتهما حتى لتكاد تسمع صوت اصطكاك عينيها بعينيك ؛ إنهما تستعطفانك بقوة رهيبة تستنجدان بك ، ربما لتنقذها وأولادها من هذه الوهدة ، تقولان لك ببلاغة لا تحتاج لنطق : أسترنى إلاهى ربنا يستر عرضك ! ساعدنى بما قدرك الله عليه ! إن يكن فى إمكانك المساعدة فعلى الأقل ساعدنى بكف أذاك عنى !. إلا أنك تلمح فى قاعهما العبيد ظلال عهر عريق

لعله راجع إلى أمنا حواء حرِّيفة الإغواء . غير أنك لن تستجيب لنـداء هـذه الظـلال على الأقل لأول وهلة . إلا أن الخطر لابد محدق بك إذا مكثت معها طويلا وألفتهـا وألفتك ، حينئذ تتساقط من أشعة عينيها كل الإيحاءات السابقة فلا يبقى منها سوى ظلال العهر العريق الذى لاتؤيده هى بأى حركة أو كلمـة أو لفتـة ؛ بـل إن فـروغ بالها من هذه الناحية هو الإثارة بعينها ؛ وإن قذارة الثياب وانحطـاط مسـتوى الحيـاة ووساخة كل شئ حولك واختلاط الحدود كلها ببعضها قد تصـد نفسـك فـى أول الأول عن التفكير فيها كامرأة ، إلا أنك سرعان ما تقـع فـى الخية الأزلية ؛ فتجـد نفسك محيرا وأنت تبدأ شيئاً فشيئاً تفكر فى " رحاب " زوجة الشيخ زينهم كإمرأة؛ لكنك سوف تكتشف بعد قليل أن للقذارة والنتن جانبها المثير ، الحيوانـى ؛ فمثلمـا نزول السلم سهل فـإن التظـامن والإستكانة للفقـر والنـتن سـرعان مـا يصبـح لهمـا طعمهما المثير اللذيذ الأليف ..

نفيت من دماغى هذه المرأة بقوة ؛ لكننى لم أنجح فى نفيه بالنسبة لابنتها أمينة ، تلك العروس الزاحفة نحو سن العشرين مياسة القد كالغزال الأسمـر المسمسـم بعينـى أمها وثراء وجه أبيها القادر على التلون بصـورة مذهلـة ، كعـود السـنط فـى أعـلاه بروزان مدببان ناضجان ، فى خصره أستك خفى يلم دائرة الخصر فى قبضـة خفيـة ليندلـق اللحـم الشـحيح فـى بروزيـن مـن الخلـف علـى هيئـة فخذيـن مسـحوبين كالقرطاس حتى سمانتى قدمين كقصبتين من المامبو ، بكعبين دائريين. كـانت تقـف بجوار الباب تغسل عدة الشاى بعد أن أكلنا فطائر فلاحية دسمة مـع جـبن قديـم فـى المش . وكان جانب وجهها الرفيع المدبـب الأنـف تنعكـس عليـه ظـلال لمبـة الجـاز السهارى فتبدو كنقش فرعونى لفلاحة من الفلاحات اللائى أراهن مرصوصات فـى كتب التاريخ يبذرن الحب للأض أو للدجاج . وكـانت أمهـا رحـاب قـد جلسـت على الحصيرة فاشخة وركيها ممددة واحدة ومثنية الأخرى أمام الوابور المشتعل يونـذّ ونينا أليفا مؤنسا . بجوارها جلست رقيـة التـى تصغـر أمينـة بثـلاث سـنوات لكنهـا متختخة مخشوشنة الملامح تأخذ طابع الولدان الأشقياء البلطجيـة وربمـا ظننـت أنهـا تخفى مطواة تحت إبطها أو طفاشة لكسر الأقفال . أمـا اعتمـاد فقـد جلسـت علـى العنقريب مستندة إلى الحائط ممسكة بكراسة الواجب والقلم الرصاص تذاكر بصوت

عال كأنها تثبت لى لباقتها وحدارتها بالمدرسة . على مقربة منها تنام داليا الصغيرة.
أما أنا فقد رفضت الجلوس على العنقريب ، فتكورت بجوار الشيخ زينهم الذى تربع بجوار الباب من الداخل ، وصار يذكرنى بكرمه فى كل لحظة مردداً بيتا من الشعر لا أدرى من أين حفظه : يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود . ورائحة أعقاب السجائر التى احترقت للمرة الثانية تزعق فى جو الحجرة ..

أردت القيام لإحساسى بأن الشيخ زينهم على أحر من الجمر كى يبدأ جولته المسائية التى يمارس فيها ألوانا أخرى من الشحاذة : يخرج بعد أن يتوضأ ويصلي الظهر والعصر والمغرب والعشاء معا فى خيط واحد ثم يتلفع ببقايا شال قديم متهرىء ذى أصل عريق لابد أنه ذاب في هوى أكتاف أحد الأثرياء الصالحين قبل أن يخلعه عليه ، هو من الكشمير الطرى المبرقش بنقط كحبات البازلاء ما تزال ألوانه محتفظة بأصالتها كأنه جديد ، بل أن رائحة الصوف الجديد باقية فيه رغم أنه مجرد شرائح مشتبكة بخيط منسول فى ثنيات تطبيقاته التى طبع عليها إلا انه حين يطويه ويلفه حول رقبته يبدو سليما فيضيء وجه الشيخ زينهم فيبدو كعزيز قوم ذل . يمضى من فوره فى خط مهيب رافع القامة على عكس مشية النهار المتخاذلة المنحنية الغلبانة . يمر على الدكاكين : القماشين والبقالين والعطارين والفكهانية والترزية والمقاهى النظيفة ذات المظهر البكواتى . خبير هو فى تمييز صاحب المحل من الزبون من الضيف ، يخترق الطريق إليه مباشرة وهو يبتسم مفنجلا عينيه الصغيرتين فى نظرة ودودة سمحة ؛ ولما كانت عينه اليمنى منقوطة فى الحبة السوداء بشيء من الرشح الرمادى فإنه يبدو مثيرا للشفقة . يسلم على صاحب المحل بحرارة شديدة ، يبالغ صاحب المحل فى الرد على هذه الحرارة بالترحيب . بعد برهة وجيزة يفاجأ صاحب المحل انه قد تورط فى حرارة لا لزوم لها ستكلفه مالا يطيب له ؛ إلا أنه يحدق فى عينى الشيخ زينهم منتظرا أن يفصح عن طلبه عن أمره ، لكن الشيخ زينهم ينزوى بعد السلام واضعاً يديه أسفل صدره كالواقف فى الصلاة منكسا رأسه متمتماً ببعض عبارات غامضة غير مفهومة . الرجل سرعان ما يستسلم لما قد فهمه من أول وهلة فيفتح درج الحصالة يقلب بين قروشها الفضية عن قرش تعريفة أو قرش صاغ يغمزه به . حينئذ يرتفع صوت الشيخ زينهم وتتضح نبراته :

- " اللهم بلغه مناه ! اللهم وسع رزقه ! اللهم أخفض شأن منافسيه ! اللهم اخذل حساده واخسف الأرض بأعدائه ! أمين !"..

يكمل هذه العبارة وهو يدلف من العتبة إلى الشارع ، فإذا هي تضرب صاحب المحل المجاور في الصميم ، كأنها فأل لصالحه ينطق بما في ضميره فإذا هو يفتح درج الحصالة بالفعل وينتقى القطعة الفضية حتى لا يكلفه مشقة الدخول والوقوف . يرجع آخر الليل جيوبه تشخلل بالقطع الفضية الكثيرة ؛ فيحوّد على محل من محلات البيض ، لا كشحاذ هذه المرة إنما كزبون كريم يدخل مشدود القامة مرتفع الروح . ومثل أى زبون محترم يروح يقلب فى البيض بحرفنة المعتاد شراء الحوائج . ينتقى عشر بيضات سمان يطلب من البائع لفها في قرطاس ؛ ويدب يده فى جيبه بحجة إخراج القرش الصاغ الذى سيدفعه ثمنا للبيض وهو فى الواقع يتعمد إسماع البائع شخللة القروش الفضية الكثيرة ليغريه بالفكة حتى يقول له هات هذه الفكة . وفى العادة لابد أن يخلصه البائع من هذه الفكة مقابل نقود ورقية مجمدة يسهل وضعها فوق بعضها فى المحفظة أو فى الصندوق فى الحجرة . مع ذلك فزوجة رحاب هى الأخرى لا تكف عن العمل مصطحبة معها دائما ابنتها رقية ، ولهذا فرقية مدللة بعض الشئ . لزوجة رحاب زبائن فى أحياء متعددة فى المدينة تذهب إلى بيوتهم فى أيام معلومة من كل اسبوع ، فتتولى غسل ملابس الأسرة كلها وكنس الشقة وغسل بلاطها وشبابيكها بالماء والخيشة والخرق المبللة . ثمة أسر أخرى تجعلها تطبخ لها بالمرة فتنزل لشراء الخضار واللحم تاركة رقية لإنجاز شئ آخر فى الشقة . أما أمينة فهى القائمة وحدها بشغل بيتهم ، حجرتهم ، تنظيفها كل يوم وإعداد شئ للأكل ريثما تعود أمها ورقية قرب العصر من جولتهما اليومية ..

كان الشيخ زينهم قد أنهى صلاته فيما هو جالس بجوارى دون سجود أو ركوع إلا بإيماءة من رأسه عند كل سجدة أو ركعة . ثم قال مبالغا فى إكرامى : تشرب شاى تانى ياMولانا ؟ فظننت أنه يستحثنى للقيام فشرعت أنهض فأمسكنى قائلا : إعملى شاى يا رحاب ! فقالت : حاضر يا زينهم ؛ وراحت تشعل الوابور . إندهشت من قولها : يا زينهم ؛ إذ يبدو أننى كنت أتوقع أن تقول له : ياعم أو على الأقل يا شيخ . ثم بدأت أنتبه من جديد إلى صباها وكهولته ..

ومن المؤكد أن الدهشة ظهرت على وجهي بوضوح شديد ؛ إذ أنه راقبني من تحت لتحت وابتسم قائلا :

– " إستغربت يامولانا لأنها تقول لى يازينهم ؟! أنا الذى عودتها على ذلك ! أليست امرأتى يا مولانا ؟ لابد أن تقول لى يا فلان مثلما أقول لها يا فلانة !".

قلت على سبيل إبراء الذمة من ذنب تعطيله :

– " وراءك شغل وانا عطلتك ؟!".

– " نشرب الشاى ونمضى !".

– " كما تحب !".

أخرج من سيالته بريزة فضية ؛ دب ظفر إبهامه فى حافتها فانفلقت فإذا هى بريزتان ملتصقتان ببعضهما . قلب بطن واحدة فإذا هى مغمورة ببطش الأفيون ذى الرائحة النفاذة . يعود من الكبريت سحب نتفة كالحمصة قدمها نحو فمى قائلا : إفتح بقك ! ففتحته ؛ فدب العود فى فمى فأطبقت عليه بشفتى . أخذ لنفسه قطعة؛ ثم ألصق البريزتين ببعضهما ودسهما فى سيالته مستأنفا ما انقطع من الحديث :

– " على فكرة يا مولانا ! رحاب امرأتى هذه أنا الذى ربيتها بنفسى وكانت تقول لى : يا أبى !".

– " كيف كان ذلك يا شيخ زينهم ؟!".

إتسعت عيناه اتساعا مخيفا ،صارت النقطة الرمادية فى قلب عينه اليمنى كجزيرة من الرشح فى محيط أسود ؛ فأيقنت أن الإتساع فى عينيه هو الأصل وأن التجاعيد المكشكشة حولهما تشبه تجاعيد باكية السروال يختفى بداخلها أستك خفى يمتط فتتسع العينان وينكمش فتضيقان ؛ وبان لى أن ضيقهما هذا الخادع قد تم بتدريب شاق ؛ إذا أن اتساع هاتين العينين لابد أن يكشف فيهما عن محيط عريض من الشقاوة والشيطنة وطول العشرة مع ليل شرير وبؤس أشدَّ وزمن حافل باللوعة والقهر والتحدى . خطر لى أن أسأله عن أصل هذه النقطة فى عينه أهو مولود بها أم أنها نتيجة إصابة أو مرض ؟ ثم ركزت النظر عليها بشكل يلحظه . فإذا هو يشير إليها بأصبعه ؛ وبكلمات كنت أتوقعها :

– " هذه يامولانا من أيام الشقاوة ! كنا طالعين بسريقتنا من كامب الإنجليز ملهوجين ملخومين بكثرة ما معنا من غنايم ! عوجت رأسي تحت السلك الشايك لأنبه زميلي كي يفعل مثلي ! ما كدت أعدل راسي حتى خطف السلك هذه العين فصرخت مثل كلب فاجأته ضربة المسوقة على رأسه ! صرت أفرفر في الأرض وزملائي يجرجرونني بعيدا عن الكامب ! رحت المستشفى فبقيت فيه شهرا بحاله حتى عالجوها !".

وأنهى برم اللفافة وقدمها لي ، فهممت بالإعتذار ضيقا برائحة العقاب الزنخة الخانقة ؛ لكنني كنت خرمانا بشدة بسبب الأفيونة فتقبلت اللفافة . وحين أشعلتها استشعرت سخونة دخانها ولذعة بلذة غريبة لكنني قرفت من بلغه . أما الشيخ زينهم فقد تبلغه بلذة فيما يستأنف الكلام بلذة أكبر :

– " أصل الحكاية يا مولانا أنني من بلدة السويس ! فتحت عيني على الدنيا فجأة فإذا بي في دار كبيرة فيها مئات الأطفال من كل سن ! وفيها عشرات الأفندية الذين لا عمل لهم سوى ضربنا بالشلاليت والبصق في وجوهنا ليلا ونهارا في طوابير وفصول وأشغال يدوية ! لم أكن أعرف أن الطفل منا يمكن أن يكون له أب وأم ! فأنا منذ وعيت لم أر لهما أثراً وكذلك من كانوا معي ! عرفت أن الدار التي نحن فيها اسمها ملجأ الأيتام بالزقازيق ! وأننا جميعا أبناء زنا قد عثروا علينا عند أبواب المساجد وفي صفائح الزبالة ! ومنا من جاء أهله فسلموه بأنفسهم ونسوه ! كنت ولدا أعجبك ! من يومي أعرف أن الدنيا تؤخذ بالذراع والباط ! دنيا كالعاهرة لا تعشق سوى القوي الغليظ القلب المتعافي ! وهكذا صرت بين الولاد يا مولانا ! أخذ حقي وغير حقي بالذراع ضرب أضرب خربشة أخربش نطح أنطح سرقة أسرق كذب أكذب كله ماشي عندي ! والعجيب يا مولانا أن الجميع أحبني مع ذلك فصار لا يؤخر لي طلبا من غير حاجة للأذية ! حتى كاتب الملجأ صار يخاف مني ! سألته عن أصلي وفصلي فنظر في دفاتره الكبيرة وقال ، إنني منذ إثنى عشر عاما وجدني عسكري انجليزي قطعة لحم في طول القدم ملفوفة في ورقة توت ومرمية في صفيحة زبالة الكامب فسلمها إلى بوليس السويس وبوليس السويس بعثها بسرعة إلى ملجأ الزقازيق ! صرت كل يوم أحايل الكاتب حتى حكى لي

أشياء جديدة محفوظة عنده في الأوراق التي تثبت نسبي ! قال إنه أثناء العثور على لحمي ترددت إشاعة بأن واحداً من عسكر الإنجليز اغتصب فتاة مسكينة من بنات السويس فحملت منه فلما وضعت أخذت المولود وذهبت به إليه فطردها فرمته عند قدميه فالقى به في صفيحة الزبالة !! وأشعلت النار في نفسها فجاء البوليس وحقق وكتب المحاضر !! تكدرت نفسي من هذه الحكاية يا مولانا لأن لون عيني أيامها كان فيه بعض الزرقة ! الكاتب ابن الكلب نشر هذه الحكاية بين الغلمان والولدان فصاروا يعيرونى بها ! كان ينتقم مني لأنني لم أطاوعه في الفسق ! أصله كان يؤجر الولاد للعساكر الإنجليز ولبعض الناس المنحرفين المصابين بداء مجامعة الولدان فينتقى الولد الذى يعجبه فيعطيه إجازة ليلة واحدة !! المقصود يا مولانا ! كل عيال الملجأ أولاد زواني لكن العار أن يكون الزاني بالأم إنجليزى أزرق العينين !! ضقت بالحياة في الملجأ من كل ناحية ! هربت ! اشتغلت شيالاً على المحطات وماسح أحذية تبع واحد يعطينى الصندوق والمونة وأعطيه الإيراد كله ليلة لينفحني بما يشاء ! إنما الغيظ كان يأكلنى من ذلك الإنجليزى النذل الذى زنى بأمى ورمى بى فى صفيحة الزبالة! قلت لنفسي: مصير الواحد لوطنه فارجع يا ولد إلى السويس شف حالك بها ربما قدرت على الإنتقام من أبيك النذل المجهول !! لقينى أولاد الحرام من أبناء السويس المتعطلين بغير مهن ! قل إننى وقعت فى أيديهم ! فرحت كل الفرح لما علمت أنهم يعيشون على سرقة كامب الإنجليز ! يدى فى يدكم يا جدعان ! أصبحوا يصدروننى فى كل الأعمال الصعبة ! نفعت فيها كلها ! ولما انشرخت حبة عينى الزرقاء بشوكة السلك الشائك طار من عقلى أكبر برج فيه ! صممت على أن يكون الإنتقام انتقامين ! صرت كالمجنون ! أرجع بالسريقة فأعود مرة ثانية للحرق أو للقتل ! طبعا يا مولانا ! جئت مرة عند مخازن السلاح ومخازن الأكل والعنبر الذى يرقد فيه العسكر فى الليل ومعى ثلاث قطط صغيرة شكلها جميل لكنها زرقاء العيون مثلهم ! دخلت مع العمال فى الزحمة واختبأت ساعة عودتهم حتى جاء الليل! كانت القطط مخبأة فى عبّى ! فى عز الليل تسللت إلى برميل الجاز ففتحت صنبوره فأغرقت القطط ثم تركته يسيل على الأرض ! عند كل باب أشعلت النار فى قطة وتركتها تجرى بأقصى سرعتها كالمجنونة !! وحينما صرت أنا خارج

الكامب من بعيد استدرت فرأيت النار توجوج وتطقطق في خشب وخيام وذخيرة وزيوت وحبوب !! منظر الكامب في الصباح لم يشف غليلي يا مولانا رغم الخراب الذى شمله والموت فيه بالجملة !! صرت ورفاقي أولاد الحرام تدبر أكمنة للضباط السكرانين وندس عليهم الفتيات والنسوان المومسات لدحرجتهم إلى مكان مقطوع لفعل الزنا ثم نفاجئ الضابط من الخلف وهو خالع السروال منهمك في ملذاته فنغرز السكين في جنبه في قلبه في رقبته نأخذ ما معه من نقود وسلاح وأشياء تصلح للبيع أو للبس ونتركه ونمضي ولا من شاف ولا من درى !! هُبٌ للنبي قامت ثورة ١٩ وأنا شاب حلو ! إنقلبت الدنيا يا مولانا من فوق لتحت فعملناها حلوانة في سلوانة وهات يا قتل يا ضرب يا حرق يا نهب ! وعسكر الإنجليز يسرحون في شوارع البلد بالمدافع والعربات يفرمون الناس والبيوت والأطفال يسوونها بالأرض !! أيامها قابلت المرحوم عريبي وزوجته المرحومة حل الخالق ! نعم اسمها حل الخالق ! ويقولونها : حلخالق ! هما في الأصل من عرب سينا وعريبي كان يعمل في الكامب مع الأورنس ! تعرفنا على بعضنا في المظاهرات فأصبح يزورني في عشة عَرَّشتها بنفسي لنفسي بين عشش الصيادين ! فإذ به رجل طيب ودرويش من دراويش سيدى العتريس ! لخبط غزلى من حلاوة كلامه عن العتريس وكراماته وعهده ومنزلته عند الله ! أحببت سيدى العتريس! صرت أذهب إلى حضرته مع عريبي فأذكر الله واستمع للعهد والوعظ والكلام والذى يهز القلب يا مولانا ويملأه خشوعا ! قل إنني أصبحت من دراويش سيدى العتريس لا أترك الفرض يجئ على أخيه ! شيخ العتارسة يرحمه الله كان كالأولياء الصالحين ! سافر بنا إلى السودان والحجاز لنقابل إخواننا العتارسة هنا وهناك ! الله يرحمه أحبني فجعلت نفسي خادمه الأمين أذهب وراءه في كل مكان فلا أفارقه ولا يقبل خدمة من أحد غيرى ولا يأكل لقمة بدوني !! لم أتشرد إلا بعد موته يا مولانا!! كان أهل الله يعطفون على لفترة ثم انقطعوا !! عريبي سعى وشغلني في الكامب شغلة ثقيلة لكنني احتملتها ! والدنيا التي لا تدوم على حال صدمتني مرة ثانية في موت صاحبي عريبي تاركا زوجته حَلّ الخالق وبنتاً عمرها سبع سنوات !! صعبت الولية وابنتها عليّ ! أخذتهما في حضني ! حميتهما من الذئاب ! قل إنني

تزوجت جل الخالق لكي أربى لها ابنتها ! تركت الحجرة المستأجرة لصاحبتها وانتقلت إلى عشتي فجعلتها كالجنة ! سارت الحياة سمنا على عسل ! أنا في شغلي من ناحية وجلخالق في شغلها من ناحية ثانية : تلتقّط رزقها من هدمة تغسلها أو دار تكنسها أو شروة خضار تشتريها لتبيعها بمكسب يوافقها !! ورحاب تكبر وخراط البنات يخرطها وكلمة يا آبا تخرج من فيها كالعسل !! الواحد منا مفترى بطبعه صدقني يا مولانا ! ما كان أغناني عن الأبوة وعندي رحاب تقولها في كل لحظة وأشترى لها كل شئ حلو كلما فاض القرش بيدى ! لكنه الطمع يا مولانا ! مني ومن خَلجالق أيضا عليها رحمة الله ! أردنا أنا ننجب ولدا أو حتى بنتا ثانية توثق العهد بيننا ! وقد كان يا مولانا والواحد منا يسعى الى قدره بنفسه وإن ظن أنه يسعى لتحقيق أغراضه السعيدة ! حملت جالخالق وجاءت الولادة مستعجلة كالكارثة ! قبل موعدها بشهرين ! وقعت الولية لتلد فلم تقم بعدها ! أصابتها تلك الملعونة التي يسمونها حمى النفاس ! ماتت الوالدة والمولود معاً فانشق قلبي بالطول ياامولانا !! الله لا يريك ما رأيته !! صفصف الزمن علينا رحاب وأنا والأيام !! وكيف أتركها وحدها طول النهار لأخدم في أولاد الجزم ذوى العيون الزرقاء ؟! الشيطان شاطر وهذه عروس بالغة ! هل آخذها معى إلى الشغل ؟! سيأكلها الوحوش ذو العيون الزرق !! حاصرتنى المشكلة يا مولانا !! إنها مأكولة مأكولة سواء من العيون الزرق أو من العيون السود !! صرت أطلع من الشغل كالسعران ! وفى الشغل ربع عقلى !! أصلى الفجر أبتهل إلى الله أن يرزق البنية بعريس ابن حلال يسترها : أكاد أكلم الناس أعرضها عليهم فلا يوقفنى إلا عزة النفس وخوفى من ترخيص البنية !! خمس سنوات على هذا الوضع يا مولانا حتى بلغت البنية عتبة الثلاثين فضاق صبرى على الخوف من همها وهم مسئوليتها !! إنما هو النصيب يا مولانا !! فى ليلة مباركة طاهرة عرضت عليها الفكرة بكل خوف وارتعاشة قلب!! رحبت رحاب وصدق من أسماها رحاب !! أخذتها إلى المأذون وعرضت عليه الحكاية من طقطق لسلامو عليكم فعقدلى عليها بشرع الله وتوته توته فرغت الحدوتة ! حلوة ولا ملتوتة ؟!"..

أبدا لم تكن ملتوتة ، لم أر فيها أى لتّ أو عجن . قلت :

- "حلوة والله يا عم الشيخ عتريس !".

قال باسما :

- " لو قلت إنها ملتوتة كنت أقول لك : عليك بَلّ القراقيش : قلت على سبيل المزاح :

- " أنا مستعد لبلها !".

قال فاشخا حنكه :

- " فى فرصة تانية !".

ثم نهض واقفا فنهضت ؛ ومضينا معا ؛ هو إلى حال سبيله ؛ وأنا إلى حجرتى .

ســـاعات

مثلما حدث ويحدث دائما فى مثل هذه اللحظة التى يزدحـم فيهـا فنـاء الوكالـة بشكل غير معقول ، أسبوعا بعد أسبوع ، رأيت الشيخ زينهـم العـتريس مقبلا نحـو البوابة فيما وقفت بباب حجرتى أرقب الزحام الحميم . تكلـم مـع شـوادفى كلامـا كثيرا . كان يحمل شكارة صغيرة من قماش الدمـور مـن الواضـح أنهـا ملانـة حتـى المنتصف بأعقاب السجائر التى اشتراها من العيال المتشردين . نفعه العكاز ، إذ راح يمده فيتكفل بزغد الناس عَرَضا فينتبهون فيوسعون له برزخا ضيقا يعبره إلى حجرتـه. تابعته ؛ كانت حجرته مواربة ، وضوء شاحب يطل من جوفها . وفيم أنـا منهمـك فى متابعته شعرت بأنفاس مع ظلال تقترب منى ، وبيد خشنة تلكزنـى فـى عشـم ، فانتفضت مذعورا ، فإذا بى أمام محروس بائع الفجل ..

– " أهلا.. ا .. ن محروس ! ".

– " من أكثر ساعة وأنا أمسِّى عليك بيدى وانت لست هنا!"

– " ما رايتك والله !".

أشار نحو حوض الطلمبة :

– " رايتك من هناك ! لما تأكدت أنك لن ترانـى تركـت بضـاعتى فـى حراسـة واحد وجئت أسلم عليك ! معى عربة يد أستأجرتها يوما بليلة مـن العربجـى لأطلـع بها السوق إذا !! أهذه حجرتك ؟ وأنت إذن تسكن هنا ؟! عال عال ! خبر مفرح! عندك عدة شاى !".

– " وعندى !".

وسحبته ودخلت . كان الحانوتى قد ترك عندى هذه العدة البسيطة على أمل أن يجعل قعدته عندى باستمرار حتى لا يضيع بـوزه فـى بـوز المرأة كمـا يقـول . حـين جلس محروس بجوارى على المصطبة قلت له إن العدة موجـودة ولكـن الشـاى بكـل أسف غير موجود . فأخرج من جيبه لفة من ورق الجرائد تحـوى قـدرا مـن السـكر والشاى ، ثم هبط جالسا وجعل يمصمص الكوز والكوبتين بالماء :

– " أنا لم اعد أبيت هنا إلا ليلة السوق من كل جمعة !".

- " فكيف لم أرك ولم ترنى ؟!".

- " سألت عليك مليون مرة ! على فكرة ! شوادفى سرح بى ولف لى سيجارتين على المصطبة وسألنى عنك أسئلة كثيرة حتى استغربت وقلت له إياك تظننى شيخ الحارة ؟! وفهمت منه أنه خائف منك يظنك مخبراً غشيما فى المباحث ! أكدت له أنك جدع غلبان على باب الله ! قلت إننى شفتك نائما ذات يوم على الرصيف ! فزام وهز دماغه ! وحمد الله أنك طلعت ابن حلال كما تصور من رؤياك أول مرة ! لكن عقلى يحدثنى أنه لم يصدقنى ! لأنه نسى ما قلته له عنك وعاد فسألنى مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى لخبط عقلى فأصبحت أنا الآخر أتخيل أنك فى المباحث !! أنت رجل عدم المؤاخذة تفهم فى أشياء كثيرة ومنظرك ليس يدل على أنك من المشردين ! وهل المتشرد يقرأ هذه الكتب ويتكلم فى السياسة والفن ؟! أنا بصراحة لعب الفار فى عبى يا صاحبى فإن كنت فى المباحث فاخدمنا وشف لنا شغلة معك ! أنا أنفع مخبرا يعجبك ! أجىء لك بالتائهة من قرارها !!".

ضحكت :

- " شف لى أنت عشرة قروش معك على سبيل السلف ".

بحلق فى عينى بإمعان وهو يصب الشاى الأسود الثقيل :

- " جد ؟!".

- " أنا واقع من الفلس ! لا شغلة لى ولا مشغلة ! شوادفى كبرت ديونه عندى وسوف يطردنى فى أى لحظة !!".

بسط ذراعه فى وجهى هاتفا :

- " إطمئن من هذه الناحية ! هو لن يطردك أبدا ! هو أساساً لا يتنازل عن حقه! ما عنده مانع يسجنك فى هذه الحجرة حتى يبين لك أصحاب يدفعون الدين عنك ليطلق سراحك ! إنما هو لن يفعل هذا الآن إلا بعد أن يتأكد أنك فعلا لست فى المباحث ! هو متصور أنك تبالغ فى رسم الفقر حتى يقتنع أنك على باب الله ! ولك علّى أن أعطيه حقنة تجعله يثبت على اعتقاده !!".

- " المهم الآن هل ستعطينى عشرة قروش أم ل ؟!".

- " سأعطيك خمسة قروش هي كل ما أقدر عليه ! شرط أن تأخذها بعد انتهاء سوق الغد ! من الغلة التي يكرمني الله بها ! قبل أن أمشي سأمر عليك واتركها لك ! يظهر أنني خلفتك ونسيتك !! لم يكن ينقصني في الحياة إلا أنت .!!".

وضحك بعمق فاهتز كوب الشاى في يده . وبصوت دافئ فيه كل النبرات الفلاحية الحارة :

- " إنما وحق ذى الليلة ومساها أننى مسرور بمعرفتك ! أنا لم يكون لى أخ ولا أخت ولا صاحب ! وكل من أردت أن يكونوا صحابي طلعوا لا يحبون المواويل ! أمخاخهم منحّسة ! فلتكن أنت صاحبى ورقبتى فداءك طول ما أنت ماشي معى بصداقة ونية صافية !! خذ ! هذا نصف فرنك تفطر منه وتشرب الشاى وسيجارتين فأنا جربت الحاجة وأعرف ذلها ! ربنا لا يرينا الذل أبدا !!".

ثم وضع الكوبة ونهض واقفا :

- " سأعود إلى بضاعتى لأنام بجوارها وأرشها بالماء ! أشوفك بكرة !".

ومضى قبل أن أرد عليه . وكان نصف الفرنك قد استقر في يدى كالغنيمة الكبرى ، وتفتحت له في الحال عشرات الأمانى ، ثم دهمنى في الحال شعور مضاد تماما لصرفه في أى غرض عاجل ، شعور يبت في أعماقى نية أكيدة في الإحتفاظ به طويلا ، فلربما قدرت على الإحتفاظ بأى قرش يضل طريقه إلى يدى ، هدفى الأول والأخير أن يجتمع في جيبى حفنة قروش وياحبذا لو كانت شلنات ويا وعدى لو كانت برايز لكى أدفعها لشوادفى يخصمها من حقوقه عندى تلك التى أصبحت أهرب من محاولة حسابها أو تذكر عدد شهورها خوف الذعر والروع . إننى لا يمكن أن أطمئن لتسامح شوادفى ، لعلمى بحقيقة شخصيته ، لا يمكن أن يعفينى من مليم واحد ؛ أشعر أن سكوته وعدم مطالبتى بالمرة ليس إلا نوعا من تسمين العجل قبل ذبحه ؛ يضعنى في موقف الإضطرار إلى قبول أى عمل يكلفنى به تخليصا لحقه وسداً لرمقى ، إن أحتملت الجوع فهيهات أن أحتمل غضبته الأخيرة التى لا يعلم سوى الله مداها وما يمكن أن تسفر عنه من شر ؛ ثم إننى - أساسا - لم أعد قادرا على احتمال النوم ماشيا على قدمى في شوارع المدينة التى بت أملّها بل أوشك أن أكرهها لولا تذكرى بأنها كثيرا ما احتملتنى صبح مساء دون أن يعترضنى عسس

أو شرط ودون أن يضا يقنى متطفل سمج ؛ لكن من لى بجلد سميك يحجب عن ضلوعى قرص ولسع الهبوب الليلى فى طوبة المقبل على الأبواب ! بدنى يقشعر الآن وجسمى ينتفض لمجرد التذكار فما بالك لو حدث ؟! أدفع عمرى الآن فى سبيل أن أعرف ما الذى يدبره لى شوادفى ! ما هى اللحظة السرية التى يضعها أو لعله قد وضعها لى بالفعل وأصبح قاب قوسين أو أدنى من اقتناص فرصة للتنفيذ . ولكن ، ماذا لو تركت هذه المدينة منكلاً بشوادفى كما فعل سلفى ساكن هذه الحجرة سابقا ؟ فى بلدتنا يقول المثل ، حين تتحزب الأحوال بالإنسان ويشتد به العوز : "غيِّر العتبة !"، أى ابحث عن عتبة بيت جديد تسكنه أو بلدة جديدة تبحث فيها عن متاع . وهاهى ذى مدينة دمنهور الحبيبة قلبت لى ظهر المجن ، لعلها أشأمتنى ؛ جئتها مزهوا مؤملا فاذا هى لا تتسع لى الإ شريدا بائسا ضالا ؛ لك الشكر يا مدينتى على كال حال ، فالحق أنك لم تقسين علّى قسوتى على نفسى فعلى الأقل وجدت فيك من احتوى بعض محنتى وحمل عنى جل همومى ، ووجدت فيك جمعية للأدباء ومقهى حميما يلمهم فكأنهم عائلتى التى لا يفهمنى أحد سواها ؛ هى الوحيدة التى لن تشمئز من رثاثة توبى أو تشمئنط من خشونتى أو تزننى بمقدار ما أملك ما أصرف ما ألبس ما أشغل من مركز ؛ ولابد أننى واجد بين أعطافها دربا أسلكه إلى أن أصير كاتبا ذات يوم .. ها أنت ذايا دمنهور ترين أننى غير مستطيع هجرانك مهما تأزمت بى الأحوال ، ثم ، تم ، ثم كيف أهجرك وفيك قلب بدرية؟ كيف نسيت أنا هذا ؟! كيف فاتنى اكتشاف أننى كنت فى الواقع قد أحببت بدرية ؟! ما أنا متأكد منه الآن تأكدى من سريان هذا النفس فى صدرى أننى أحبك بالفعل يا بدرية ؛ لا ، لست أحبك لأنك عطفت علّى دون أهلك برغم يقينك من موقفهم منى ؛ لأنك زودتنى من ورائهم بوسادة ولحاف وبطانية وملاءة ونفحتنى مبلغا كبيراً جدا بالنسبة لى ولمصروف يدك ؛ كل هذا وإن كفى ليس وحده دليلا على نبل قلبك ودفء مشاعرك ؛ إنما الدليل القوى هو مالمسته حال اختفائى كلى بداخلك ؛ الآن فحسب أستحلب مشاعر تلك اللحظة السحرية الخيالية المذهلة التى إن رويت لى ما صدقتها مع أنى عشتها ؛ الحق أنى غير مستطيع وصفها ؛ وكيف للجنين أن يتأتى له وصف الرحم من أمه وهو بضعة منه ؛ اللعنة ؛

اللعنة ؛ اللعنة على ذلك الذى اختطفها منى أياً كانت شخصيته ؛ نعم أنا فى منتهى الأنانية ولست أملك إلا أن أكون ؛ اللعنة عليه يا.بدرية لو أشعرك ولو بالمضمر فى أعماقه أنه يتنازل لكى يقبل شفتيك الغليظتين هاتين الحبيبتين ؛ شفتاك إذن لأرق من غلظة مشاعره وتخن قفاه ؛ ولو قد كان مستنير المشاعر لانحنى راكعا على شفتيك بدفق الحنان والمشاعر السخنة الفياضة السائلة من قمم جبال عينيك الشامخة الدانية فى آن . آه .. بدرية .. بدرية .. بدرية ..

وهكذا اطلع النهار . تنبهت فجأة إلى اللون الإردوازى الذى صبغ جدران الحجرة عبر زجاج الشباك . وكان اللغط المتكاثر منذ قليل وكأنه فى قاع بعيد من ضمير الكون قد ارتفع واتضحت أصواته ونداءاته وأهازيجه ورنين صنجه وخوار مواشيه وفحيح بوابيره وشخاليل خيوله وقرقعة عرباته . تمطعت فاستويت جالسا فهابطا عن المصطبة . فتحت الباب فإذا الفناء قد فرغ تماما أو كاد من زحمته . جو الفناء يعبق أنفاس الصبح الرطيب وبروائح طازجة فيها سمن مقدوح وبيض مقلى وفول مدمس فواح وطعمية وبقدونس وجرجير وليمون بنزهير ولبن صابح . جميع الحجرات مواربة . أما حجرة الحانوتى والداية فمفتوحة على مصراعيها ، يوش فيها صوت وابور مشتعل وصوت كركبة ، حجرة الشيخ زينهم هى الأخرى نصف مفتوحة وفيها هى الاخرة حركة ..

إن هى إلا برهة حتى فوجئت بالحانوتى يخرج مرتديا ثوبا نظيفا أبيض اللون شفافا هفهافا ؛ وقد حلق ذقنه ومن الواضح أنه استحم منذ قليل ؛ يحمل على كف يسراه صينية دائرية من النحاس الأصفر اللآمع ارتصت عليها مجموعة من الأكواب الزجاجية ؛ وأمسك بقبضة يمناه برادا كبيرا جدا من الزنك أزرق اللون يتدافع البخار من بزبوره . جعل يمشى نحو البوابة فى خطو وئيد معلقا السيجارة المشتعلة بين شفتيه محركا شفتيه مع ذلك بتمتمة لعلها ختام صلاة أودعوات . عرفت أنه سيسرح بالصينية والبراد فى السوق ، حتى إذا ما فرغ البراد الكبير قفل عائدا إلى الحجرة ليجد أن صبيحة الداية قد جهزت له برادا آخر وكوبات أخرى نظيفة ، ما عليه إلا أن يحمل هذه تاركا تلك عائدا إلى السوق . خرجت إلى إفريز البواكى ؛ وقفت فاتحا صدرى للهواء العليل ؛ شعرت بجفونى تتباعد عن بعضها وتتخلص من

عماص لزج خفيف . رميت بصرى إلى بعيد ؛ إرتفع متخطيـا الجـدار البعيـد للفنـاء مستقراً كعصفور قلق على حافة شرفة المنزل المواجه خلـف جـدار الفنـاء يفصلهمـا شارع عمومي . كانت المرأة الحلبية البيضاء الموردة الخدين قد ارتفقت حافة الشرفة يلمع وجهها كالجنيه وسط غابة من الشعر الكثيـف الضـارب إلى الشـقرة . رفعـت يدها بساعد بض انحسر عنه كـم العبـاءة المنزليـة الواسـعة ، فحيتنـى بحركـة سـريعة عابرة، تلقيت تحيتها بحركة مثلها وقد خيل لى من فرط السعادة أن الدنيـا كلهـا قـد رضيت عنى .

متاع الغنم

لمحت قطيعا من الأغنام يعبر الشارع أمام بوابة الوكالة إستمر متصلا غير منقطع لدقائق طويلة جدا حتى بدت بلا نهاية . فى أعقابها ظهر راعيان وبضعة أطفال فى يد كل منهم خيزرانة طويلة سرحة . إنسلخ عن القطيع رجل هضيم الوجه مكلبظ الملامح أسوانى البشرة يتدلى على شفتيه شارب كثيف مدبب الطرفين بعوجة كمخراز العتقى ، وفوق رأسه لبدة كالبرام مقلوظة ، جبهته ضيقة ، وعيناه كذلك.
بربش الراعى فى مدخل البوابة خبط بطرف العصا على الباب هاتفا :

– " ياعم الشيخ زينهم !".

فكأنما كان الشيخ زينهم فى انتظاره ، إذ خرج فى الحال :

– " إتفضل يا أبو هوانه !".

دلف الراعى داخلا :

– " إتصبح بالخير يا معلم شوادفى !".

ثم جلس أمامه . كان شوادفى يمروح على نار القوالح تحت كوز الشاى بطرف سرواله وفى نفس الوقت يطرح فى فمه لقيمات مجهولة الهوية يسحبها من جواره فى دروة الحائط . قال من خلال حنكه المشغول المضموم :

– " نهارك سعيد يا أبو هوانة ! حماتك تحبك !".

فرفع الراعى لبدته وأخذ من تحتها علبة دخانه الصفيح ففتحها فأخرج منها ورقة سوليفان صغيرة مطوية على قطعة أفيون كحبة الفول ؛ نزع بظفره حرفا قدمه نحو فم شوادفى . فنطف هذا أصبعيه وأخذ القطعة فألصقها بظفر إبهامه حتى ينتهى من الأكل ، وكان الشيخ زينهم قد وصل إليهما باسم الوجه مركزا بصره على ظفر الراعى والورقة السوليفان مرددا فى عشم كبير :

– "صباحنا نادى بإذن الله !".

فلحق به ظفر الراعى وقد ظلله حرف الأفيون . فمد الشيخ زينهم بوزه وأطبق بشفتيه على الظفر ومصه ثم تركه وصار يتلمظ هاتفا فيما يجلس على طرف المصطبة :

- " وفّر شايك يا شوادفى ! أن الشاى قادم من عندى حالا ! بسرعة يا أولادا".

هكذا صاح موليا وجهه نحو الفناء . فشخط فيه شوادفى :

- " لمّ نفسك يا زينهم !".

صاح الشيخ زينهم فى اتجاه حجرته :

- " خلاص يا أولاد بلاش !".

ومد يده ليأخذ الكوبة من شوادفى . قال الراعى وهو يواصل الرشف بلذة عتيقة أريبة :

- " كيف الحال هذه الجمعه يا عم الشيخ زينهم ؟!".

- " بركة ربنا كثيرة !".

- " أطلّ طلّة ؟!".

- " وجب !".

تقدم نحو حجرته وهو يتنحنح بشكل مبالغ فيه . دلف:

- " صباح الخير يا أم أحمد !".

- " يسعد صباحك ربنا !".

هكذا ردت رحاب من وقفتها المنزوية فى ركن قصى . أرسل الراعى نظراته إلى الركن الذى يقوم فيه حبل الخبز الناشف ، صار يمسحه بنظرات فاحصة مدققة ، من أسفل إلى أعلى ومن يمين إلى شمال ، ويعوج رأسه ليختبر الأركان وعمق بنيانها ، يكاد يحسب عدد الرصات المتداخلة المشابكة رغيفا رغيفا ؛ ثم استدار نحو الشيخ زينهم ما سحا براحة يده :

- " صل على النبى ياعم الشيخ زينهم !".

- " عليه الصلاة والسلام !".

- " زده صلاةا".

- " اللهم صل وسلم وبارك عليه !".

- " دفعت لك عشر برايز !".

- " قلب نظرك جيدا قبل أن تتكلم !".

- " قلبت بما فيه الكفاية !".

- "تبقى ظلمتني وظلمت هؤلاء الغلابة الشقيانين! هذا عرق أيام طويلة أنا وأولادى في عز الحر من كفر إلى كفر ومن دار أبيعه بعشر برايز ؟! لو كنت سارقة ما رضيت بهذا السعر ! خذه وقد وصل ثمنه أما أن تتمطع وتقول عشر برايز فهذا حرام عليك والله ! حرام عليك يا رجل !".

طوح الراعى ذراعيه فى الهواء بحركة فنجرة :

- " أخذت العشرة واثنتين ؟!".

- " أركب القطار السريع حتى تحصلنى !".

- " العشرة وخمسة ولا مليم بعدها !".

وشفع قوله بالتحرك نحو الباب فى تباطؤ واضح . فشجعه الشيخ زينهم على الإسراع فى الإنصراف ليوحى إليه إن الموافقة على هذا السعر مستحيلة ؛ بقوله :

- " أقعد أشرب الشاى !".

- " تشكر تشكر !".

ومضى يجر نفسه ببطء ولامبالاه ، والشيخ زينهم فى أعقابه يردد فى ثقة مطمئنة البال :

- " مع السلامة ! شرفت يابو هوانة !".

وإذ أوشك الراعى على الخروج من البوابة تلقفه شوادفى :

- " تعالى يا أبو هوانة !".

فارتد الراعى على الفور ؛ ثم جلس :

- " نعم !".

- " أنسيت أن الشاى ثلاثة أدوار يا عرباوى يا أهبل ؟ شربت منها دورا واحدا! تظنها وكالة من غير بواب تدخلها وتخرج منها على هواك ؟! خذ !".

تناول الراعى كوبة الشاى ضاحكا :

- " كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته !".

- " ولكن كيف تخرج وأنت غير مرضى ؟ أنت قلت له كم ؟".

- " ماية وخمسين قرشا ! ماهية رجل متعلم فى الشهر !".

– " وكم تريد أنت يا زينهم ؟!".
– " ستين بريزة !!".
وحدد ذلك الرقم بأصبعه المشرعة في الهواء . هتف الراعي في استهوال :
– " أشترى بها أردبا من الشعير والفول !".
– " عدم المؤاخذة هذا أحسن من أردبين من الشعير والفول ! غنمك تأكل طول أكثر من شهر ! هذا علف أصلى ! قمح مخلوط بعضه باللبن وبعضه بالردة ! أنت تعرف ما أقول !".
وختم الشيخ زينهم قولته بنظرة حاسمة واثقة . فتدخل شوادفى لينهى المسألة :
– " صلى على من لن تراه فى حياتك أنت وهو !!".
– " اللهم صل عليك يانبى !".
هكذا نطق الإثنان . قال شوادفى للراعى :
– " نقسم البلد بلدين! إدفع له ثلاثين بريزة !".
– " كثير والله ياعم شوادفى !".
– " صدقنى أنت الكسبان ! لاتضيع البيعة ! إن العيش الذى ستأخذه يزن أكثر من أردبين من الدقيق العلامة ! أنا أبل الرغيف منه وآكله كأنه القشدة ! سوف تبيّض فروة خرفانك تصبح كالحرير !".
– " أخذت العشرين بريزة يا عم الشيخ زينهم وأمرى لله ؟!".
– " يفتح الل ه!".
– " خلها خمسا وعشرين يا أبا هوانة ! إياك أن تفتح فمك !".
– " أمرك يا عم شوادفى ! هاك المبلغ !".
وسحب من سيالته منديلا محلاويا ، فلك عقدة فى طرفه فانفرطت لفة من النقود متكورة فى بعضها . سحب منها جنيهين ونصف ، رمى بهما فى حجر الشيخ زينهم ؛ الذى تردد قليلا ، فأسكتته نظرة حازمة من شوادفى ؛ فقبض على النقود فدسها فى جيبه :
– " تعالى شيل يا عم !".

نهض الراعى فسلم على شوادفى بيد مضمومة على بريـزة فضيـة ، ثـم مضـى . وفتش الشيخ زينهم فى سيالته عن بريـزة فضيـة فوجـد شـلنين قدمهمـا لشـوادفى ؛ وفتح علبة دخانة وراح يلف سيجارة ؛ ما كاد يتمها حتى دخل الراعى معه صبيـين شديدين يحملان حوالين كبيرين مطويـن علـى حوالـين أصغريـن . دخلـت الأحولـة فارغة وخرجت ملأنة لأكثر من ستة أدوار علـى امتـداد أكـثر مـن سـاعة . وكـان الشيخ زينهم يراقبهم فى شئ قليل من الحنق لشعوره بأنه قد غُبن لأنه لم يقدر حجم الثروة عنده جيدا ، لكنه كان يشيِّع الأحولة الخارجة بابتسـامة لزجـة مـرددا بلهجـة ذات معنى :

– " خير وبركة ! خير وبركة ! كل شئ نصيب ! هنيئا وشفاء للغنـم ! مطـرح ما يسرى يمرى !".

بعد قليل خرجت دميانة مرتدية ثوبا أسود شفافا يكشف عـن ثـوب تحتـه فـاتح اللون ؛ ووجهها يلمع تحت المنديل أبو أويـة وترتـر ، والطرحـة منزاحـة إلى مؤخـرة رأسها منطرحة على كتفيها ؛ فيما تمسك بمقود القـرد الصغـير الـذى راح يتسـحب حواليها ويتنطط ظنا منه أنه امتلك الحرية فيجذبه الجنزير بقسوة فيردعـه منزويـا فـى ظل ثوبها . رمت صباح الخير ثم انزلقت من البوابة ؛ فغمغم شوادفى :

– " تعب القرد يا ولداه !".

علق زينهم :

– " حبال الكحل تفنيها المراود !".

تبعتها قطيطة حاملة على رأسها قفصا ملأنا بالدجاج . ثم ظهر فى الفنـاء قادمـا من جهة الطلمبة شاب طويل القامة نحيف يرتدى سروالا ملطخا بالبوية وفانلة بغـير أكمام ؛ وعضلات زنديه تلمع تحت نقط مـن العـرق . كـان متجهـا إلى البواكـى ، حيث انعطف على حجرة الشيخ زينهم فصعد السلم القائم بجوارها إلى الحجرة التى فوقها ، فعالج قفل بابه ففتحه ودخل . غمغم الشيخ زينهم :

– " أبو فُرشه لم يخلص بعد ؟!".

- " خلصت روحه ! طول الليل يشتغل فى غنيمة السوق الفائت ! هو الوحيد الذى أصبحت أتهدد من وجوده فى الوكالة ! يعرضنى للخطر بالأونطة ! أن لم يعتدل معى اليوم فسأسلمه بيدى للبوليس ولكن بعيداً عن الوكالة!".

خرج الشاب من حجرته حاملا علبة البوية الجديدة من سلكها المقوس ؛ هبط السلم فى قفزتين ، إتجه نحو الطلمبة ، إنعطف يساراً فى كوعه حادة ، إختفى . ذهب عقلى وراءه ، صممت ان أتبعه ولكن بطريقة خفية . سحبت الفوطة بسرعة واندفعت خارجا نحو الطلمبة . همست بصباح الخير رافعا يدى غير عابئ بالرد . إنعطفت بسرعة مثلما انعطف الشاب . قادتنى العطفة إلى عطفة أخرى عكسية ، ووجدت فى مواجهتى بوابة صغيرة لمبنى شبه مستقل عن الوكالة مع أنه من ضمنها؛ مكون من طابقين بعدة شبابيك ومشربيات . كانت البوابة مواربة . ملت برأسى ونظرت فى الداخل ، فإذا بى أمام يشبه الإسطبل أو الحظيرة الواسعة له باب مطل على شارع خلفى نافذ فى قلب السوق مباشرة ، وباب آخر فى جدار جانبى يفتح على المزارع البعيدة . رأيت مجموعة أبقار وجواميس وحمير مربوطة فى أوتاد أمام مزاود مليئة ببقايا الخبز الناشف لا شك أنه من خبز الشيخ زينهم . كان الشاب أبو فرشه منهمكا فى تقليب البوية ، على وجهه نظرة اشمئزاز من رائحتها النفاذة ، وقد راح يضيف إليها بعض سوائل يقلبها فيها ثم يعود فيشمها ، أخيرا وقف ، أمسك بالفرشاة المبططة التى تستخدم فى دهن الأبواب والنوافذ إتجه إلى حمار منفصل خلف الباب يظهر منه عجزه . كان لون الحمار أبيض كالقطن ؛ ما إن اقترب منه الشاب حتى جفل ونفر مغيرا وقفته مثيراً ضجة نافحا بمنخرية ؛ فإذا برقبته ورأسه ونصفه الأعلى الأمامى كله أسود قاتم . أمسك الشاب برقبة الحمار فلواها فاعتدل الحمار كما كان ؛ فراح يغمس الفرشاة فى علبة البوية ويدهن بها جسد الحمار تاركا الفرشاة تروح وتجئ على جسد الحمار فى نعومة وسيولة ليلتحم الأسود وتخف المساحات البيضاء شيئا فشيئا . ألقيت نظرة سريعة على الأبقار والجواميس فلاحظت أن معظمها مبرقش بالألوان الزاهية ، فالبقرة الحمراء يوجد على رأسها ورقبتها شرائح بيضاء . وأما الحمير فقد كان بعضها يلمع ومن الواضح أن البوية لم تجف بعد تماماً ؛ وأنها بعد قليل ستتمرغ فى الروث والتراب فيزداد لونها قتامة .

أيقنت في الحال أن كل هذه الحمير والأبقار مسروقة ؛ فانسحبت على أطراف أصابع قدمي عائدا بظهري إلى الطلمبة حيث أدرتها بهدوء وبصوت خافت لأتمكن من متابعة شوادفي وزينهم اللذين ارتفع صوتهما فجأة وسط موجة من الضحك العميق دلالة الإبتهاج الحقيقي كان زينهم يرد خلال ضحكاته المكتومة كأنه سيلفظ أنفاسه بعد برهة :

– " أعرف أنك مفترى كبير ! أنت متخصص في بيع البهائم المسروقة لنفس أصحابها المخروب بيوتهم !! والله إني لأخاف أن تبيعنا ذات يوم واحداً واحداً ! تبيعنا لأنفسنا !!".

يرد شوادفي بجدية هائلة واثقة :

– " إطمئن ! لن أفعل هذه الخيبة أبدا ! لأنني لن أجد من يشتري التخين فيكم بمليم أحمر ! لكن لأجل الصراحة أنا بذات نفسي مستعد لأن أدفع مال الدنيا كلها في المحروسة ابنتك الكبرى أمينة ! هذه هي الجوهرة الوحيدة في وكالتي !! أما بقيتكم فلا يليق بهم إلا صفيحة الزبالة أو كوم السباخ !!".

إنطلق صوت ضراط قوى لكنه منغم ومكتوم كأنه جملة موسيقية طويلة معزوفة بمهارة وحرفنة . فشخط شوادفي بصوت متجهم جدا :

– " قم داهية تقرفك ! هذا عرق الناس وشقاؤهم تنّن في بطنك !! لو كان من عرقك وشقاك لجاء عطِر الرائحة !! منذ متى لم تشخ على روحك ؟!".

حزق الشيخ زينهم حزقة مسموعة اختتمت بجملة قصيرة من ضراط خاطف ؛ أتبعها بقوله :

– " منذ رأيتك! ".

بغيظ هازل كهين قال شوادفي :

– " يومنا فل بإذن الله ! بدأناه بالضراط النتن فلعله ينتهي بالخراء المعطر ! قم الآن فاصلح الفال ودحرج لنا زبونا أو زبونين ! في الضحى سنفتح الباب المطل على الخلاء ويستطيع أى زبون أن يدخل ليتفرج ويجس على كيفه !".

في احتجاج جاد قال زينهم :

- " أتعب روحى والمعلم نائم فى حضـن الجارية ؟ فليقم يهز لحمه ويشوف شغله! أتعب روحى لماذا ؟ لكى يغمزنى بثمن ورقة دخان ؟ بنـاقص ! أشبه نفسى بالمجان ؟! المعلم رمضان عريجة زمانه باع البيعة كلها فى زحمة الليل دون أن نشعر !! ".

- " لا ! هو تصرف فى شغل وداد الغازية فحسب ! ثلاث حتت جاءت عن طريقها من حوالى شهر ! وليلة أمس جاءنى ناس من أصحاب هذه الحتت ! إتفقوا على المبيت وفتحوا السيرة معى : سرقت مواشيهم قبل شهرين من قلب غيطانهم والشمس طالعة فلفوا أسواق البلاد بحثا عنها وأخيرا جاءوا لسوقنا لعلهم يتعرفون عليها !! سألونى بحكم احتكاكى بسوق كبير كالوكالة إن كنت سمعت شيئا عن حادثة كهذه ؟ وأظهروا استعدادهم لدفع حلوان لمن يدلهم ! أنكرت معرفتى بأى شئ لكننى فى الليل أرسلت لهم رمضان عريجة ليقلبهم وينهى الأمر معهم ! قبل الفجر كان الملعون قد قبض الحلوان بالفعل وأوصاهم بالعودة إلى بلدتهم لأنهم فى الضحى يجدون مواشيهم مربوطة فى نفس المكان الذى سرقت منه !! وهو الأن ليس نائما فى حضن الجارية يا مغفل ! هو الآن يراقب صبيانه وهم يعودون بالمواشى إلى أماكنه !!".

سمعت صوت طقطقة ركب الشيخ زينهم أثناء وقوفه :

- " توكلنا على الله !".

لحظتئذ مررت بهما فى الإتجاه إلى حجرتى . إرتديت ثيابى وخرجت دونما هدف محدد . عليكم السلام ورحمة الله وبركاته خرجت من حنك شوادفى مملوءة بالإحترام ؛ أبدا أبدا ليس فيها رائحة التريقة أو رائحة الشر ؛ مماطمأننى بعض الشئ وألقى الرعب فى قلبى فى نفس الوقت .

رسول من جهنم

جبهتني ضجة السوق وزحمته الكثيفة البهيجة ، وكنت قادما من وسط المدينة بعد تصعلك شريد استمر طوال الليل سأماً من جو الحجرة المقبض في الوكالة تحت ثقل التوجس من شوادفي ومن غمزاته المدببة المؤلمة . كنا في الضحى ولم أكن راغبا في دخول الوكالة رغم أوبتي إليها شكل تلقائي لم أكن قصدته . إنعطفت يمينا نحو المزارع البعيدة . السوق كبير جدا ولا تبدو له نهاية ؛ فروشات متجاوزة : حبوب وقصب واقمشة وخضروات وطيور وأشياء لاتخطر على البال . كتل مكتظة متلاحمة متداخلة ؛ بين البائع والبائع أكثر من بائع ، وحول كل بائع زحامات عديدة . إنها حيل الباعة الخبيثة المجربة ، فمشتر الأقمشة سينتهز الفرصة ويشترى لوازمه من البائع المجاور له مباشرة ؛ واذ يرى صانع الخواتم بجواره سيتشجع على صنع خاتم له ؛ وسيبة الجزار يتحلقها باعة البصل والجرجير والطماطم . وهناك على مشارف البصر البعيد جدا سوق خاص بالماشية والأغنام والحمير له سور سلكي شائك وحراس وأصحاب الأرض يجمعون الأرضية من شاغليها كل حسب المساحة التى يشغلها ؛ يضج بالحركة ؛ تصل رائحة روثه النفاذة إلى مساحات شاسعة تذكر الأنوف برائحة الحليب والقشدة والسمن واللحم المسلوق . إنعطفت ثانية مع جدار الوكالة، ثم إلى عطفة ثالثة نحو بوز البناية التى تبدو مستقلة عن الوكالة مع أنها من ضمنها. ها أنذا الآن أمام بابها الخارجي الذى رأيته من الداخلن بوابة ثقيلة مصمتة غائصة في منحدر من الأرض ؛ البوابة صارت ملتحمة بطين الأرض الصلب . هذه البناية إذن - فيما بدا لى الآن - كانت حظيرة الدواب التى يجيء بها المسافرون الذين ينزلون للمبيت فى الوكالة فى عصرها الذهبى لحضور هذا السوق ؛ إنها إذن لعمارة كبيرة ليس فى مُكنة عصرنا إنجاز مثلها على هذا النحو الدقيق المتين الجميل برغم جور الزمان ؛ حقاً إنه لمن المؤسف والمضحك أن مثل هذه العمارة التاريخية الضخمة تؤول فى العصور الحقيرة إلى ملكية خاصة يترأسها واحد كشوادفي يحكم فيها بأمره يحولها إلى مباءة فسق إلى دولاب يصب المال فى يديه . أخيرا وصلت إلى نهاية الجدار ، حيث يطل دولاب الآخر طريق زراعى ضيق يخترق ساحة السوق يشطرها

يتحول إلى جزء من مباهج السوق بتسهيل أعماله . بوابة ضخمة جدا ، مغلقة من الداخل بدرفيل من الحديد الصلب السميك ..

عبرت الطريق الزراعي إلى الشطر الاخر للسوق ، حيث يترامى فى نهايته سوق المواشي . لمحت أحمد بن الشيخ زينهم وأخه العتريس واقفين على جنب الطريق أمام قفة مغطاة بخرقة خلقة ، ثم مالبث الشيخ زينهم العتريس أن ظهر أمام فرش أحد الباعة يلقى تعويذته المعتادة التى لها فعل السحر فى قلوب الباعة الغرباء وبالذات ، أولئك الذين يستدرون الفأل الحسن ولو بغالى الثمن . نفحه أحدهم ملء قبضة اليدين من بلح العجوة فى ورقة جرنان ؛ ونفحه أخر قرشا ؛ ثم توقف أمام سيبة الجزار فاردا حِجره ؛ فألقي فيه الجزار بأشياء غريبة : بجموعة مواسير مكسرة ، وبقايا عفشة الذبيحة كالفشة والمصران والطحال ونثارات من الدماغ كان من المفروض أن يرمي بها للكلاب المقعية على مقربة منه تزوم بشراسة ويأس فيما تصب النظرات النارية على الشيخ زينهم . بعض الكلاب راح يتمسح فيه يتملقه ظنا منه أن الشيخ زينهم يحملها لمثله .

وقفت أتفرج على بائع الطرح والمناديل والغوايش الملونة من النايلون ، تتحلقه طوائف من النساء والصبايا والأطفال . لصقه مباشرة سوق القماشين : صف طويل أشبه بالمخيم من تعريشات على هيئة دكاكين أو عشش صغيرة من قماش الخيم مشدود على اعمدة وقواطع من الحديد والخشب مغروزة فى الأرض . ما إن توقفت أمامه حتى لمحت محمد أبو سن منهمكا وحده فى إعادة ترتيب الأثواب فى سرعة وخمة . السلام عليكم ؛ فانعقد لسانه من هول المفاجأة . إعتدل مسلما عليَّ بحرارة، ثم سحبنى إلى الداخل . هل أنت وحدك هنا ؟ هكذا سألته . فقال إنه دائما يطلع الأسواق وحده وهذا أسوأ ما فى الأمر ..

- " ليتنى عرفت إذن لجئتك من الفجر !".
- " تتسمَّر إذن وساعدنى ! ووراءك شيء ؟".
- " لا !".
- " على خيرة الله ! خلك معى !".

أخذت الزبائن تهل وتتكاثر ، لأن محمد بدأ يتفرغ لها بكامل انتباهه . ليس هناك زبون يقف أمام محمد أبو سن ويمشي دون أن يشترى حتى لو كان غير راغب في الشراء حتى ولو كانت نقوده ناقصة فإنه على مقاس النقود تدور المفاوضات . لست أدرى ما هو السحر الخاص الذى يجعل أبا سن يضع الزبون فى الحال في حال المشترى الجاد في الشراء ، يحكم حوله الحصار يجعل الشراء رغبة حقيقية عند الزبون العابر . إنعكس هذا على ، فصرت كالنحلة صاعدا هابطاً بالأثواب وفردها وعرضها فيما هو مندمج فى المفاوضات حول نوعيه الأصواف والتيال والحرير مستهدفا مبيعات كبيرة ، وإلى أن ينتهى من القياس والقص واللف والحسب أنصرف إلى بيع الأشياء الصغيرة والدقيقة وما أكثر زبائنها : الطرح والمناديل والأزرار وشلل الخيوط الملونة وما إلى ذلك ..

– " يوه ! بسم الله الرحمن الرحيم ! أهو أنت ؟ إزيك !".

رفعت عينى عن ثوب الحبر ذى اللون الأسود الشفاف . إلتهمتنى فوهتان مفتوحتان كجورتى نار فى قلب اللهب فى كل منهما دويرة فحم صغيرة . أعينان هاتان ام جناحا طائر مفزع من طيور جهنم ؟ الكحل زاعق على الشطآن كرماد تطرده الحرائق في العينين الطافحتين بلون سماوى مشوب بلون الشفق ؛ الإحمرار في العينين انعكاس لحمرة خديها الأسيلين . يا الهى ما هذا الجمال الوحشى ! أهى عروس النيل أم الجنيَّة النداهة ! الوشم نقطة صغيرة خضراء فى منصف ذقنها ، والمنديل أبو أويه المشغول بالفل والترتر يحيط جبينها الوردى كاشفا عن شريحة من الشعر الضارب إلى البنى اللامع ؛ الحنك واسع والسن باسم وبين السن والسن فراغ لطيف ؛ الشفتان مكتنزتان كحبتى فراولة ناضجتين ؛ القوام فارع ، والجسم ممتلئ فى غير ترهل ؛ كل شئ فى جسدها مغر بوضوح قاطع ، الثديان والجذع والأرداف المخروطية كل ذلك مجسد تحت ثوب أبيض تحت ثوب أحمر من الأسود الشفاف ذى كورنيش فى الذيل . على صدرها عقد من حبات العقيق الحر ، وفى الأذنين قرط من الذهب على شكل مخرطة الملوخية ؛ فى المعصمين مجموعة من الأساور مكتومة الشخللة لاحتوائهما معصمين بضين ويدين كالقشطة الطازجة . صرت أنظر إليها مبهوتا وقد خيل لى أنها من عالم الحواديث اللذيذة جاءت فى مهمة

عاجلة . أخيرا قلت بريق جاف ، محاولا تقليد محمد أبو سن باستعارة لهجته المرنة الفياضة بالدفء الصادق :

- " أأمرى ياستى !".

إنحنت نظراتها قليلا فغمرتنى فانحنيت بدورى من تقل الكهرباء اللآفحة . رفعت بصرى ثانية فرأيتها تبتسم فيما تشير إلى أثواب الحَبر :

- " فرجنى على هذا الثوب !".

نزعت الثوب من وسط الرصّات وجئت به إلى البنك ، فردته بطريقة الباعة المحترفين . قالت فى صوت جاد يخلو من أى شبهة :

- " بكم الطرحة منه ؟".

وكان أبوسن منهمكا فى تدوين حسبة على لوح من الورق المقوى الذى تلتف حوله أثواب القماش ، فرد عليها بسرعة من خلال اشتغاله فى الحسبة :

- " بثمانين قرشا ياست الكل ! ولأجل خاطر عيونك بخمسة وسبعين فقط ! نقطع واحدة أو اثنتين ؟!".

حولت نظرها إليه فبدت كحوراء ساحرة :

- " كنت أطلب واحدة ولكن لذوقك أطلب اثنتين ! واحدة لى وواحدة لجدتى!".

فى لذة فائقة شرعت أقيس بالمتر؛ كل طرحة مترين ونصف ، وقبل أن أقطع بالمقص نظرت إليها محركا أصبعي عن العلامة بضع قراريط . فابتسمت ، ودبت يدها فى صدرها فأخرجت " بُكًّا " صغيرا من الجلد الأسود ، فتحته فالتقطت منه بضعة أوراق مالية متكورة . دفعت الثمن فيما رحت ألف الطرحتين فى ورقة مطبوع عليها اسم المحل ، لفه اسطوانية محكمة . فلما ناولتها اللفة قالت فى همس :

- " عرفتك وأنت لم تعرفنى ! إننا جيران ! أنا فى البيت أحييك من البلكونة ! وجدتى فى الحجرة التى أمامك خبط لزق ! فوق حجرة قطيطة !".

غاضت الدماء فى عروقى ؛ خفت أن تستطرد فى الكلام عن الوكالة أمام أبى سن ؛ مددت يدى فسلمت عليها بحرارة :

- " أهلا وسهلا ! فرصة سعيدة ! مع السلامة !".

- " ما اسم الكريم ؟!".
- " فلان !".
- " وأنا وداد ! وحدتى اسمها الشامية قوت القلوب ! إذا قابلت أحدا يحب كتابة اسمه على زنده أو رسم سبع على يده أو صدره فهاته لها ! إنها لا أخت لها في شغل الوشم !!".
- " ان شاء الله !".

فاستدارت منصرفة كالفهد ، ليظهر فى أسفل ساقيها تحت كورنيش الثوب ، وفوق كعبين كريالين من الفضة ، يلتف على خنقة القدمين خلخالان رفيعين من الفضة بشخاليل تصنع مع طرقعات الشبشب إيقاعا طروبا معجبانيا . شيعها محمد أبو سن بنظرة من تحت حاجبيه الثقيلين كالتندة ثم لكزنى هامسا :
- " ما هذه ؟!".

قلت له إننى أسكن فى حجرة فى بيت فى حى شبرا دمنهور بمائة وخمسين قرشا فى الشهر وإن هذه المرأة فيما يبدو جارة لى. سألنى كيف لم أعرفها ! فأجبته بأننى لا أعود إلى حجرتى إلا فى عز الليل حتى لا يرانى صاحب الحجرة فيطالبنى بشهور مستحقة له عندى . لوى شفتيه فى اشمئزاز .
- " عدت إلى الحوارى مرة أخرى ؟!".

ثم شوح فى لا مبالاه وأسف ، وأضاف :
- " لا يهمك على كل حال ! كله يتدبر بإذن الل ه! لوكنت أعرف من قبل أنك ملحلح فى الشغل هكذا لشغلتك معى ! نحن فيها على كل حال ! تشتغل معى فترة بعد الظهر من الخامسة حتى العاشرة مساء ! وتطلع معى الأسواق ثلاثة أيام فى السبوع !".

كدت أطير من الفرح ، لدرجة أننى لم أعلق بحرف ، إكتفيت بهز الرأس دليلا على الموافقة بامتنان ، لأنه فى الواقع لم يكن يسألنى الموافقة إنما كان يقرر ما يثق أنه سينفذ حرفيا . ثم بدا كأنه تذكر شيئا مهما ، فسألنى فجأة :
- " لماذ لم تحضر فرح بدرية ؟".

فكأنه قبض على قلبى بكماشة حديدية وجذبه نحوه ، فتهاويت مرتكنا على البنك :

- " دخلت بدرية بالفعل ؟!".

- " كان فرحا كبيرا ! الدنيا كلها حضرت ! الشارع كله سهر حتى الصباح ! كان السرادق فى قلب الحارة بطول الحارة ! ومسرح وعوالم وعزائم ! وسافر العروسان إلىٰ راس البر لقضاء شهر العسل ! بلدتكم بحالها جاءت وملأت شارعنا بالفلاحين وبنادق الرش !!".

تكدرت كدرا شديدا ؛ طويت رأسى على راحة يدى :

- "لم أعلم بموعد الفرح لأنى لم أرهم ! ربنا يسعدها !".

- " طيبة وغلبانة هذه البنت ! كل الشارع يحبها ! جميع بنات الشارع رقصن أمامها ! إتضح أن العريس يمت إليكم بصلة نسب ! إنه من قرية العفيفى جنب قريتكم مباشرة ! وهو أخ عزيز لنا من مدة كبيرة ! عريس يستاهلها ! أطيب من عرفت فى حياتى !

- " الحمد لله! هذا ما أتهمناه !".

فنظر فى ساعته وقال :

- " وجب الغداء !".

وسحب من تحت البنك عامود الحلل الصغيرة الملتبسة فى بعضها بمشكاك ؛ فكها ؛ فإذا هى تحوى فاصوليا وملوخية باللحم وأرز وطرشى ؛ واشترينا أربع أرغفة من السوق . بعد الأكل بقليل دخل الحانوتى بمقهاه المتنقل فصب لنا الشاى . ما أن لمحنى حتى كاد يقع مغشيا عليه :

- " أتعرفان بعضكما ؟!".

- " طبعا ! إننا أصدقاء !".

- " الحمد لله !".

لم يزد ، فاسترحت . وحين عبث محمد ببعض القروش لكى يحاسبه قبض الحانوتى على يده فى احتجاج :

– " لا تفعل ! الشاى هذه المرة تحية من عنـدى ! قسـما بـا لله مـا يتبعنـى مليـم واحد !".

ثم أخذ الكوبتين الفارغتين ومضى ، فحمدت الله أن لسـانه لم ينزلق إلى ذكـر الوكالة ، ونويت حين ألقاه أن أنبهه إلى هذا الأمر . ثـم بـدأت حركـة البيـع تخف شيئا فشيئا ، فخف محمد إلى سجادة الصـلاة فصلى العصـر . وبعـد ختـام الصـلاة أعطى إشارة البدء فى التشطيب ؛ حسـب تقـوده بالورقـة والقلـم ؛ ونفحنـى ثلاثـة جنيهات قائلا :

– " سدد ديونك ودبر حالك حتى تقبض بعـد شـهر ونصـف ! هـذا المبلـغ لـن أحاسبك على نصفه لأنه من مال الله الذى ائتمننى عليه لمثـل هـذا الغـرض ! اللهـم اجعل لنا ولا تجعل علينا !".

ماكدنا ننتهى من تربيط الأثواب فـى بعضهـا ووضـع الرفـايع فـى صنـاديق مـن الكرتون نربطها بخيوط وحبال ، حتى سمعنا قرقعة العربة الكـارو يجرهـا حصانـان ، وهى تزحف ثم تتوقف أمامنا ، يهبط منها عربجـى عجـوز ملتـح وفـى جبينـه زبيبـة الصلاة :

– " تأخرت عليك أربع دقائق !".

– " جئت فى موعدك على كل حال !".

صرنا نرفع اللفات والأربطة والصناديق لنعدلها على ظهر العربجى ؛ الذى يمضى بها ليضعها فوق العربة ؛ حتى إذا ما انتهينا صرنا ننظر فى الأرض حوالينا بحثـا عـن شئ نكون قد نسيناه ، وتحسس محمد جيوبه فاطمأن على المحفظة والمفاتيح ، ونادى الخفير فسلمه التعريشة بينكها . ثم صعدنا إلى العربة فجلسنا فوق الكراتـين ، وشـد العربجى سُرع الحصان قـائلا : " شـى.. ى.. ى " فمضـت العربـة تقعقـع وتهزنـا . مررنا بباب أسطبل الوكالة فكان مفتوحا وخاليا تمامـا ، وعلـى بابـه يتنـاحر الشـيخ زينهم مع رجل معلم نظيف الثياب فارع الطـول نحيـف البـدن أسمـر الوجـه صلـب الملامح يتحرك بكتف مائلة قليلا ؛ رجحت أن يكون هـو رمضـان عريجـة . وحـين وصلنا إلى دكان محمد فى شارع السوسى وجدنا الشارع ساكنا وخاليا تقريبـا مـن زحامه المعتاد ، فتذكرت أن الحركة كلها تنتقل فى هذا اليوم إلى السوق . كان ابن

أخت محمد أبو سن قد فتح الدكان فهرع يساعدنا في إنزال البضائع حيث صار العربجي يدخل بها إلى مخزن داخلي فيتركها برباطها انتظاراً للسوق القادم بعد يومين في بلدة أخرى ..

مكثت في الدكان قليلا ثم قفلت عائدا إلى الوكالة مفعما بمشاعر كثيرة بهيجة مونقة . بقلب واثق جلست إلى شوادفي وسألته :

- " تسألني في كم يا عم شوادفي ؟".

تمهل قليلا ، ونظر لي نظرة سريعة خاطفة تعبيرا عن المفاجأة وبلهجة واثقة :

- " لاشيء ! هل طالبتك ؟! أسأت إليك في شيء ؟! دعها على الله يـا أخانـا ! الحكومة تقع كثيرا في العذر والفلس ! ".

- " اليوم أكرمني الله ! لا أحب الدين ! يقلقني يطير النوم من عيني ! فكم لك عندي ؟!".

تفكر قليلا رافعا وجهه نحو السقف :

- "حسبة بسيطة لا تستأهل القلق !".

- " كم يعني ؟!".

- " خلها الآن ! إصرف مامعك وأنا أصبر !".

- " لا أستطيع الصرف وأنا مدين بمليم واحد !".

على مهل برم سيجارة وأشعلها :

- " إذن فهات خمسة جنيهات ويبقى عليك عدد الليالي التي مرت من هذا الشهر !".

- " هاك جنيهين ! وبعد أيام قليلة أعطيك جنيها فجنيها فجنيها إلى أن أتمكن من الدفع مقدما !".

دس الجنيهين في جيبه ، وأسرعت أنا إلى حجرتي فدونت الحساب والتاريخ ، وتمددت على المصطبة مفعما بالأمل المتجدد ، كأنني في انتظار آلاف الشياء الجميلة حان موعد قدومها الآن .

الجـذوة والـريـح

جو الوكالة فى العصارى لا مثيل لـه ، حيث يتحـول الفنـاء الواسـع إلى مخـزن للشمس يغترف منها النهار وقود ضوئه وحرارته ؛ وكلما أمعـن فـى المسـير شـحت عليه الشـمس بنفسـها واختبـأت منه فـى الأركـان والزوايا تستقبل وفـود الريـاح المتدافعة من كل مكان إلى الفناء الذى يغربلها يحللها يصيرها بحراً من الرطوبة العذبة المنعشة . ففى مثل هذه اللحظات من نهـارات الخريـف تفتـح جميـع الحجـرات فـى الوكالة فى الطابقين أبوابها ، وتفتح كذلك الأنصـاف العليـا لجميـع النوافـذ المطلـة على الشارع أو الخلاء الفسيح . فى مثل هذه اللحظات مـا بـين أذان العصـر وأذان المغرب يكون المعلمين قد صحوا من نومة القيلولـة وغسـلوا وجوههـم بكأسـين مـن الخمر الرخيص أو حجرين من الحشيش وعدساية أفيون ثم أكلوا شـيئاً خفيفـاً علـى سبيل التصبيرة ؛ ويكون معظم الصبيـان ، أو العـدة ، السـارحين قـد أتـوا بجبوريـن وانضموا إلى القعدات ليبعثوا فيها الصهللة تمهيداً لإتمام عمليـة التحاسـب فـى منـاخ ومزاج ملائمين ، تجنباً لأى مشاكل أو صدامات . عشرون حجرة فى الطابقين كل حجرة تحوى أسرة ، وجميع هذه الأسر تربطهم صلة أقـوى مـن صلـة الرحـم ، هـى صلة البحث عن القرش بحيل جهنمية بعيداً عن أساليب العنف والخشونة ؛ إذ هاهنـا يتم تصنيع الحيل التى تبطل مفعـول القـانون وتلتـف حولـه تحاصره ترتكـب أبشـع الجرائم فى ظله . هم الآن فى أسعد لحظاتهم ، يعكس الفناء كل ما يـدور فـى كـل الحجرات مـردد إلى جـانب الروائـح أصـداء كركـرة الجـوز وقـرع الكئـوس ورنـين الضحكات وجلجلة أصوات الحريم وفحيح الأنفاس وبوادر صرخات نزقة مكتومة، وصوت أم كلثوم يردح فى قاع بعيد جداً : يـا.. ظـالمنى . كـل ذلـك مـع سـحب الدخان المصبوغة بلون السماء يصنع خيمة من الأمن والسلام المنهلين ، كـأن هـذه الكائنات كلها مجرد أجنة تتقلب فى الرحم .. هكذا خيل لى وأنا فى جلسـتى هـذه البديعة الممتعة فى حجرتى ، كأننى بهذه الجلسة قـد وصلـت لأول مـرة حيـاتى إلى لحظة الإنفراد الحقيقية الآمنة المفعمة بهدىء للأعصاب جميل . فمنذ أن اشتريت هـذا الكرسي المصنوع مـن قصـب المـامبو اكتشـف هـذه القعـدة خاصـة فـى العصـارى

لاستقبال الأصيل بدماغ موزونة : أضع الكرسى فى مدخل بباب حجرتى ؛ أمدد ساقى أسندها على حافة حائط البواكى ؛ أتكئ بمرفقى على تكأتى الكرسى لأستغرق فى القراءة أو السرحان فى كل المتاهات اللذيذة ومسالك الغموض الساحرة . مبعث الإطمئنان والسحر والأمان الثقة فى لقمة مستقرة فى البطن أو فى متناول اليد ، وعلبة سجائر وكوب شاى ومخدع لا يتهدده العراء ..

إلا أننى سرعان ما اكتشفت أن لذة الجلوس فى هذا المكان فى هذه اللحظات مصحوبة دائماً بلفت رقبتى إلى اليسار ، لتتمكن عينى من عبور الفناء صاعدة إلى تلك الزاوية التى يصنعها جدار الوكالة مع شرفة منزل مواجه للوكالة يفصل بينه وبين الوكالة شارع لكنه مع ذلك يبدو لى من جلستى هذه كأنه جزء من حدود الوكالة .كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفاً تتأبط شرفتين متجاورتين فوق شرفتين متجاورتين . عينى على الشرفة العلوية التى يظهر نصفها فحسب ، ويظهر من فيها كأنه مقبل من ممر فى الوكالة نفسها ، حيث تظهر جنية الحواديت ذات الجمال الوحشى الشرس أصيل كل يوم لتجلس فى هذا الركن بالذات فى مواجهتى تماماً ، واضعة كذلك ساقاً على ساق ، تشد الأنفاس الكثيفة كأعتى الرجال الكييفة ، حتى إذا ما احترق تبغ الحجر رفعته فدلقت ناره فى منقد لاشك أمامها ، متناولة حجراً غيره فتضعه على النارجيلة وترص النار فوقه بالماشة فى صبر وأناة ومزاج رائق . تظل هكذا حتى يرتفع أذان العشاء، فتختفى تماماً من الشرفة ، فيستبد بى الشوق لمعرفة ماذا يدور داخل هذه الشقة ؛ لكنها تظهر من جديد فى وسط السهرة قرب منتصف الليل ، على ضوء فانوس شاحب فى أعلى عامود النور فى الشارع فى كوعة ذراع الوكالة ، مرتدية قميص نوم من الساتان البنفسجى الفاتح بكمين ناقصين قبل الرسغين بمسافة الأساور ؛ مطلقة جدائل شعرها الضارب إلى الشقرة تنطرح على ظهرها متحررة إلا من منديل أحمر من الحرير يلمه من فوق الرأس فحسب ؛ وتستأنف شرب الأنفاس من النارجيلة لتختلط سحب الدخان الأزرق بكحل عينيها الواسعتين كعينين فى برج الحمام ..

تلك هى وداد الغازية ، التى عرفتنى بنفسها فى السوق فى دكانة محمد أبو سن يوم اشترت منى طرحتين لها وجدتها قوت القلوب الشامية الوشامة البارعة . عرفت

من الوكالة أنها راقصة ، لكنني لم أعرف كيف أبدأها بالكلام لتقوم الصلة الحقيقية بيننا ، فحين تلتقي نظراتنا أبتسم فتبتسم ؛ ولا شيء غير ذلك . ومع اهتمامي بأخبارها فكل ما استطعت معرفته عنها أن جدتها قوت القلوب الشامية – أم أمها – هي التي تسكن في هذه الحجرة المقابلة لحجرتي تماماً فوق حجرة قطيطة ، وأنها هي وقطيطة أقدم سكان الوكالة من عهد ما قبل شوادفي بزمن طويل ؛ وقد شهدت حجرتها هذه رواجاً كبيراً في جميع أيام الأسواق حيث يتراكم الزبائن من كل القرى لدق السباع والتحلات والأسماء على ظهور أيديهم وزنودهم وصدورهم وظهورهم ، ودق العصافير في الفوديين ؛ إلا أن صناعة دق الوشم بدأت تصاب بالكساد منذ انتشر التعليم وأصبح معظم أبناء القرى يتحرجون من شُبة دق العصافير كعلامة على التخلف والهبل . بل نشأت مهنة جديدة يحترفها بعض حلاقي الصحة تتخصص في إزالة الوشم بواسطة ماء النار وأصبح الموشومون يرحبون بعملها وإن خلقت مكان الوشم تسلخاً جيرياً دميماً. أما وداد نفسها فقد سمعت أنها نادراً ما ترقص في الأفراح ، ولعلهم قصدوا أنها غازية في سلوكها وحركاتها بعد أن هجرت الأفراح أو هجرتها الأفراح ، فإن لاحظ شوادفي أنك متلهف للحديث عنها شوح قائلا :

– " مالناش دعوة ! فضنا من هذه السيرة أحسن !!"..

ولم يكن من السهل على أن أفعل ذلك ؛ فهذه الفرس الهيفاء تخاطبني بلغة خفية لا أستطيع تجاهلها . لقد باتت تقض مضجعي وبت أحسها في فراشي كل ليلة بمختلف الحيل الخيالية ..

واليوم كنت قد شرعت أستقر في جلستي وأستعد لتصعيد البصر إلى شرفتها ، حينما رأيتها فجأة مقبلة نحوي من حجرة جدتها قوت القلوب ؛ بلحمها ودمها ، ترتدي ثوباً من الشيت المشجر بالأخضر والأحمر . كانت أعضاء جسمها تكاد تخرج من أفلاكها عارية ؛ فرغم أن الثوب ليس محزقاً إلا أن الجسد كان يحتوي الثوب أشد مما يحتويه الثوب ؛ ولم تفلح الطرحة السوداء المطروحة على رأسها وكتفيها في تخفيف حدة الإحمرار المشع من سمتها . وحين تذكرت أنها حلبية اشتعل خيالي بالجموح والعاطفة السخنة والإستعداد للمغامرة ؛ تذكرت أيضاً حبل

الدروز جبل السويداء ؛ تذكرت اختلاط دم الروم بدم الغساسنة في الأرض وفي العروق وفي العقول فازداد خيالي المكبوت اشتعالا وازدادت أعصابي حمية . لحظتها كانت قد هبطت السلم وعبرت باب حجرة قطيطة واستدارت خارجة من البكية لتواجهني ؛ عيناها تربعتا فوقي ، فيما هي تدلف من البكية فصار بينها وبيني اتساع الفناء إعتراني ارتباك شديد ، كالفار تخدره نظرة القط فتسمره في مكانه حائراً سجيناً حتى ينقض عليه القط فيفترسه بكل بساطة . هذا قد حدث ، إنقضت على بالفعل ، أطبقت على رأسي بفكي عينيها صارت تشيلني وتحطني على الكرسي تهدهدني تطوحني يمينا وشمالا . كانت رائحة الصابون المعطر برائحة جسدها الأنوثي برائحة اللبانة التي تطرقع تحت فكيها قد صيرتني سمكة ضالة في قلب موج هادر غير ذى خطر . صرت أصعد فوق موج الإنفعال اللذيذ نحو هبوط قوى يدفعني إلى صعود موجة أعلى توشك أن تلقي برأسي بين هذين الثديين الطليقين تحت الثوب كقبضتي عجين مبططين قليلا بحلمتين مدببتين أكاد أرى فوقهما تجاعيد الكلف خلل الثوب . كنت ممسكاً بكتاب لعله ألف ليلة وليلة ، وبسيجارة ملفوفة مخلوطة بالحشيش ، وتحت قاعدة الكرسي كوب شاى نسيته حتى ابترد بلفح الرياح. تتسع المسافات بين أسنانها المفردة الناصعة البياض ، تتسع المسافة الحمراء بين فكيها ؛ وقد شمل السكون كل شئ فلم أعد أسمع سوى دقات قلبي تترجمها طرقعات اللبانة . كانت قد ارتفعت سور البكية فانعجن الثديان وانطرد تكورهما خارج فتحة الصدر كفوران الحليب يرتفع إلى أعلى الرقبة ليصطدم بالرموش المشرعة كشوك الحلفاء فيهبط سائلا على النحر مختلطاً باللهب الأحمر. قالت بجرأة منهلة :

– " ممكن ؟! ".

وأشارت إلى السيجارة بين أصبعي باصبعيها القابضين على سيجارة وهمية . سرعان ما فهمت طلبها ؛ فتبعثرت أعصابي ؛ دفعت نفسي معتدلا فوق الكرسي :

– " طبعاً ! السيجارة وصاحبها تحت أمرك !".

ثم نزلت عن الكرسي وقمت ذاهباً إليها بالسيجارة مع أنني لو مددت ذراعي لكان فيه الكفاية . على أنها تجاهلت غمزتي التي زلف بها لساني عفو الخاطر ؛

وأمسكت بالسيجارة وجذبت منها عدة أنفاس متلاحقة عميقة ، تاركة الدخان يندفع من متحريها ؛ ثم أعادت لى السيجارة :

- " بكم تشترى هذه التعميرة ؟!"..

قلت كأننى حريف فى الشراء مع أننى نادراً ما أشتريه لدرجة أننى قد لا أعرف سعره الحقيقى :

- " واحد صاحبى يشترى لى ربع القرش بسبعة قروش ونصف !"..

عقدت حاجبيها دهشة ، وازداد وجهها احمراراً ، وساح الكحل فى بحيرتى عينيها :

- " يضحك عليك صاحبك ! يخمك ! إن عوزت تشترى قل لى وأنا أشترى لك معى ! القرش كله بعشرين قرشاً وأحياناً بثلاثة شلنات ! أنا أشترى من امرأة بتبيع لى بسعر الجملة ولا تنتظر من ورائى مكسباً !!"..

قلت فى الحال دون تبصر :

- " إذن فهاتى لى قرشاً معك !"

- " هات عشرين قرشاً !"

تورطت . لم يطل ترددى ، دخلت الحجرة بحماسة فانتزعت من لحمى عشرين قرشاً بكيتها فى صمت بكاءً حاراً وحاولت استحضار صورة قرش الحشيش ككمية تملأ العين وتكفى تموين شهر على الرائق ؛ لكن ذلك لم يخفف من التياعى للفراق بينى وبين بريزتين من الفضة تركتهما فى راحة يد وداد البضة كقالب من الزبد . ولكى أخفف شعورى بالأسى قلت :

- " أوصيك بجودة الصنف وعدل الميزان !"..

- " سنذوقه معاً فإن لم يعجبك نرده لأصحابه !"..

- " فمتى يتم ذلك ؟"..

- " تعال اشرب معى الشاى فى بيتى بعد صلاة العشاء !! سألبس الآن وانزل البلد وأعود قرب العشاء ! سأظهر فى البلكونة عندما أجئ.. فتجئ !" ..

كاد قلبى يتفتت من الفرح :

- " وهو كذلك ! إلى اللقاء !"..

إعتدلت هي مبتسمة ثم مقهقهة بصوت رنان :

- " تكلمنى بالنحوى ؟!"..

ومضت تتبختر فـى خطـو الواثقـة مـن أن الأرض لا تحمـل مـن طرازهـا سـ القليل. وحينما حاذت شوادفى عند البوابة حيته :

- " سالخير ياراجل ياللى عامل زى قرد قطع !"..

كان مستغرقاً فى سنة من النوم ، فاعتدل فى رقدته معطياً ظهره للحـائط د ذراعه تحت رأسه :

- " ياليتنى كنت قرداً! فمثلك لا ينفعه إلا قرد عجوز مثلى !"..

فألقت إليه بضحكة رنت على أرض البوابة كبمـب الأطفـال وتهمشـت ـ جذعها الصلب كالقضيب .

حبـل من مَسَـــدْ

ظهر طيفها في الشرفة عقب أذان العشاء مباشرة ، فكأن الكون كلـه قـد أضـئ فجأة ، إذ أن الكون كله لحظتئذ كان منحصراً في هذه المساحة التي تحتلهـا الشـرفة في هذا المنزل البادي كأن الوكالة تمد ذراعاً معقوفاً يتأبط شيئاً . شعرت بطيفها قبل ظهوره ، فرغم بعد المسافة واللغط المرتفع حوالى أكاد أجزم أني سمعت حفيف ثوبها وشخللة الأساور فـي معصميهـا والخلاليـل فـي قدميهـا . كـانت تريـد أن تشعرني بحضورها ، فارتفقت إفريز الشرفة وأرسلت عينيها إلى باب حجرتي وظلـت هكـذا برهة طويلة رغم أنني – محتجباً في صدغ الباب عن شوادفي – أومـأت لها برأسـي وبيدي بأني قد رأيتها . ثم استدرت أبحث عن ثوب ملائم أرتديه . لأول مرة أراني أجابه مثل هذا الموقف ، وأقف عاجزاً مبتئساً أمام سوء مستوى ثيـابي بوجـه عـام ، فشعرت شعوراً حاداً بالضيق . على أن هذا الشعور سرعان ما انجاب مخلفـاً شـعوراً مضاداً بالرغبة في تحدي الثياب . هكـذا تعمـدت الخـروج فـي اقـل مظهـر ممكـن . خرجت بنفس الجلباب والشبشب الزنوبة ؛ أغلقت الباب ومضيت ..

مسيت على شوادفي ، الذي كان منهمكاً في فتـل الحبـال مـن ليـف النخيـل . فرفع بصره نحوي باسما وبدون مناسبة واضحة قال :

– " في جيدها حبل من مسد ! أنت يا أخانا تعلمت في المـدارس فهـل عرفـت حبل المسد ؟! أدفع رهاناً كبيراً إن كنت تعرفه !!"..

وفي الحق لم أكن عرفتـه ؛ فشـعرت بـالحقد علـى نفسـي ؛ ورأيت أن العقـاب الرادع لنفسي هو التسليم بعدم معرفتي بدلاً مـن المكـابرة بـالجهل . حينئـذ ضحـك بصوت عال كزئير أسد هائج :

– " المسد يا أخانا هو هذا الذي في يدي الآن ! هذا الحبل الذي أفتله من ليـف النخل هو الحبل من مسد !"..

فرحت جداً لاكتشاف هذا المعنى؛ لكنني قلت محاولاً الإنتقام لكبريائي الجريح:

– " ولكن ما مناسبة هذا الآن ؟!"..

بحلق في عيني ببريق مخيف :

– " مثل هذا الحبل ستراه معلقاً فى رقبة صاحبتك !!"..

إرتخت أعصابى فى بسمة شاحبة :

– " صاحبتى من ؟!"..

– " تلك التى أنت ذاهب إليها الآن !!"..

مضطراً ضحكت ضحكت ساذجة ؛ كأنى أقول له آه يا عفريت ؛ ورأيت أن من الأوفق عدم اللف أو الدوران لأن كل شئ فى الواقع يتم تحت سمعه وبصره ، وليس من العقل محاولة استغفاله بأى شكل :

– " هى ليست صاحبتى ولا حاجة ! إننى كلفتها بطلب وهى التى عرضت على ذلك ! وما ذهابى الان إليها إلا للإتيان بهذا الطلب !"..

قاطعنى ملوحاً بأصابع كالمسامير الحدادى :

– " طبعاً طبعاً ! ذهابك لن يزيد عن هذا بأى حال من الأحوال ! أعرف هذا يا أخانا وأثق منه ثقتى بأنك واقف أمامى ! إنما أردت أن ألقى إليك بنكتة لعلها تنعشك وأنت ذاهب ! أقصد وأنت عائد !!"..

– " بصراحة أنا لم أفهم هذه النكتة ياعم شوادفى ! إعتبرنى غبياً واشرحها لى هى الأخرى ! "..

– " ألم تأخذ فى المدرسة قرآناً يقول : وأمرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ؟!"..

– " تقصد سورة المسد : بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبى لهب وتبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ! صدق الله العظيم "..

– " هو ذاك ! فما معنى جيدها ؟!"..

– " يعنى منطقة الرقبة والعنق !"..

– " صاحبتك هذه يا أخانا شبيهة بحمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد !! وطرف الحبل فى يد مجهولة لا يعرفها أحد ! معنى كلامى إنها مقيدة فى رقبتها بحبل خشن !!"..

– " ولكننى... "..

- " إتكل على الله يا أخانا ! ربنا معك ! وقلبى هو الاخر معك ! أتمنى لك سهرة سعيدة ! إدع لى وأنت تستمع !!"..

إحتزت البوابة شاعراً بكثير من الإحباط وكثير من البواخ كأنى أمام طبخة دسمة لسعتها النار فشاطت فتعين على أن أرمى بكل تكاليفها فى صفيحة القمامة . إلا أن هذا الذى حدث قد بدد إرتعابى من المغامرة ؛ وبدلاً من الرعشة والإضطراب تشجعت على الإقدام كالذى كان ذاهباً تحت جنح الظلام ليغتنم فإذا بالضوء يغمر الطريق فجأة فإذا هو يعتدل فى مشيته ويواصل سيره كأى شخص عادى لا ينتوى شيئاً . هكذا لم يعنينى أن يرانى أحد وأنا أدخل منزل وداد الغازية فى مثل هذا الوقت من الليل فيما هى فيه وحدها بغير رجل سواى . إنتابنى شعور من اللامبالاة كأننى ذاهب لزيارة مريض فى المستشفى ..

ما كادت تفتح لى الباب حتى تدفقت موجات عطرها قوية عالية داهمة تكاد تطوينى فى دوامة سحيقة الغور . يدها البضة الناعمة الرخصة أطبقت على يدى ؛ جذبتنى إلى الداخل فى ترحيب رحولى خشن غير متسق عليها على الإطلاق : " تفضل ! يا مرحباً "، وانغلق الباب . ردهة مربعة كالعلبة ، تزدان حوائطها بصور لفريد الطرش وأسمهان ومحمد فوزى وليلى مراد وليلى فوزى وسامية جمال وتحية كاريوكا وهند رستم وشكرى سرحان وكمال الشناوى منزوعة من مجلات الكواكب والصباح وآخر ساعة . على الأرض كرسيان وكنبة على الطراز السيوطى مع طقطوقة . الخشب كالح ولكن الفرشة نظيفة مزوقة بمفارش ملونة . على الحائط الأيمن رف خشبى تحت صورة يوسف وهبى ، عليه راديو كبير ماركة فيليبس ، وتحت قرب الأرض صورة لأمينة رزق بين صورتين لصباح وشادية . بدت هذه الردهة كأنها هى الشقة ؛ وبدت حميمة ، يمكن المكث فيها طويلا ..

- " تحب الجلوس هنا أم فى البلكونة ؟! راحتك ! "..
- " كما تحبين ! إن كان هناك داع للجلوس !"..
- " أنا عزمتك على الشاى ولا أرجع فى كلمتى !"..
- " نجلس حيث توجد الشيشة فأنا كييف معسل !"..

أشارت بيدها من فوق كتفها أن اتبعني ؛ ومضت تتبختر أمامي . تبعتها وقد ركبت عيني فوق قبتين ضاحتين بالحياة وبالجاذبية . ممر ضيق ؛ على اليمين مطبخ ضيق تجاوره دورة مياة ضيقة . في مواجهتها حجرة صغيرة فيها سرير نحاسي بعمدان ذى ناموسية من الساتان الخفيف البمبي ؛ وبوريه بمجموعة أدراج مستطيلة فوق بعضها بمقابض نحاسية لامعة ، وكرسي من الخيزران ، ومشجب مدقوق في الحائط تتدلى منه قمصان نوم وفساتين . ثمة باب صغير مجاور للبوريه يفضي إلى حجرة ثانية كالخزنة لها باب ثان يطل على الممر . في هذه الحجرة في الصدارة سرير سفرى صغير . آه ياربي ؛ توقفت مرتعداً في رعشة شملتني من قدمي إلى رأسي . إعتراني ما يعترى إنساناً فوجئ بأنه داخل قفص حديدى مغلق أمام كلب مسعور أو أسد غضوب . كأن أمامي وحش بهيئة إنسانية ، عبارة عن عينين واسعتين جداً ، تبخان لهباً وبريقاً من عمق لا قرار وله نهاية ؛ يلتف حول العينين وجه كالشهد المصفى ، بجدائل شعر كستنائي محلول كحزم متطايرة تخفي رأساً دقيقاً ، برقبة مستطيلة كجذع شجرة حديثة الغرس ؛ وبدت عروق العنق المتصلة بالكتفين والصدر كجذور ضاربة في جسد هزيل ، كتفان عريضان يسندان صدراً ناهداً منفلقاً ؛ وذراعان طويلان بيدين سرحتين ، ينتهي الصدر إلى خصر شديد الضمور كأنها مجرد رسم كاريكاتورى ؛ يتزايد الضمور حتى ينتهي بقدمين دقيقتين كقدمي طفل وليد ، وليس من ساقين على الإطلاق ؛ أى أن هذا الجسد البالغ الجمال لا يمكن له الوقوف أو الحركة ؛ كما أنه بلا عقل على الإطلاق ، إذ راح هذا الوجه يتلفت حواليه في انبهار بنظرة جامدة كنظرة العروس البلاستيك ، والذراعان تشوحان في حركة عشوائية نزقة ..

كانت وداد قد وقفت على عتبة الشرفة وقد انفرطت ملامح وجهها في ابتسامة شاحبة حزينة :

– " مالك تسمرت ؟! اصفر وجهك ! تعال ! يظهر أنك ضعيف القلب ! كان الله في عوني !! "..

انتبهت إلى وداد وهي تخطو نحوى بسرعة ثم تمسكنى من يدى برفق لتمنعنى من الترنح ؛ ثم سحبتنى بهدوء إلى الشرفة . أجلستنى فى نفس الركن الذى تجلس هى فيه فإذا برأسى تحت مستوى جدار الشرفة . قالت كأنها تواصل حديثاً سابقاً :

- " إنها ابنتى رغدة ! عندها شلل أطفال ! في يوم من الأيام وهي طفلة عمرها أربع سنوات أصابتها سخونة شديدة ! وكان ورائى مشوار أكل عيش فتركتها مع جدتها فتركتها ونامت ، مسكينة الأخرى ! مسافة ما عدت من المشوار حملتها كالجمرة الوالعة جريت بها إلى الحكيم في مستشفى الحميات فانهال على سباً وشتماً وأوشك يطلب لى البوليس ! قال إننى أهملت البنت حتى احترق مخها !! يومها شخرت للدكتور الهجاص المخرف ! لكن المسكينة من يومها وهى تكبر وتكبر أما عقلها فيظل كما هو ! سنها الآن عشرون عاما وعقلها طفل رضيع ! لا تنطق ! إنما تصرخ وتزوم وتتأوه وتتوجع فأعرف من صوتها ما بها وأتصرف ! مسكينة ! ربنا يتولاها ويتولانى ! "..

تربعت أمامى فوق شلتة صغيرة ، تربيعتها تكاد تلتصق بقدمى . أمسكت براد الشاى ثم استدركت :

- " تأكل ؟ عندى سمك مشوى ! انا عزمتك على شاى ولكن يمكن أن نأكل معا عيشا وملحا ! " ..

ثم نهضت بخفة وحماسة ، واختفت فى المطبخ . عادت بعد قليل تحمل سفطا من الخوص عليه طبق فيه أربع سمكات مشويات مع رغيفين من الخبز الفلاحى الطرى. جلست واضعة السفط أمامنا ؛ فنزلت عن الكرسى وتربعت بجوارها فانزاحت هي قليلا لتوسع لى فصار نصفها في الشرفة ونصفها الآخر فى عتبة بابها. أكلت سمكة ونصف رغيف وعرقين من اللفت على سبيل الإرتباط بعيش وملح قد يوطد العلاقة الناشئة بيننا . كنت أشعر أن الطعام على تواضعه شهى جداً ؛ لكن منظر الملاك العاجز فى الحجرة صد نفسى عن الطعام وكاد يصد مزاجى عن الإندماج فى سهرة طيبة . إلا أننى حين شرعت أشرب الشاى تأكدت من أول رشفة أن وداد قد صبت لى فى كوبة ملوثة ببقايا أفيون كان مذابا فيها منذ قليل ،

فلابد إذن أنها تتعاطى افيون أيضاً ؛ أو لابد أن أحد الأفيونجية كان هو الآخر معزوماً على الشاى هنا قبل قليل . بحركة ماكرة سألتها :

- " أجد عندك أسبرينة ؟! "

قالت ببساطة مشرقة :

- " تأخذ سنة أفيون ؟ معى عدساية أعطتها لى صاحبتى أعالج بها الصداع فأخذت منها نملة ومعى بقيتها ! "..

ومدت ظفر إبهامها إلى الأسورة الذهبية فكشطت عنها نقطة سوداء كحبة الدنيبة ؛ قربتها من فمى ؛ فاطبقت بشفتى على إبهامها والتقطت القطعة بطرف لسانى . ثم إنها أعدت الحجارة ونظفتها وحشتها بالتبغ المعسل ماركة أبو غزالة من مصانع الحناوى :

- " أظنك تحب بأن نذوق التعميرة ! "..

- " طبعا ! أين هى ؟! "

دبت أصبعها فى التجويف الضيق بين الأساور ولحم معصمها ، فأنزلقت ورقة السلوفان المبرومة فى استطالة كقلم الشفايف ، قدمتها لى . أعجبنى منظرها وحجمها لأول وهلة . فتحتها ، ففاحت رائحة الحشيش الطازج كالعطر النشوان . حجم وصنف ممتازان ، هكذا قلت منلمظاً ؛ وجعلت أقتطع منها للتوقيع على الحجارة ، فشخللت الأساور فى يد تمتد نحوى لتوقفنى :

- " لحظة واحدة ! خذ واجبك الأول من عندى ! "..

وخلعت الخاتم من أصبعها ؛ ونزعت من تجويف الفص قطعة حشيش كالبلية ؛ جعلت تقتطع منها بأسنانها المفردة الناصعة البياض توقيعات عريضة ؛ مما أدهشنى وأخجلنى ، فمثل هذه التوقيعات العريضة لا تليق إلا بالمعلمين الكبار طالبى النفس السمين الكثيف ؛ ثم إننى سأبدو بخيلا تتنا حين أبدأ التوقيع كعادتى بالأحرف الأولى فحسب ، بتعميرة كقشرة اللب ؛ هذا إن استطعت أن أجاريها فى الشرب على هذا المستوى . وجدتنى أقول :

- " هذه تعميرة كبيرة ! أنت توقعين باسمك الثلاثى ؟! ".. ضحكت ضحكة أسيانه :

– " أنا أبصم وأنت الصادق ! هكذا تعودت ! لا أحب أن أبيت وفى يدى حشيش !! لابد للحشيش أن يحرق كله فى الحال ! أحسن مكان آمن تخزن فيه الحشيش هو رأسك ! وإذا امتلأ دماغك وفاض خزن فى أدمغة أصحابك فإنه يعود عليك بالإنبساط أيضا !!"..

وحين صار الطاقم الذى وقعته بإمضائى على وشك الإنتهاء كانت هذه المساحة الضيقة قد تحولت فى نظرى إلى جنة فيحاء مفعمة بهدوء الأعصاب والسلام والإطمئنان . كان شايا ثالثا أو رابعا قد نفذت رائحته فى خياشيمى مختلطة برائحة الفحم المحترق فأخذت تهدهد دماغى بملمس كملمس القطيفة . أمتدت الأساور قابضة على معصم يد نابض بالحيوية منتهياً بيد تغرى الأسنان بقضمها وقرقشتها كانت ممسكة بكوبة الشاى الساخن من أذنها . بإحدى يدى أمسكت الكوب فوضعته على الأرض ؛ وباليد الأخرى احتفظت بيدها ، وملست عليها برقة وحنان متهدجين منتفضين . سحبت يدها برفق شديد محمر الخدين من فرط الخجل ؛ فأغرانى ذلك فأطبقت بيدى الإثنين على يدها وصرت أضغط عليها ضغطا ساخنا ؛ فإذا بالغضب يبرق فى عينيها الواسعتين يذيب الكحل فى الجفون . خففت الضغط، فسحبت يدها قائلة فيما يشبه الإنذار الحاسم :

– " أنا عزمتك على الشاى فحسب ! ولكنى قدمت الأكل ليكون عيشا وملحا بيننا يستوجب الإحترام !! "..

فى قناة ظهرى تدحرجت حبات العرق ، وفاضت على جبينى :

– " متأسف ! ولكن أنا معذور ! لم أستطع الصبر !"..

حدقت فى عينى بعينين ثاقبتين باسمتين :

– " نفسك فىّ تزوجنى إذن على سنة الله ورسوله !!"..

فدارت بى الأرض . أفقت . أحسست بأنفاسى تتقطع وأنا أحاول الشرب بصورة عادية طبيعية أغطى بها مالحقنى من اضطراب شديد فقدت معه القدرة على الرد المناسب . كانت رأسى فارغة تماما من كل شئ لدرجة أخافتنى ، حاولت معرفة ما الذى يدور فيها الآن على وجه التحديد فلم أستطع الإمساك بأى شئ أزعم القول بأننى أفكر فيه . جاءنى صوتها مهيضاً بلا رنين . كانت الأساور

الذهبية قد هبطت قليلا فانحشرت فى سمانة الساعد ، وهى ترفع البراد بميل ليصب البزبوز خيط الشاى القرمزى الغامق فى الكوب ، لترتفع الرغوة فيه شيئاً فشيئاً كما يفعل بائع العرقسوس الحريف :

- " شفتك انكتمت ما أعطيت منطقا !! كلكم هكذا ! تفضلون سرقة الفواكه من فوق سور الحديقة على الماشى ! خاصة إذا كانت طابت ووقعت من أمها الشجرة على الأرض أو على حافة السور ! معطوبة كانت أو عجر أو حتى نتنة ! كله ماشى عندكم ! وياقادر يارب تحلو فى نظركم عن الفاكهة المعروضة فى فترينة الفكهانى لأنها مكلفة ! أنا انقرصت يا صاحبى انقرصت وانعضضت وانشرخت وانشرمت !! السبب طيبة قلبى ! ولا أشعر باللدغة إلا حينما يلهبنى السم !! هذه البنية المسكينة الراقدة الواقعة فى قرابيزى أبوها رماها فى بطنى وانشقت الأرض وابتلعته !! كان مداحا ! يحفظ الأشعار ويؤلف مثلها ، يسرح بحماره وأسرح معه أحيانا لنمدح النبى فى البلاد نتوقف أمام كل دار فنرجع آخر النهار مجبورين بخبز وغموس وقروش كثيرة من أمة محمد التى تحبه والتى هى دائما بخير !! كان من سكان الوكالة بجوار حجرة جدتى يوم تعرفت عليه وأنا صبية غريرة فأعجبنى شبابه وحلاوة لسانه وكلامه الكثير الحلو ! تزوجته قبل أن أعرف أى شئ عن ماضيه !! فلما اختفى وطالت غيبته قالوا : كان هاربا من ثأر ووقع فى يد عدوه !! وقالوا : كان هاربا من السجن المؤبد وأمسكوا به ورحلوه إلى طره !! كانت ابنته هذه على حجرى !! تزوجت مرة ومرتين وثلاثة وخمسة وعشرة !! كل زيجة لا تدوم أكثر من سنة بطلوع الروح ! أحعص واحد فيهم احتملته سنة وشهرين وكان أوطى شخص شفته فى حياتى !! كان يبيعنى فى السر للعمد والأعيان دون أشعر ليأكل الأفيون ويوقعنى فى المشاكل !! فلما علمت أوقعته فى شر أعماله بكمين حتى أمسكه البوليس فطلقنى غصبا عنه !! لم ينل أحد منى شيئا فى الحرام طول عمرى!! كل أزواجى كانوا لا يحتملوننى بسبب البنت التى تضايقهم بمنظرها وتأخذنى من أحضانهم فى الليل كى أسكتها عن البكاء وأنقلها لدورة المياة !! زوجى الأخير عرض على أن نرشو الطبيب ليعطيها حقنة تخلصنا منها ولذلك لم أرحمه !! لكننى مصممة الآن على أن من يرانى حلوة فى نظره عليه أن يتزوجنى على سنة الله

ورسوله وأن يتكفل بكل مصاريفي ومصاريف ابنتي من أكل وشرب وكسوة وعلاج !! إذا لم يعجبه الكحل فلا يتكحل! ونبقى مجرد أصحاب نخاف على بعضنا!!"..

مسحت عرقي بكم جلبابي :

- " عداك العيب ! من الآن أنا صديقك الوفي !"..

- "وأنا خادمتك في أي وقت ! حينما تريد حشيشا كهذا قل لي وأنا أقضيه لك وأنت جالس في مكانك كالباشا !! "..

كانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها ماشياً.

وكانت الساعة قد اقتربت من منتصف الليل حينما كنت خارجاً من بيتها ماشيا في الشارع وحدي أطارد ظلي المنطرح أمامي على الأرض في ضوء فانوس الشارع الهادئ الساكن سكونا شاحبا . خيل لي أنني مشيت دهرا طويلا نسيت خلاله كل شئ يتعلق بأي شئ ، لدرجة أنني فوجئت بباب الوكالة فكأنني كنت قطعت الصلة بها نهائيا ، بل إنها بدت شيئا غريبا بالنسبة لي ، وكأنني أدخلها لأول مرة في حياتي . وقد بدا ذلك هماً ثقيلا جدا على قلبي . مع ذلك طرقت الباب ثم دفعته ودخلت .

أسواق .. أسواق

قبيل انصرافي من الوكالة أوصاني محمد أبو سن بألا أتلكأ في العودة الى المنزل لأني يجب أن أنام مبكراً هذه الليلة لأصحو عند الفجر ، ففي الغد سنذهب الى سوق بلدة المحمودية مع البضاعة فوق العربة الكارو أم حصانين ، لنكون في قلب السوق في مطلع الشمس على أكثر تأخير ، حيث نفرش بقعة معينة من الأرض بالخيش والمشمع نرص فوقها أثواب القماش بجميع أنواعها ، ونتربع وسطها تحت مظلة عريضة من المشمع أيضاً وأمامنا طبلية واطئة أشبه بطاولة مستطيلية من الخشب تحجز بيننا وبين الزبائن .

في السوق يتركنا العربجي فيسرح في البلدة يتصيد نقلة أو نقلتين أو ثلاثة على الماشي ، ثم يعود الينا قبيل أذان العصر كي يعود بنا الى دمنهور ، ليجدنا قد ربطنا البضاعة في انتظاره ..

بحمد أبو سن يعرف أن كل بلدة مطلع سوقها ، فيها قماشيها الذين ربما لديهم نفس البضاعة بجميع أوصافها ، لكنه يعرف أيضاً أن البائع الزائر يغري دائماً ابداً أهل البلدة ، ولقد يملك من الصفات الحسنة والروح الطيبة والأمانة ما لا يملكه تاجر البلدة . مع ذلك لا يعتمد أبو سن على هذه الحقيقة المجردة وحدها ، انما يعتمد على الله أولاً وأخيراً ، ويؤمن بأن لكل مجتهد نصيب ، وأنه لو رزقه الله بمصاريف العربجي ومصاريفي فحسب فإنه بذلك يكون كسباناً للثواب . الا أنه كان يكسب أكثر من الثواب ، فلقد انحدر من عائلة كلها من تجار الأقمشة والمنسوجات القطنية بأنواعها ، وأحد أخواله صاحب مصنع كبير للفانلات والسراويل ، وخاله الآخر صاحب مصنع للفوط والبشاكير ولوازم التنجيد ، ناهيك عن محلاتهم ومعارضهم وعديد أنوالهم اليدوية العتيقة التي تخصصت في صنع أنواع من الأكلمة الرخيصة من بقايا قصاصات الخياطين .

أبو سن تبعاً لذلك خبير كبير في لمّ سوقه وتنويعه بأشياء تشيل بعضها بعضاً تعوض بعضها بعضا . هو يضمن – مثلاً – أن التواطي والسراويل والفانلات والمناديل المحلاوي وأدوات التنجيد وشوار العرائس والطرح السوداء وأقمشة

الملسات المكشكشة ، التي يجلبها من مصانع أخواله بسعر التكلفــة بهـا هـامش ربـح عريض يتحرك فيه براحتــه ، وكذلـك الغوايـش النـايلون والأزرار وكلفـة الفسـاتين والمناديل المشغولة بالفل والترتر ، كل ذلك يجد في الأرياف رواجاً كبيراً ، فيكثر منه ، مقلـلاً مـن الأصـواف والأجـواخ والأتيـال والحريـر الغـالي ، مكـثراً مـن الدمـــور والدبلان والشيت وقماش شهير بالحـاج عباس ، والبيـة الزرقـاء مـع رفـايع كثيرة كأربطة الأحذية وعلب الورنيش والشرابات والتلافيع والشباشب الزنوبة . اذافة الى ض١لك ، يلجأ الى طريقة جهنمية لا تخيب أبداً : فبـدلاً مـن أن يثقـل حملـه بثـوب كامل من جوخ العباءات أو الصوف الإنجليزي ، فإنه يقطع قماش عباءة أو عبـاءتين ، جلباب أو جلبابين ، يلف كل واحدة منهـا بعنايـة في ورق مصقـول ، يدفعهـا في البضاعة ، ودائماً أبداً يمر عليه من يقول له : " ألاقيش عندك جوخ عباية ؟!" ، فيهز رأسه في اعتذار وأسف كأن صاحبنا قد طلب المستحيل ، ثم يستوقفه بعد قليل مـن التردد المصطنع بحرفنة عالية ، وبضعة لطافة يلقي في روعه أن جوخ العبـاءات المعتـبر شاحح هذه الأيام ، وكأنه كتاجر أمين يخاف ربه لا يقبل المتاجرة في أنـواع الجـوخ الرديئة الموجودة بكثرة لدى البيـاعين ، انـه لا يرضـى بـإيذاء النـاس في مبلـغ يقصـم الظهر ، فالمرء لا يفصّل كل يـوم عبـاءة ، ولكـن يبـدو أنـك ابـن حـلال وفلوسـك طاهرة ، اذ عندي – بالصدفة – عباءة واحدة تدبرتهـا مـن السـوق السـوداء لرجـل أوصاني بها في السوق قبل الفائت لكنه لم يأتي حتى الآن ، فيبدو أنها مكتوبه لـك من نصيبك . يكون حينئذ قد نجح في اثارة فضول السـائل ، ثـم يمـد يـده فيسـحب اللفة المعني بها ، يفتحها برفق ، تفح رائحــة القمـاش الجديـد الثمـين حقـاً ، تسـكر الرجل قبل أن يمد أطراف أصابعه ليتحسس القماش ، يبدأ في السؤال عن الثمن وهو على استعداد لشيء من التضحيـة دون غضاضـة ، خاصـة أن أبـا سـن لـن يبـالغ في سعره بل سيقول أنه اشتراها بكذا ويطلب عرقه فيها كذا ، في العادة يخصم المشتري نسبة العرق هذه حتى يكون أبو سن قد أضافها على مكسبه خصيصاً لتكون موضع المساومة بعيداً عن السعر المحدد المقرر أن يقبضه ..

شغلة مرهقة بالنسبة لي ، أعود بعدها مفصـص الأعضـاء لكـن أبـو سـن يتكفـل بإزالة كل التعب عندما نرجع ونتعشى بالكباب وربمـا سـهرنا عنـد العليشـي لوقـت

متأخر من الليل يتجدد فيه نشاطنا بالأفكار لنيّرة والغريبة التي يلتقطها العليشـي مـن فتنة طـه حسـين الكبرى ومـن عبقريات العقـاد واعجـاز القـرآن لمصطفـى صـادق الرافعـي، مغطياً على أكفـار أبي حنطـور المنحصـرة في برهـان الزركشـي واتقـان السيوطي وفتاوي ابن تيمية . نرجع بعد ذلك الى البيت فننام كالقتلى مـا شـئنا مـن ساعات ، المهم أن أكون في الدكان عند آذان المغرب لأبقى حتى موعـد التشـطيب حيث يرجع ابن أخته الى منزله ليذاكر وينام مبكراً .

عفـريت أم وداد

فى تلك الليلة كنت أنوى الدخول إلى حجرتى مباشرة لكى أنام حتى الفجـر ؛ لكن الرغبة فى السهر عند وداد كانت تناوشنى بقوة وتشـد قدمـى إلى تجـاوز بوابـة الوكالة فى اتجاه منزل وداد . ثم خطر لى أنه من الأفضل مواصلة الطريق إليها حتـى لا يلحظ شوادفى . لقد أصبح وجه وداد الطافح بالأنوثـة الشـهية الطازجـة دائمـا ، ومجالستها بعض الوقت فى الشرفة فى ظل الأنفاس ذات الدخان الأزرق ، نوعا مـن الراحة أحلى وأفيد من التقلب فى الفراش الصلب ..

وهكذا مكثت عند وداد وقتا جميلا طال إلى قرب منتصـف الليـل ، هـدأت فيـه كل توتراتى ؛ إذ أن وداد باتت تألفنى، فلم تعد تضع بينى وبينها سدا قويا حاسمـا ، بل كانت تجتهد أن تكـون طبيعيـة وكنـت أجتهـد أن أكـون رجـلا ملتزمـا حـدود الأدب والنية الصافية غير الخبيثة ، ويبدو أنها بطول العشرة لمست أننى طرحت عـن نفسى فكرة النيل منها أو الطمع فيهـا . فكـانت تتجـاهل الأمـر إذا احتككـت بهـا عرضا وأنا مار بجوارها ؛ أو إذا فردت ركبتى فى قعدتـى فاسـتراحت علـى وركهـا قليلا ؛ بل لم تعد تمانع أن أحضنها وأقبلها بسرعة فى حرارة اللقاء أو عند الوداع ..

طعمها الأنثوى ذو الرائحة القريبة من رائحة لبن الأطفال ممزوجة برائحة العـرق والعطر الرخيص كان لا يزال فى خياشيمى ، حينما دفعت باب الوكالة ودخلـت . كان شوادفى لا يزال مقعيا على المصطبة يدخن بشراهة ، كتلة من الضباب الأسـود تبرق فى بقعة منها جمرة السيجارة : السلام عليكم؛ فرد بحماسة وترحـاب شديدين، وضغط على الزر بجواره فأضيئت اللمبة السهارى التى بالكاد ترسـم خطوطـا باهتـة على سبورة الظلام فى ساحة البوابة ، وكان نادرا ما يفعل مكتفيا بلمبة الجاز :

- " أهلا أهلا ! تعال ! ليلتك فل !"..

فعرفت أنه مؤرق أو فى انتظار رسالة من رسائله السرية الغامضة التى لاتنتهى ؛ اذ هو من مكانه فى جلسته هذه يشارك فى أعمال جسيمة تحدث فى بلدان أخـرى بعيدة ، وربما كان على اتصال خفى بها لحظة حدوثهـا دون أن يبرح مكانـه ، إنـه شيطان بكل معنى الكلمة ولابد أنه قادر علـى الحضـور فـى مكـانين متبـاعدين فـى

وقت واحد . لست رائقا هذه الليلة لكنى لا أجرؤ على إهمال دعوته ؛ لابد من تلبيتها ولو لدقائق على سبيل برو العتب ، فكسب وده خير من كسب عداوته التى لا قبل لى باحتمال بجرد وقوعها ..

جلست إلى جواره ؛ فمد يده فى الحال إلى منقد النار ، فكشف رداء الرماد عن خبيئة الجمر ، ووضع الشاى فوقه . شوحت بيدى فى احتجاج رقيق :

– " لا ! أعمل معروف أريد أنا أنام ولو ساعتين ! ورائى سوق بكرة ! بالمناسبة ياليتك تطرق بابى قبل الفجر بقليل !"..

حملق فى وجهى بعينين حادتين كعيون الذئاب :

– " وراءك سوق وتسهر عند حمالة الحطب ؟! سمعت خطوك مقبلاً من اتجاه بيتها ! خولنه ثم خولنه !! إطفح الشاى وغر من وجهى !!"..

– " تشكر !"..

– " لا شكر على واجب !!"..

– " تشكر أيضاً !"..

وهو يمروح على النار بذيل قميصه :

– " ما رأيك فى التعميرة التى تشتريها لك وداد ؟!"..

– " بريمو ! لم أشرب مثلها فى حياتى ! الوزن عال والصنف أعلى ! هل تعرف المرأة التى تشترى منها وداد ؟!"..

– " أعرف الرجل الذى يبيع لها بالجملة ! لكننى واقع معه هذه الأيام فى كلام وحديث ! مصيره يرجع لى فتدوق هذه التعميرة ذات الصيت الحسن !!..

– " وداد يمكن أن تشترى لك منها !" ..

– " وداد تشترى لصبى كحيان مثلك ! أما أنا فلى وضع آخر فى الصنف والوزن والكمية والسعر وكل شئ !! لكن البنت وداد جدعة على كل حال ! إنها كثيراً ما تدخل على بحجرين من هذه التعميرة ! أنا ياما دخلت عليها بحجارة وحجارة !"..

هكذا يجرنى للحديث عن وداد . فكرت فى التنكيل به وإيهامه بأننى قد نلت وطراً من وداد برغم يقينه بأننى لن أقدر . فى اللحظة التى شرعت فيها أتكلم

تخيلت شوادفي وهو يعاتبها على ما سمعه منى فتكـون الفضيحـة بجلاجـل وشـخاليل وطبل بلدى ؛ فانعقد لسانى فى الحال ؛ وأردت أن أعقده أكثر فقلت :

- " وداد ست طيبة فعلاً ! غلبانة ! كان الله فى عونها ! هى فى الحق شريفة ! أشهد بذلك أمام الله! وفعلا كما قلت لى اتضح أن فى رقبتها حبل من مسد !!"..

ثعلب ماكر شديد الدهاء مقع أمامى فى عينى شوادفى ، يتحفز للإنقضاض على دماغى فـى أية لحظـة مناسـبة . كـان يبتسـم ؛ وقـال بفحيـح يبعـث علـى الشـك والتوجس :

- " أنتما إذن متفقان ؟!"..

- " على ماذا يا ترى ؟!"..

- " هى الاخرى قالت لى إن وراءها مشوار بكرة !!"..

- " مشوار ؟!"..

- " لهذا طرقتك مبكراً !! كم الساعة الان ؟! "..

- " تزيد عن منتصف الليل !"..

- " هو هو هو.. و.. ه ! أنت نائم على روحك يا أخانا ! نحن مازلنا فى بدايـة السهرة ! موجز النباء كان يتكلم فى الراديو منذ دقائق !"..

ثم أخرج ساعته الكالحة المربوطة فـى فتلـة قيطـان فـى عـروة الصديـرى ؛ أزاح غطاءها وبحلق فيها على وهج السيجارة :

- " الساعة عشرة وربع !! "..

- " غريبة !!"..

تذكرت أننى كنت فى منزل وداد فى حوالى السابعة مساء . أعاد هو ساعته إلى جيبه وجعل يصب الشاى بمزاج رائق :

- " يا أخى هذه الدنيا غريبة ! تصور يا أخانا أن وداد هـذه تعيش نفس قصـة أمها ولكن بالمقلوب !! إحمد الله أنك لم تـر أمهـا وإلا كنـت اندلقـت علـى بـوزك وكلفتنا مشاكل عويصة !! كانت آيه فى الجمال يـا أخانـا ! لا قمـر ولا شمـس ولا نجوم تصلح لنشبهها بها !! كانت غجرية مـن حلـب ! أو لعلهـا بدويـة الله وحـده وأعلم ! لكنها كانت بارعة فى شوفان البخـت وقـراءة الفنجـان وعمليـات السـحر

والتبشبشة ! يركبها جن اسمه دقدش ! أول ما يركبها تندمج في التفقير ! أقصد في الذكر : الله حي ! الله حي ! تتطوح شمالا ويميناً وهي متربعة في قعدتها ! نصف ساعة ساعة ساعتين حتى تأخذها الجلالة فلا يقدر مخلوق أن يوقفها ! وإن حاول أحد ازدادت حرقتها وعلت صيحات الوجد ! وحين تنطق لفظ دقدش تعرف أن العفريت قد وصل وانتهى من الركوب وجلس يحادثها ! فتروح هي ترد عليه وتحدثه في أشياء غريبة ! عن مسروقات ! عن عيال تائهة ! عن زروع أتلفت ! عن محاصيل أحرقت ! عن قتيل راح غدراً وغيلة ! وترد على نفسها بردود أروبة خبيثة نفهم منها أن دقدش العفريت هو الذى يقول لها اختشى في المكان الفلاني ! إذهبي إلى السبيل العلاني زوري مقام الشيخ فلان إسألي عن الشيخ ترتان هاتي بيضة هدهد وجناح يمامة سوداء وحبة عين ثور مذبوح لتوه واعجني كل ذلك في عجينة ورشقيها بالدبابيس وارمى بها في البحر يصفو لك الجو ويظهر المرض والهزال على الفاعل الأصلي فينكشف أمره !! نصب في نصب طبعاً لكن الناس العبطاء كانوا يصدقونها يأتون لها من الأرياف فتنتهز أمها الفرصة وتدق لهم أوشام السباع والعصافير ! الله يرحمك يا صفية كانت كسيبة ولا أجدع الرجال ! يدها كانت طويلة ! مصاصة دم ! لكنها من الناحية التي بالك فيها كانت طاهرة ! لم يستطع مخلوق أن يعاشرها ! لا في الحرام ولا في الحلال ! وكان لى عليها الدلال فكنت أسألها بصريح العبارة : كيف يا امرأة تحرمين جسدك من متعة الدنيا ؟ فتقول إن الرجل إذا ركبها أذلها وأصبحت عبدة له مكسورة العين ! والرجل الذى تنكسر له عينها لم يخلق بعد !! أعرف رجالاً محترمين كانوا مستعدين للزواج منها على سنة الله ورسوله ! لكنها عاشت لإبنتها ولأمها ولذكرى زوجها الذى كان من كبار اللصوص الأشقياء في مصر وكان ويا للعجب شاعراً يسرح بالرباب بقصة أبى زيد والزناتي خليفة ! الناس في القرى يعزمون شاعر الرباب ليلة أو ليلتين أو جمعه بحالها آكلاً شارباً نائماً في نعيم حتى يخلص لهم أبا زيد من أسره ! أثناء ذلك يكون صاحبنا قد فلى الدار وعرف كل خرم إبرة فيها وكيف يدخل إليها ويخرج منها في أمان ؟ وما هى الحاجات التي ينشن عليها لسرقتها ؟ ثم يعود بعد ذلك لينفذ خطته بدون الرباب هذه المرة ! وحده أو بصحبة غيره حسب حجم الغنيمة ! بعدها بأيام

قليلة يرجع إلى نفس العائلة فى نفس البلدة حاملاً الرباب ! فـى السـهرة يستمع إلى أخبار المصيبة فيوصيهـم بالذهـاب إلى الشيخة صفيـة المكشوف عنهـا الحجـاب !! الشيخة صفية تتولاهم بحيلها تظـل بهـم حتـى توهمهـم أنهـا مـن الشـواهد عرفـت أشخاص الفاعلين !! تتوسط لهم في استرداد المسروقات ، تهبر حلوان كبـير بخـلاف أجرها الذي تأخذه بالطول وبالعرض !! الحجر الدائر لابد من لطّه كما يقول المثل! وما كل مرة تسلم الجرة كما علمونا في الكُتاب أهل زمان ! صاحبنا قفشه صـاحب الدار وهو يتسلق السور ليفتح الباب من الداخل كي يخرج بغنائه ! من هناك ؟ مـن هناك ؟ لم يثلثها ! طخه بالعيار فطب ساكتاً ! المرحومة صفيه كانت هـي العفريـت الذي يركب العفريت وليس يركبها العفريت ! لم يكن أحـد مـن ضحاياهـا يعـرف أنها زوجته لكنها ذهبت فاستلمت جثته على سبيل فعل الخير !! دفنتها هنا في مقابر الصدقة !! بدأت تشتغل وحدها ! فعشقها عمدة بلـدة قريبـة إسمها شـرنوب واسمـه شرنوبي !! وجهه أحمر وذو لغد في رقبته ويتنقل راكباً فرساً ويلعب بالفوس لعبـاً !! العمدة شرنوبي صرف على صفيه دم قلبه لكي تنام معـه ليلـة واحـدة فلـم ينلهـا !! طلبت منه الزواج على سنة الله ورسوله لكنه كـان يخشـى زوجتـه وألاده الكبـار ! طلب منها زواجاً عرفياً يداري به الفضيحة فلم تقبل ! لم يقطع الأمل فيها ! سـفّرها الى الحجاز فحجت بيت الله ! إشترى لها بحُرّ ماله هذا المنزل الـذي تسـكنه وداد !! اشترى الفستاين والأساور الذهب التي تتزين بها وداد!! كـان ينفـق عليهـا في الليلـة الواحدة خمسين جنيها في عز الرخص ! لا يؤكلها سوى الحمام والأرانب والدجـاج والرومي ! بدأ يبيع أرضه في السر لينفق عليها ! لم يكـن المسـكين يعـرف الكيـوف لكنها علمته التحشيش والأفينة وشرب الخمر كل ليلة ليظل في نشوة دائمة تفتح لـه الأمل في ليلة موعودة لم تجئ أبـداً !! لم يعـد لديـه شـيء يبيعـه حتـى الفـرس باعهـا واستبدلها بحمار مهزول من حمير السباخ ! وفي االنهاية لم يجد مفراً ممن قبول الـزواج منها على سنة الله ورسوله زواجاً رسمياً معلناً على يد المأذون ! لكن المسكين لم يهنأ بها ساعة واحدة اذ انشقت الأرض عن ابنه الكبير الذي كان يراقبه فاقتحم الحجـرة على العروسين وأفرغ فيهما خزنة المسـدس كلهـا !! تولـت الوشّـامة العجـوز تربيـة البنت وداد بنفس الطريقة التي ربت بها أمها ! غير أن وداد أطيـب قلبـاً مـن أمهـا !

ورثت قلب أبيها شاعر الرباب الـذي لم يكـن لـه في اللصوصية لـولا الملعونـة التي كـانت تدفعـه !! مـن السـهل الضحـك علـى وداد ولهـذا تعبـت كثـيراً في حياتهـــا وخسرت الجلد والسقط !! آه يا أخانا كم شهدت هذه الوكالـة مـن مـآس ؟ بعـدد طوب هذه الجدران يا أخانا ! دنيا دنية والزمن غدّار ! وفي قول آخر على رأي فقيـه المسجد : دنيا فُنية والزمن كبّاس !!" ..

وانفجر ضاحكاً بصوت وحشي . وكان النوم علـى وشـك أن يطـير مـن عيـني فدفعت نفسي واقفاً : " تصبح على خير " ، ومضيت مهرولاً الى حجرتـي وأصـداء ضحكته الوحشية ماتزال ترن في جنبات الفناء .

فى وضح النهار

فى فترة الضحى انتعش السوق بسرعة مضطردة . هجمت الزبائن من كل مكان . تفرغت أنا للرفايع الصغيرة من غوايش نايلون ومناديل وما إلى ذلك ، تفرغ محمد للمبيعات الثقيلة وقبض النقود ومراجعة الحساب بالقلم الكوبيا ينزعه من خلف أذنه ، على ورقة بحجم كف اليد من رزمة مشبوكة بمقبض ، ولا يرمى بأى ورقة بل يثبتها إلى الخلف حتى يتسنى لهه مراجعة كل حسابه آخر النهار بموجب هذه القصاصات التي لا يفهم تفاصيلها أحد سواه . فى حوالى الثانية بعد الظهر خف الزحام على الرفايع ، وقل عدد النساء والصبايا والولدان الصغار ، وزاد عدد الرجال طالبيى الفانلات والسراويل ومقاطع الأقمشة التى تروج بين عمال مصانع المحمودية ..

بدأت أجد متسعاً من الوقت للنظر فى زحمة السوق أمامى . السوق مقام على قطعة أرض من عدة أفدنة ، فى مساحة متاخمة للبلد قريبة من ترعة المحمودية ، يحيطها سور من الأسلاك الشائكة ، والباعة صفوف وأركان أركان ، تفصل بينها ممرات تتسع لمرور الناس والماشية والعربات الكارو وعربات اليد . صف القماشين يعطى ظهره للسلك الشائك من ناحية ويطل بوجهه على السلك الشائك من ناحية أخرى . من خلفنا البلدة بمطاحنها ومصانع الحلويات ، تحيط بظهرنا فى قوس ذى انبعاجات وبروزات وتعرجات ساذجة ومآذن ركيكة البنيان وشرفات بائسة ومداخن مسودة الهامات توحى بأن ثعابين ضخاماً تسكنها . على يميننا ترعة المحمودية التى تخترق مدينة دمنهور واصلة إلى الإسكندرية وما بعدها ، تبدو بعيدة جداً لا يظهر منها سوى مثلثات صغيرة جداً بيضاء ومرمدة ومتداخلة هى شواشى أشرعة المراكب الراسية على شاطئيها والزاحفة فى مياهها ، وتحمل إلينا الرياح الخفيفة رائحة زفارة السمك وزخم الصيادين وحعير عراكهم وغنائهم ودخان نيرانهم ، وكذلك تحمل إلينا وفودهم حاملة البلطى والقراميط فى سلال ندية شروات شروات تملأ العين بكثرتها بطزاجتها بانتفاضاتها برخص ثمنها ..

أمامنا الطريق الزراعي على مرمى حجر ، وعلى يسارنا مزارع خضراء وحمراء مترامية إلى ما لا نهاية . إشترى محمد أبو سن شروة سمك من على الطريق الزراعي، وتكفل بائعها بشويها . وجيء بالليمون والخبز والفجل والجرجير والطرشي وكل ذلك بالمجان من جيراننا الباعة . رحنا نأكل بشهية فائقة كأنها أكلة العمر . وفيما كنت أحمل لفة الجرنان المحتوية على بقايا الأكل لكى أرميها فى صندوق حديدى مثبت في السلك الشائك المطل على الطريق ، رأيت إمرأة غازية تركب حماراً ، مرتدية بذلة الرقص الخليعة الكاشفة لمفاتن الجسد وعريه ، ومن فوقها ملاءة تلفها نصف لفة . خلف الحمار يهرول طبال يحمل طبلته الدربكة تحت إبطه ، وحامل رق . الراقصة تطوح ساقيها فوق ظهر الحمار تستحثه على الإسراع فى السير . تذكرت صاحبتى وداد ، فابتسمت ، ظللت أتابعها حتى آبت إلى سحابة صغيرة من الغبار . سحبت عينى عن خط الأفق وشرعت أستدير عائداً فاصطدم بصرى بالمعلم رمضان عريجة فى أبهى ثيابه الكمشير ، والمركوب البنى فى قدميه والعمامة الصعيدية الكبيرة فوق رأسه والشال الحرير السمنى اللون على كتفيه ، وعلى يمينه رجل وعلى يساره آخر كانوا يمشون فى لامبالاة قليلة ، وعيونهم تضرب إلى الأمام فى إنتباه وحذر . عقدت الدهشة لسانى وسمرتنى فى وقفتى : ترى ما الذى جاء برمضان عريجة إلى هنا اليوم ؟ !! أله فى السوق مأرب ؟ جاء يسرق أم يبيع سريقة سابقة ؟ لكن خاطراً أشرق فى رأسى ربط بينه وبين صاحبتى وداد ، فأيقنت أن الغازية التى مرت منذ قليل راكبة جماراً هى لابد أن تكون وداد ..

عدت إلى الفرش وذهنى مبعثر فى متاهات غريبة . بعد صلاة العصر مباشرة قرقعت العربة من بعيد ، فشرعنا نعبئ البضاعة فى الكراتين ثم نربطها بالحبال . تحول الفرش الكبير إلى مجموعة كراتين محكمة الربط . تكفل أثنان من شيالى السوق – الذين يظهرون دائماً فى اللحظة المناسبة – بمساعدة العربجى فى التحميل وعدل الكراتين وتوثيق الحبال فى مواثيق العربة . ثم ركبنا جلوساً فوق الكراتين ، ثم زحفت بنا فكأننا مفتشين مكلفين بتفقد أحوال الكون ..

إستوينا على الطريق الزراعى وقد خيمت علينا الشمس بستارة برتقالية اللون خشنة . ثم ابتعد السوق وبدا بأسلاكه الشائكة كبقايا أحرف بالقلم الرصاص قبل

مسحها وكشط بعضها ، ثم غاصت البلـدة فـي منحـدر بعيـد ، وإلتحقـت مبانيهـا بكتل السحاب ، ضـاق الطريـق وتعـرج وتقلقـل حتـى صرنـا نرتـج فـي جلسـتنا . وكنت أعرف أن هـذه الوصلـة قصـيرة وسـرعان مـا تقودنـا إلى الطريـق المرصـوف المحاذى لترعة المحمودية ، فاقترحت على محمد أن ننزل لنتمشى هـذه الوصلـة خلـف العربة التى صارت تمشي ببطء شديد . استحسـن محمـد الفكـرة خاصـة أنـه قـد آن الأوان ليفك حصره بعد صلاة العصر وليتوضأ من جديد لصلاة المغرب ..

هبط محمد إلى سفح قناة لأنه لابد أن يستنجي فيغسل عضوه بعد فك الحصـر ، وربما انتهز الفرصة وتوضأ ، وربما صلى ركعتين شكراً لله على نهاية السـوق بـدون مشاكل لعل الله يكمل جميله فينهى اليوم كله بالنجاة من مخاطر الطريق على خـير . أما أنا فمضيت نحو شجرة جميز عتيقة لكي أدارى نفسى فيها متقرفصاً مفرغاً بطنـى من زحمة السمك . رأيت إستحالة ذلك لوجود مجموعة من رجال على مقربة بجـوار ساقية على مرمى حجر . لمحت بناية صغيرة مربعة بالطوب اللبن مما يبنيـه الفلاحـون على رؤس حقولهـم للمبيـت وحفـظ المواشـى أثنـاء السـهر فـى الـرى . رأيـت مـن الأنسـب أن أحتجـب بظـل جدارهـا الخلفـى . مـررت بالرجـال . دوت المفاجـأة كطلقات مدفع كاتم للصوت في جوفي : إنهم رمضان عريجة والرجلـين ، يحاولون فك حبل يربط جاموسة وبقرتين فى وتد مغروز فى الأرض . أخيراً أخـرج رمضـان من جيبه مطواة فجز بها عقدة الحبل ، سلم الجاموسة لهـذا والبقرتـين لـذاك ، أشـار لهما على الطريق . حمدت الله أن أحداً منهم لم يرنى إذ أنني كنت في منخفض من الأرض محتجباً بجدار العشة . تقرفصت رافعـاً ثوبـى مجتهـداً بكـل قوتـى ألا أضـرط فيكشفنى صوت الضراط . إن رمضان عريجة لـو رآنـى الآن فليـس بعيـد أن يغزنـى بالمطواة . كان الهواء يحمل فى أذنى صوت نقر على الدربكة والرق ، علـى واحـدة ونص ، وكان الإيقاع المشخلل واضحا مجسداً مفرحاً لدرجة أن الغائط كـان ينـزل متدفعاً متراقصاً على الإيقاع . جففت نفسى بورقة خروع متدل على جدار العشة ، وقمت ملتفاً حول الساقية من الناحية الأخرى ، فلمحـت فـى منخفـض آخـر عنـد ساقية أخرى جمعاً من الصبيان والرجال العجائز والأطفال ، وكـان جسـد الراقصـة يتلوى داخل كوكبتهم الملتفة حولها وقد راحـوا جميعاً يصفقـون لهـا علـى الواحـدة

وهـي تـترنح وتتمـايل علـى صـدر الرجلـين العجوزيـن فاشـخة حنكهـا وسـاقيها ، والعجوزان يصرخان في نشوة نزقة : يا وعدى !! وأحدهم يجعر : كـل ده عشـان عودين برسيم لحمارك ؟ خـدى نصـف فـدان مـن البرسـيم . ثـالث يمشـط صدرهـا وكتفيها بكفيه في شراهة ويقول في توجع عالي الصوت كأنه ينادي على أمل بعيـد : قولي لى أين مكانك وأنا أجيئك بلبن العصفور !!. هبطت المنخفض ، إقتربت مـن الكوكبة ، كانت الراقصة هي وداد ، نعم صاحبتى وداد بلحمها ودمها وقـد تعـرى ذراعها وصدرها وظهرت تكـورات بطنهـا تهـتز صـاعدة هابطـة فـى دربـة هائلـة . وقفت إلى بعيد فوق هضبة من الرديم والسباخ ، صرت أبحلق فيها أطعنهـا بنظراتـى في قلبها في بطنها في ساقيها . إلا أنهـا كـانت مسبلة العينـين ، مائلـة برأسـها إلى الخلـف مقوسـة ظهرهـا إلى الـوراء وقـد تـدلى شعرها نحـو سـاقى أحـد العجوزيـن الرقيعين. وإذ هي تعدل قامتها سقطت سهام عينى فـى عينهـا ، فشـهقت فـى فـزع وبريق الجنون يندفع من عينيها ، خبطت صدرها بيدها صارخة :يا خرابـى!معقـول؟ فاستدرت في الحال واندفعت مهرولاً نحو الطريق بساقين مرتعشين وأنفـاس لاهثـة . ظللت أشعر بأن هناك من يطاردنى للقبض على ، حتى استويت على وصلة الطريـق المتعرجة المقلقلة . كان محمد أبو سن كما توقعـت قـد توضـأ وصلـى ركعتـين لجـبر الطريق ، ووقف لتوه يتلفت حواليه بحثاً عني . قال باسماً :

– " ظننتك رحت تتفرج على الغازية ! " ..

– " رأيتها من بعيد فحسب ! " ..

– " مالك ؟ كنت تجرى ؟ ! " ..

شعرت أنني سأحكى له ما حدث بشكل مثير : أتتذكر المرأة التـى اشـترت منـا طرحتين في سوق دمنهور وأخبرتك أنها جـارتى ؟ لقـد اتضـح أنهـا هـى الغازيـة . لكنني أمسكت في الحال عن ذكر أى شئ ..

على أو الطريق المرصوف كان العربجى في انتظارنا ، فركبنا . بعد مسير حـوالى ربع ساعة مررنا برمضان عريجة ماشياً وحده في خطو بطئ واثق كمشية شيخ البلـد يتفقد زرعه . وبعد حوالى كيلو متر مررنا بالرجلين يسحبان ثلاث جواميـس وأربـع بقرات !! ويمشيان في هدوء وثقة عجيبين كمـا يسـحب التـاجر بهائمـه . أدركـت

أبعاد اللعبة الجهنمية : وداد تختار مكاناً معيناً لتبدأ الرقص مقابل حزمتين من البرسيم لحمارها ورغفين لرفيقها ، فحينئذ يتجمع الأولاد الذين تركهم أهلهم فى حراسة البهائم ، وأثناء فرجتهم على الغازية يتمكن رمضان عريئجة ورجاله من فك البهائم وسحبها ، وإذ يتملك الطريق العمومى يصير مجرد رجل يسحب بهائمه عائداً بها من السوق أو من الحقل .

وفيها مقبرة

تسمرت وداد في فتحة بابها . سلطت عينيها المذعورتين المنكسرتين المتنمرتين مع ذلك في عيني تبحث فيهما عن نواياى الحقيقية من هذه الزيارة كأننى أزورها لأول مرة . كان الخوف والإضطراب ظاهرين عليها بشكل واضح رغم مرور أيام طويلة على ذلك الحادث ، عاقدة مابين حاجبيها في تساؤل أليم كأنها تقول : عايز منى إيه بتتجسس على ليه ؟ ! لكنها لم تقلها ، أنما استدركت بكل أريحية : تفضل، وأوسعت فتحة الباب . فدخلت متجهاً إلى باب الشرفة متحاشياً النظر إلى يسارى حتى لا يقع عينى على ذلك المخلوق المشوه المعذب ، لكن بصرى مع ذلك لمحها بالرغم منى ، ففى البنت عينان يفتحان عينين في جنبك في ظهرك في قفاك في أى مكان منك ، لتنظران إليك النظرة اللهفى ، نظرة الطفلة المنبهرة البلهاء المولمة ، تشوح بيديها تكاد تقفز نحوك تضرع إليك في حاجة ما .

تركت حذائى بجوار الباب وتربعت جالساً على الأرض .. إمتلأ فراغ الباب بظل من الشهد المجسد المتكسر على نصف جدار الشرفة . قالت بود حقيقى كأنها زوجى تستقبلنى بعد عمل يوم شاق :

– " تاكل ؟! " ..

ترددت ، حرت في الجوانب ، إستدركت :

– " نتعشى معاً ! "

فنظرت في عينى على ضوء القمر المنسرب إلى ركن الشرفة من فوق حائط كأنه عين من عيونها يتجسس علينا . كان العشاء جاهزاً بالفعل ، جاء السفط وفيه صينية بطاطس باللحم المسبك بالتخديعة والثوم والبصل ، مع أرز وخبز وفجل وباذنجان محدق . أكلت بشهية تكفلت هى بفتحها ، إذ راحت تزيح أمامى كتلاً من اللحم المفصص ، وتنتقى لى شرائح الباذنجان الطرية ، وتشذب أعواد الفجل ، وتغرينى بالأكل حتى حلفت بالله ما أضع في بطنى شيئا آخر . وكان الشاى قد نضج على وهج الفحم المشتعل في المنقد . قالت :

– " تغسل يديك ؟ " ..

فقمت متجهاً خلفها إلى الحمام . غسلت يدى وفمى بصابونة معطرة ، فيما هى واقفة ممسكة بالفوطة . جففت يدى ثم طرحت الفوطة على كتفيها :

– " عشوة هنية ! تسلم يديك ! " ..

احمر وجهها من شدة الإمتنان ، خفضت شعاع عينها كما تخفض شريط المصباح إلى أسفل كي تلقى بستار من الظل على خيمة الضوء ، فبدت أفتن من جميع صور الفاتنات التى تعلقها في مدخل شقتها . كانت مع ذلك تبدو تعيسة جداً، غلبانة جداً ، طيبة القلب وإن حاولت الظهور بمظهر خشن ، بل كانت رغم هذه الحياة الغريبة التى تحياها لا تعرف شيئاً كثيراً عن أمور الحياة ، فمخها صغير صغير ، وحيلتها قليلة ، ورزؤها بهذه البنت العاجزة وحده سبب كاف لوضعها فى زمرة التعساء . وجدتنى أربت على كتفها لأول مرة . يبدو أن يدى قد حملت الكثير مما فى مشاعرى نحوها لحظتئذٍ ، فإذا هى طفلة صغيرة تنتظر هذه الحركة منذ زمن بعيد ، فاندلقت على صدرى ، مريحة رأسها على كتفى فى حنان حقيقى مصفى . فلما هدأ اهتزازها بعض الشئ ، بدأ صدرها يستقر على صدرى ، فضممتها برفق ثم بقوة ، فإذا بهذا الجسد العملاق ينضغط كأنه ممتلئ بالهواء . بمنديل مسحت دموعها . وقبل أن أرفع يدى بالمنديل عن خديها تلقفت هى راحة يدى فطبعت على ظهرها قبلة امتنان حارة . فسحبت يدى بسرعة . وقد لاحظت أننى فى هذه الأثناء نسيت أنها امرأة ، أو لعلى نسيت أنى رجل ، وأننى طامع فيها بكل كيانى ، إذ لم يتحرك فىّ ذلك العرق النافر دوماً على ذكرها . وكنت أشعر مع ذلك براحة وصفاء نادرين ..

حين جلسنا نشرب الشاى وندخن النار جيلة كانت إشعاعات عينيها ترسل بوارق تليغرافية غامضة ، إستشعرت منها أنها قلقة بشئ ما . وجدتنى أقول :

– " إعتبرى أننى لم أرك فى ذلك اليوم ! " ..

قالت بصوت متحشرج :

– " قلبى وقف لحظتها ! وقعت من طولى ! أغمى علّى ! كان الناس يفكرون فى الجرى وراءك !! لماذا جريت !! شبهتنى فى نظرهم ولكنى قلت لهم لما أفقت أنك ابن خالتى ولم تكن تعرف شيئاً عن مهنتى !! أغمى على بمزاحى لكى ينشغلوا

بى بدلاً من الجرى وراءك ! فأى واحد يجرى فى الأريـاف يجـرى وراءه النـاس من دون أن يعرفوا سبب جريه ! يتصورون حريقاً يلزمه ناس تطفئه ! يتصورونها بهيمـة وقعت فى بئر الساقية ويجب إنقاذها ! يتصورونه لصاً عليهـم أن يشـنكلوه فيوقعـوه ليعرفوا خـبره ! المهـم كيـف تـأتى لـك أن تضبطنى فـى هـذه الوكسـة ؟ ! كنـت تتجسس علّى ؟ ! على فكرة ! أنا تصورت هذا ففرحت وأحببتك ساعتها مع أننـى اغتظت منك غيظاً لا يشـفينى من غليله إلا خنجر إغرزة فـى قلبـك !! لكـن اللـه سـتر ! كيـف جئت ورائـى مـن دمنهـور إلـى ريـف المحمودية ؟!! "

ضحكت فى شئ من الإضطراب :

- " لم أراك فحسب ! رأيـت رمضـان عريْجة وهـو يفـك البهـائم مـن وتدهـا ويسلمها لرجلـين كانـا معـه ! ورأيتـه معهمـا علـى الطريـق الزراعـى وهـم عـائدين بالبهائم !! " ...

شوحت بيديها فى ولولة ، وقربت أصابعها من صدرها علامة أنها تود أن تشـق هدومها . راحت تولول شاحبة الوجه والشفتين :

- " كملت المصيبة ! كنت تتجسس طبعاً ! سمعت أنك فى المباحث ! أكثر من واحد فى الوكالة قال لى هذا الكلام لما عرفوا إنك تسهر عندى ! أنا ربك والحق لم أصدق ! ويظهر أنى عبيطة ! أنت مباحث طبعاً ما فى ذلـك شـك ! تبـع الأداب أم جنائى ؟ ! أنا وحق من جمعنا علـى غـير ميعـاد إمـرأة غلبانـة منكسـرة كمـا شـفت بعينك ! لا شأن لى بأحد ! فى حالى ! وبصراحة أنا أشترى لك الحشيش خدمة من ناحية ومن ناحية ثانية تعطينى الولية حجرين لى فوق البيعـة ! لسـت أشـترى لأحـد غيرك ! قلت يا بنت إنه يبدو عليه أنه إبن ناس وطيب وظروفه ما أحـد يعرفهـا غـير الله فاخدميه بدلاً من بهدلته لو وقع فى يد الحكومة الغدارة ! ولكنـى والله العظيـم عبيطة وخايبة ! إنظر لحالى تعرفنى ! غدر بى رجال كثيرون ! كلهـم يريـدون أكـل لحمى بالمجان ! لا يغرنك أننى أعرى كتفى وأهز وسطى بين مجموعـة أطفـال !! إنـه أكل العيش المر ! أما أن أنام وأفتح باب نفسى لأى واحد يدخلنـى ويمرمطنـى علـى مزاجه كأننى خرقة يمسح بها جزمته فلا يحدث أبداً وعمره ما يحصل إلا فى الحـلال على سنة الله ورسوله ! جدتى قوت القلوب زرعت هذا فى نفسـى وقـالت لى مـن

يأخذ منك شيئاً سهلاً تخسرينه رجلاً وتخسرينه صاحباً نافعاً !! وقالت لي إن المرأة مهما بهدلها الزمن يبقى عندها شئ مصون سوف ينفعها فى الزنقة !! إذا الذهب ينفع الرجال فى الزنقة فشرف المرأة يسرى عطره بين الناس فيأتى زبونه الذى يطلبه أن يجئ !! فإن لم يجئ ماتت المراة شريفة طاهرة الجسد وربنا يغفر لها جزاء ذلك بقية الذنوب !! أنت مثلاً ! نفسك فىّ تريد أن تأكلنى ! أنا الأخرى نفسى فيك ! لكن هذا لا يرضى الله ولن أفعله وأظن أنك لم تعد تفكر فيه ! انا أسهل امرأة تتزوج وأسهل من تطلق !! من ضيقى بأكل العيش المر أتزوج ! وأطلق من ضيقى بزوجى الذى تنكشف لى دناءته !! حظى أسود من الهباب ! ما وقعت فى زوج طيب أبداً !! وكيف أقع على الطيبين وطريقى نفسه لا يمشى فيه الطيبون ؟ ! من عشرين سنة كنت صغيرة ومقطقطة ! رحت أشتغل مع العوالم أرقص فى الأفراح فى زف العرايس ! الليلة لابد أن تنتهى بخناقة على الحساب وتوزيع الأجر والنقوط! بعدها خناقة ثانية أشد من الأولى : متعهد الحفلة يريدنى أعود معه إلى البيت ! رئيس الفرقة يتصدى له ! لا ليدافع عنى وإنما ليأخذنى هو !! الطبال نفسه يشخلعنى بمزاج بعشم أن يسرقنى منهم جميعاً ! حتى صاحب الفرح والمعازيم كلهم يضايقونى حتى عقدونى من جسدى !! هل مكتوب على جبينى أننى سهلة وواقعة من قعر القفة وفى انتظار إشارة من أى أصبع ؟ ! أما والله إنها مصيبة حيَّرتنى !! سنين طويلة مع العوالم بدون راحة ! وفلوسهم منظورة ومحسودة وليس فيها أى بركة ! صرفتها كلها على البنت العاجزة ! على ناس تقعد بها لحد عودتى فجدتى لا تطيق رؤيتها !! بخت أسود ! الفضيحة مكتوبة على حتى من غير تفريط فى الشرف !! أكبر علامة على سوء البخت أن أفتح عينى فأراك فوق رأسى فى مكان بعيد !! .. "

وألقمتنى مبسم النارجلية بحركة زغد فيها كثير من الغيظ المبنى على كثير من العشم . سحبت نفساً عميقاً ، قلت من خلل دخانه الكثيف :

– " إسمعى يا وداد ! أنت اشتريت منى طرحتين فى السوق ! فأنا لست مباحث ولا يحزنون ! بل إنى أكره الشرطة بجميع فصائلها كره العمى رغم أنى لا أحتك بها فى أى شئ ! أستثقل ظلهم أتمنى أن يكفينى الله شرهم ! كنت طالباً وسأعود مرة

اخرى للدراسة من منازلهم فى الجامعة بإذن الله ! وبلدتى قريـة فـى محافظـة الغربيـة لكننى جئت إلى هنا على أمل السكنى مع بنت عمى الثرية المتزوجة هنا من شخصية كبيرة إلا أننى لم أسترح فـى الإقامـة عندهـم فسكنت وحـدى فحـدث لى حـادث عطلنى عن الدراسة فغضب أهلى على فمنعوا عنى المصـروف فجئـت للسكنى فـى هذه الوكالة موقتاً واشتغلت مع ذلك القمـاش الـذى بـاع لـك الطرحتـين !! ويـوم رأيتك فى ثوب الغازية ترقصـين بـين الأطفـال كنـا عـائدين مـن سـوق المحمودية ! وكنت أفك حصرى فاصطدمت برمضان عريجة يفك حبل البهـائم ثـم اصطدمـت بك ترقصين ! وعلى فكرة ! رأيتك وأنت مارة من جوار السوق راكبة حمارك ومـن ورئك الطبال والرقاق وبعدكم بقليل رمضان عريجة ورجليه !! " ..

– " بخت أسود والله ! "

هكذا رددت بأقتناع شديد . ثم ظهر فى عينيها بريق مفاجئ يعكس أبعـاداً مـن الذعر والتوجس :

– " رآك رمضان عريجة ؟ ! " ..

– " لا ! " ..

– " ولا أحد من الرجلين ؟ ! " ..

– " من حسن الحظ ! " ..

– " جئت بسيرة الموضوع أمام شوادفى ؟ ! " ..

– " لم أفتح فمى لأى أحد ! " ..

– " الحمد الله !! أنا أصيلة وطيبة القلب ! اياك أن يعرف رمضان عريجـة أنـك رأيته ! اياك أن تهمس لشوادفى أو لأى مخلوق ! ان فى الوكالة ! يـارب ! أغفـر لى يارب ! أنت ترانى الآن أفعل خيراً يارب ! هى ليست فتنه أفتنهـا لكنهـا فعلـة خـير أفعلها من أجلك يارب !! أسمع يا صاحبى ! الوكالة !! تحتها مقبرة كبيرة !! " ..

– " ماذا قلت ؟ ! " ..

– " طربة ! طربة لدفن الجثث !! " ..

– " جثث من ؟ ! " ..

- " الذين يتخلصون منهم ! عيال صياع أمهاتهم دعون عليهم يجيئــون للمبيـت في الوكالة ! تسحرهم الوكالة ! الواحد منهم يغتر بشبابه بجرأتـه بسـوء سمعتـه فـى الخربشة ! يصور له الشيطان أن يصبح حاكماً للوكالة بدلاً من شوادفى بأن يكسـر أنفه وعينه أمام الباقين ليركب عليه وعلى البـاقين وعلـى الوكالـة كلهـا مثلمـا فعـل شوادفى نفسه مع عطيه !! شوادفى نمس ! مكار ! يعطيه الأمـان يذيـب لـه البرشـام المنوم في الشاى والسجاير ! يتكوم جنبه بعد دقائق ! يكمل عليه شـوادفى بـالمنديل يكتم أنفاسه ! يحمله ! الطربة لا تحتـاج لفحـت ! فلهـا فتحـه سرية بغطـاء كغطـاء المجارى ! انها فى الأصل بئر مبنى تحت الأرض في زريبـة المواشـي ! لـه سـلم مبنـى ومتصل بقاع الأرض البعيد في دقائق تغيب الجثه في جوفه ولا مـن شـاف ولا مـن دري ! وسرعان ما تختفى فتحة البئر تحت روث البهائم !! " ..

صار مبسم النارجيلة يرتعش بين شفتي . صرت انتفض كالعصفور تحـت هـاطل المطر . إحتمال كبير أن وداد تحاول إلقاء الرعب فى قلبـى حتـى لا أذيـع مـا رأيـت ويتناثر الكلام إلى سمع الحكومة . وإحتمال أكبر أن تكون صادقة وهذا هـو الأقـرب إلى الحقيقة لانها تحكـى بإنفعـال وحـرارة وخـوف ثـم أننـى لا أستبعد شـيئاً علـى شوادفى ، أنه مصيبة كبرى وإلا ما أصبح حاكماً على هذه الوكالة وفيها كـل هـذه الأنواع من عتاد المجرمين والشوقة الضائعين الضالعين فى التشرد ..

- إن كنت تكذبين يا وداد فإنك تخسريننى مدى الحياة ! إننى فلاح أموت فـى حب العشرة وأدفع عمرى فداءً للصاحب والحق والواجب ! وبنفـس الدرجـة أدفـع عمرى إنتقاماً ممن يخوننى أو يغدر بى أو يستغفلنى ، إن كان قصدتك إخافتى لكـى لا أتكلم فأننى لا أتكلم من حالى ! من أخلاقى وتربيتى الريفية الأصيلة ! فإن كـان قصدك إخافتى فأنت تثيرين عنادى ! أنا صحيح أعرف أنهم جميعاً غداريـن مجرمـين ولكن أنا عندى مخ أستطيع تشغيله بقوة عنـد الـلزوم لأنجـو مـن أصحـاب الأمخـاخ الشريرة !! فكونى صادقة معى يا وداد إحتراماً للعيش والملح ! هذا الخبر الـذى قلتـه لى الأن صحيـح أم أنـه خيـال هـايف وبـايخ ؟ أريـد أن أعـرف لاحتـاط لنفسـى فحسب !! " ..

نهضت واقفة بإنفعال ، هرولت في الممر بجسد ينتفش ، عادت ممسكة بلقمة خبز .

– " عدم المؤاخذة ليس عندى مصحف ! أخاف أن تكون شقتي غير طاهرة بما فيه من الكفاية فيحرقها المصحف الشريف !! ولكن هذه اللقمة كالمصحف بالضبط !! "

وكسرت لقمة الخبز ، ووضعتها على عينها هاتفة بفحيح قوى بجسد :

– " وحق هذه النعمة على عيني ! عيناى هاتان من هذه البلكونة شافت الجثة وهى محمولة إلى الزريبة وشوادفي يخرج من غيرها بعد مدة ينفض يديه ورجليه من التراب !! فى الصبح أتفقد سكان الوكالة من حجرة جدتى ؟ أعرف الذى غاب منهم ، أظل أتفقده أيام طويلة ! لا يظهر بتاتاً ! أتيقن من دفنه ! بعينى هاتين اللتين سيأكلهما الدود شفت الموت والدفن مرات عديدة !! الظروف دائماً أبداً تخدم شوادفى الظروف فى بلدتنا الوسخة لا تخدم غير شوادفى " ..

أفقت ، كل الأنفاس التى سحبتها بلذة وعمق تبخرت من رأسى وخلفت وجعاً فى عضلات صدرى وضيقاً فى تنفسى . قالت وداد باسمة كأنها تشفق علي من الخوف :

– " ما يصح أن تخاف هكذا ! إن شوادفى فى النهاية لا يقول : شر للبيع ! طول ما أنت طيب وصادق وأمين معه يقيد لك أصابعه شموعاً ! كل بعقولهم حلاوة! أنت عندك مخ كما تقول وهم أمخاخهم ظلمة كما أوافقك ! شغل مخك على طول الخط معهم ! أفتح عينيك شف كل شئ وأقفل فمك ! إسمع كل شيئ وكأنك لم تسمع شيئاً ! المثل يقول : ان نزلت فى بلد تعبد العجل حِش وارمى له ! وسكان الوكالة والحكومة الصايعة لكهم يعبدون شوادفى لأنه ينفعهم ويتسبب لهم فى الأرزاق الكبيرة من غير تعب ! أنت الآخر حش وأرمى له !! إن باله طويل ونفسه أطول وهو يجرب فيك كل يوم تجربة !! " ..

تسللت إلى آذننا دقات الساعة قادمة من الراديو فى مكان قريب وإعلنت المذيعة همت مصطفى منتصف ليل القاهرة . فنهضت واقفاً :

– " تصبحى على خير ! " ..

مضت ورائى نحو باب الشقة . توقفت لأسلم عليها ضممتها بقوة حتى طقطقت عظامها فتأوهت ، ورغم أنفها خرجت التأوهات أنثوية مثيرة مكهربة ، فإذا بى مشدود الوتر محتقن الدماء أكاد أحترقها . فصلتنى بذراعيها فى رفق ، همست باسمة فى جدية وأخوة كصديق يسدى لصديقة معروفاً جميلاً :

- " سأعرفك على واحدة تعجبك !! الغجرية سندس فى الحجرة المجاورة لحجرة جدتى أراهن أنها ستجعلك تنسانى ! ليلتك فل ! " ..

حين صافحنى هواء الشارع عادت إلى دماغى كل الأنفاس الهاربة صارت تشارك الريح فى اللعب بأعطافى ومشاعرى ، من قمة البهجة إلى وهدة الخوف إلى حضيض الرعب . ضوء الشارع يزداد شحوباً فى ناظرى ، رأيتنى مشكوكاً فى كلابشات الشرطة مع يد وداد ورمضان عريجة وسيد زناتى وزينهم الشحاذ ، ورأيتنى مشجوج الرأس جثة محمولة إلى الزريبة لتغيب إلى الأبد فى بئر جوفى مهجور لا قرار له . وكانت المزارع المترامية على مقربة من الوكالة ترسل فطيرة من الأصوات المتحاضنه فيها من عواء الذئاب ونقيق الضفاضع ونعير السواقى وهدير الطنابير وجعجعة الشواديف وخرير الجنادب ونعيب الغربان وزقزقة الكراون . لم أكن مع ذلك أشعر بأي رغبة فى دخول الوكالة كأننى أقف أمام زنزانة السجن المؤبد واننى لو دخلت فلن يكتب لى الخروج إلى الأبد . فوقفت واضعاً يدى فى جيب سروالى استنشق الهواء النقى الطرى . إن هى إلا دقائق حتى ظهرت فى نهاية الشارع الخالى بقعتان سوداوتان ظلتا فى تعاظم حتى ظهر شخصان طويلان غارقان فى صدأ وأسمال بالية . من الواضح أنهما يبحثان عن أى صيد . جعلا يقتربان ، فلما رأيانى توقفا على ناصية الشارع وصفر أحدهما فرفعت رأسى ، فأشار بأصبعه فى حركة أمر أن تعال ! ففى الحال طرقت باب الوكالة بلهفه وخوف ثم دفعت الباب فانفتح فانزلقت فى فتحته فى اللحظة التى وصل فيها الشريدان وأوشكا على الأمساك بى فدفعت باب البوابة فى وجهيهما وسمعتهما فى الخارج يضحكان ويشخران فى لهجة يأس ولامبالاة .

وشوشة

معظم صبيان الوكالة لا يسرحون يو م الجمعة إلا سنلس الغجرية فإنها تحمل سفطها على رأسها وتمضى ، مرتدية ثوباً من الشيت الرمادى المبرقش بكور صغيرة خضراء قائمة ، كاسر لحد الكعبين فوق الخلخالين بكورنيش عريض ؛ وفى منطقة الصدر والجذع كسور وكشكشة مما يحقق للصدر وللبطن وللردفين بروزاً لطيفاً يشير إلى أن تحت هذه الثياب أنثى فاتنة . الوجه طريف ساحر كأنه مرسوم بريشة فنان فرعونى قديم شعبى جداً ، تنقصه الرصانة والنعومة فى الخطوط لكن الملامح فى مجملها جذابة إلى حد كبير جداً . وجه كطبق من الفخار فى لون السمن البقرى ونعومة الملمس رغم خشونة المظهر ، ولمعانه ، مرسوم عليه عينان ضيقتان قليلاً ، حادتى البصر ، برموش طويلة سوداء ، تحت جبين كحبة الرمان ، فى مقدمته حاجبان كثيفان أسودان ، وفى أعلاه المنديل أبو أويه المشغول بالفل والترتر ، يخفى شعرها فى برمة عرباوية عتيقة ، والشال القطيفة الأسود . الأنف مستقيم مدبب شامخ الطرف مخروم من أسفله ، وتتدلى فردة قرط من الذهب على شكل مخرطة الملوخية . بين الحاجبين نقطة وشم خضراء ، وتحت الأنف ، مكان الشارب ، وشم آخر على شكل خطين بالطول ثقيلين متجاورين يتصلان بمثيلين لهما فى منتصف الشفة السفلى وينحدران إلى وسط الذقن . العود سمهرى لدن ، والمشية – وهى حاملة السفط – معجبانية كمشية الفرس فى طريقها للقاء خيالها تكاد تنفرط من البهجة . كل عضو من أعضاء جسمها يتحرك كأنما ليمشى وحده فى حرية كاملة لكنه ما يلبث حتى يتقابل يتضافر يتدافع مع بقية الأعضاء الأخرى ..

منذ أن حدثتنى عنها وداد بدأت أترقبها باهتمام ، ثم بدأت ألح على وداد أن تعرفنى بها بالفعل . وقد تم ذلك بكل جرأة وبساطة ذات عصرية رقيقة النسمات ؛ إذ فوجئت بطرق خفيف على باب حجرتى فقلت فيما أعتدل جالساً : إدخل . فدخلت وداد ساحبة خلفها سنلس تحمل سفطها على رأسها . وقفت مرحباً بهما ؛ وسعت لهما مكانا على المصطبة لكن سنلس تقرفصت على الأرض أمام سفطها

فيما جلست وداد على حافة المصطبة . كان الباب مواربـاً ؛ وقالت وداد بلهجة ذات معنى :

– " شوفي للأفندى بخته ! وشوشى الودع ! إضربى الرمل ! افتحى الكتشينة ! إفتحى قلبه ! دماغه ! هاتى كل ما في جوفه !!"..

تمدد الوشم على وجه سندس واتسعت المساحات بينه فى نفس الوقت ، وظهرت أسنانها الدقيقة المسمسمة وسبح فى محيطها الداخلى لسانها الزرب بلهجة عرباوية معووجة الحروف مندفعة متلاحقة بصوت دافئ يشبه صوت الرجال فى عرضه وغلظته لكن إيقاع الأنوثة مدو فى عمقه السحيق . أخرجت من تحت غطاء السفط رقعة قماش كالمنديل ملفوفة ، فكت لفتها ، فردتها على الأرض ، فإذا هى حفنة رمل وودعتين صغيرتين . صارت تخط فوق صفحة الرمل بأصبعها :

– " اسم الكريم ؟ ".

– " فلان ! "..

– " واسم الكريمة والدتك ؟! "..

– " فلانة ! "..

– " مكتوب لك عيش فى الغربة ! والمكتوب مامنه مهروب ! الدنيا ظلمتك وأنت لا تستحق ولكن الصبر مفتاح الفرج ! نجاك الله من قضية رزية فما كانت هى ؟! لا تقلها ولكن قل : حصل أم لم يحصل ؟! " ..

– " حصل ! "..

– " انسان كان لك مثل الأب أو الشيخ أو المعلم كان يقرش الملح من جهتك يعبئ صدره بالشر عليك فمن يكون لك ؟!"..

– " معلمى فى المعهد ! هذا غريب حقاً ! "..

– " أحببت انساناً كبير القلب أحسن اليك ! وغرد فى حطب سقفك طير كبير نادر المثال قليل الحظ وما كاد يملأ حياتك بالأنس حتى اصطاده الصياد فمن يكون بالنسبة لك ؟! "..

– " بدرية ! "..

– " هناك كهل عجوز يعطيك ظهره ويمشى غاضباً منك ينوء ظهره المحنى بجبال الهموم فمن تراه يكون ؟!"..

– " لابد انه أبى !"

– " وامرأة قصيرة القامة بيضاء الوجه تحمل همك في الصحو وفي المنام تنزع اللقمة من فمها تشيلها لك في حرز حرير فمن هي ؟! "..

– " الواضح أنها جدتى أم أمى ! "..

– " أنت أبيض القلب ! سريع الغضب ! كاللبن الحليب يفور ويدلق نفسه على حواف الإناء فلا يخسر إلا نفسه ! أنت مثل التين الشوكى ظاهرك شوك وقلبك بذر كالعسل ! الفرع طيب والأصيل أطيب ! كريم النفس والكريم لا يضام ! دائماً أبداً يصادفك أولاد الحلال يقدمون لك الخير والقول الحسن ! ينير الله بصيرتك يعطيك كثيراً مما لا يعطيه لغيرك ! خيرك فى حسن المآل لا فى كثيرة المال ! إن كنت اليوم فى ضيقة فلا تقنط ولا تجض ! من يستهزئ بك اليوم يوقرك غداً ومن يضيق منك اليوم سوف يسترضيك بإذن واحد أحد ! حظ سالك وناج من المهالك لا مكان فيه لعزالك وملئ بعلامات السعد لعيالك ! عما قريب تخرج من حفرة وقعت فيها غصباً عنك إلى جبل عال فيه مآذن ونخيل وأشجار وفيه ورد وطيور وأبراج حمام ! فعاهدنى عهد الله بحق نبيه المصطفى وبحق النهار إذا اتسق والبدر إذا اكتمل والضحى إذا تجلى أن تتذكرنى بحلاوة البشرى وطيب الذكرى! قل اللهم أمين!!"..

– " اللهم أمين !"..

قلتها وأنا مقع أمامها فى العلو كالتلميذ النجيب الذى راح يردد خلفها تفاصيل الدرس . شعرت انها ليست سهلة ابداً ؛ إنها فى منتهى الذكاء وسرعة البديهة ، خبيرة بقراءة الوجوه والتقاط رموز المشاكل والهموم فى خطوطها الإنفعالية فتصل بالرموز إلى ما يقرب من الحقيقة وبالخطوط إلى ما يقرب من الجذور الأصلية . عجب والله وأى عجب . هذه البدوية الأمية اللبقة لم تتعثر فى عبارة واحدة بل إن فيها لفصاحة فطرية يفتقدها الكثيرون من المتعلمين فى المدارس والأزهر ، فمن أين أتت بها ؟ ومن أين توفرت لها هذه الخبرات بالنفس ومحاولة استنباط ما فيها باستكهان لا يخيب ولا يطيش إذ لابد أن يجئ فى كلامها جزء كبير بل كبير جداً

من الحقيقة . لابد أنها خبيرة بصفات يتشارك فيها أعداد كبيرة من البشر المتشابهين، لتفسيرها عندها أصداء مضمونة التجاوب فى كل هؤلاء الذين يحملون هذه الصفات . أهى ثقافة فرعونية قديمة ورثتها عن أجدادها مثلما ورثت أرض سيناء الأديرة والكهان والتاريخ ومناجم الذهب والفيروز وهجمات الغزاة ؟!..

أيقنت أن علاقتى بهذه الغجرية سندس سوف تكون طويلة المدى عميقة الأواصر . إن الذكاء المطل من عينيها نافذ وحاد ، وفيه لسعة طرية باردة تغريك بأن تقهره فوق فراشها بلذة دافقة ، وأن تقضم مقدمة هذا الأنف المستفز الشبيه بقرن الفلفل الأحمر ، وتعضعض هذه الرقبة الطويلة المبرومة ، تطوف بالعقد الكهرمانى الملتف حول عنقها ..

نظرت لى وداد نظرة ذات معنى . فاعتدلت ، وسحبت المحفظة من تحت الوسادة ففتحتها فسحبت بريزة ورقية مخرخشة ؛ قدمتها لسندس بقليل من الحياء . فسلقتنى بنظرة كاللهب :

- " عيب عليك ! إننا جيران وإخوة !"..

وقالت وداد :

- " سندس كريمة من بيت كريم ! تستطيع أنت أن ترد لها الخدمة بخدمة مقابلة في أى وقت يعجبك !"..

قاطعتها سندس:

- " إذا ردها لا تكون خدمة ! لا منه ولا منى !"..

غمزتنى وداد بقرصة خفيفة . قلت :

- " ولكنى أحب أن أراك كثيراً يا سندس ! إن كلامك فيه حكمة ! وبصيرتك نيرة بالفعل ! أرجو أن تعتبرينى أخاً لك هنا !"..

بطرف عينها نظرت لى وداد ساخرة من سذاجتى كأنى تلميذ سقط فى الإمتحان ؛ ثم اعتدلت كأنها ستدلى بالجواب الصحيح :

- " على كل حال تعال نسهر سهرة عند سندس ! القعدة عندها تجنن ! حجرتها مثل الصندوق وهى تجعلها كالسفيرة عزيزة كصندوق الدنيا ! وعندها جوزة مثل القلة القناوى من الفخار مياهها باردة ونفسها يرطب الصدر ! والشاى

من يدها لا تشربه بعدها من يد أخرى ! أما الأكل إن وضعت فيه نفسها فلابد أن تجربه !"..

قلت محاولاً إثبات ذكائي هذه المرة :

- " شوقتني يا وداد ! فلتكن سهرتنا عند سندس يوم الخميس القادم ! فما رأيك يا سندس ؟ "..

- " الدار دارك في أى وقت تشاء ! "..

- " إتفقنا ! "..

وخرجنا . وفيما كنت خارجاً إلى الدكان مساء ذلك اليوم استوقفنى شوادفى وشرح لى ، بدون مناسبة ، كيف أنه يرضى دائماً كلما رأى سكانه يتحابون ويتزاورون ويتبادلون الطعام ، فكلما قام العيش والملح بينهم اتقينا شر الخيانة والغدر.

سـندس والهريسـة

إستسمحت محمد أبو سن فى إجازة مساء الخميس بحجة السفر إلى بلدتنا خميساً وجمعه ؛ فوافق عن طيب خاطر . ومد يده بجنيه كامل :

– " اشترى به شيئاً لإخوتك على حسابى ! إياك أن تطمع فيه وإلا فإنـه يقـش ما جمعته فى الحلال !"..

كنا فى وقت الضحى . وكنت مرتدياً ثيابى النظيفة التى أقـف بهـا فـى المحـل ، فمضيت متوغلاً فى شارع سوق الخضـار والفاكهـة المتفـرع مـن شـارع السوسـى، على ناصيتـه محل فواكـه الفخرانـى ، نظيـف جـداً ، يشبه الصيدلية فـى واجهاتـه وفتارينـه الزجاجيـة . الفاكهـة معروضـة أمامـه وداخلـه فـى شـكل مدرجـات مـن الصناديق الكرتونية مملوءة بأنواع لا نهاية لها من الفاكهة . آخر ما كنت أتصوره أن أرى الفواكه التى يعرضها الباعة فى أقفاص وأسفاط وعربات يد يمكن أن يعتنى بها هكذا لدرجة أن كل برتقالة أو تفاحة أو منجاية أو حتـى جوفايـة وبلحايـة ملفوفـة وحدها فى ورقـة زبـدة ومرصوصـة بجـوار بعضهـا فـوق بعضهـا كحبـات العقـد ؛ والرمّانات التى على السـطح قـد رفـع النقـاب عـن بعضهـا بانفتـاح الأوراق فبـدت كوجـوه صبوحـة تطـل مـن تحـت الطـرح الملونـة . مهرجـان مـن الروائـح تضـرب سرادقاتها إلى نهاية الشارع ، لا ينافسها إلا بائع الهريسة الواقف بعربته علـى ناصيـة قريبة ، والنار الهادئة تنساب تحت صينية الهريسـة مرسـلة عبقـاً مـن السـمن البلـدى والفانيليا . محل الفخرانـى لـه بابـان علـى الشـارع العمومـى وثـالث علـى الشـارع الجانبى، جدرانه مرصعة بالمرايا وسقفه أيضاً ؛ والمراوح المتدلية من السقف تدور فى حمية لتظهر فى المرايا عشرات المراوح وحركة الشارع كلها ؛ مما يجذب كل مار إلى التوقف ثم النظر فى انبهار ..

إلا أن كيـانى كلـه انصـرف إلى بـائع الهريسـة علـى الناصيـة البعيـدة فـى آخـر الشارع، حيث يلتحم هذا الشارع الجانبى بالشارع العمومى الكبير ، فكأنـه جيـب مستطيل بفتحتين تقودان إلى اتجاهات مختلفة . كنت أمر عليه كل يـوم فـى طريقـى إلى المعهد حينما إنتقل المعهد من عمارة المعلـم عـدس فـى كوبـرى افلاقـة إلى مبنـاه

الخاص فى شبرا دمنهور ؛ فأرى الزحام حوله من الأفندية والعمال وراكبى الدراجات يتوقفون : هات حتة بنصف أفرنك ! بأربعة صاغ ! بشلن . والرجل يرد على كل واحد بمزحة تضحكه : لك ولاّ حتاكلها ؟ ويسجى على الطبق بالسكينة المبططة شريحة تملأ العين يتصاعد منها دخان رقيق ؛ ثم يغمس السكين فى سلطانية السمن السايح الساخن فيسقى بها خرطة الهريسة ، يضع بجوارهسا شوكة صغيرة ؛ يقدم الطبق لطالبه ؛ فإذ يمد هذا يده لتناول الطبق يهبط الرجل بيده دفعة واحدة فى دربة مازحة ، فيفزع صاحبنا يرتاع ظاناً أن الطبق قد أفلت على الأرض . متعتى كانت الفرحة على هذا المهرجان كل صباح ؛ وأمنيتى كانت أن أتلقى مداعباته هذه ولو بنصف فرنك . الآن قد آن الأوان لكى أشترى خرطة كبيرة ربما نصف أقة . هذه فكرة طيبة للغاية وما أحلى دخلتى بها على سنلس الغجرية ، أشيك وأرخص من فاكهة الفخرانى التى لا أجرؤ على الإقتراب منها لمجرد السؤال عن سعرها ..

جودت أولاً على سوق السمك : حاره سد متفرعة من شارع السوق . رأيتنى منجذباً للسير خلف امرأة عرباوية رشيقة القوام كانت تسير أمامى حاملة سفطاً على رأسها ، تشبه إلى حد كبير هيكل سنلس حتى فى مشيتها . كنت أعرف أن ريف دمنهور العريض يحوى الكثير من المغاربة والأعراب المستوطنين من قرون طويلة ويجيئون دائماً إلى دمنهور للتسويق والتسوق . توقعت أن هذه المرأة العرباوية تزمع شراء سمك . أنا الآخر جئت لأشترى أكلة سمك نسهر عليها عند سنلس لنحلى بالهريسة ..

أخذت أرسل النظر على الجانبين فى جنبات البلطى والبورى والمياس والقراميط والثعابين والمفروشة امام الباعة فى كثرة كثيرة . هذه أول مرة فى حياتى أتوقف فيها أمام بائع لأشترى شيئاً كهذا من حر مالى. كان يخيل لى أن الباعة جميعهم يعرفوننى معرفة شخصية وأنهم سوف لن يصدقوننى إن وقفت أمامهم كالزبون المحترم وسألت : بكم ؟ بله أن أقول : زن من هذا وانتق من هذا . لن يأخذ أحدهم الأمر بجدية على الإطلاق . ربما كان هذا هو سر الخجل الذى أصبحت استشعره كلما هممت بالتوقف امام بائع ، إذ أرانى قد أحجمت فجأة ؛ فأواصل السير

مفكراً في كيفية اقتحام البائع بجرأة كأى خادم أو امرأة من هؤلاء الذين يزعقون فى الباعة آمرين بالذمة وبعدل الميزان . فكرت أن أعطى لسندس أو لوداد بعض النقود لتجئ هى فتشترى لنا أكلة تصلح لإقامة السهرة المنشودة ، إذ يجب تكون سمكاً على وجه خاص ، وثعابين على وجه التحديد ، لما سمعته عن مزايا أكل الثعابين المائية فى إلهاب الجسد بالطاقة والحيوية . تذكرت أن فى آخر هذه الحارة بائعاً يعرفنى جيداً ؛ فلأذهب إليه فإنه الوحيد الذى لا حواجز بينى وبينه ..

عيناه التقطتا عينى من بعيد ، فابتسم ملوحاً بذراعه فى اشتياق كبير . كان كعادته جالساً على عتبة آخر بيت فى الحارة . هو بيت عتيق جيداً من خمس طوابق، شبابيكه مستطيلة بشبكات من الحديد من خلفها درف الشيش والزجاج لكنها لم يعد فيها زجاج بقدر ما فيها من ألواح كرتونية كالحة تحل محل الزجاج ؛ بعض الشبابيك منزوع الدرف أصلاً ومسدود بخشب الأبلكاش والورق المقوى والصفائح المفرودة . منظر البيت يشى بأنه كان ذات يوم بعيد على شئ كثير من الأبهة والعز والفخامة ، بدليل هذه المشغولات الزخرفية فى عقود الشبابيك وإحاطتها بما يشبه التاج الملكى . الباب الكبير المرتفع القامة بدرفتين من خشب عتيق كالحديد أزورتا ، كل منهما التصقت بالحائط قد ملأ التراب والصدأ والعفن ما بينها وبين الأرض فتسمرت فى مكانها فبات الباب مفتوحاً على الدوام بعتبة مرتفعة عن أرض الشارع بثلاث درجات من رخام شاخ وتآكل . على اليمين شقة من ثلاث غرف ؛ وعلى اليسار أخت لها فى حجمها والباب مواجه للباب يفصل بينهما ممر عريض مبلط بالرخام العريض المربع . والسلم فى المواجهة ، يوصل فى كل طابق إلى بسطة تفصل بين شقتين كهاتين متقابلتين ؛ كل باب من درفتين كل درفة فى أعلاها شراعة كشريحة مستطيلة بشبكة حديدية من خلفها باب زجاجى حاجب . على كل باب مطرقة من النحاس على شكل يد تمسك بين اصابعها كرة صغيرة تنام اليد بها فوق رقعة نحاسية مجوفة ؛ على الطارق أن يمسك هذه ويطرق بها طرقاً خفيفاً يسمعه من بالداخل وهو فى سابع نومة .. هو بيت حميم جداً بالنسبة لى ..

ما كدت أقف أمام عم حنبوطة حتى شعرت بدوار ، وجف ريقى ؛ إذ ما كان يجب أن أجئ إلى هذا المنزل بقدمي ، أنا الذى تجنبت المرور في المنطقة المحيطة به منذ وقت طويل مضى . ففى هذه الشقة التى على اليسار تسكن حماة محمد فسدق، مع ابنها محمد أفندى حسن ، باشكاتب سنترال دمنهور ، وابنتها وفدية ، العانس ، البالغة من العمر ثلاثين عاماً دون أن تتزوج لأنها تشبه أخاها تماماً ، الذى يشبه بدوره أباه إلى حد التطابق بينه وبين صورته المعلقة فى برواز على الحائط . فالأب نوبى ، كان جاويشاً فى البوليس كما تشهد صورة ثانية له باللبس الرسمى الكامل ؛ تزوج امرأة بيضاء شاهقة من بنات هذه المدينة واسمها مصرية ؛ فأنجب منها ثلاثة أبناء : محمد أفندى حسن ، الذى حصل على الشهادة الإبتدائية وتوظف بها فى السنترال ثم تولى مسئولية الإنفاق على البيت بعد موت والده . وقد ظل يؤجل زواجه حتى وصل إلى مشارف الخمسين من عمره دون زواج ، ربما ليأسه من الوقوع على الفتاة العذراء التى ترضى به إذ أنه مكلبظ الوجه بصورة منفرة جداً غليظ الملامح والأسنان والشفتين وكذلك الشعر والحاجبين ، يصفف شعره إلى الوراء بعناية بعد دهنه بالمساحيق لتلميعه ، ويرتدى البدلة ورباط العنق . وهو لطيف جداً ، ورقيق ، وكريم ؛ يتحلى بالصمت العميق ومتابعة الحديث بعينيه وانفعالات وجهه الفخارى . بعده فى ترتيب الميلاد تجئ أخته صفية ، ثم أخته وفدية ، التى تشبهه تماماً فى كل شئ ، غلظة الملامح والشفتين مع بروز ضبين فى مقدمة الأسنان؛ وهى مع ذلك فارهة القوام منحوتة الجسد رقيقة ، كلماتها مسمسمة ذات وقع مريح ، كما أنها طباخة ماهرة ، ومدبرة ، تشتغل بتطريز المناديل بالإبرة للجارات فتقضى معظم النهار إما فى السوق لشراء الخضار أو فى محلات الخردوات لشراء الخرز والترتر ، وتحوش لنفسها الكثير من لوازم العروس . وقد دار عليها عرسان كثيرون ولكن لا أحد يعرف لماذا يهربون فى آخر لحظة . مع ذلك فالبنت خفيفة الظل مرحة لا تتأثر بسوء حظها ، وتردد دائماً أن ربنا يعرف أنها تحب أمها ولن تقدر على فراقها فيبقيها بجانبها ؛ وأمها القصيرة القامة السمينة الجالسة على الكنبة تنظر إليها فى إشفاق وحزن تتضح بعمقه عيناها العسليتان البائستان . أما الأخت الكبرى صفية ، فقد ورثت طول قامة أبيها وبروز السنتين الأماميتين

المفلوجتين بخفة ظل ، والحاجبين الثقيلين ؛ كما ورثت عن أمها بياض البشرة المحمرة وسمسمة الملامح ؛ ولهذا تزوجت مبكراً من محمد فسدق ، الذى يعمل حاجباً فى محكمة الإستئناف الكبيرة ، غير أنه تخصص فى إدارة بوفيه المحكمة الذى يستأجره من الباطن ويديره مرتدياً الطربوش والبدلة الصفراء النظيفة ويختص بتقديم القهوة للقضاه فى غرفة المداولة ..

محمد فسدق استطاع أن يدخر القرش فوق القرش حتى اشترى بضعة أمتار فى أرض زراعية متاخمة لحى شبرا دمنهور ، إبتنى فوقها بيتاً صغيراً مكوناً من حجرتين وردهة بغير سقف ، ونفدت نقوده عند التسقيف فاستعاض عن البتن بعروق الخشب والبوص والخيش . أقام هو وزوجه فى الحجرة الكبيرة والمسقوفة وحلها بالبتن ؛ فرشه عبارة عن حجرة نوم وبضعة كراسى نثرها بين السرير والدولاب ؛ والأرض مفروشة بكليم رخيص فوق حصير . فى هذه الحجرة تجلس زوجه صفية طول النهار تطبخ على وابور الجاز أو تغسل أو تطرز المناديل التى ترسلها لها أختها وفدية ، فى انتظار عودة زوجها محمد فسدق من المحكمة فى الثالثة ظهراً فيتغذى وينزل إلى المحكمة ثانية ليعود فى حوالى التاسعة مساء ؛ ويحلو لها دائماً أن تقول عن زوجها : محمد راح المحكمة محمد ماجاش من المحكمة ، تقولها بجدية وبساطة حتى يظن المستمع أن زوجها لابد يعمل قاضياً أو مستشاراً . أما الحجرة الثانية فقد عرضها للإيجار وقادنا إليها السمسار بعد شهور طويلة قضيناها نسكن فى كوبرى إفلاقة رغم انتقال المعهد إلى شبرا دمنهور على مسيرة نصف ساعة . كنا أربع طلبة من بلدة واحدة ؛ كل واحد فينا يدفع ثلاثين قرشاً فى الشهر . وبهذا استفاد محمد فسدق فائدتين : مائة وعشرين قرشاً فى الشهر ، وأربع شبان يحرسون زوجه فى غيابه فى هذا المكان البعيد عن المدينة القريب من لصوص الليل وقطاع الطرق ؛ وفى نفس الوقت يأتنس بهم فى الليل . هو واثق أن الطلبة الفلاحين لا يجرؤ واحد منهم على التعرض لزوجه بأى سوء .

أول ما تقع العين على محمد فسدق وزوجه صفية تصدق بأن الطيور – حقاً – على أشكالها تقع ؛ فإنه هو الآخر كبير الأسنان بارزها بصورة غير طبيعية ، لدرجة أنه لا يستطيع إطباق شفتيه على بعضهما فكأنه بلا شفتين أصلاً . أما حينما

يضحك - وهو دائم الضحك على الفارغة والملانة - فكأنه تمساح يفتح فكيه لاصطياد فريسة من الهواء ، بصوت عريض أقرع لا جلجلة فيه ولا صهللة رغم محاولته افتعال ذلك . كلاهما ، محمد وصفية ، طيب القلب جداً ، وعطوف . كانت صفية تطبخ الطبخة وتجلس في انتظاره وهي تعلم أنه سيتأخر في المجيء كالعادة . حينئذ نكون قد عدنا من المعهد ولبسنا الجلاليب وشرعنا نقرش الخبز اليابس المغموس بالملح أو الفلافل البايتة أو اللفت المخدق أو المش الذى نجيء به من البلد . الحجرتان متصلتان بباب داخلى فضلاً عن البابين المطلين على الردهة . هذا الباب الداخلى لا يغلق أبداً إلا عند النوم ؛ وصفية على الدوام جالسة في مواجهة هذا الباب ترقبنا فى تأمل أسيف ؛ فكثيراً ما تشرد بعينيها الواسعتين شروداً طويلاً حيث تتجمد ملامح وجهها فلا يتحرك فيها سوى حبتان سوداوتان تروحان وتجيئان كالمكوك فى بحيرتى عينيها المليئتين بسائل نصف متجمد كأنها دموع مؤجلة أو فائض دموع على وشك الإنسكاب ؛ ثم تقطع هذا الشرود فجأة صائحة: يا مصطفى . ولاندرى لماذا زميلنا مصطفى بالذات ؛ ربما لأنه هو الذى استأجر الحجرة باسمنا وهو الذى يجمع الإيجار منا ويدفعه لها أول كل شهر ؛ وربما لأنه الوحيد فينا الذى يظهر عليه أنه ابن ناس ، بوجهه الأحمر الوسيم المرغدد وصحته المتينة وثيابه الكثيرة النظيفة إذ هو ابن تاجر حبوب فى بلدتنا وهو ابن شقيق الحاج مسعود زوج ابنة عمى . مايكاد مصطفى يسمع اسمه حتى يرد فى الحال بأدب جم كأنه يرد على أمه : نعم ياست أم أشرف ؟ تقول له بصوت قوى رنان : تعال ياخويه ، بلهجة من يريد أن يقول : لامفر . فحين ينتفض ذاهباً إليها عبر الباب الداخلى تكون رائحة الطبيخ قد ارتفعت فجأة بصورة مسكرة ؛ فنعرف ونحن منزوين كل فى ركنه فوق حصيرته وبطانيته ومخدته بجوار صندوق زوادته ، أنها رفعت غطاء الحلة لتغرف منها فى الطبق . مصطفى يعرف مقدماً أنها ستفعل ذلك وأنه سيمتنع ، ومع ذلك يذهب إليها فى كل مرة ، ليقف على مبعدة قليلة . تكون هى قد ملأت الطبق بالبطاطس أو الفاصوليا أو البامية وفوقها أربع فتافيت من اللحم الشهى ؛ تمد الطبق نحو مصطفى بذراعها الطويلة البضة ويدها النظيفة البيضاء المتختخة ؛ فيدور لسان مصطفى بنفس الكلمة : لأ ! متشكرين ! متشكرين ! إحنا

اتغدينا خلاص ! والله والله اتغدينـا خـلاص ! متشـكرين !.. فتصيح فيه بصوتهـا الرنان المصلصل : ياواد امسك أمال ما تتعبش قلبي! ، ولسانه لا يكـف عـن ترديـد نفس الكلمة ، ونحن من وراء ظهره تتبادل النظرات اللاعنـة الحـاقدة عليـه . ولكـن مصطفى يفعل هذا لثقته التامة أن صفية بعد يأسها منه سوف تنـاديني : طـب تعـالى أنت يا فلان !! إنت اللي مريحني ! صريح وما تعرفش اللوع ! ؛ ففي الحال أنتفـض إليها ؛ فأمسك الطبـق بيـدى الإثنـين ؛ ثـم أستـدير عـائداً ومصطفـى مـن خلفـى ؛ فأمضي به إلى حصيرتي ، وأضعه علـى الأرض فـى بقعـة محـايدة ؛ فيجـئ مصطفى متأبطاً رغيفاً كالمطرحـة ، ويتسـلل النمـس وراءه ، ثـم بهـى الديـن ؛ حيـث نـتربع متحلقين الطبق ؛ لنبدأ التكسير مع القرش من جديد ..

كثيراً ما يدخل علينا في هـذه اللحظـة محمـد فسـدق ، ويكنـى بـأبى أشـرف ، فيجدنا نكافح باللقم الناشفة في تمسـيح بقايـا الطبـق ؛ فيمسـحنا بنظـرة مـن عينيـه اللوزيتين البارزتين تحت حافة الطربوش ، واضعاً يديه فـى جيبـى الجلبـاب الإفرنجـى ذى الياقة ، يهزهما فتشخلل القروش التى لاشـك أنهـا حصيلـة البقشـيش ، يفشـخ حنكه ضاحكاً :

ـ " آه يا أولاد البالسة ! كأنى خلفتكم ونسيتكم ! ".

ثم يدلف إلى حجرته :

ـ " ساالخير يا صفية !"..

ثم ننصرف في الحال إلى محاولة الخلاص من مهمة كتابة الواجـب قبـل أن يجـئ محمد فسدق ليوانسنا بالجلوس ، معتمداً على ترحيبنا به من أجل خاطر عيون الشاى الذى سيسقيه لنا معه ، ويظل يصدع رءوسنا بالحواديت عما دار اليـوم فـى محكمـة الجنايات ، وكلمات المديح التى تلقاها اليوم من القـاضى فـلان والمستشـار عـلان ؛ حتى إذا وضح له أن النوم قد تمكن من عقـد أجفاننـا بصـورة سـافرة تركنـا فـأغلق الباب الداخلى ، ليزج بنفسه في الفراش ، ولحظتها يطير النوم من عيوننا ، إذ نسمع السرير يطقطق بجعجعة صاخبة ، ثم بصوت مكتوم هادئ ، كبراكين تتضارب تحت الأرض باعثة فينا شعوراً فائقاً باللذة نتندر به فـى الطريـق إلى المعهـد صباحـاً أو فـى الفسح ..

أخيراً أراد محمد فسدق أن يحسم مسألة الأكل هذه ؛ فطرأ على حديث السهرة موضوع جديد استغرق أسابيع طويلة حتى أقنعنا به :

– " الآن أنتم غرباء هاهنا لا أحد يطبخ لكم اللقمة ! وأكل السوق هفق لا يمرى على الجسم ! تاهت ولقيناها ! أنا وزوجتى مستعدين لخدمتكم بالمجان ! فأنتم كإخوتنا ! كل ما عليكم أن تساهموا فى نفقات الأكل ! إسمعوا ! أنا مسئول عن أكلكم وشربكم فى الفطور والغذاء والعشاء ! وأنتم تدفعون الإيجار ثلاثين قرشاً فى الشهر لكل واحد ! فليدفع كل منكم جنيهاً واحداً فقط ! منه إيجار ومنه أكل وشرب يابلاش ! ثلاث طقات فى اليوم يابلاش ! وأكل محترم كما تعرفون ! فما قولكم ؟! " ..

مصطفى كان أول الموافقين بدون تمحيك . ومن بعده بهى الدين لأنه ابن مزارع ميسور الحال يملك خمس فدادين من أرض الإصلاح الزراعى التى وزعها عبد الناصر فيما بعد على من كانوا يزرعونها . وبهى الدين مثل مصطفى يصرف ضعف هذا المبلغ على أفلام السينما . أما النمس فهو ابن أرملة لا ترسل له شيئاً على الإطلاق ، لا تعطيه سوى قفة الخبز المشقق الذى تدخره من كد عملها كملّاية لدى بعض الأسر ، وتدبر له أجرة القطار رائحاً غادياً ، والإيجار ، وهذا يعتبر كثيراً جداً عليها . وهو مثلى يؤمن بحقيقة مثل راسخ فى ذاكرة بلدتنا : " إن حضر العيش – يعنى الخبز – يبقى الملح – أى الغموس – دلع ! " أى من قبيل الرفاهية . أما أنا فمصروفى يكفى بالكاد لكل يوم قرش تعريفة ؛ وهذا المبلغ الذى يطلبه محمد فسدق يعتبر بالنسبة للنمس ولى رقماً فلكياً نكتفى إزاءه بالصمت باعتباره من الأمور الكونية التى لا نملك حق الكلام فيها أو شغل الدماغ بها . لكننا مع ذلك فوجئنا بأن الأمر قد دخل فى طور التنفيذ الجاد ، إذ يبدو أن محمد فسدق اعتبر صمتنا من قبيل الموافقة ، فشرع ينظم موعد الوجبات ونوعياتها فى الفطور والغداء والعشاء شكل فيه منتهى الإغراء والعز لم نشهده فى بيوتنا . وإمعانا منه فى الكرم ، وعلى يل الربط النهائى للكلام ؛ بادر محمد فسدق بتنفيذ مشروعه الغذائى فى اليوم لى مباشرة ..

عشنا في رغد من العيش لمدة ثلاثة أشهر ؛ ما نأكلـه فـي الفطـور لا نأكلـه فـي الغذاء أو العشاء ؛ والشاى ضرورى إثر كل وجبة ، وبالحليب فـي الصبـاح ؛ حتـى تغيرت سحناتنا فتدفق الدم في وجوهنا وصرنـا ميـالين إلى المـرح والصفـاء والرغبـة الجادة في المذاكرة . صرنا عائلة واحدة ؛ فعرفـت أقدامنـا طريقهـا إلى بيـت الحمـاة كل بضعة أيام خاصة أيام الجمعة مع محمـد فسـدق وصفيـة ، لنتغـدى معـاً هنـاك ، ويجالسنا محمد أفندى حسن مسافة شرب الشاى وتدخين سيجارتين ثم ينصرف إلى سنتراله ؛ لنبقى نحن حتى أذان المغرب ، ونقفل عائدين ، نتبـادل حمـل الطفلين فـي الطريق . كان مصطفى وبهى الذين يدفعان كل شهر حسابهما بانتظام . أما أنا فقد زعمت أنني أنتظر حلول موسم الحصـاد حتـى يحصِّـل أبـى حقوقـه لـدى الفلاحـين فأدفع له حسابه كله دفعة واحدة . فلما ظهر على محمد فسدق ميل للإقتناع إقتـدى بى النمس فزعم نفس الزعم . وكان حرياً بمحمد فسدق أن يكفر بمزاعمنا هذه لولا أن حدث حادث بدد ركود أيامنا وأنعشنا لبضعة أسابيع ؛ ذلـك أن الحـاج مسـعود القبانى زوج ابنة عمى جاء موفداً من قبل أخيه في بلدتنا لكى يزور ابنـة مصطفـى في مسكنه ويتأكد من صدق هذا النظام الجديـد الـذى ادعـاه الولـد ليـأخذ بموجبـه جنيهاً في الشهر فوق مصروفه . إذا تأكد للحاج مسعود أن الأمر صحيح لا نصـب فيه ولا احتيال من جانب الولد ، أبدى إعجابه الشديد بهذا النظام ، وامتدح أصالـة محمد فسدق وزوجه فلما تطرق الحديث إلى تبليطى فـي الخـط أنـا وزميلـي النمـس فيما يختص بدفع الحساب المتفق عليه ؛ طبطب الحاج مسعود على صدره في شـهامة قائلاً من خلل شفتيه الغليظتين اللتين تقلبان حرف السين والصاد إلى شين :

– " العيال دول – يقصد أنا والنمـس – كلامهـم سـحيح ! وعلـى العمـوم لـو مادفعوش رقبتى سدادة !"..

ثم إنه تغذى معنا من الزيارة التي دخل بها علينا من طرف أخيـه ، قوامهـا أوزة محمرة في حلة من الأرز المعمر باللحم العجالى ، مع فطير مشلتت وعسل نحل وجبن قريش . آثرت صفية أن تضع هذا كلـه أمامنـا حتـى لا تتهـم بفراغـة العين أو أنهـا كانت في انتظار شئ كهذا . وقبيل انصرافه أعطى الحاج مسعود لمصطفـى – علـى سبيل البقشيش – ورقة بربع جنيه ؛ ثم شعر بالحرج فأعطانا كل واحد بريزة فضية،

ثم شعر بالحرج مرة أخرى فأعطى لإبنيّ محمد فسدق كل واحد ربع جنيه ، وانصرف مشيعاً باحتفال كبير ؛ إذ قمنا جميعاً بتوصيله حتى قرب منزله ، حتى صفية قامت هي الأخرى فودعته حتى خرج من باب الشارع وظلت واقفة به إلى أن اختفينا في المساكن البعيدة . بعدها تدعمت ثقة محمد فسدق فينا ، لدرجة أنه تركنا نسافر بعد الإمتحان حاملين كل أمتعتنا ، على وعد بأني سأحضر بعد أيام لرؤية النتيجة ومعي حسابي وحساب زميلي النمس . غير أنني لم أعد مطلقاً لأنه كان قد حدث ما حدث لي في الإمتحان مع مدرس الرياضة ذاك . وذات يوم فوجئنا بدخول محمد فسدق علينا في منزلنا بالبلد ومعه كيس من الفاكهة يرافقه مصطفى القباني . ولم يكن أبي يعرف شيئاً عن موضوع النقود التي أنا مدين بها لمحمد فسدق . فلما سمع شرحاً له من مصطفى لم ينبس بحرف ، لكنه بعد شرود طويل أشار نحو قائلا لمحمد فسدق :

– " إن كنت تقبل شراءه شخصياً بربع هذا المبلغ فهنيئاً لك ! أو خذه دون أن تدفع شيئاً !"..

ثم تركه وأقام الصلاة . وكان أبي قد عاقبني على ما حدث فرفض أن يشتري لي ثوباً جديداً ، فكنت لحظتها أرتدي ثوباً قذراً ممزقاً من أماكن كثيرة ، فنظر لي محمد فسدق نظرة غامضة لم أفهم معناها ، لكنه فشخ حنكه ضاحكاً ، ثم نهض واقفاً ، تم ربت على كتفي قائلاً : يعوض عليّ وعليك ربنا !.. وسحب مصطفى ومضى تاركاً ضحكته ترن في عتبة دارنا لوقت طويل بعد انصرافه . ويومها علمت من مصطفى أن الحاج مسعود هو الذي أرسله إلى دارنا ووصف له طريقة الوصول إلينا بدقة ؛ ثم قال لي مصطفى وهو يداري خجله إن أباه قد دفع لمحمد فسدق حسابي وحساب النمس فرحاً بنجاح مصطفى ..

*****

.. كل ذلك دار في خلدي وأنا جالس على الأريكة الواطئة الشبيهة بكرسي اسح الأحذية ، التي أصر عم حنبوطة أن يجلسني عليها ريثما أشرب الشاي . وفيما كنت أشرب الشاي صرحت له بأني نفسي في أكلة سمك من يده . فامتدت

اصابعه وانتقت بعض البلطى والثعابين والقراميط ، وضعها فى قرطـاس كبير محكـم الإغلاق :

– " بالهنا والشفا !"..

– " بكم ؟ "..

– " هات ما يطلع من ذمتك !"..

– " لابد أن تقول ! "..

– " هات ثلاثين قرشاً ! "..

– " فقط ؟! "..

– " فى بيتها !"..

سارعت بالدفع بكل أريحية ، هممت بالقيام لكنه استبقانى مستدركاً يسألنى عن سر غيبتى هذه الطويلة ، ويذكر أن زملائى مصطفى وبهى الدين وأحياناً ذلـك المدعو بالنمس يجيئون حتى وقت قبل أن يتخرجوا بأيام قليلة . ثـم قـال لى خـبراً مذهلاً ، مؤداه أنه سمع من مصطفى أفندى أن بهى الدين والنمس تركا الدراسة بعد الرسوب مرتين فالتحقا بالكتاب العسكرى ولابد أن كـلا منهمـا قـد أصبح الآن صولاً فى الجيش قد الدنيا . وكنت أتعجل الإنصراف قبل أن يرانى أحد من سـكان هذا البيت تجنباً للحرج ؛ إلا أن هذا الخبر عطلنى ، إذ رحت أسأل عم حنبوطة عـن كثير من التفاصيل لعله يعلمها عن هذا الكتاب العسكرى وشروطه لعلنى أتقدم إليـه أنا الآخر . مادريت إلا ومحمد أفنـدى حسـن يقبل نحونـاً مرتدياً الجلباب البلـدى مسلطاً بصره علينا وقد تحول وجهه كله إلى ابتسامة فرحة برؤيتى . قال عم حنبوطة بفرح كبير:

– " محمد أفندى ظهر ! تراك لم تره من سنين ! هـو الآن علـى المعـاش ! سـوّى معاشه قبل الأوان ! وافتتـح لنفسـه كشـك سـجائر وحلويـات علـى ناصيـة ميـدان الساعة ! اقتنصه من البلدية بالكوسـة عـن طريـق المرشـحين فـى انتخابـات الاتحـاد الإشتراكى وهو نفسه عضو فيه !!"..

ثم أضاف بلهجة ذات معنى :

– " هو الآن يبحث لنفسه عن عروس ! الناس تكبر فيركبها الجنون ! بعد ماشاب ودّوه الكتاب !"..

لحظتها طب علي محمد أفندى ، فتلقفنى فى حضنه بحرارة . وبعد أن اشبعنى لثماً وسلاماً وسؤالاً عن الصحة والوقت والأحوال ، وجه الكلام إلى عم حنبوطة :

– " ماذا كنت تقول له عني يارجل يا مخروق ؟!"..

فضحك عم حنبوطة عن أسنانه الصفراء :

– " أكلمه ليبحث لك عن عروس ! هذا ما قلته !"..

ضحك محمد أفندى :

– " أنت متأخر! نحن نتكلم اليوم فى تحديد يوم الفرح !"..

ثم سحبنى من ذراعى نحو البيت . ترددت مشيراً إلى ما معى . حلف بالطلاق ممن سيتزوجها أن أدخل لأسلم على " الجماعة ". فلم أجد مفراً من ترك القرطاس لدى عم حنبوطة والدخول مع محمد أفندى حسن ، منكساً رأسى فى الأرض من فرط الخجل ..

وإذ استدرت للدخول فى باب البيت لمحت شخصاً تأكدت أنه رمضان عريجة ، كان يروح ويجئ أمام الباعة فى قلق واضح ، يسترق النظر من تحت لتحت إلى هنا وهناك . فتحت لنا وفدية ، وكانت متعجلة ملخومة لدرجة أنها لم تنتبه لوجوده . فما كادت تهرول نحو الداخل حتى صاح فيها محمد أفندى حسن :

– " إتعميتى ولا إيه ! مش تسلّمى ؟!"

حملقت فى وجهى كالمذهولة ثم جعلت تصيح :

– " مش معقول ! أهلاً وسهلاً ! فينك يا راجل من زمان ؟!"..

وسلمت عليّ بحرارة ، وقادتنى من يدي إلى أمها المتربعة على الكنبة بجوار شباك الشارع . فسلمت على هى الأخرى بحرارة وسألتنى عن أخبار أهلى . وهتفت وفدية فى غبطة ومرح :

– " دى صفية كمان هنا ! تعال يا صفية ! مفاجأة فى انتظارك !".

فأهلت صفية قادمة من حجرة البنات كما يسمونها ، يتعلق بثوبها طفلان كبيران. ما كادت ترانى حتى صاحت فى فرح حقيقى :

- " معقولة ؟! أهلاً وسهلاً بيك ! والله زمان ! "..

وسلمت عليّ بحرارة أشد ، وراحت تغالب الرغبة فى البكاء . هنا سحب محمد أفندى أحسن كرسياً وضعه بجوار كنبة أمه ثم أجلسنى عليه ؛ وسحب آخر ووضعه فى مواجهتى . وجلست صفية على حرف الكنبة وهى تمسح دموعها التى انهمرت فجأة بشكل أدهشنى ؛ إذ لم أكن أتوقع أننى يمكن أن أثير كل هذه العواطف الساخنة والإشتياق الحار . لكن محمد أفندى حسن قطع الطريق على خواطرى حين أشار إلى الطفلين الكبيرين قائلاً :

- " تصور ! إن النذل ترك هذين الطفلين الجميلين وراح يتزوج ! نعم ! ربنا كرمه فأصلح حال البيت وعلاه بدورين فأصبح يقبض إيجاراً محترماً ! وافتتح بوفيهاً لحسابه فى محطة السكة الحديد ! وأول ما شطح نطح ! فكر فى الزواج على هذه المسكينة التى شربت معه مر الفقر ! وأصل السبب بنت مايصة ملونة العينين قابلها فى المحكمة فطيرت مخه ! هى مطلقة وعندها قرشان فى يديها وتحت البلاطة وفيه معيز ومواش ومحاصيل !! من يوم ما عرفها اندار على هذه فأوراها العين الحمراء ! لكنى سأنخنحه ! سأجعله يسف التراب ! سيلعن اليوم الذى ولد فيه !" ..

وبكاء صفية يزداد حرقة ، وتتمخط فى منديل صغير . جاءت وفدية بصينية عليها زجاجتى اسباتس ، وضعتها على طقطوقة صغيرة وانصرفت عجلي إلى حجرة البنات ، التى صرت بقعدتى هذه فى مواجهتها تماماً . إنفتح بابها قليلاً ؛ فإذا بى أرى ما أذهلنى وسمرنى فى جلستى على نظرة بلهاء : كانت سندس الغجرية بلحمها ودمها متربعة على الأرض أمام طست غسيل ملئ بالمياه يتصاعد من حوله دخان البخور ، وهى منهمكة فى تقليب أشياء فى سفطها ؛ فحمدت الله أنها لم ترنى . أغلقت وفدية الباب وراءها . قال محمد أفندى حسن :

- " الغذاء يا صفية ! نأكل لقمة أنا والأستاذ !"..

- " لا ! أرجوك ! إعفنى من الغذاء فورائى مشوار مهم !"

- " لقمة خفيفة على ما قسم ! يلا يا صفية !"..

- " أنا مضطر للمشى الآن فوراً !

- " طب خلاص يا صفية !"..

فجلست ثانية. وحملت صفية الصينية وذهبت بها إلى المطبخ ثم عادت بعد قليل بفنجانين من القهوة . لحظتئذ وورب باب حجرة البنات وانزلفت منه وفدية ، فأقلبت علي صفية وهمست فى أذنها بشئ . قالت صفية : حاضر ؛ ثم خلعت من عنقها عقداً من الذهب عبارة عن حبات أشبه بالزيتون الأصفر ، وخلعت من معصميها أربع غوايش سمكها رفيع ، وخاتماً من أصبعها ، وقرطاً من أذنيها ، ثم سلمت كل ذلك لوفدية :

– " أنا جاية وراكى! "..

– " طب روحى أنتى يا صفية !"..

أومأت لى برأسها :

– " عن إذنك !"..

– " تفضلى !"..

فمضت إلى حجرة البنات فواربت الباب وانسلت داخله والطفلان فى أعقابها . ولاحظت أن الحجرة قد أظلمت تماماً . ونظر لى محمد أفندى حسن نظرة ذات معنى ، مع ابتسامة سخرية :

– " شغل نسوان وكلام فاضى ! ناس متخلفين ! لكنها ارزاق ناس على قفا ناس !"

– " ما الأمر ؟!" .

تردد قليلاً ، نظر نحو أمه . كانت قد نكست رأسها فى حجرها مغمضة العينين مستغرقة من سنة من النوم . ثم مال نحوى قائلاً :

– " هذه الغجرية سرحت بعقل البنتين !! شهر على هذا الوضع !! أقنعتهما بوصفة غريبة لحل مشكلتهما معاً !! واحدة تريد محاصرة خطيبها بعمل يجعله يتعلق بها !! والثانية تريد أن تجذب زوجها إليها ليعود كما كان يحبها ويخلص لها !! شف كهن النسوان التعبانة فى مخها ؟! ولكن هل أستطيع أن أقول لهما هذا نصب واحيتال لا نفع فيه ؟ يقلن : أبو النواس يخرج من البلد !! أنا مالى يا عم ؟! وعلى كل حال من يعرف ؟! سبحانه وتعالى يضع سره فى أضعف خلقه!!"..

– " ولكن لماذا خلعت صفية ذهبها ؟!..

شوح فى سخرية ، وبنبرة شخر اسكندرانى :

- " العمل اسمه مشاهرة الذهب ! شرط العمل السحرى أن يتم فى حجرة مظلمة ! تقول هذه الغجرية إن فى الذهب سراً خطيراً لمن يفهم حقيقته ! أنا على فكرة سمعت هذا الكلام من مدة طويلة من ناس عاقلين !! الولية الغجرية كلفت البنتين بتحضير إبريق من المياه سقط عليه الندى ! وتضيف هى إليه أشياء من عندها! ثم تضع الذهب فى الطشت وتعزم عليه بتعزيمة معينة مع البخور الجاوى ! توشوشه بكلمات تعرفها ! تجففه وتعيده إلى صاحبتيه فتلبسه فينعدل حظها وينعدل مزاج الشخص الذى عليه العين والنية !! بينى وبينك أنا لا أعتقد فى مثل هذه الخرافات ! لكن ربما تجئ بنتيجة !! طب ما رأيك أن هذه الغجرية شافت لى البخت مرة وكانت صادقة فى كل كلامها عنى وعن أوضاعى وشخصيتى ؟! أدارت رأسى هذه المرأة ! لما طلبت منها على سبيل الهزار أن تعمل لى عملاً يحبب فى انسانة معينة كنت أهواها كلفت وفدية أن تجئ لها بأثر من ثياب هذه الإنسانة فأعطتها وفدية منديلاً كانت تطرزه لها ! طب ما رأيك أن هذه الإنسانة بعدها بأسبوع وافقت على الزواج منى ؟! حاجة غريبة فعلاً يا أستاذ! الواحد لم يعد يفهم كيف تمشى هذه الدنيا !!"..

وسحب نفساً عميقاً من السيجارة دون أن تتحرك عضلات وجهه ، واتسعت ابتسامته عن اسنان كبيرة بارزة فعمقت من مسحة البلاهة الجامدة التى تغلف وجهه. ثم إننى شعرت بالرغبة فى الإنصراف بسرعة قبل أن ترانى سنلس فيتضح أننا نعرف بعضنا . قمت واقفاً فى الحال طالباً الإنصراف . فنهض محمد أفندى حسن فسلم على وأوصانى بتكرار الزيارة إذ أن هذه المرة غير محسوبة ..

وجدت زحاماً شديداً حول عم حنبوطة . وقفت أنتظره حتى يفرغ من مناكفة زبونة متعبة . وفى الواقع كنت أترقب خروج سنلس لكى أتبعها من بعيد لبعيد ؛ فإذا بى ألمح رمضان عريجة يتلكأ على مقربة ، يتصنع البحث عن سمك جيد يشتريه. فجأة إشتبك عم حنبوطة مع ثلاثة من الأفندية ؛ سرعان ما تبينت أنهم مفتش التموين ومرافقين . راح عم حنبوطة يقنعهم بأنه يبيع بأقل من التسعيرة ، يريهم عينه البضاعة ، وورقة السعر النائمة تحت الأسماك بفعل تقليب الزبائن كما يؤكد ،

يستشهد ببعض الزبائن الواقفين على سلامة أسعاره . ثم إنه بجرأة كبيرة ، وبخفة يد غير طبيعية ، أمسك بيد الأفندى بحركة من يطلب الود :

– " وحق العشرة دول يا أفندى ما كذبت عليك!"

يقصد العشرة الأصابع التى خلقها الله لا تتشابه بصمة أصبع مع أختها . ويقصد فى نفس الوقت العشرة القروش التى غمز بها يد الأفندى ، الذى سحبها نصف مطبقة ثم داراها بكراسة فردها فوقها وراح يكتب بعض البيانات ، ثم سحب رفيقيه وانصرافوا . شيعهم عم حنبوطة مغمغماً :

– " حار ونار! "..

فى هذه اللحظة خرجت سندس من باب المنزل حاملة السفط على رأسها مخترقة زحام الشارع لا تلوى على شئ . إصطدم بها رمضان عريجة . بسرعة مدهشة دست يدها فى سيالتها وأخرجتها مشخللة برنين الذهب . دست يدها فى قبضة رمضان عريجة ، الذى دس يده فى جيب الصديرى واندفع بين الزحام فكأنما انشقت الأرض وابتلعته . أما هى فقد أخذت تتباطأ فى مشيتها عن عمد ، هاتفة بغير حماس : " أضرب الرمل وأشو .. و.. ف !"..

ثم تتلكأ ، تتوقف كل خطوة لتعيد النداء مرات ومرات كأنها تتعمد الإعلان عن وجودها لفترة طويلة فى رحاب ذلك البيت الذى خرجت منه . فجأة شق سمعنا صوت صرخة ملتاعة ، فى أثرها ظهر محمد أفندى حسن يلهث مهرولاً هاتفاً:

– " إلحقوها قبلما تختفى ! بسرعة ! هاتوها ! إمسكوها ! اللصة! المحتالة بنت الكلب المفترية !!"..

إندفع كالمجنون يضرب فى زحام السوق حتى اصطدم بسندس فأطبق بيديه على كتفيها ، ثم سحبها من طوق جلبابها بقسوة :

– " تعالى هنا ! عايزينك فى كلمتين !"..

وراح يجرجرها وهى منقادة له حتى اختفى بها داخل الشقة . ففى الحال توقعت ما يمكن أن يكون قد حدث ؛ فتسمرت فى مكانى وقد دبت الرعشة فى ساقى . مع ذلك كان ثمة ما يشدنى إلى البقاء لعلنى أتمكن من جلية الأمر . ظللت واقفاً مع

عم حنبوطة فى دهشة واستفهام لمدة تزيد على ربع الساعة . أخيراً وسع لى مكاناً على الدكة ، وكور كفيه حول فمه منادياً :

- " إتنين شاى يا أبو جاموس !"..

حتى أبو جاموس هو الآخر كنت أعرفه . هاهو ذا لم يتغير ، يقبل بالبراد والأكواب على الصينية يتمايل فى عياقه . أشار عم حنبوطة إليه وإلى قائلاً :

- " تعرفه؟! كبر هو الآخر ولكنه لا يزال يتمايل مثل علوق بنها ! الذى فيه فيه لم يتغير! "..

أبو جاموس لا يهتم ولا يعلق ؛ إنما نظر فى وجهى صائحاً ، وقد انبسطت سحنته بالترحاب :

- " إزيك يا أفندى ! فينك من زمان ؟!"..

وسلمنى الكوب :

- " على حسابى الشاى ده يا حنبط !"..

شوح عم حنبوطة وهو يغمزه بنصف الفرنك الفضى:

- " الحدأة لا ترمى الكتاكيت !"..

لدهشتى أخذه أبو جاموس فأسقطه فى جيب المريلة الكالحة دون أى اعتراض ، واستدار ماشياً ..

كان الكوب على وشك الإنتهاء حينما خرجت سندس تعدل فى هيأتها وقد تورم وجهها وظهرت عليها البهدلة الشديدة ، وفى عينيها بعض دموع كاذبة . مضت فى طريقها متجنبة النظر إلى أى شئ . وحينما حملت قرطاس السمك وتأهبت للإنصراف ظهر محمد أفندى حسن كالموتور يصفق كفاً يكاد يبكى من غضب مكتوم :

- " ياقاعدين يكفيكم شر الداخلين ! أنا لا تنقصنى المصايب والله يارب ! فتشنا المرأة فى كل مكان ! حتى لموخذة فرجها !! لم نجد أى شئ ! أيكون هذا معقولاً ياناس ؟! أيكون الصائغ قد غشنا من الأساس ؟! صفية المقرمة الروبة ينضحك عليها ؟! ربك والحق كانت خائفة من الأول ! قلت لها يا صفية هذا خرف نسوان ! صفية كانت خائفة لكنها وافقت !! بمجرد خروج الغجرية خلعت

ذهبها ووزنته فى كفها بعد تشككك ! قالت إن الذهب صار ثقيلاً بعض الشيء ! وفى ملمسه خشونة ! أمسكته فى كفى ووزنته ! فعلاً دققت فى موضع الدمغة ! ليست الدمغة فى المواضع التى كانت فيه من قبل ! إنه ذهبنا ونعرفه قطعة قطعة ! عرفت فى الحال أنه من الذهب القشرة !! لكن نظامه هو هو لم يتغير ! نفس الفرع ونفس الغوايش ونفس الحلق لكن الذهب ليس هو الذهب !! أتكون هذه الغجرية قد سحرته ؟! منذ شهر وهى تجىء كل أسبوع مرة ومرتين وتعاينه وتعد حبات الفرع وتقيس وتوشوش !! كان يجب أن نسلمها لشرطة البندر لكنها صعبت على أثناء التفتيش !! عرت نفسها أمامنا قطعة قطعة ونفضت نفسها واحتملت الضرب بالبونية والشلوت !! أعطنى عقلك! لحقناها بعد خروجها بثلاث دقائق ! أمعقول أن تكون تصرفت فى الذهب بسرعة البرق ؟! أين وكيف ؟! إنها لم تبتعد عن البيت !! أنا سأجن يا ناس !! طول عمرى أخشى الفضيحة وهاهى الفضيحة قد جاءت لحد عندى ! دبرنى ماذا أفعل ؟! ماذا أقول للكلب ابن الكلب فسدق ؟! أيكون هو الذى غشنا ؟ متى ؟ طب ذهب وفدية ؟! ليتنى ماتركت الغجرية ! ولكن ماذا ستأخذ الريح من البلاط ؟! إننا نستاهل ماجرى لنا !! حلال علينا هذا الخراب ! مادمنا أولاد قحبة متخلفين نؤمن بالخرافات !! آه يارب ! أدفع بقية عمرى الآن لأعرف كيف حدث ما حدث !! ولكن : لو كانت هى الفاعلة أكانت تبقى هكذا دون أن تهرب ؟! هى نفسها طلبت بلسانها أن تذهب بها إلى البندر !! إننى سأجن ! سأشل ! فعلاً ! لايقع فى الخية إلا المفتحين !!"..

وكان صوت الولولة واللطم فى داخل الشقة يتعاشق مع صوت محمد أفندى حسن . بعد برهة خرجت وفدية ملتفة بالملاءة اللف السوداء ؛ ومن خلفها صفية بالملاءة أيضاً . شيعهما محمد أفندى بغيظ .

_ " لاتتعبا نفسكما ! الذهب فالصو ! إن القشرة واقعة من بعضه ! سيضحك منكما أى صائغ ! أين تذهبان يا أولاد الزوانى يامتاعيس ؟ ياقدرى الأسود ؟!"..

وشرع يشق طوقه ؛ لكن عم حنبوطة أطبق على يديه صائحاً بصوت دافىء ، صوت برلسى فيه نبرة الفصاحة وقلوظة حرف القاف :

– " وحد الله يا رجل ! موت وخراب ديار ؟! قل ما تشاء وفضفض لكن لا تشق المدوم فهذا كفر والعياذ بالله!!"..

فجعل محمد أفندى حسن يصرخ من الغيظ ؛ ثم مضى مسرعاً خلف شقيقتيه . وكان صوت سندس قد ابتعد . بقيت مسمراً في مكاني لا أعرف كيف أتصرف. كانت الأرض تدور بي تضعني في سجن الحيرة : فلو تكلمت بما رأيته فلن أنجو من الإتهام ، بل المؤكد أنني سأبدو حينئذ كشريك لها استيقظ ضميره فجأة فاعترف على شريكته متنصلاً منها ؛ الملابسات كلها سوف تؤكد للجميع ذلك الظن ؛ إذ ما الذى جاء بي اليوم إلى هنا بعد غيبة طويلة صحبها سوء سمعة بشكل عام ؟ وما الذى تراه يربطني بسندس ؟ إن كلامي سيقلب الدنيا على رأسي ، سأرغم على إرشاد البوليس إلى الوكالة ؛ يجر البوليس بعض رجالها ؛ لا يستقيم لى في الوكالة مقام بعد ذلك . لقد صرت متأكداً الآن من أن سندس لفت على هؤلاء المساكين الأغرار حتى حفظت شكل ذهبهم واشترت نظائر له من الذهب الفالصو بواسطة رمضان عريجة الذى رأيته بعيني يتسلم منها الذهب الأصلى ؛ ولكن هل أستطيع التصريح بذلك أو الإعتراف به ؟ هل يرحمني أحد ؟ هل يحترمني البوليس أو حتى يترفق بي ؟! لا أظن ذلك مطلقاً . إن الإنسان لا يمكن أن يكون شريفاً داخل محيط من الفساد والفسق ، الشرف لا يمكن أن يكون فردياً بأية حال من الأحوال حتى لو أراده شخص مثلي يحلو له أن يصير كاتباً يتحدث عن الأخلاق والمثل العليا ؛ وحتى لو تحلى به الإنسان واعتنقه ؛ فالشرف كما يبدو لى الآن لا يتحقق بالإختيار فقط ولا بالممارسة فحسب وإلا فأنا شريك بالصمت في هذه الجريمة ..

وهكذا أمسكت بقرطاس السمك ومضيت أترنح في الشوارع أجرجر ساقي من شدة الخذلان والألم والكآبة ؛ وقد فقدت حماستي لكل شئ . صرت أتمنى أن تنشق الأرض لتبلعني فأنجو من هذه الخواطر المعذبة . لكن الأرض انشقت عن محمد أفندى حسن ممسكاً بسندس من قبضة يدها ومتجهاً بها إلى قسم شرطة البندر ؛ ومن خلفه كل من صفية ووفدية ، وبعض السابلة ، ومجموعة من الأطفال بمرايل المدارس وحقائبها . تابعتهم حتى اقتحموا البندر ودخلوا حجرة البلوكامين الواقعة على الشارع العمومي مطلة على ميدان الساعة بشباكين طويلين مفتوحين عن أعواد

من الحديد تظهر من خللها جثة البلوكامين جالس فى الصدارة إلى مكتب عتيق ومن خلفه السلاحليك مرصع بالبنادق . على الشارع الخلفى يطل شباكان آخران لكنهما مغلقان . تحت أحدهما وقفت أتصنت ممسكاً بقرطاس السمك ولفة الهريسة. هذا السمك كان من المفروض أن تطبخه سنلس بنفسها لنأكله الليلة ونحلى بورقة الهريسة ، فى حجرتها هى بالوكالة . فأى شؤم هذا الذى حدث؟ شعرت أننى أرغب فى رمى كيس السمك إذ هو فيما بدا لى سبب النحس . أما لفة البسبوسة فيمكن أن أتسلى عليها وحدى . تذكرت وداد ، فلأعطها السمك. إنتقلت إلى الرصيف المقابل ، مضيت بجوار سور المنتزه ماراً بمكتبة البلدية والمطافئ ، فى مواجهتى محكمة دمنهور الجزئية التى يعمل بها صديقى الأديب مسلم المغازى . هذا المبنى يشدنى دائماً ، لأحود من ورائه يميناً إلى قهوة المسيرة ؛ لكننى حودت فى الشارع العمومى . على يمينى مدارس معيطى ، ومن بعدها المصور فرام ، الفخيم ، على ناصية حارة جانبية تؤدى إلى سينما الأهلى ، ودكان العجلاتى الذى كنت زبوناً له مدة طويلة . مررت مرة أخرى على بائع الهريسة فانتقلت تلقائياً إلى رصيفه؛ ثم تجاوزته إلى مكتبة البنا ، فشارع السوسى ، فالمديرية ، ثم أخذتنى حمية السير فحثثت الخطى نحو ذيل المدينة الممتد فى الخلاء المتاخم للمزارع البعيدة .

الرهــق

لمحت رأس وداد على حافة الشرفة ؛ فطرقعت بـأصبعى ، فأسقطت عينيهـا فـى الشارع ؛ فأشرت لها بيدى أننى قادم . فسحبت عينيها ثم رأسها ..

قلت وأنا أسلمها القرطاس واللفة :

– " الظاهر أن سندس نسيت موعد سهرتنا الليلة عندها ! حجرتها مغلقة بالقفل ولابد أنها سرحت ويعلم الله متى تعود !"..

ظهر فى عينيها كأنها تعرف خطة سندس اليوم بالتفصيل ؛ إذ قالت بثقة تامة :

– " إنها عائدة ! هى فى مشوار قريب فى البلد ! تسرح اليوم ! سرحتها أصلها طويلة فيها سفر وبلاد ! إنما هى اليـوم تعـرف الموعـد وتحضـر نفسـها لـه ! وراءهـا مشوار صغير فى وسط البلد سيجئ من ورائه حسنة بسيطة ! مسكينة وغلبانة ! فين وفين لما يرزقها الله بحسنة تسندها !"..

دفعتها إلى الداخل :

– " يظهر أنك تعرفين مشوارها !"..

– " نعم ! هى لا تخبئ شيئاً عنى ! أنا حبيبتها الوحيدة هنا ! سرها معى وسـرى معها! لا تشغل بالك أنت ! ففى الموعد ستجد حجرتها مضاءة! سنراها من هنا!"..

– " واثقة أنت من أنها لابد تعود فى الموعد ؟!"..

– " إذا لم يبتليها الله بعربة تفرمها والعياذ بالله !"..

– " أو تكون وقعت فى مشكلة مثلاً !"..

هى لاتقع فى أى مشاكل ! هى تخرج كالشعرة من العجين! هى نَورية تعجبك! إرمها فى البحر واتركها ! غطسها تجدها عائمة بعد مترين ! هى لبط ! إن أردت أن توقعها فى مشكلة أوقعتك فى مصيبة! لكنها طيبة وغلبانة وقلبها مثل البفتة البيضاء! ليست غدارة! إنما تعرف كيف تنتقـم: تضربـك بنفـس السـلاح الـذى ترفعـه أنـت عليها! فاطمئن! إن سندس آتية فى موعدها وسنسهر عندها! أهذه الأشياء لها ؟!"..

– " لنا كلنا ! ليتك تقومين أنت بطبخ هذا السمك قبل أن يفسد ! هذه لفة هريسة هاتيها مع السمك في السهرة ! سأذهب لأنام ساعة أو ساعتين ونتقابل عند سنلس !"..

– "ولماذا تذهب ؟ خش في البلكونة ومدد جسدك كيف تشاء ! النوم مع رائحة الطبيخ حلو يسند الرأس ! كل أرزا بلبن مع الملائكة حتى أصحيك لتتنزل!"..

– " فكرة!"..

دلفت إلى الشرفة فخلعت حذائي ؛ سحبت حشية الكرسي فثنيتها تحت رأسي؛ مالبثت حتى استغرقت في نوم عميق . وحينما فتحت عيني على يد وداد تهزني كنت قد نسيت كل شئ في الحياة كأنني أولد الآن فحسب . وكنت كالمخدر وأنا أضع قدمي في الحذاء وأترنح نحو دورة المياه لأطس وجهي بحفنة من الماء ..

قالت سنلس ونحن متربعين حول الطبلية نغرس أصابعنا في سمك بالدمعة وآخر مقلي :

– " ربنا ابتلاني اليوم ببلوى عمرها ما خطرت ببالي يا وداد !! الواحد منا يمشي في حاله والبلاوي تنحدف عليه من الباب للطاق ! أنا ماشية في حالي لا بي ولا عليّ مادريت إلا ورجل مكعبر الوجه يقبض على كتفي يشدني ينزل فى ضرباً بالبونية والشلوت ووراءه امرأتـان من أهل الحواري الرداحات يصوتن ويمسكن بالخناق لأى سبب !! مالكم يا أسيادى ؟ قالوا : هاتي الذهب الذى سرقته منا ! تعالى إلى البندر ليحقق معك البوليس لكن آمنت بك يارب ! أختك يا وداد قلبها أبيض ! ربنا هيألي طفلاً من ولاد المدراس وقف يتفرج عليهم وهم يضربوني ! فلما سحبوني إلى البندر سحبت الولد معي وغمرته بقرش ! البلوكامين فتح المحضر! الرجل الكلب ابن الكلب الظالم ادعى أنني دخلت بينهم وعملت لهم عملية سحر ونصب حتى سرقت ذهبهم وأعطيتهم بدلاً منه ذهباً مغشوشاً !! إيش قولك ياوداد يا أختى أن البلوكامين بص له من فوق لتحت ولم يصدقه ! قال له : متى حصل ؟ قال : الآن وقد فتشناها فلابد أنها ابتلعته في جوفها ! قال البلوكامي ن: تبتلع فرعاً وأربع اساور وحلقاً وخاتماً ؟ لابد أنها بحر ماله قرار! لو حصل هذا لماتت في الحال! قل كلاما غير هذا ! وقال ل ى: ما اقولك يا امرأة ؟ قلت : يا سعادة البيك ربنا

يخليك أنا ولية غلبانة ومنكسرة على باب الله ! كنت ماشية فـي الشـارع مـادريت إلا وهؤلاء الناس يهجمون علي وهات ياضرب ! شوف ياسعادة البيه آثار الضـرب علي وجهي وجسـدى كلـه ! ومـا عرفـت لماذا يضربونـي إلا الآن ياسـعادة البيـه! عمرى ما شفتهم ولا عرفتهم !! المرأتان هات يـالطم ! والرجـل يصفـق علـى كفيـه ويزغدني ويقول : ياولية ياضلالية يابجحة والله إنك الآن حرامية بـالثلث !! دفعـت الولد أمامي بمريلة المدرسة وبخلاة الكراسات وقلت يا سعادة البيه هذا طفل بـرئ لا أعرفه ولا يعرفني إسأله ماذا رأى بعينه ؟ فسأله فقال الولد : ياثعادة البيـه الثـت دى كانت ماشية تنادى على البخت والراجل دهه جرى وحلق عليها ونزل فيهـا ضربـاً بالبونية والشلوت وجرجروها في الشارع لحـد هنـا ! قـال البلوكـامين : علـى كـل حال نفتشها ! وفتشوني وفي الآخر قال البلوكامين : لمؤاخذة ياجماعة ليـس عنـدى سبب أمسكها به والحجز مزحوم بالتحريات والضباط يزعقون لنا إن حجزنـا أحـداً بدون سبب مهم ! وعلى كل حال إن ظهر لكم سبب جديد تعالوا وأنـا أجـئ بهـا من تحت طقاطيق الأرض فإننا نعرف كل الأماكن التي تأوى أمثالهم وكل مـا أقـدر عليه الآن أن أعمل لكم محضراً ونبحث عن مواصفات ذهبكم عند الصاغة ونـترصد من يذهب لبيعه ! وأنت ياولية إن ظهر أنك فعلت هذه الفعلـة سـأدب هـذه العصـا في فرج أمك ! هيا غورى من وجهي يا بنت القبحة ! لا نأخذ من ورائكـن سـوى المصائب التي تتكرر في الأرياف ولكـن إن عشـت سـأقطع دابركـن جميعـاً واحـدة واحدة !! ولما طلعنا من البندر جاء الرجل يريد أن يضربني فرميت ما معـى ونزلـت فيهم جميعاً بالضرب والصوات حتى بهدلتهـم ومزقـت ثيـابهم وعملـت ميتـة حتـى مشوا وتركوني !!"..

نظرت لي وداد كأنها تقول : ألم أقل لك ؟ ثم نهضت واقفة تمصمص أصابعها؛ وحملت الطبق المغطى بشاشة نظيفة والذى وضعنا فيه ماناب شوادفي حتى لا يسمم ليلتنا كلها ؛ ومضت به إليه ؛ فيما بقيت مع سندس . صرت أنظـر إليهـا مـن تحـت لتحت أحاول معرفتها من أول وجديد . وبعد قليل جاءت وداد ؛ فبدأت السـهرة . تولت هـي غسـل الجوزة وتسـييخها وتنظيـف الحجـارة وإشـعال النـار ثـم تعسـيل الحجارة وتوقيعها بخاتم الحشيش قائلة إن علينا أن نأخذ راحتنـا فـي الشـرب والمـرح

باطمئنان لأن شوادفى جالس بالباب كالأسد لن يترك أى حكومة تدخل حتى يكون قد صاح وغجر وبرطم بما يكفى لأن يتخلص الجميع من أى شئ يمكن أن تضبطه الحكومة ؛ فبهذه الطريقة لم تتمكن الحكومة أبداً من ضبط أى شئ فى الوكالة ..

أخذنا راحتنا بكل اطمئنان . وكلما مضى الوقت أهابت بى وداد أن أخذ راحتى أكثر؛ فمرة أوصتنى بارتداء الجلباب وذهبت هى إلى حجرتى بملابسى لكى تأتى بالجلباب فبقيت بالملابس الداخلية إلى أن جاءت ، مما أتاح لسندس أن ترانى شبه عار ؛ ومرة ثانية أوصتنى بأن أتمدد لأريح ظهرى ؛ فتذكرت أننى بين عاهرتين لكل منهما طعم خاص . أكلنا الهريسة فاشتعلت ؛ صرنا نضحك بشكل هستيرى متواصل وبانفعال حقيقى ؛ نميل فيه على بعضنا ونتصافح بالأيدى . وكان الراديو مفتوحاً فى مكان قريب جداً لعله منزل من المنازل الملاصقة للوكالة من الخلف ، فكأنه فى الحجرة معنا ؛ وقد راحت المطربة صباح تردح على نقر الدربكة والناى بأغنية : زنوبة.. زنوبة.. حلوة وخفة وحبوبة .. شوبش يا حبايب زنوبة .. زنوبة.. فنهضت سندس واقفة ، وبحماسة وحرارة خلعت جلبابها وبقيت بالقميص الداخلى فكشفت عن جسد مشدود ملئ بالبروزات والتكورات المكتنزة ؛ سحبت شالاً فتحزمت به فوق قبة الفخدين مباشرة حتى برزت السرة كغطاء حلة مقلوب ، جعل يتراقص رائحاً جائياً صاعداً هابطاً ؛ ناهيك عن الثديين وما تحتهما ، والعجيزة التى بدت كالعجين الخمران وهى تلتف حول نفسها فى نشوة . كانت تضم كفيها وتطرقع بأصبعيها الكبيرين على نغمة الإيقاع برشاقة مدهشة . ويبدو أن وداد قد غارت منها ، إذ نهضت هى الأخرى ونزلت قصادها رقصاً . صرت أصفق لهما على واحدة ونص . ولحظة أن وقفت لأشاركهما الرقص انقطعت الأغنية وبدأ المذيع يقرأ موجز الأخبار ؛ ثم مالبث حتى انكتم فى الحال . وتهاوت سندس بحركة اصطناعية فتلقيتها على ذراعى ، بحركة اصطناعية أيضاً ؛ ثم عدلتها فاحتضنتها فقبلتها ، فبقيت مستسلمه فى رخاوة . قالت وداد بلهجة ذات معنى :

- " أنكشح أنا ! سأمرق من الباب فى الكتم إلى أوضة جدتى جنبكم ! أحب أن أسمع رقصكم !"..

ومرقت بالفعل من وربة الباب ؛ سمعنا حفيف ثوبها وهي تمرق إلى حجرة جدتها وتغلق الباب برفق . إمتدت يد سندس فأغلقت بابها بالترباس . إرتمينا معاً على الأرض متلاحمين . صرت أحتضن وأقبل وأعبث بيدى في كل مكان . هي الأخرى صارت تفعل ذلك بحماسة ، لكنها كانت كمن ينفخ في نار مطفأة . خلعنا كل الثياب ؛ صرنا نتمرغ فوق بعضنا ، فلا يصيبني سوى اللهاث والعرق ، ورائحة الأنثى تلفح أنفي تخترق خياشيمي مختلطة برائحة عرق لزج وبقايا بصل وثوم وزفارة سمك . أنشّد قليلا لدقائق معدودة وسرعان ما ينقطع الحبل. وكان صوت أذان الفجر يحيط بنا من كل الجهات حينما تمددنا بجوار بعضنا جسدين عاريين ، أحدهما يحاول إخماد نفسه والآخر يحاول التشبث بأذيال الحياة دون جدوى . وكأن ثمة اتفاقاً صامتاً قد جرى بأن نستريح قليلاً حتى تهدأ الأعصاب ويزول الرهق لعل وعسى ؛ ولكن كل شئ سرعان ما اختفى داخل جب مظلم . وحين عدت إلى الوجود بعد اختفاء طويل في المجهول المضطرب كانت وداد تنقر الباب من الخارج لتصحينا ، والضحى يغمر فناء الوكالة باللون الأبيض الكريمي . فتحت لها سندس ؛ وفيها كنت أتمطع وأعتدل جالساً تحت سندس في لقطة خاطفة وهي تلعب أصبعها تجاهي بحركة بذيئة جداً فيها معنى الولولة والإستهزاء والصدمة. حينئذ انتبهت إلى عريي التام ، فشعرت بخجل شديد ، وسارعت بارتداء ملابسي .

وديدة أنقح من وديدة

.. " إقعد قليلاً معنا يا أخانا !.. أم أن من يرى أحبابه ينس أصحابه كما يقول المثل ؟ كل شئ يتم هنا بمزاجى على كل حال فلا تظن نفسك نصف فرنك !!"..

" إقعد معنا شيئاً من الوقت فربما احتجت إليك الليلة فى أمر !! النافع هو الله أى نعم لكن الله ينفع الناس بالناس ! ولسوف أسقيك شاياً معتبراً عمرك ما شربته! وستأخذ عدساية أفيون ! هاها ! لو كنت أخذتها ليلة السهرة إياها لسترت وجهك!! خذ! لا تأكلها الآن فهى كبيرة !"..

" قم يازينهم هات العدة لنبخر روءوسنا بحجرين ! جاءتنى اليوم قطعة حشيش هبو ماركة المشير ومرسوم على كيسها وردة !! جاءت فى الحقيبة الدبلوماسية !! هذا يا أخانا نوع يعرفه التجار للشرب لا للبيع !! أقطع ذراعى إن كنت تعرف الحقيبة الدبلوماسية هذه !!"..

" هيه ؟ ما رأيكما فى التعميرة ؟ الرأى واضح على وجهيكما بغير كلام ! هنيئاً وشفاءً ولكن لا تتعودا عليها فليس منها فى البلاد لأنها لا تباع !!"..

"الأمر وما فيه يا أخانا – والكلام لك أيضاً يا شيخ زينهم – أن سامراً كبيراً سينصب هنا الليلة ! فى الوكالة ! ولا أحب أن أراه وحدى !"..

" أظنك يا زينهم تذكر وديدة ؟ ومن منا لا يذكر وديدة ؟! المرأة القرشانة التى لم يهدها سوى الموت !! غجرية كانت يا أخانا تشوف البخت مثل صديقتك المسكينة سندس ! لكنها كانت حلبية مثل لهطة القشطة بنت الكلب هذه يرحمها الله ! تنظر النظرة لأى شخص فتوقع به فى الحال ينزل على جذور رقبته لا يعطى منطقاً !! البخت لم يكن وحده صنعتها كما تعرف يا زينهم ! الناس نبهوها إلى جمالها الفتان ! بلدنا مصر هذه – بكل صراحة – تستأهل الحرق ! نعم ! تستأهل أكثر مما يجرى لها ! هى التى تنفخ فى البنى آدم حتى يركبها !! خلاص ! أصبحت جبلّة نولد بها !! وديدة مثلاً لم تكن تدرى أن جمالها فتان إلا بعد أن كثر عدد الأذلاء تحت أقدامها !! كل من يلقاها يعرض عليها الزواج بأى شكل مثل أم وداد يرحمها الله لكنها أجمل وأبرع ! كانت مخاً جباراً يستحق أن يحكم دولة بحالها!!

العبد لله وحده كان يشكمها لأني عرفت سر قوتها فأبطلت مفعوله في نفسي!! سر قوتها جمالها ! وأنا على فكرة لا أجيد العوم إلا في بحر العيون السوداء الواسعة في وجه عريض أبيض محمر الخدين ! كما أني أعرف حدودي جيداً يا أخانا ! فأنا لا أرضى أن أكون طفلاً عبيطاً تلهيه بقطعة حلاوة أو بلحسة من خدها لكي تفعل على حسها ما تريد وتحكم الوكالة بدلاً مني !! رميت مخطاف عيني بعيداً عن شواطئ عينيها صرت في الأمان أستطيع أن آخذ حقي من مكاسبها الكبيرة !! "..

المرأة لما ستحلت نفسها في الأنظار وجدت أنها إن تزوجت باعت نفسها بتراب الفلوس لرجل واحد قد لا يملأ عينيها مستقبلاً حتى لو كان جمال عبدالناصر نفسه أو الملك فاروق !! خلعت ثوب الغجرية يا أخانا وارتدت ثوب سيدات البيوت من أبناء الناس الطيبين !! كنت وغيرى لا نعرفها إذا طلعت للشغل في الصباح على سنجة عشرة لابسة الفستان الشفتشي ومتلفعة بالشال القطيفة الأحمر وفي قدميها نعل يسمى الشكربين مع الجورب الحرير لون ساقها !! تطلع على باب الله حيث يكون في انتظارها على المقهى أفندى محترم ابن ناس في أبهى زينته!! أولاد حرام يا أخانا ! لا يعرفهم ويكشف ملاعيبهم سوى أولاد حرام مثلهم ! لا يفل الحديد إلا الحديد يا أخانا ! والطيور على أشكالها تقع ! كذا أم لا يا زينهم يا عتريس ؟!"..

" إبن الحرام الأفندى قد يكون اليوم سليمان وغداً إبراهيم وبعد غد رأفت أو حشمت وربما جرجس أو بطرس !! وربما هو اليوم أفندى وغداً شيخ طريقة وبعد غدا أحد الحجاج الأتقياء !! ربما هم جميعاً شخص واحد لكنهم في الشغل شخصيات متعددة كل واحد منهم يستطيع أن يكون كل الشخصيات في آن واحد أو في حالات متقلبة حسبما يحتاجه الرزق !! إسأل الشيخ زينهم فهو خبير بهم ! إنه زعيمهم ! هأهأهأها.. ا.. ى ! أقصد كان وانقضى ! الشيخ زينهم هذا يا ما طلع مع وديدة في مشاوير أيام الشقاوة طبعاً ! كلنا على فكرة تشاقينا !!"..

" وديدة هي المعلم كل الخيوط في يدها ! هي التي تختار من يطلع معها الطلعة ! فهي خبيرة في التقاط الرجال الذين تشعر أنها تحتاجهم في اللحظة المناسبة ! الذين يمكن ان تلبسهم في يديها في قدميها في رأسها في صدرها في أي مكان يعجبها!!

تختار الشخص حتى فى أحرج المواقف ! حتى اللحظة التى يصبح فيها من الواجب على شخص من الأشخاص أن يقبض عليها ليسلمها للشرطة لكى تقتص منها يتحول الأمر بقدرة قادر فيصبح الخصم عاشقا متيما بعدوه يتمنى رضاءه فما بالك ومعبوده يلقى إليه بنفسه طُعم الإغراء يطرح عليه الشبك طرح صياد ماهر ؟! الصيد دائماً أبداً ينساب فى شباكها نشوان القلب بلا أى مقاومة ! هو دائماً صيد ثمين !! وكما نمسك نحن بمصيدة الفئران لنرجها بين ايدينا والفأر حبيس بداخلها يرتج حتى ينزف وتتفتت روحه فإن وديدة تفعل هكذا بالضبط فى صيدها وكم وقع فى يديها من رجال من أبناء الأسر الطيبين طمعوا فى قطف ورود خدها وهصر جذعها والغرق فى عينيها فإذا هم ينخرطون فى خدمتها كالصبيان الملطين مع أنهم فى بيوتهم وأشغالهم أسياد مبجلين لهم شنة ورنة !! يبقى المسكين أسيراً لديها حتى يصبح لا وجود له فى أى مكان آخر إذ تنهار شخصيته فى داره فى شغله فى أى مكان بعيد عن وديدة كمدمن الكوكايين لا يسترد وعيه إلا بالكوكايين !! وكيل الوزارة والمدير العام واللواء يقضى لها المشاوير بمزاجه !! وحسب قوة احتماله ! ربما ظل يقبل عن طيب خاطر حتى يصير مجرد بواب أو ناضورجى فى حراستها وربما يصبح مجرد رفيق مجرد صاحب مأمون الجانب مجرد خادم مجرد خيال مآته يبذب عنها الطيور المهاجمة حتى ينتهى رجل أقوى منه فى الداخل من عمل الواجب على النحو الذى يرضى وديدة !! هى لذلك تستطيع السكنى فى قصر ملكى لكنها تموت حباً فى تراب الوكالة ، فهى فى الوكالة ملكة لكنها فى القصر لا تدرى ماذا تكون ؟! فى الوكالة لها حاشية كبيرة من الرجال وقعوا جميعاً فى هواها بصدق أصبحوا من دراويشها مع أنهم رجعوا المشوار من عندها فوق الشوك إلى مكاتبهم فى وظائفهم وعمديتهم فى قراهم وشطارتهم فى ليلهم رغم الذل والعذاب والحرمان لا يقطعون الأمل فيها مع أن بعضهم كان متزوجاً من حوريات طاهرات لكنها الطفاسة وفراغة العين يا أخانا ! أو قل إنه حظ مقدور عند الله وموهبة يمنحها لمن يشاء !!"..

" الشيطانة تركتهم جميعاً ينصرفون عنها يائسين فلم يبق تحت حوزتها سوى من لم يعد لديه شئ آخر يعود إليه ! وذلك من أجل أن تستقبل صيداً جديداً يفتح لها

سككاً جديدة !! إنما هي لا تتركهم ينصرفون عنها كأنهم ما كانوا !! لا يـا حلـو! إنها تبقى على خيوط الشبك في يديها تشلها في أى لحظة تشاء من هذا الخيـط أو ذاك ليحضر في الحال هذا الصيـد أو ذاك ينقذهـا مـن ورطـة يفـرج عنهـا ضيقـة أو يفكها من قبضة البوليس !! كل واحد منهم يا أخانا عنـده شـئ منهـا يعتـز بـه فـى صدر مكنون : قبلة ساخنة حضن عميق ليلة حمراء ضربة رمش فما بـالك لـو جـاءه مرسال حى منها يطلبه لأمر يخصها ؟!"..

" تسألنى يازينهم لماذا أتفكرها الآن ولماذا أصحى الجثث وهى رمـة ؟! أنـا واالله لا ذنب لى فى الأمر إنما هى التى صحت لأن الزمـن صحاهـا الليلـة لتحـل مشـكلة فظيعة كانت فعلتها منذ خمسة عشر عاماً !! مطلوب منها الأن أن تدلى باقوالهـا فـى أشياء كثيرة وعويصة !!"..

" سرحات وديدة كانت بلا نهاية ! فالسرحة تنشأ من السرحة ! والمشـوار يلـد المشاوير! وصفقة تقود إلى صفقات ! أرأيت يا أخانا إلى ملكة دنيئة لا يهمها عـرف ولا شرف ولا مظهر ولا مخبر ولا أى شئ ؟ شف يا أخانا ماذا تكون ؟! هـى مثـلاً تعشق هوايتها المفضلة التـى كـانت السـبب فـى اتسـاع سـوقها ورواج بضاعتهـا ! تنظف مهما انظف لكنها تعود للنتانة في آخر الأمر ! إن تابت القحبة عرّست!!"..

" المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندى ذى الشكل المحترم فتسافر به إلى الأسـكندرية لتمكث هناك أياماً طويلة حتى تغربلهـا وتهـز هزهـا ! يعنـى لا تـترك فيهـا حيـاً إلا وسلبت منه أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة علـى الخطـوط الطـوالى ! تختـار أشد العربـات ازدحامـاً ! تركـب ومـن ورائهـا الأفنـدى ! ينحشـران زحفـاً داخـل العربة!! عطر المرأة وجسدها مهرجان كبير ! الجميع يحضنون عليها وهى تـنزلق مـن بينهم فى سهولة ! بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق هو بها فى الحال سعيداً غائباً عن الوعى فيلتصق به الأفنـدى مـن الخلـف ! صاحبنـا يندلق على المرأة والأفندى فى لمح البصر ينتهى من تقليبه وسـلب محفظتـه وكـل مـا معه بخفة يـد لا تـرى بـالعين المجـردة !! حين تشـعر هـى أن صاحبنـا المندلـق علـى مؤخرتها قد اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من حركـات التألم تـم تسـتدير نـاظرة إلى صاحبنـا فـى تـأنيب واحتقـار فيلتقطهـا أحـد المتـابعين

فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً لها فى الأول حتى يبدأ الإلتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى ينتهى الأفندى من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل يهبطان فلا يبقيا فى الشارع برهة واحدة ! لابد من الاختفاء فى حارات ملتوية أو فى تاكسى أو مترو ! المهم أن من يسعى وراءها لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجرؤ واحد منهم على إعلان فضيحته إذا اكتشف غفلته فى وقت مبكر !!"..

" هذا جانب الأتوبيسات وحدها ! تعال إلى جانب الشاطئ الذى يسمونه البلاج ! اليوم فى المندرة وغداً فى سيدى بشر أو المنتزه أو أبى قير !! ما عليها إلا أن تخلع ثيابها وتمشى بالمايوه على الشاطئ ! ألف واحد من العزاب سيمشون وراءها ! هذا مؤكد ! أرأيت يا أخانا إلى مجموعة من الكلاب يتحوطون كلبة واحدة فتقوم بينهم معركة وهى مقعية إلى بعيد تتفرج منتظرة نتيجة المعركة وفى النهاية ربما تركتهم ومضت إلى سبيلها لا تمكن من نفسها أحداً منهم ؟! تلك كانت وديدة على البلاج ! لابد أن يفوز فى معركة الإغراء واحد تتأكد هى من منظره من كلامه من مصروفه أنه ملان بالخير ! تنعطف عليه ! يتم الإتفاق على موعد ليلى فى مكان ما حيث توهمه أنها ستزوغ من زوجها !! تنتقل معه إلى شقته ولكن بعد أن تسرح به سرحة طويلة فى المدينة تشترى فيها كل ما لذ وطاب مما هى محرومة منه والبقف يدفع بكل سخاء ولذة ! فى شقته تدس له المخدر فى شاى فى كأس خمر فى قطعة حلوى !! يستسلم البقف للنوم وأكل الرز باللبن مع الملائكة بينما تكون هى فى تمام صحوها ! تقوم يا أخانا فتقشش البيت من كل ما فيه من مال وملابس وأشياء ثمينة تضعها فى صرر وحقائب !! وأكثر من أفندى ينتظرونها تحت باب العمارة وباب الشقة مسلحين بالمطاوى !!"..

" حوّد على البلاد المجاورة ! المدن الصغيرة مثل كفر الدوار ورشيد والمحلة وكفر الزيات وزفتى وميت غمر ! تنزل على سوق الكانتو تبيع الملابس بالقطعة متخذة مظهر التاجر حتى لا يخمها أحد أو يتشكك فيها مخبر سرى !! فتنتقل بعد ذلك إلى سوق الصاغة فتبيع مالا يلزم لزينتها مع المصاغ المسروق !! هى لاتبيع إلا المصوغات

الغريبة التى لا تتسق مع شخصيتها كالخواتم الأثرية والبروشات والأشياء التى لا أحد يصدق أنها اشترتها للتزين بها فحسب !! هى أيضاً مفترية فى السرقة ولكن ذلك لحكمة يا أخانا شف العجب ! إن من حكمتها أنها لابد أن تأخذ حتى الثياب التى ينام بها الموكوس بحيث يصحو عندما يفيق فيجد نفسه بلبوصاً ولا يجد هدمة واحدة يستر بها جسده لينزل إلى الشارع ! يعنى أنه لن يتمكن من تبليغ البوليس إلا بعد أن تكون المعلمة قد غادرت البلدة وعادت إلى شخصيتها كغجرية حلبية لا علاقة لها بالهانم الفخيمة سيبلغ عنها الموكوس إن بلغ !! معظمهم يكفى على الخبر ماجوراً ويفوض أمره إلى الله !!"..

" من المدن الصغيرة إلى الوكالة تترك غنيمتها تحت البلاطة تدخرها ليوم تذبل فيه وردتها فتجد شيئاً تعيش عليه بقية عمرها !! يوم أو يومان أو أكثر فى دمنهور تشترى كمية كبيرة من الأساور والخواتم والأقراط والأفرع من مصوغات القشرة ماركة الجمل بأسعار تزيد عن ثمن التراب قليلاً ! تلبس منه فى يديها وأذنيها وأصابعها وحول عنقها طاقماً مغرياً ! ولا تنسى يا أخانا أن الملبوسات بجميع أنواعها لا تليق على كل الأشخاص فأنت أو أنا قد نلبس خاتماً أو بنطلوناً ثميناً فيبدو علينا كأنه شئ لا يلفت النظر إنما لو لبسه شخص آخر لظهر فى منتهى الشياكة!! الناس إما فتارين أو أزيار مظلمة الجوف ! ومصوغات الصائغ كلها لو وضعت فى قلب زير لاندفنت أما لو وضعت فى الفتارين فحدث ولا حرج ! وديدة كانت فترينة ! تظهر الأساور النحاسية فى معصمها كأنها من أغلى أنواع الذهب الخالص وكذلك كل شئ تلبسه يجذب العيون فيتمنى من يراه أن يقتنيه !!"..

" تنزل البلدة على شكل محترم وحشمة وبيدها ورقة مكتوبة فيها عنوان شخص لا وجود له فى أى مكان ! حبذا لو كان ذا لقب متشابه مع لقب عائلة مشهورة فى البلد !! تمضى هى للسؤال عن هذا الشخص المجهول ! يقودها أولاد الحلال إلى من يتشابه اسمهم ما اسم من تسأل هى عنه !! هم بالطبع أهل ود وترحاب خاصة مع الضيوف الغرباء فالغريب فى القرى مكروم لأجل النبى !! أهلاً وسهلاً تفضلى ياست إشربى الشاى قبل كل شئ !! الشاى ربما يجلب الغداء ! والغداء ربما يجر إلى المبيت ! وهى من لحظة استلامها لهم تشغلهم جميعاً بحكاية مثيرة تبدد وحشة أيامهم

المتشابهة ! تحكى أنها حرم الأستاذ فلان الفلانى هذا الذى جاءت تسأل عنه حيث تزوجها منذ سنة أو سنتين وخلفت منه لكنه خرج ذات يوم بعيد مسافراً إلى بلدته هذه فلم يعد فلما استغيبته وضاقت بها الحياة فى مصر جاءت تسأل أهله عنه!! يا حرام ! لا حول ولا قوة إلا بالله ! ربنا ينتقم منه ! أبنات الناس لعبة ؟ شف الرجل ابن الحرام وكيف خدع هذه الولية الغلبانة ! هل سألت قسم البوليس ؟ والمستشفيات ؟ هل فتحت المندل ؟ زرت أحد المشايخ ؟ قرأت عدية يس ؟ هى ترد على كل ذلك مولولة ممثلة بأشد اتقان دور التعيسة المنكوبة المتورطة فى مشاكل الدنيا والآخرة يسندها مظهرها الفخيم الذى يلقى الاحترام ولا يتطرق إليه الشك!! بعضهم ناس طيبين بالفعل وكرماء يقومون معها بواجب كبير ، فبعد المبيت تخرج فى الصباح من عندهم محملة بخير كثير تبرع به القوم لها ولعيالها من زاد وملبس وفلوس !! بعضهم بطيبة قلب كبيرة يخرج معها للبحث فى عزبة مجاورة تشابهت أو قل اشتبهت فيها الأسماء !! يقوم نيابة عنها بشرح القصة بشكل أفضل منها باللغة التى يتفاهم بها الفلاحون مع بعضهم فيتأثر السامعون أشد التأثر ويتحمسوا أشد الحماس وربما قاموا بدورهم بتقديم المشورة بحماسة كبيرة لكنهم لابد أن يساهموا فى تحميلها بمزيد من التبرعات حتى نفاجأ بها عائدة إلى الوكالة ذات ليلة بين حمول كثيرة يجرى إنزالها من تاكسيات أو حناطير أو عربات كارو !! ياما نالنى من الحب جانب ! ياما أكلت وشربت ولبست من فيض الكريم عليها باشياء لم تكن تخطر لى على بال !! الميزة فى وديدة أنها ليست عقربة تقرص والسلام كل من يقترب منها! الحق لله كانت إذا جبرها الله فى بلدة من البلاد عادت راضية دون أن تؤذى أحداً! أما إن لقيت سوء الإستقبال أو الجفاء فإنها تقدر على اصطياد بعض الضعفاء الطماعين لتسخينهم وإلباسهم قراطيس الخديعة : إنها الآن – تحكى لهم – واقعة فى ورطة مهببة ! ليس معها أجرة السفر كما ليس فى بيتها لقمة لعيالها وهى لا تحب أن تتسول فهى ليست فى حاجة طالما أن فى يديها ذهب ! فلو تجد من ترهن عنده هذا الذهب مقابل مبلغ بسيط فهى لا تمانع !! هنا يتحرك الطمع فى السامعين فيسعى بعضهم للإستيلاء التام على هذا الذهب البراق بيعاً وشراء بثمن بخس! فيروح يساومها ! فإذا هى قد أخرجت فى الحال من حقيبة يدها فاتورة الصائغ التى

اشترت بها هذا الذهب منذ كانت عروساً جديدة !! المساوم ساذج كالسمكة الصغيرة تتحرك بحرية داخل فكى التمساح ! هى تكون أول من يطلب الإنتقال إلى أى محل صائغ فى أى مكان يرونه ليقوم الصائغ بتثمين الذهب بسعر هذه الأيام وهى من عندها تخصم ما يرضيهم !! تصر على ذلك لبعض الوقت حتى تهيج غريزة الطامع فيرجوها أن يتم ذلك فى السر ما أمكن خوف القر والحسد !! من هنا يجاهد معها الفلاح الطيب أو الفلاحة الغشيمة حتى ينخفض ربع الثمن الذى طلبته وديدة!! وأحياناً تجرى بينهما المقابضة مع دفع الفروق كأن تأخذ منها الفلاحة هذا الفرع الكبير وهذا القرط الثقيل وهذا الخاتم وتعطيها فى المقابل هذا المصحف بهذه السلسلة مع هذا القرط الخفيف ومبلغ كذا من المال وبضع كيلات من الأرز أو القمح أو كيسين من القطن !! رحال وديدة دائماً فى انتظارها رهن لفتة منها فى صورة ناس يتطوعون بمساعدتها لوجه الله !!"..

" شيطانة كانت من التتر والحلب معاً فأبوها تترى وأمها حلبية ! لا يقدر عليها إلا صاحب القدرة سبحانه وتعال ى! كفاك الله شرها يا أخانا حتى وهى ميتة !! عمرها وصل إلى الستين وهى عفية لم يطرأ على جمالها الوحشى أى تغيير !! إبنتها كانت عروساً فى الثانية والعشرين من عمرها واسمها نور الصباح أنجبتها من زوجها الأول القديم ترك خان الذى طلقته بعد ولادة نور الصباح بعام واحد ! نور الصباح لم تره أبداً لأنه رحل إلى بلاد الله خلق الله فلم نعرف له خبراً من يومها !! أى والله يا أخانا ! قل له يازينهم ! قل له عن ترك خان الذى كان عبارة عن بغل كبغل الوسية بشارب كخيال المآتة كانت شغلته ترابيزة البخت فى الموالد بتقليب الزهر فى كوب ثم دلقه برهان على رقم فيه إن لم يجئ به مجموع حبات الزهر خسر الزبون الرهان ! وفى غير أيام الموالد يلعب الثلاث ورقات ! كان بليداً يشرب كوز السبرتو الأحمر على ريق النوم ولو تعارك يمسك بالرجل الشديد فيقطم وسطه قطم الخيار ! لا أحد يملأ عينيه أو يصد فرعنته غير وديدة ! الوحيدة التى يعمل لها ألف حساب ! ومرة أراد أن يكون الرجل معها كأى زوج من حقه أن يشخط فى زوجة يأمرها بكذا فما كان منه إلا أن شرب كوزين من السبرتو الأحمر لكى يتمكن من الشخط فيها !! هى شخطة واحدة إنهال بعدها الشبشب فوق رأسه

حتى اضطر للجرى فظلت بعصا تسليك الكنيف تلاحقة ككلب أجرب !! وإذا كان الكلب يعود بعد طرده فإن ترك خان لم يعد من يومها !!"..

فلما كبرت في السن وكبرت البنت أيضاً انهد حيلها بعض الشئ ! أصبحت سوابقها مشهورة في حواديت كل البلاد كأمنا الغولة ! أصبحت تخشى النزول إلى بلد من البلدان للشغل ! وعلى حد قولك يا زينهم إنفض عنها الرجال الأشداء بالموت أو بالشيخوخة أو باليأس النهائي !! أتذكر تلك الأيام يا زينهم ! تذكر يوم أمسكها البوليس في واحدة من ألاعيبها فلم تجد من يتدخل للإفراج عنها ؟! دفعت الشيطانة خمس سنوات من عمرها في سجن النساء تاركة طفلتها نور الصباح أمانة لدى صديقتها أم وداد التي سمت ابنتها على اسمها !! كالعادة في كهن النسوان طلعت الولية من السجن تائبة تتلفح بالطرحة البيضاء !! مابقى تحت البلاطة بعد أتعاب المحامي وكتبة المحاكم وحاويشية السجن وأكل غير أكل السجن وألبان لابنتها نور تبدد كله في شهور قليلة !!"..

" عادت لشغلتها الأصلية ! حملت القفة وسرحت تشوف البخت في البلاد الصغيرة التي سبق أن نزلتها للنصب والإحتيال ! وكانت تعود فتحكي لنا كيف رأت الناس في هذه البلدان ما يزالون يتكلمون في الحوادث التي فعلتها فيهم ذات يوم ! وكيف أن بعضهن اختلين بها وسألنها إن كانت تعرف أمرأة شكلها كيت وكيت ؟!".

" في سرحة من هذه السرحات أوقعت الولد في هواها يا حسرة أمه عليه!! كان ابنها الوحيد ! يدلله أبوه بل كاد يعبده : رح يا بدر تعال يابدر! وبدر يبرطع في الدار يصبح كبيرها في ظل ابيه السعيد به والذي كبره بنفسه على نفسه !! خطب له ابوه ابنة واحد من ذوى الأملاك الكثيرة ودفع مهراً كبيراً وشبكة ثم صارت الدخلة على الأبواب! لكنه النصيب يا اخانا! الدنيا كما قال يوسف وهبي مرسحية كبيرة غريبة !! بدر بن السعيد هو وأبوه إسمان على مسمى !! بدر وهو بدر ! الوجه كطبق النحاس الأحمر المنقوش الذي يعلقه أولاد الذوات على حوائط بيوتهم ! أما الجسم فكجذع شجرة الجميز تخناً وامتلاءً وكعود السنط صلابة وشدة! الطاقية الصوفية الملونة منجعصة على مؤخرة رأسه والجلباب الكشمير

كالكعكة على بدنه والمركوب الأحمر فى قدميه والعصا العوجاية الأبنوس فى يديه كالمرشح للعمدية !!"..

"يومها كان سارحاً فى العصارى ببهائمه يدرج بها يفسحها على شاطئ ترعة قريبة من زمام بلدته! وضع القدر وديدة فى طريقه خارجة من البلدة !! سلطت فيه عينيها ! وقع الولد من طوله فى الحال ! استوقفها تشوف له بخته!! ألّفت له فى الحال بختاً يوافق هواها !! قرأت عليه تعزيمة أوقعته فى حبائلها، كلما همت بالنهوض استبقاها مقابل ما تشاء من أجر لكنها لم تتخلص منه إلا بعد أن أعطته عنوانها فى الوكالة!! بدر السعيد المسكين لم يكذب خبراً ! فى نهاية الجمعة نفسها جاء إلى الوكالة محملاً بزيارة ثمينة من أرز ودقيق وعسل وسمن وبيض وجبن ولبن وخبز طرى وفطير!! مكث عندها يومين فى حفاوة كبيرة وعند النوم تفرش له فرشها كله أمام باب حجرتها ليتأكد من شرفها!! بدر السعيد لم يكن يريد التأكد من شئ ! قالها بنفسه! حتى لو كانت هى فيها ما قتل الحاوى فإنه بات أسيراً وهيهات أن يهرب منها !!"..

" أشعل الولد خيالها الكهل أيقظ عواطفها الخامدة ذكرها بمملكتها القديمة وبأسرلها السابقين!! وقعت هى الأخرى فى هواه! صار يتردد عليها كل جمعة مرة أو مرتين ! ثم فوجئنا بالمأذون يدخل الوكالة ليعقد عليها!! صارت وديدة زوجاً شرعياً لبدر السعيد !! الذى غاظنى أنها أتت بمأذون من خارج الوكالة مع أنها تعرف أنى قادر على عقد قرانها بنفسى!! المقصود يا أخانا إنتقل بدر السعيد إلى حجرتها وترك خطيبته بنت الناس وأهله وأرضه ومستقبله واختار العيش تحت ظل وديدة!! السر لم يكن فى عينيها وجلدهما يا أخانا ولا فى جسمها الذى هو الشيطان نفسه مجسداً فى امرأة ليغرى بها أتقى الناس وأشدهم إيماناً وهو على ثقة أنهم يرفعون جباههم عن سجادة الصلاة فإن خطفت عينها عيونهم ماعادوا للركوع ثانية إلا لها!! إنما السر فيها!! إنما السر فيها كلها ولا أحد يعلمه بالضبط!! الولد بدر السعيد جاءت خطيبته إلى هنا لترى بنفسها هذه التى اختطفته منها فعذرته مع أنها.. تصدق بالله يا أخانا؟.. قل له يا زينهم.. جمال بنات الحور يا أخانا ! ووالله لعلها أجمل منهن!! ولكن.. البنت المسكينة كانت تياهة بجمالها

منذ دخلت وجلست مع أهلها بجوارى على هذه المصطبة ! فلما رأت وديدة انكسر جبينها في الحال واغرورقت عيناها بالدموع ونهضت قائلة لبدر السعيد : معك حق يا بدر فأنت طول عمرك تموت فى حب الجمـال وإنـى لسـت زعلانـة منـك فهـاك دبلتك وشبكتك وأنا لى رب يحمينى ويضع فى طريقى من يحب جمال الشخص قبل جمال جسده يا بدر ! يا بدر كثر الله خيرك لأنك جعلتنـى أفيـق فأنـا كنـت مثلـك أحب الشخص لحلاوة شكله وأتصور أننى غالية عليـك !!.. سـحبت البنـت أهلهـا ومضت! وإذ وصلت إلى فتحة البوابة استدارت فى هبوب الريح الـذى نطـح ثيابهـا إلى الوراء وهفهفها فبدت كقوس من سحابة سماوية اللون فارغة نحيلة حمـراء الوجـه تحت المنديل أبو أوية المشغول بالفل والترتر! رفعت ذراعها صانعـة مـن راحـة يدهـا مظلة فوق فمها وأطلقت زغرودة بجلجلة طويلـة النفـس تخطـف القلـوب خطفـاً يـا أخانا !!.. وحق من جمعنا على غير ميعاد إن زغرودتها ترن الآن فى أذنى قادمة من فراغ البوابة من زمن بعيد ماثل لا يريم!! أسمع الآن صوتهـا يقـول بصـدق حقيقـى: مبروك يا عريس!! "..

" إنصرفت البنية التى أذهلتنى وأذهلت الجميع ! ولكن بعد شهور قليلة جاء أبوه وأمه بصحبة وفد من الرجال ! كان منظر أبيه يا أخانا يصعب على الكـافر لكنـه لم يصعب على ابنه بدر السـعيد !! المـرض هـد الأب فبـان عليـه الـذل والإنكسـار إذ يستعطف ولده أن يرحمه فيرجع إلى أهله يرعى أملاكه وأراضيه ومواشيه فلـم يـرض الولد!!.. لو كان ابنى أنا لقتلته فى الحال حتى لو كان وحيدى!.. تصور يـا أخانـا أن المرأة وديدة نفسها تأثرت من منظر الرجل المسكين فصارت هى الأخرى تترجى بدر أن يذهب مع أبيه وأنها توافق على أن يزورها كـل أسـبوع ليلـة أو ليلتـين فمـا كان منه إلا أن شكمها بكوعه فى بوزها فسـكتت!!.. كنـت عارفـاً مـن الأول أن بدر السـعيد لـن يرجـع إلى أهلـه! لأنـه شـرب خمـر وديـدة! شـرب رحيـق شـفتيها الحريفتين فسرى المخدر فى عروقه ولن يصبح لـه دواء إلا هـذا المخـدر نفسـه! فـإن جمال وديدة من النوع الذى لا يكفى أن تمتلكه بل لابد أن يبقى فى حراسته مفنجل العينين لا تغفل عنه لحظة واحدة !! وهذا مافعله بدر السعيد يا أخانا !.. بعد شـهور قليلة تلقى خبر وفاة أبيه فسافر لدفنه ثم عاد بعد أيام !.. شهور قليلة أخـرى وتلقـى

خبر وفاة أمه فسافر لدفنها ثم عاد بعد أيام !.. وظل كل بضعة شهور يسافر إلى بلدته ليبيع شيئاً من أملاكه ويأتي فيصرف ثمنه على أكل الحمام والجنبرى والكابوريا والبطارخ وشرب الحشيش والخمر الذى تعلم شربه من وديدة وعرف الطريق إلى محل الخواجة ينى كرياليكوس فى شارع البندر!!.. وكانت صحته مع ذلك فى تقدم مستمر فنضحت على صحة المرأة فتجدد شبابها ! لكنه كسر شوكتها بعنفوانه فأصبحت تحبه وتخاف منه ! لأول مرة فى حياتها تعرف الخوف من رجل ! أصبحت تتحشم فى لبسها فى كلامها فى خروجها فى جلوسها !.. قسم الحجرة قسمين بقاطوع من الخشب حيث تنام الولية وابنتها فى مكان منعزل ويبقى هو وأصدقاؤه فى الشطر الآخر يسكرون يلعبون القمار حتى مطلع الفجر فيصرفهم ويستدعى المرأة ليكمل فى حضنها بقية الليل !"..

" القمار كان لعبته شغلته الوحيدة ! خسر فيه المئات لكنه كسب الآلاف فصرفها كلها على وديدة وابنتها !.. قعد بوديدة جعلها رسالته فى الحياة حررها بحق وحقيق أدبها ورباها !! لم يكن يضربها إلا بالكرباج السودانى المسقى بالزيت! كل علقة أنقح من سابقها!! درب عينيها على عدم الإنزلاق هنا أو هنا!!.. وبعد أربع أو خمس سنوات فوجئنا بالمأذون يدخل الوكالة مرة أخرى متجهاً إلى حجرة وديدة !.. وقع الخبر علينا كهم الموت لم تصدق أن بدر السعيد امتلك الجرأة على تطليق وديدة !!.. فى هذه الحالة بدأ الفأر يلعب فى عبى !.. أنت تذكر يا زينهم تلك الأيام ! أنا بدأت أفكر فى التدخل ! جاءت فرصتى لأقول له : ماذا يبقيك هنا بعد الآن يا بدر السعيد ؟! أظن من الواجب الآن تعود إلى أهلك !! لكنه لم يعطنى الفرصة يا أخانا ! إذ ما كدت أقتنع بضرورة محادثته فى الأمر بحجة استنكار وجود أعزب بين امرأة وابنتها العروس حتى فوجئت بالمأذون يدخل الوكالة مرة ثالثة ليعقد قران بدر السعيد على نور الصباح ابنة وديدة وترك خان !!.. لحظة أن فكرت فى توجيه النصح للولية المجنونة كان بدر السعيد يدعونى للمشاركة فى الفرح بل يجعل البنت تختارنى وكيلاً لها أضع يدى فى يده عقد القران ! وبما أنى وكيل البنت فقد طالبت بحقى الشرعى فى الإنفراد بالبنت لمعرفة رأيها !.. تصور يا أخانا : البنت كانت واقعة فى غرامه لشوشتها وأنها هى التى أرغمت أمها على طلب الطلاق من

بدر السعيد لكى تتزوجه هى بدلاً من ارتكاب الفعل الحرام معه !!.. إنفردت أيضاً بالولية فوجدت فى كلامها حكمة : إن بدر السعيد لن يدع أحداً غيره يتزوجها والبنت تبور وتفرط فى عرضها فلماذا أخيب أملها وأنا شبعت من الدنيا ؟! دعها تتزوجه تعيش شبابها معه مادامت تحبه وهو يحبها أكثر منى ولأننى أحبه واحب ابنتى فإنى أتركها لمن يحبها أكثر من حبى أنا لها !!.. شف كلام الولية القرشانة يا أخانا !!"..

" هى محبة أى نعم وحبها وحشى كشخصيتها ! إنما ضرب الكرابيج له أثر ! وكتم الأنفاس فى صدر تعود على التنفس بحرية تامة له هو الآخر وقع مؤلم فى النفس ! وكسر الأنف بالنسبة لإنسان تعود أن يكون الآمر الناهى له كذلك أثر! وما كان بدر السعيد ولا أحد فى الوكالة يعرف ما الذى يفعله هذا الأثر فى نفس وديدة !.. تصدق بالله يا أخانا ؟ ولا حتى وديدة نفسها كانت تعرف أنها تدبر للإنتقام دون أن تدرى !! هذا فى شرعى أنا !! وفى ظنى أنها وجدت نفسها أمام الفرصة فتركت غيرها يقوم بالفعل !!"..

" الولد حمّوه الشهير بالبورى ولد عجلاتى وصاحب دكان خلف سينما الأهلى وهو فى العشرينات من عمره كسيب وجدع لكنه مضروب بداء القمار وشرب السبرتو وأنفاس الحشيش !! أتى به القمرتية إلى الوكالة يرفل فى النعيم ! كان حلو التقاطيع مسمسم الوجه محمر البشرة بدم خواجاتى ومسحة ذواتية وعلى جبينه الضيق خصلة شعر متكورة كشبان الأفلام المرسومة على ورق الإعلانات ! نحيف البدن قوى البنية ! ملوث اليدين والخدين ومقدمة الأنف بشحوم العجلات وترابها! تعود ان يدخل إلى حوض الطلمبة بمجرد مجيئه ليغسل نفسه إذ هو لا يحب أن يلعب القمار إلا نظيفاً إذ أن أصابعه الملطخة بعرق الشغل لن تريح أعصابه حين يدفع بها نقوده إلى الكاسب ستذكره دائماً بالعرق فى الشغل من أجل كسبها !!.. الحقيقة أنه ظهر كالوارث مبلغاً كبيراً وبالخصوص لأنه فى مظهره طيب ومؤدب وابن ناس لدرجة أننى لأمانته انتخبته فجعلته مندوباً لى فى قعدة القمار يقبض العمولة المقررة عن كل دور فى اللعب فكان يودى ذلك بكل أمانة وكنت أسمع عراكه معهم على مغالطتهم فى احتساب الأدوار المنسية بسبب عدم وجود الفكة !!.. حموه هذا كما

كانت تسميه وديدة البورى كما كنا جميعاً نسميه ، كنت أشعر كأنه ابنى الذى ضل طريقه فانحرف ! ويايما حاولت نصحه فلم يعطنى الفرصة لكننى كنت أشعر ان وراءه أمراً ! وقد صدق ظنى لكننى لم أعرف ذلك إلا فى الآخر!.. إتضح لنا أنه كان محتالاً كبيراً يسرق وينصب ويوقع بالفتيات المراهقات فى أحابيله فيستولى على مصاغهن ومصاريفهن وشرفهن كما يغريهن بسرقة أو تدبير الأموال من أهاليهن كى يدفعها مهراً لهن وهو فى الواقع يدفعها على طبلية القمار!! كذلك نصب على شركات فأخذ منها بضمان ملكية الدكان دراجات كثيرة باعها ولم يورد ثمنها ثم أتضح أن الدكان ليس ملكه تماماً هو موزع بين ورثة كثيرين!! وفى الأيام الأخيرة كان قد تم حقنه بمخدر وديدة وابنتها فأصبح غير قادر على السلو! وفى نفس الوقت غير قادر على خرم شخصية بدر السعيد والوصول إلى غرضه فى واحدة منهما !! حاول أن يتفوق عليه فى اللعب فخسر الجلد والسقط!! حاول أن يتيه عليه بجماله فظهر كالصبى العلق الطرى فكف عن هذه المحاولة نهائياً وبات يتعمد نسيان أنه جميل الشكل !! حاول أن يغلبه فى مسائل الرجولة والقوة فراح فى الكازوزة لأن بدر السعيد أرجل منه وأقوى بغير كلام !!"..

" الولية القرشانة تعرف كل هذا ! كانت تحكيه لى يا أخانا فى ساعات الصفو التى تجلسها معى فى العصارى أثناء نوم بدر !! وأنا كنت أظن نفسى أفهمها وهى طائرة إتضح لى أن بنت حواء بنت الفرطوس لا يمكن أن يفهمها أحد حتى لو كان شوادفى !! ألم يعلمونكم فى المدرسة قرآنا يقول : إن كيدهم عظيم ؟! فعلاً فعلاً صدقت والله يارب !! الولية شغلت عينيها على الولد البورى فى السر من وراء ظهر بدر السعيد فأشعلت دماغه ورطبت نفسه المحترقة باليأس وطبطبت على رجولته المهيضة ! صارت تلتقطه فى السر فى لحظات خاطفة أثناء نوم بدر أو فى السوق وهى تشترى الخضار ! فمرة تعطيه حضناً ومرة تعطيه بوسة ! ومرات كثيرة تبخ السم فى أذنيه ! قربت له الأمل ! أحيته من جديد ! صرحت له أنها يمكن أن تعطيه نفسها أو ابنتها نور الصباح أو هما معا إذا هو تمكن من التخليص على بدر السعيد !! رسمت له الخطة كاملة : أن يفتعل عركة فى أول السهرة بسبب اللعب لكى تكون القضية مجرد خناقة أدت إلى موت فى الدفاع عن النفس فتكون العقوبة

سنوات قليلة لا تزيد عن ثلاث يقضيها فى السجن ليخرج فيتزوج من نور الصباح بدون مهر أو أى شيء وأنها ستسرق مطوة بدر السعيد من جيبه وتعطيها له فيمسكها بالمنديل ليقول فى التحقيق إن المطواة هى مطواة بدر الذى كان يريد أن يضربه بها فدافع عن نفسه !!"..

" فى أول الليلة قلّ الولد أدبه على بدر بصورة طيرت صوابه فشتمه فرد عليه البورى بشتمة قاسية فلكمه بدر لكمة قوية رخّته دوخته !! كان بدر يظن أن البورى سيرتدع بهذه اللكمة ويفيق إلا أن البورى إعتدل وصوب دماغه على وجه بدر السعيد نطحة نطحة أفقدته الوعى أسالت الدم من أنفه بغزارة فدب يده فى جيبه بحثاً عن المطواة فإذا بالمطواة تظهر فى يد البورى ملفوفة اليد بمنديل من مناديل بدر أيضاً !! بسرعة البرق دب البورى المطواة فى جنب بدر الأيسر فدخلت عن أخرها فتركها واستدار يتخبط فى الباب وفى الدرج ثم انطلق يجرى مغادراً الوكالة إلى خط السكة الحديد قاصداً الإختباء لدى اقارب له فى عزبة بعيدة!! تصور يا أخانا أن بدر السعيد استطاع أن ينزع المطواة من جنبه ثم يجرى بأقصى سرعة وبقوة حصان جامح حتى لحق بالبورى على القضبان قبل أن يعبرها فأمسك به!! إلا أنه داخ فارتمى فوق القضبان فطارت المطواة من يده فالتقطها البورى فشرح بها جسد بدر فى موطن القلب ولم ينس أن يغز نفسه بسن المطواة فى أكثر من مكان حتى يثبت أنه تعرض للضرب فدافع عن نفسه خاصة أن بعض الناس شاهدوا بدراً يجرى وراءه مشواراً طويلاً وهو مسك بالمطواة تقطر دماً فرسم على الأرض خريطة حمراء تتبعها البوليس والنيابة من مبنى الوكالة فى ضوء الكلوبات!! ذهب البورى إلى أقاربه ملوثاً بالدم فطردوه ! وفى طريق عودته أمسك به البوليس ليجد أن وديدة قد رتبت كل شيء مع البوليس شرحت له كيف أن العداوة قائمة من زمان بين القاتل والقتيل بسبب اللعب وحب البنت وكيف أن القاتل سرق مطواة بدر ومنديله حيث كان يبيت النية السيئة !! ولم تنس أن تذكر للبوليس كيف أن القتيل إئتمن القاتل على عرضه وشرفه وأعطاه الأمان والحب فحاول كثيراً أن يخون الأمانة لكنها لم تبلغ بدراً بهذا حتى لا توقع بين الصديقين !!"..

" الشيطانة كانت تريد التخلص من الإثنين تخلصاً نهائياً وقد حصل ! مات بدر السعيد فلم يجد أهلاً يتسلمون جثته فجئ به إلى المشرحة ثم الثلاجة فتستمر بضعة أيام في الغربة !! فاكر يا زينهم ؟! تصور يا أخانا من الذى تسلم جثته في النهاية؟! البنت المسكينة خطيبته التى تركت له الشبكة والدبلة مشفوعة بزغرودة !! جاءت هذه المرة مع تجار السواقى زوجها الميسور بمهنته وأرضه ولم تنس هذه البنية الفاضلة أن تمر على وديدة غريمتها لتسألها إن كان المرحوم مديناً بشئ لأى أحد فهى على أتم استعداد لتسديد كل ديونه !! زينهم العتريس هذا - لمؤاخذة يا زينهم - كان واقفاً ساعتها يبكى ليس على المرحوم طبعاً إنما على أمل الحسنة وفعلاً نفحه النجار شلناً بحالة كما وزع القروش على الجميع صدقة على روح المرحوم !! يومها عرفنا ان هذا النجار هو الذى اشترى أرض بدر السعيد ومواشيه لأنه الجار الذى هو أولى بالشفعة وأنه رغم الشراء كان مستعداً لرد كل شئ لو أن بدراً افاق ورجع لبلدته وخطيبته كما أنه تزوج من خطيبته ليداوى جراحها !! تصور يا أخانا أنه كان يبكى بحرقة وهو يقول هذا الكلام ؟!"..

" تخلصت الشيطانة من بدرها بالموت غيلة ! ومن البورى بالسجن ! حكمت عليه المحكمة بعشر سنوات !! وبقيت هى فى جحيم تمنت الموت هرباً منه !! فإبنتها نور الصباح لم تغفر لها هذه العملة السوداء ! البنت كانت تعشق بدر السعيد عشقاً ولا يملأ عينيها رجل آخر ! وكانت والله يا أخانا على وشك أن تذهب إلى البوليس فتعترف على أمها ! صار عراكها فى أنصاف الليالى يبلغنى على هذه المصطبة كأنهما ناكر ونكير كعدوتين محكوم عليهما بالسجن فى زنزانة واحدة !! آه من هذه البنت يا أخانا ! عمرى ما شفت أصلب من دماغها ! من تصميمها ، قوة إرادتها ، طول لسانها قرص كلامها وجع ملافظها !! ياما فوجئت فى قعدتى هذه بوديدة تخرج من الحجرة مولولة كالمشبوبة بالنيران طهقانة تطلب من يطفئها ! تشق الهدوم من شدة الغيظ تلطم خديها بيديها فى عنفوان سريع وهى تتطوح يصير وجهها كجمرات النار !! أناديها ! تجئ ! ترتمى على المصطبة مخفية وجهها بين يديها مندمجة فى بكاء عنيف ! أطيب خاطرها بكلمتين ! أذيب لها قطعة أفيون فى كوب شاى حتى تهدأ ! كل ذلك والبنت مرتكنة بكوعيها على سور البكية تمضغ

اللبان في برود وتتفرج على أمها باستمتاع !! من شدة قسوتها لم تكن تتركها في حالها بعدما تعود !! ل ا!! إنها تتصيد أية فرصة لتبدأ تحاكمها من جديد !! حتى فوجئت ذات عصرية مشئومة بعاصفة من النار تخرج من حجرة وديدة وتجرى هابطة الدرج مقبلة نحوى تنفرد ألسنتها المخضرة الأطراف وفي قلبها كيان يطشطش يبقبق تبينت أنه جسد وديدة !! نفضت نفسي واقفاً ! سحبت البطانية طلعت أجرى نحوها لكي ألفها وأخمد النار المتطايرة منها تزغرد ! لكنها سرعان ما حولت وجهتها إلى حوض الطلمبة المملوء بالماء العطن فرمت بنفسها في قلبه فارتفع صوت الطشطشة واعقبه أزيز حاد مثل الأزيز المتخلف عن فرقعه بالون الأطفال!! إمتلأ فناء الوكالة بالناس من كل مكان وامتلأ الهواء برائحة اللحم المحترق ! صارت مثل فرع شجرة تفحم بعد حريق هائل وتآكلت نتوءاته !! جاءت النيابة عاينت الوضع أمرت برفع الجثة فلم يتقدم أحد سواى ! رفعت عاموداً من الفحم الغارق المتسلخ ! طوينا عليها الملاءة !! هى الآن مدفونة في مقابر الصدقة بيننا وبينها خمسة كيلو مترات !!" ..

" نعم ! نعم يا زينهم أنت محق لكنني لم أنس شيئاً قط إنما أحكى لأخينا كل شئ وحده حتة حتة من أولها لآخرها ! حتتك في الكلام فأقول إننا بعد أن دفنا وديدة لم نستطع نسيانها أبداً فظلت شهوراً طويلة كالمقيمة بيننا نسمع صوتها ونراها !! وذات ظهرية فوجئنا بسيارة فارهة بأجنحة زرقاء اللون تزحف أمام باب الوكالة حتى توقفت في فتحة البوابة !! نزل منها أفندى نحيف يتمطى في بذلة أنيقة يتصاعد منها العطر النفاذ ! أبيض البشرة كجمار النخيل ضيق العينين شعره أحمر غزير متكور كسباطة البلح ! قال في رقة خطيرة كرقة من يملك إعدامك في أية لحظة يشاء ! بلسان ألدغ : مساء الخير !! فنهضنا جميعاً واقفي ن: مساء النور أهلاً وسهلاً .. أهذه وكالة عطية ؟!.. قلنا جميعاً : نعم أى خدمة ؟! قال : شكراً ارجو أن أقابل وديدة هانم خان الشهيرة بالتترية !!.. صرنا ننظر لبعضنا البعض في ذهول وحيرة وقد نبتت الدموع في مآقينا من جديد !! إحمر وجهه : ما الحكاية يا جماعة؟! لأول مرة يا أخانا إنفجرت في البكاء كالمرأة : البقية في حياتك يا سعادة البيه فقد ماتت منذ قليل !! فكأنني جذبت خيط المناحة فانفتحت الصدور كأنها

انتهزت فرصة نادرة للبكاء !! الولد الأفندى هـو الآخـر صـار يهـتز ويرتعـش كأنما ترنحه ريح مسلطة عليه وحده ! تقبضت ملامحه فبدا وجهه كقـرص العجـين داسـت فوقه قطة فلخبطته ! والدموع تتسرب من عينيه كعصارة البرتقال !!"..

" إنلهشنا أكثر فأكثر يا أخانا !! ثم إذا به يستدير باكياً فيتجه إلى سيارته كـأن شيئاً لم يكن !!.. تعال هنا يا .. سعادة البيه الأفنـدى ! مـن تكـون ؟! إقعـد هنـا ! هات كرسياً ياولد !.. فـاكر يـا زينهـم ؟ أنـت يومهـا عملـت نفسـك رجـلا ملـو هدومك فصحت فى أولادك طلباً للشـاى حـالاً !! أشـهد لقـد جـاء الشـاى حـالاً بالفعل ! سعادة البيه هذا يا أخانا !.. عجب والله يادنيا عجب ! لو لم يبـك لظللنـا منه على خوف واحتراس ! أما وقد بكى معنا فالحاجز انهار صار هو مثلنا !! ثم إنه قعد معنا على المصطبة !.. الشـعب المصـرى جـدع يـاجدع ! وذكـى وابـن حنـت يعجبك !! شف مثلاً كيف أننا لم نعد خائفين منه لكننا أمسكنا ألسنتنا ! هكـذا من نفسنا دون أن ينبهنا أحد !! فالذى خطر ببالنا كلنا سـاعتها أن هـذا الأفنـدى لابـد كان من ضحاياها وبرح به الشوق بعد تباعد فجاء يتقصـى ريـق الحبيـب فلـم يجد سوى الصدمة المريرة ولهذا بكى !! لكننا لمـا رأينـاه مسـتمراً فـى البكـاء يكـاد يقـع مغشياً عليه من التعب الحقيقى الظاهر فى عينيه المتورمتين المحمرتين تحيرنا فيمن تـراه يكون ؟! إحذروا يا أولاد الزوانى أن يغلط لسان احدكم بكلمة هبلاء تجر علينا أى ورطة كانت !!.. هكذا قالت عيوننا لبعضها !!"..

" بقينا صامتين لفترة طويلة ! وكلما سربت عينى إلى وجه الولد الأفندى انكسر قلبى من الألم ، فعلى وجهه تعاسة تعاسة تعاسة من هنا لحـد يـوم القيامـة ، منظـره كأنه مات ثم سبق إلى ساحة الحساب فعرف أن كتابه بشـماله فجلـس فـى انتظـار مقدم الزبانية الذين سيلقون به فى نار جهنم وبئس المصير !! إن العشـق وحـده لا يمكن أن يفعل بالمرء هكذا يا أخ العرب !! أخيراً ضاق صدرى فميّلت عليه : وحـد الله يا سعادة البيه فكلنا سنموت ولكن لماذا لا تقل لنا من أنت حتى نتعرف عليـك ؟!.. نظر فى وجهـى ووجـوه الحـاضرين بعينـين منطفئتـين كضفدعتـين فـى شـقين ناشفين ! ثم رمى فى وجوهنا بالقنبلة التى من شدة دويها كأننـا لم نسـمعها مـع أن أجسامنا اقشعرت وانشالت عن الأرض ثم انحطت فانبطت فارتضت فمشـت منهـا

العقول !!.. بعد برهة خفت صوت دوى القنبلة فانتبهنا فسألناه من جديد وقد ملنا جميعاً نحوه نتفحصه بدقة وفضول شديدين : قلت لنا من أنت إذن ؟!.. فبرعشة من شفتيه قال مؤكداً : أنا ابنها ! نعم ابنها الوحيد في حياتها ! منذ أكثر من عشر سنوات وأنا أبحث عنها بكل الطرق لم أترك بابا إلا طرقته ولا نافذة إلا نظرت فيها ولاقشة في قلب الموج إلا تعلقت بها !! أبي مليونير لبناني يملك العزب والضياع والمحلات التجارية الكبرى في بيروت ويترأس حزباً سياسياً ويتزوج من أكثر من سيدة تعيش كل منهن في قصر خاص بها ولديه من كل منهن أولاد أما أنا فأعيش وحدى في قصر أمه جدتي وكل صيف أجئ إلى مصر فأظل طوال الصيف أبحث عن أمي إذ أن أبي لم يقل لى أى معلومات عنها ، كما وأني لم أرها طول عمرى إنما كانت جدتي لأبي هي التي تقول لى المعلومات بالقطارة كل بضع سنوات كلمة تقلب كياني حتى موعد الكلمة المقبلة ، والغريب أن اهتمامي بحياة أمي المصرية التي ماتزال على قيد الحياة جعلني أهتم بماضي أبي لعلي أهتدى منه إلى شئ ينير طريقي إلى أمي ! عرفت أن أبي حينما كان تاجراً فقيراً من العدم كان مهاجراً من وطنه الأصلي فلسطين الذى احتله اليهود فحين طاب العيش في مصر القاهرة تزوج من سيدة تدعى وديدة الرجال تعيش في مدينة اسمها دمنهور وقد عاش أبي معها في هذه البلدة في حي يدعى أبو الريش حيث كان أيامها يتاجر في الخيش وفي مخلفات محالج الأقطان كالبذرة والوبرة ليقوم هو ببيعها في أسواق بعيدة وكان يحب المال وأمي حباً شديداً لكنهما كانا دائماً على خلاف مستمر بسبب سفر أبي الدائم وحبه للمال الذى ينافسها في قلبه حيث كان يجئ من ميناء ليذهب إلى مطار ومن محطة السكة الحديد إلى مواقف سيارات النقل حتى زهقت أمي فضايقته هددته بالطلاق إلى أن ولدتني فصار ابي يداديها يسترضيها بأى شكل حتى تمكن من ترتيب كل شئ للسفر بي وبأمواله إلى غير رجعة !! وحينما جاءت حرب ثمانية وأربعين كنت في بيروت طفلاً أروح الحضانة ويذهب أبي إلى شغله فيبيت بعض الليالى بعيداً عنا ، وفي تلك الأثناء انحفرت في ذاكرتي حكاية أمي إذ أنني عدت من المدرسة يوماً فرأيت جدتي تبكى بشدة وعرفت من ولولتها أن أبي تزوج امرأة أسكنها قصراً بعيداً وسمعت منها تعريضاً بأمي التترية المصرية ! ووقعت في يدى

بعض خطابات كانت ترسلها أمي لأبى قبل زواجهما فعرفت أنهما كانا يعيشان قصة حب حقيقية مدهشة ! فلما جئت إلى دمنهور ذات عام قال من سألتهم إنهم لم يسمعوا عن وديدة الرحال هذه إنما يعرفون وديدة ترك خان شغلتها شوفان البخت وقالوا إننى أحمل شبهاً كثيراً منها لكنهم لا يعرفون أين أختفت فكلفت ناساً من هنا بأن يبحثوا ويكتبوا لى على بيروت وهناك حاصرت جدتى بالأسئلة حتى أعترفت لى أن أمى كا نت بالفعل تشوف البخت ولهذا ما صدقت أن وصلنى خطاب يبلغنى بوجودها فى هذه الوكالة مع زوجها ترك خان وها أنتم تقولون إنها مات فليتنى ما بدأت الرحلة من أساسها إذن لا سترحت أما الآن فمن أين ياترى تجئ الراحة دبرونى يا أخوان !!"..

" هذا ما قاله الفتى يا أخانا لا يمكن أن تغيب كلمة منه عن بالى ! حالة كانت صعبة مؤثرة ولهذا حفظت كلامه إذ قلته أمام البوليس والنيابة عشرات المرات !! الولد الأفندى بعد أن قال ما قال انفجر فى البكاء الحراق وصارت الدماء تخترق تحت جلد وجهه شيئاً فشيئاً ! وكلما أراد النهوض للإنصراف خذلته قدماه فيعود إلى جلسته منكسر الفؤاد وأخيراً قال بصوت متحشرج واهن : تركت المرحومة شيئاً ؟ أهى مدينة لأحد بشئ ؟ لها أبناء وزوج ؟ أريد أى أحد أو أى شئ من ريحتها !!.. قلت : ياولدى إن لها ابنة تدعى نور الصباح كانت متزوجة فمات زوجها وهى عروس فلم تخلع الطرحة السوداء وقد أخذتها صاحبة لها تسكن خلفنا لكى تهدئ خاطرها وهى كل ما تبقى من المرحومة فإن شئت ناديناهالك !!.. قال أنه يحب أن يراها ويقيم الود معها !! ما كاد يكمل عبارته حتى ذهب أكثر من مرسال إلى وداد الغازية فجاءوا بالإثنتين وداد ونور !! ياله من منظر يا أخانا !! الدنيا يا أخانا فيها سر لا نفهمه ، لا تقل لى مدرسة ولا علماً فالدنيا شوفان وتجريب قبل كل شئ !!" ..

" وداد ونور الصباح وقفتا أمامنا جامدتين صورة واحدة منقسمة إلى نصفين غاطسين فى الثوب الأسود بالطرحة السوداء لا تمييز بين هذه وتلك فمن الذى أرشد الولد الأفندى إلى أخته بنت أمه التى لم يرها فى عمره ؟ لا أحد وحق الله يا أخانا ! إنما الولد هو الذى يحلق فيهما بعينين قويتين ثم ارتمى فى الحال على صدر

نور الصباح منفجراً في البكاء ! صارت هي تربت على ظهره !! إنخلع قلبي ! فوحق ذي الليلة ومساها أنني صرت أنظر للولد مرة وللبنت مرة فأرى أن سحبة الفكين في الوجهين واحدة كما النظرة في العينين واحدة ! قال الولد الأفندى لأخته نور الصباح : يا أخت أسمي خالد ابراهيم النعمان ! قالت نور الصباح وهي تهز يده : أنت خالد ابنها ؟ أهلاً بك يا حبيبي إنها كلمتني عنك مرة واحدة وبعدها قرّطت على بعدم فتح سيرتك أبداً لكنها ياما ضبطتها وهي تحلم وتبكي قائلة هاتوا لى ابني خالد حبيبي وفي يوم صحت من حلم مثله فلطمت وشقت الهدوم ! الله يرحمها كان في حياتها أشياء كثيرة لا أعرفها ولا أفهمها ! أنت ابنها إذن ؟ أهلاً بك ياخوى !! قال الولد الأفندى : جئت هذه المرة وفي نيتي أن أقيم مع أمي إلى الأبد لأني زهقت من الحياة في بيروت بغير أم خاصة أن أبي مشغول بأبنائه الآخرين الذين يحب أمهاتهم وهم جميعاً يحتقرونني فأين أذهب الآن ولمن ألجأ؟ إسمعي يا أختي أنا جئت معي بكل ما يخصني من مصارى وملابس وهي الآن في اللوكاندة التي أنزل فيها في مصر لسوف أذهب الآن لأحضرها ونبحث عن مسكن هنا نعيش فيه معاً حتى ينظر الله في أمرنا !!.. ومضينا خلفه نودعه إلى السيارة فإذا هي سيارة من سيارات الأجرة المصراوية فيها سائق عجوز مستغرق في النوم ! مد الولد الأفندى يده ليفتح الباب لكنه ترنح بقوة وانكسر جذعه ثم هوى فوق الأرض مغشياً عليه !! إنقلبنا فوقه صرنا نقلب فيه يميناً وشمالاً وهو كالخرقة !! مات الولد يا أخانا !! وقعنا في سين وجيم ! داهمنا البوليس والنيابة مرة ومرة !! جاءتنا تحريات البوليس تقول أن الولد الأفندى عمل عملة خطيرة : قتل اثنين من إخوته غير الأشقاء في لحظة غضب أعمى إذ أنه مدمن مخدرات ومختل العقل من صغره يخرج من عيادة ليدخل في مصحة ! وحين قتل أخويه كان يمثل تمثيلية مخلولة بمسدس مسروق من طبيبه الخاص! وقد عرفوا في بيروت أنه تسلل إلى مصر ليختبئ عند أمه بعدما سرق مدخرات جدته ومصوغاتها!! وعند تشريح جثته وجدوا في بطنه كميات كبيرة من الحبوب المخدرة والأفيون والحشيش المعجون بالشكلاطة كبست كلها على قلبه أوقفته !! أبوه رفض استلام جثته فكانت البلوى كبيرة !!"..

" ياله من منظر يا أخانا !! نور الصباح التى أمسكت بقشة أمل توصلها إلى بر الأمان وجدت نفسها لم ترث من الحلم الفجائى سوى جثة هامدة !! طلعت فى غاية الجدعنة ! رافقت جثة أخيها كالرجل المقدام حتى دفنتها بجوار أمها !.. كلنا طبعاً تشاءمنا من فتح المقبرة وهى جديدة على جثة لم تكد تستقر لكن ما باليد حيلة!! رقدت نور الصباح فى فراشها أياماً طويلة تحت رعاية نسوان الوكالة فى حالة ما يعلم بها غير الله ! حتى فوجئنا بها ذات يوم تخرج مشعثه الشعر تهذى بكلام غير مفهوم ! تجلس فى الشمس فى الحوش شاردة تسيل الريالة على شدقيها!! إنهطلت البنت وما كان كان ! صارت تخرج عارية فى الليل تصوت بغير سبب وتمزق جلد وجهها وتهيل التراب على رأسها !! نكتفها لنلبسها ثوباً بالقوة ! تمزقه ! تفعل حركات جنونية خطيرة ! ترقص ! تلعب حواجبها للعيال تضحك على الدوام ترمى الناس بالحجارة !! جاءت عربة الشرطة فأخذتها بقميص الكتاف إلى مستشفى الخانكة !!.. البنت وداد فيها البركة والله يا أخانا ! صارت تزورها كل شهر ثم كل شهرين ثم كل ثلاثة ثم مرتين فى العام وفى كل مرة تعود يائسة من شفاء حبيبة قلبها نور الصباح !!"..

" والآن لابد أنك تسأل نفسك لماذا حكى لى الرجل هذه الحكاية الطويلة العريضة التى لم تكن تخطر على البال ؟! ولكن لا تتعجل يا أخانا فبعد قليل تعرف السبب !!"..

الســراب

.. كان الليل قد بدأ يوغل في الظلام والقدمْ مع أن الماضى منه قليل ، وموجز أخبار العاشرة يصدح فى الراديو البعيد كأنه قريب بصوت المذيعة همت مصطفى ؛ حينما انزاح باب البوابة بعد طرقة رمزية خفيفة ، ودخل رجل نحيل يرتدى القميص الأفرنجى فوق السروال . إتجه نحونا فاتحاً ذراعيه مهللاً فى بشاشة وبهجة صائحاً :

- " والله زمان ياعم شوادفى ! مصير الحى يتلاقى !"..

هجم على شوادفى ، الذى نهض واقفاً فى استقباله بحرارة ؛ اعتنقه وربت على ظهره بكفه الناشفة وهو يضحك ويهلل :

- " إزيك ياواد! سلامات ألف حمد لله على السلامة ! وصلنى مرسالك اليوم وبعثت لك السلام معه وقلت إنى فى انتظارك فى شوق إليك "..

ثم أطلق سراحه ، فاقترب منى مسلماً على ، واستدار فسلم على شوادفى مرة أخرى بلهوجة ؛ دون أن يلحظ وجود الشيخ زينهم العتريس المتكور جنب المصطبة على الأرض مسنداً ظهره لحائط البوابة . جلس بينى وبين شوادفى على المصطبة. كان وجهه نحيلاً مبيضاً بارز عظام الخدين عليه مسحة من الغبار والقشف ؛ وفى عينيه انكسار وظل من الذلة المضمرة على تمرد خفى، يرمش باستمرار كأنه يتقى الضوء أو يتلقفه على مهل قبساً قبساً . خيل لى أننى رأيته من قبل، فشكله مألوف، له فى رأسى رصيد من الصور فى أطر مجهولة لست أتبينها الآن ، لكنه مرح جذاب بقدر ما يشع منه ومن عينيه ولسانه من روح عدوانية متحفزة مكظومة.. سحب شوادفى منقد النار واندمج فى تكسير القوالح المتفحمة واشعالها بواسطة ورقة جرنان يقرطسها ويشعل طرفها النفيرى ثم ينفخ فى فتحة رأس القرطاس فإذا النار قد أمسكت بالقوالح فى لمح البصر. قال شوادفى مشيراً إلى زينهم البادى ككومة من الخرق الحائلة ملقاه فى الزاوية الكابية :

- "لم تسلم على حبيبك القديم ! السجن أنساك الأحبة؟!"..

صرخ واقفاً فاتحاً ذراعيه :

- " الشيخ زينهم العتريس ! ياخبر أبيض ! لاتؤاخذني يا أبو عتريس فعيني لم تتعود الضوء بعد ! إزيك وازى الأولاد كلهم ؟!"..

وارتمى على زينهم منهالاً عليه تقبيلاً واعتناقاً ، فيما يرددان معاً في نفس واحد كالأطفال الهازلين : إزيك ! طيبون !.. وهكذا إلى أن صرخ فيهم شوادفي :

- " هي سيرة ولا أيه ! ما كفاية كده ! "

ثم نظر لى نظرة ذات معنى فيما يشير إليه :

- " هذا هو حموه البورى ! صاحبنا من قديم !"

- " أهلاً وسهلاً ! "..

وارتعش قلبي على أوتار صوتي من شدة الفضول . جلس البورى وهو يربت على ركبتيه ناظراً في اتجاه البواكي نحو الحجرة العلوية صائحاً في ابتهاج مرتعش بالفرح والغبطة والسرور :

- " سا الخير ياللي في بالي ! نحن هنا!"..

واستدار إلى شوادفي :

- " كيف الحال يا عم شوادفي! لك وحشة والله العظيم وحق سيدى أبو المكارم !"..

في صوت شوادفي حزن شفيف دافئ اندهشت من أن يكون في شخص كشوادفي يحتفظ خلف ظهره بمقبرة لمناهضيه :

- " بخير يابورى ! كل شئ في الدنيا نصيب ومكتوب ولا أحد يأخذ أكثر أو أقل مما قسمه الله له !"..

قال البورى في اغتباط :

- " بعثت لك المرسال وأنا في مديرية الأمن من أجل إجراءات الخروج ! قلت في بالي إنكم ستفرحون بالخبر وربما تجهزون لى عشوة بيتية !"..

أشار إلى حجرة وديدة وقد انداحت الغبطة من صوته تحت نبرة كئيبة تنضح بالشر العميق :

- " لا ضوء يظهر ! سمع الجماعة بالخبر ياترى ؟! ما أظن أنهم علموا بخبر طلوعي اليوم من السجن ! تصور أنني لم أذهب إلى أى مكان ؟! من مديرية الأمن

إلى هنا فى الحال ! شف يا أخى ترتيب الأيام العجيب ! من هنا إلى السجن ومن السجن إلى هنا ! تصدق بالله يا عم شوادفى ؟ أنا فى السجن لم أر شيئاً لم أتذكر شيئاً إلا هذه العتبة وهذه الحجرة وعيون نور الصباح ! لم يكن فى بالى أى شئ آخر! زملائى فى الزنزانة كانوا من هنا ومنهم من يبيت فى فرشتى طوال الليل فى حضنى!! وحق سيدى أبو المكارم كنت أثناء النوم أمدُ ذراعى لأحضن النائم بجوارى وكان يخيل لى أننى حضنت جسده بالفعل !! يا سلام !! الحرية متعة حقاً!! الواحد يأكل العيش الحاف يمشى عارياً ويحمد الله على الصحة والستر!! وحق سيدى أبو المكارم أن السنوات العشر على خد واحد كانت مليون سنة !! سأسعى لمقابلة آمال فهمى فى برنامج على الناصية فعندى لها حبة كلام حلوين لكى أطلب أغنية أم كلثوم وأهديها إلى السجن : أنا لن أعود إليك !! أبداً !! كفانا الله شره وسيرته !! من غد سأتزوج مهجة القلب وأبدأ حياة جديدة فى يدى صنعتى والحمد لله سأشتغل صنايعياً فى أى محل عجلاتى سأفرش على الطريق الزراعى لألحم عجلات السيارات وسوف يوفقنى الله بالإستقرار فأخذ وضعى من جديد!! مادمت فى جوار مهجة القلب نور الصباح ونور عينى فإن الله سيهدنى يجعلنى ابن حلال !! إدع لى يا عم زينهم حلفتك بحق سيدك العتريس أن تقول له إننى ولد جدع أعجبه !! له عندى نذر ولسيدى أبو المكارم مثله لأنى استنجدت به فى السجن فوضع أولاد الحلال فى سكتى!! الإخوان المسلمون جاءوا إلى السجن فنغنغونا بزيارات أهاليهم لهم كل يوم !! كل وارد يوزع علينا بالعدل ونحن أبناء الجنايات نشتغل بدلا منهم بموالسة العسكر الذين يأكلون معنا لقمة بلقمة وسيجارة بسيجارة وشفطة شاى بشفطة شاى !! حتى الصلاة أرغموهم على مشاركتنا فيها وإلا انقطعت الجراية عن الجميع !! يا سلام على الأيام !! ما أكثر الأئمة وأصحاب اللحى والكلام الحلو مثل العسل!! ينزل فى القلب فلا يبرحه!! أنا وغيرى من أبناء الجنايات لم نكن نعرف شيئاً عن أمور ديننا ودنيانا ولكن هؤلاء المشايخ الأفندية جعلونا آخر حلاوة !! أبناء الجنايات ربوا لحاهم وتعلموا الكلام وبعضهم صار يعقد لنفسه مجلساً من قضايا النصب والسرقة والغش والتزوير يقولون لهم قال الله وقال

الرسول !! ناس خرجوا معي وفي نيتهم الإعتكاف في المسجد !
الحجاز هذا العام كما نوت !! وأما أنا فلن أنقطع عن الصلاة !!"..

وحينما وضعت كوبة الشاى أمامه تمطى الشيخ زينهم فى قعدته ثـ
نحو البورى بعدسايه أفيون . فصفق هذا بيديه فى ابتهاج كبير صائحاً

- " أحبك ! هل هلالك شهر مبارك !"..

وكشط الفيونة عن ابهام الشيخ بابهامه ثـم اسقطها فـى فمه متلـ
الشيخ زينهم وزع علينا كل واحد عدساية . قال شوادفى وهو يتلمظ
بالشيخ زينهم لإنقاذه من هذه الورطة التى وضح أنه حائر فى علاجها

- " عندكش كلمتين حلوين تقولهم يا أبو عتريس ؟! غلب حماري
عن العمل ! إهرش مخك معي ! نريد أن نسمع شيئاً من كلامك الحلو
يا أخانا قد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فليتك تنقطنا بشئ ينفعنا
الذى نحن فيه !!"..

فنظر الشيخ زينهم بطرف عينه المصابة ، فصارت البقعة البيضاء المز
الأحمر القانى . صار يهرش فى رقبته خلف رأسه . فضحك شوادفى مـ
كالخطاطيف :

- " أقول لك اهرش راسك تهرش أنت فى عِرق المياقة ؟! ما الـ
تقوله للبورى الآن ؟! أخذت لى بالك ؟! خذه فى حضنك وتحدث ! ...
عبر له عن اشتياقك مثلاً ! فكر فى فكرة تريحه وتريحنا !! نحن الآن ...
تريد أن ينتعها الله بالسلامة وبدون وجع فماذا عندك ؟!"..

نكس الشيخ زينهم نظراته فى الأرض لثوان طويلة صار يشفط خلا
النهمة من سيجارة " وينجز " تخينة بين أصبعيه . ثم رفع رأسه ناخا
تقلصت شفتاه المزرقتان بلون الدخان فيما يشبه الإبتسامة ، وبدأ أنه يتأ
بل ظهر فى بريق عينه السليمة كأنه قد عثر على الكلام الناجع فى
المشكلة العويصة ، لتبريد البورى وتأهيله لتلقى الحقيقة الفاجعة ..

حكاية الطير العجيب

.. " صلوا على النبى !! كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ولد شاطر بجدع قوى إسمه الشاطر كريم !! ذا غير الشاطر حسن الذى تعرفونه فى الحوايت أما حكايتنا فإنها حصلت فى الحياة : الشاطر كريم كان ولداً فتوة ينزل فى عركة يقشها ! شارع يقفله ! فرح يطفئ كلوباته ! ما كان أحد يستطيع الوقوف أمامه !! إنخطف قلبه إلى فتاة جملية بنت رجل فقير على قد حاله فذهب ليخطبها وفى باله أن أب الفتاه سيفرش له الطريق بالرمل لأنه تنازل وجاء يخطب ابنته !!.. الأب الفقير ليس فى يديه أن يفعل لكن رحب بالشاطر كريم كل الترحيب وقدم له كل ما يقدر عليه من الكرم وقال له يا سيد الشطار إننى أكون على شرف كبير لزواجك من ابنتى ولكنك جئت بعد فوات الأوان والبنت مخطوبة لابن عمها الذى تحبه ويحبها منذ الصغر !!.. نفخ الشاطر صدره من الغيظ وقال له يا شيخ العرب منذ متى كان للبنت رأى فى زواجها ومنذ متى كانت تفهم فى اختيار الزوج المناسب وكيف تقول أنت بلسانك أنها تحب أليس الحب عيباً وعاراً يا أخ العرب؟!.. قال الرجل وهو فى شدة الخوف : يا سيد الشطار هذا ما كان وإنه لحب شريف عفيف وعلى كل حال فالشرع يبيح للبنت أن تقول رأيها فيمن يتقدم للزواج منها وها أنت ذا تقدمت فتعال نسألها أمامك أن كانت تقبلك أم لا؟!.. فازداد غضب الشاطر كريم وقال له : إننى بصريح العبارة لا أحب أن أخطب واحدة وترفضنى هذا شئ لم أتعوده فهل ترضاه لى ؟!.. قال له الرجل : والله يا ولدى لا أحتمل وفى نفس الوقت لا أحتمل أن أرغم ابنتى على الزواج من أحد! ليس فيك أى شئ يعاب فإن رضيت بك البنت فأهلاً وسهلاً !.. جئ بالبنت فقالت إنها تحب خطيبها ولم تزد على ذلك كلمة واحد فخرج الشاطر كريم غاضباً يأكل فى نفسه من شدة الغيظ وصمم أن يجعل البنت تركع عند قدميه وترجوه أن يتزوجها !!.. هكذا دبر مكيدة لخطيب البنت فأغرقه فظهرت جثته بعد أيام وبقى الفاعل مجهولاً لكن الجميع عرفوا أن الفاعل هو كريم!! واراد صاحبنا ان يستميل قلب البنت فصار يرسل لها ولابيها وإخوتها الهدايا مما ينهبه فى قطع الطريق ولكن

البنت ظلت حزينة على حبيبها فانصدت نفسها عن الحياة وعن كل شيء فصارت ترد له هداياه فصمم على أنكسر أنفها بعد أن حرق قلبها !!.. وهكذا دبر مكيدة أخرى لأبيها ! لم يقتله لكنه أوصى بجرحه والقاء الرعب في قلبه !!.. وبينما كان الأب المسكين نائماً في فراش المرض من شدة الخضة ذهب كريم ليزوره ويعشمه بأنه في حمايته منذ اليوم وسينتقم له من الفاعل !! و لم ينس أن يلمح إلى طلبه وكانت البنت واقفة خلف باب القاعة تتنصت فلما سمعت اباها يقول إنها غير راغبة في الزواج دخلت عليهما وقال إنها راغبة الآن ومن كريم بالذات !! عرفت نية كريم وضميره الأسود فرحمت أباها !!.. إنبسط كريم فأقام الفراح والليالي الملاح سبع ليالي طوال وانتقلت العروس إلى داره البعيدة التي تقيم فيها أمه العجوز مع طفلين من ابناء ابنتها المتوفاه !.. في ليلة الدخلة وجد كريم عروسه مريضة! وكل ليلة يتجدد المرض ويقوى ! وكلما حاول الإستمتاع بها وجد بين يديه رمة لا حركة فيها ولا فس فيرمى بها ويخرج في عز الليل يضرب الهواء بنبوته يقه في خلق الله بلا ذنب جنوه ينهب المخازن والأسواق والقوافل المسافرة ويقتل من يعترضه!!.. أخيراً يا مولانا تعبت نفسه من كثرة الظلام المعشش فيها!! فبينما كان ماشياً قابلته عرافة تشوف البخت فأقعى أمامها وطالبها بأن تشوف له بختة!! فضربت الرمل وفنطت الورق ووشوشت الودع ثم قالت له إن في حياتك مسجون سوف يهدم عليك جدران سجنه يهرب وبهروبه تفوح روائح كريهة تهيج الدنيا عليك تكسر وسطك تقصم ظهرك فمن يكون هذا المسجون ؟!.. إسودت الدنيا في وجهه واغتاظ من العرافة فركلها بقدمه وانصرف لاعناً أباها وأب اليوم المشئوم الذي وضعها في طريقه !! ورأى نفسه لا يحب العودة إلى داره فظل ماشياً دون وعي ودون هدف بلد تشيله وبلد تحطه إلى أن اعجبه شكل بلدة تقع على تخوم غابة لا أول لها ولا أخر على شاطئ نهر ضيق الشطان !!.. أخذت لى بالك يا مولانا ؟! رأى على شاطئ النهر محلة يجلس فيها ناس من كل نوع: صيادون وبحارون وفلاحون وتجار وشطار ولصوص ومرتزقة وعمال مراكبية وحمارون !! جلس بينهم وطلب مشروباً مثلهم وسرح لوحده في ملكوت الله مسحوراً بالمنظر الجميل ! إلا أنه لاحظ أن الجميع من حوله يتحدثون في موضوع واحد !!.. أخذت لى بالك

ياMولانا ؟ فى موضوع ماذا ؟ واحد ! فالجميع يتكلم عن طير غريب الشكل والمنظر يسكن الغابة المجاورة ولا أحد يعرف لـه اسماً كما أن أحداً لم يتمكن من صيده أبداً!!"..

" كريم انشغل بالأمر ياMولانا ! صار ينظر لهم باستهانة واستخفاف! فأى طير هذا الذى يعجز الشطار عن اصطياده ؟! نسر ؟ صقر ؟ حدأة ؟ لو كان أسداً بجناحين فلابد أن يكون هناك من الشطار من يقدر على اصطياده فلكل صائد فنه!!.. لكنهم طيروا مخه يا مولانا حينما راحوا يتذاكرون تاريخ الشطار الذين حاولوا اصطياد هذا الطير العجيب الغريب دون أن يفلحوا !! شف العجب يا مولانا ! بل أن ملوكاً وأمراء وفرسان حرب جمعوا الجيوش وعجلات الحرب ومدافعها وجاءوا لمنازلة هذا الطير فبقوا شهوراً واعواماً حتى نفذت ذخائرهم ونفذ صبرهم وكسحهم طول الحر والصقيع والسفر فعادوا فى النهاية خائبين !!"..

" فتك فى الكلام ياMولانا ! إن كريم كان كلما حاول الإجتماع بعروسه فتعطيه نفسها كالخرقة الباليه فلا تنشد أعصابه دخله الشك فى رجولته ! فلما سمع هذا الكلام عن هذا الطير الغريب اشتغل خياله فصار يدبر ويصور له صورة لنفسه وقد رجع إلى بلدته فى زفة كبيرة محملاً بالهدايا والأموال جزاءً وفاقاً على بطولته فى اصطياد الطير الذى عجزت عن صيده الجيوش والمدافع ! ورأى عروسه تغمرها الفرحة به وببطولته فتفتح له حضنها يعود إليها وإليه روقان البال فيمسك برجولته التائهة منه !!"..

" هُب للنبى وجد نفسه يقوم فيتجه إلى الجالسين فيعرفهم بنفسه وبمركزه بين أهل بلدته ! فرحبوا به وأشركوه فى حديث الطير الغريب فرغب أن يراه ليجرب حظه معه فقالوا له انه فى الغابة دائماً فاذهب إليه وعد به ان استطعت ولك منا ماشئت ، فمن يقدر على اصطياد هذا الطير بالذات من حقه أن يبقى حاكماً على هذا البلد إلى ماشاء الله !!.. صاحبنا لم يكذب خبراً !! جمع نفسه واتجه إلى الغابة وفى جعبته نبال من كل النواع وعلى جنبيه الحراب والدروع والمقذوفات !!"..

" دخل الغابة متوجساً مرتعشاً يسدد بصره على كل فروع الشجر ليدرس زوايا التنشين وكيفية رمى الشبك على الطير بمجرد أن يراه إذ من بين خططه أن يباغته

قبل أن ينتبه إليه فيناوره !!.. أخذت لى بالك يا مولانـا ؟.. صاحبنـا لم يتوغـل فـى الغابة سوى خطوات قليلة إلا وقـد فوجـئ بشـئ خفيـف صغـير يقـف علـى كتفـه اليسرى! شئ أقرب إلى العصفور أو اليمامة أو الكروان ! ما كاد يهشه حتى خـرج منه صوت ساحر النبرة عذب الإيقاع واضـح الكلمـات ؛ قـال لكريـم فـى سـخرية وبراءة :

– لماذا كل هذا التعب يا كريم ؟! وما لـزوم هـذه الحـراب وهـذه النبـال وهـذه المقذوفات ؟! إن الأمر أبسط مما تصورت يا كريم !.

– من أنت أيها العصفور الجميل ؟!

– أنا هو ! الطـائر الغريـب الـذى جئـت تصطـاده ومـن قبلـك جـاءت جيـوش ودبابات واهوال لكنهم قفلوا خائبين لأن اصطيادى سهل ومستحيل معاً فما أسـهل أن تقبض على بيدك وما أسهل أن أفر من جحيم الطلقات فلا تبلغنى أبداً وأنـت يـا كريم تستطيع أن تمسكنى يداً بيد بل أنت غير محتاج لمسكى فها أنـذا فـوق كتفـك وأن شئت دخلت جيبك لأعود معك إلى حيث تشاء أصير ملك يمينك..

" قال كريم وهو من الذهول بين مصدق ومكذب:

– فكيف عجزوا عن اصطيادك مادمت سهلاً ميسوراً هكذا ؟!..

" قال الطير رافعاً جناحيه فى أسف :

لأنهم سقطوا فى الإمتحان ! ودائما يسقطون فيه !!..

" أخذت لى بالك يا مولانا ؟ سقطوا فى مـاذا ؟ فـى الإمتحـان ! فمـا هـو هـذا الإمتحان الصعب يا أيها العصفور الجميل ؟ هكذا سأله كريم ! فقال الطائر:

– أنا لى شرط واحد فقط لكى أمشى معك بالرضا والتسليم ..

– ماهو فإني مرحب به ؟

– نمشى معاً فى سكة طويلة فالواجب أن نسلى أنفسنا حتى لا نتعـب أو نمـل ! سأحكى لك فى الطريق ثلاث حكايات صغيرة بثلاث فرص كبيرة أمنحهـا لـك إن سقطت فى أحدها ربما نجحت فى الأخرى فتطيب علاقتنا معـاً إلى النهايـة! شـرطى الوحيد هو أننى كلما حكيت لك حكاية أنك لا تتنهد ولا تقـول : آه !! إن قلـت

الآه بعد نهاية الحكاية سأطير في الحال دون أن تراني ! لك فرصة أن تقول الآه مرة ومرتين ، أما الثالثة فهي ثابتة إن قلت فيها الآه لن تراني مطلقاً!..

" ضحك كريم وقال :

– إطمئن فأنا من هذه الناحيــة جـامد القلـب عمـرى مـا نطقـت الآه حتـى لـو قتلوني من الضرب ، وياما ضَرب الزمان فيٌ ولسعني بالنار فلم انطقها فهل أنطقهـا متأثراً بحكاية تحكيها أنت أو غيرك ؟ هذا والله لا يكون أبداً ..

– إذن فقد اتفقنا ، إليك أول حكاية : يحكى أنه كان يوجد رجـل مـن مسـاتير الناس يعيش في مزرعته البعيدة مع كلب أمين يحرسه ويحب كل منهمـا الاخـر حبـاً كبيراً وحدث أن هذا الرجل خرج لبعض شـانه فـى الحقـول كمـا خرجـت زوجـه وكان لديهما طفل وليد تركاه نائماً في سريره الصغـير فـى حراسـة الكلـب الأمـين فإذا بثعبان ضخم يزحف متجهاً نحو سرير الطفل مباشرة فكشـر الكلـب عـن انيابـه وانقض على الثعبان راح ينهش فيه يمزق لحمـه حتـى التهمـه كلـه ووقـف معسـكراً بالباب يهز ذيله من الفرح في انتظار سيده ! فلمـا حضـر سـيده ورأى بـوزه ملوثـاً بالدم ظن أن الكلب أنسعر وأكل طفله ففي الحـال نـزع مسدسـه فـأطلق الرصـاص على الكلب فأرداه قتيلاً !!..

" هنا صرخ كريم غضباً عنه في أسف ولوعة :

– آ.. ه.. يا خسارة الكلب الأمين وياله من رجل غبى مندفع !..

" حينئذ لم يجد الطير على كتفه إنما سمع صوته :

– سقطت في الإمتحان يا حلو فعد وحدك !..

" صاح كريم:

– لى فرصتان فاغفر لى هذه الغلطة !..

" حط الطير ثانية على كتفه:

– إليك الحكاية الثانية : يحكى أن رجلاً كان تائهـاً فـى الصحـراء يتخبـط منـذ بضعة أيام في عز الحر ! كاد يموت من العطش وليس حوله ماء ! وفجـأة لمـح علـى البعد صخرتين جبليتين يلمع في شق بينهما خيط ممتد مـن أعلـى إلى أسـفل فأسـرع إليه فوجده خيط ماء ينزل من مكان مجهول في أعلى الصخرة إلى شقوق في أسفلها

فقال: ياما أنت كريم يارب ! وكان معه جفنة من الفخار فوضعها أسفل خيط الماء وبقي هكذا مدة تزيد على ثلاث ساعات في القيظ والخيط يتساقط في الجفنة قطرة قطرة فلما امتلأ قعر الجفنة بشربة ماء طيبة رفعها إلى شفتيه فإذا بهدهد جميل الشكل يسقط مذعوراً من السماء في قلب الجفنة فيوقعها على الرض فتنكسر ويتبعثر الماء! فما كان منه إلا أن انفض على الهدهد الملخوم داسه بقدميه حتى فرمه وعاد إلى خيط الصخرة يحاول فتح فمه تحته فإذا به يرى ما لم يكن رآه من قبل : حية رقطاء رابضة في الشق رهيبة العينين والماء يتساقط من فمها المفتوح قطرات من السم فانشق قلبه من الحزن !..

" هنا صرخ كريم دون أن يدرى :

– آ.. ه.. لاحول ولا قوة إلا بالله ، لقد غدر التعيس بالهدهد الجميل الذى أنقذ حياته !..

" وفي الحال لم يجد الطير لكنه سمع صوته :

– سقطت في الإمتحان للمرة الثانية !..

" صاح كريم في ضراعة :

– لى فرصة أخيرة وأضمن لك أنى سأكون غليظ القلب كما هو معروف عنى!..

" فنزل الطير إلى كتفه:

– إليك الحكاية الثالثة والأخيرة : كان يوجد صياد ثرثار يحب الرغى ولهذا وقف حاله وتعطل رزقه ! دله أهل الخير على غابة منسية فيها الخير كبير ومخاطر جسيمة لا يفلح فيها إلا الكتوم الرزين ! فجمع نباله وسهامه واقتحم هذه الغابة فوجدتها ملآنة بالأشواك والحيوانات الثمينة المطواعة لكنه وهو يقترب من إحدى الفرائس رأى جمجمة إنسان ملقاه في الطريق تحت شجرة فوقف يتأملها مذعوراً فإذا الجمجمة تكلمه قائلة : كن في حالك وامش ! فقال لها : مادمت تتكلمين فقولي : ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ قالت : الكلام !! صاحبنا الثرثار نسى صيده وانطلق يجرى إلى المدينة ! ماكاد يصل إلى داره حتى كان الخبر قد سقط منه فسمعه الناس فوصل إلى أذن حاكم المدينة فبعث في طلبه فقال له أرنا هذه الجمجمة التى

تتكلم ولك منا مكافأة كبيرة ! قال سمعاً وطاعة ! فأرسل معه السياف إلى الغابة وقال له إن تكلمت الجمجمة أمامك سلمه المكافأة وإن لم تتكلم إقطع رقبته واترك رأسه بجوار الجمجمة وارمى بجثته لكلاب المدينة ! ذهب الصياد مع السياف إلى الغابة ولكن الجمجمة لم تتكلم! فقطع السياف رأسه وتركه بجوار الجمجمة وحمل جثته ومضى ! وبعد انصراف السياف مالت الجمجمة على رقبة الصياد قائلة : ما الذى جاء بك إلى هنا يارقبة الصياد ؟ قالت : كلام !..

" هنا صرخ كريم :

– آ.. ه.. مضبوط! لسانك حصانك أن صنته صانك وأن خنته خانك ! هذا اللتات يستأهل !!..

" وتحسس كتفه فلم يجد للطير أثراً ، فصار يحدث نفسه قائلاً : فعلاً إنه طير حر غريب يأبى أن يسجن في قفص أو يكون عرضة للعسس . فإذا به سمع صوت الطير نفسه يقول :

– لا يا شاطر كريم ! الحكاية مش حكاية طير يخاف من القفص ويطير من العسس !! الحكاية حكاية الآه والآه لا يمكن أن تنحبس ! أنت يا شاطر كريم مع أنك غليظ القلب ماقدرت أن تحبس الآه فى صدرك فهل تراك تقدر أن تحبسها فى صدر غيرك ؟! إرجع ولا تفكر في القبض على مرة أخرى !!..

" أخذت بالك يامولانا ! إنها حكاية ماذا ؟ حكاية الآه ! كل واحد فينا يقول الآه غصباً عنه أو برضاه ، لكنه عندما يتسبب فيها لغيره لا يطيق أن يسمعها منهم!!.. الشاطر كريم من قهرته رجع إلى بلدته ودماغه يضرب يقلب فى غليان فصار يشعر بالندم على مافعله طول حياته فامتلأت أذنه بالآه ضخمة كبيرة بعشرات الأصوات ممن ظلمهم واعتدى عليهم طول حياته الشقية!.. تمنى لو أنهم جميعاً قبلوا اعتذاره وغفروا له لكنه شعر أن الله لن يغفر له أبداً! فنوى أن يكفر عن ذنبه فيتوب ويعامل عروسه بالحسنى إذ أيقن أنها لا يمكن أن تخلص له أبداً لأنه قتل حبيبها فطعن قلبها ولهذا فهى ليست زوجته باختيارها بل هى تعتبر محبوسة عنده بالخوف وحده ! ومثلما لم يستطع هو كتم الآه فإنه لن يستطيع حبس عروسه فى داره إلى الأبد إذ أن عروسه نفسها لن تقدر على حبس الآه فى صدرها..

" لكنه وجد أن الآه الحبيسة قد سبقته وانطلقت يامولانا ! فالبنية المسكينة فى غيبته قلبت في حاجاته فوجدت خاتماً ذهبياً تعرفت عليه فى الحال إذ هو خاتم حبيبها الذى تعرفه ؛ كما عثرت على أشياء كثيرة كانت مع ناس أختفوا من الحياة في ظروف غامضة !.. ذهبت إلى بعض من تعرفهم من أهالى ضحاياه فحدثتهم عما رأت !! فذهبوا جميعاً إلى الحكومة فأبلغوها فدبرت له كميناً فما كاد يستقر فى داره حتى هجموا عليه وحملوه إلى السجن وهو يبكى قائلاً : حقاً إن الآه الحبيسة لابد أن تكسر عظام الصدور وتطير لتنتقم لنفسها !!.. أخذت لى بالك يامولانا ؟ قال الراوى إنه لما وضعوا رقبته فى حبل المشنقة بسبب جرائم القتل التى استيقظت كلها بالأدلة وحاصرته كان يهذى بالعرافة التى شافت له البخت الأسود فلم يصدقها ! وبذلك الطير الغريب الذى يقول أنه ينقره فى عينيه وحبة قلبه بمنقار مدبب ! شف يامولانا نهاية كل مجرم ظالم!! داين تدان يامولانا! الذى تأخذه بالغصب أو بالجريمة لابد يضرك فى صحتك فى عينيك فما بالك بالذى تأخذه بالغدر أو بالقتل أو بالسم؟! دبر هذا فى مخك يامولانا!!.. أنت شرفت وآنست يابورى! مادمت خرجت من السجن بصحتك فاحمد الله ولاتطمع فى أى شئ حرام !! تب إلى الله توبة نصوحا ولا تحزن على مافات فكل شئ نصيب ومافاتك يعوضك الله خيراً منه !! خيرها فى غيرها يابورى يا ابن الناس هكذا يقول المثل ! وربنا يهدينا ويهديك إن شاء الله !!"..

المواجهة

– " يا ابن الكا .... ا.. لـب !! أنـت واعرحقـاً يـاد ياشيخ زينهـم ! فتـح الله عليك !"..

هكذا قال شوادفي مشوحاً بكفه العريضة ؛ ثـم راح يطـوف بعينيه علـى وجـه البورى، الذى وضح أنه قد تبدل الآن تمامـاً . كـانت صفحـة وجهـة قـد استرخت وتهدلت واختفت منها بوارق التحفز والعدوانية ؛ سكنت فـى عينيـه نظـرة كـانت حائرة متعجلة متوترة ، آبت إلى ركود في صفـاء تـام ؛ إنداحـت عـن كيانـه حالـة الزهو الشرير والفرح الغامض ، آبت إلى طفولة شـقية عـاجزة ؛ بـدا جـانب وجهـه المقابل لى فى ظل ضوء شاحب جداً يتدلى من أعلى السـقف، تعيسـاً إلى حـد كبـير جداً، عاجز بشكل مثير للشفقة. كان شارداً شرود صوفـى مجذوب مظلـل بالكآبـة والملل . حانت منه التفاتة سريعة يائسة نحو حجرة وديدة بدا كأنها النظـرة الأخـيرة يلقيها المرء على قبر ضم رفات شئ كان عزيزاً وانتهى ؛ ثم خبط بيديه على ركبتيـه وبدا أنه يفكر في الإنصراف وانه حائر أين يذهب . وحين رفع وجهه ناظراً فينا بدا كأنه يشعر بخيبة أمل فادحة حيث لم يلق الاستقبال الـذى حلـم بـه طـوال سـنوات السجن ولياليه ؛ وبدا أيضاً أنـه قـد أدرك ان شـيئاً غـير عـادى قـد حـدث ؛ وظهـر التساؤل فى عينيه بشكل مؤثر ، خاصـة أن حجـرة وديـدة كـان يجـئ مـن ناحيتهـا صمت وظلام وسكون مخيف وكئيب سيما وأن قاطنها الحالى هو رمضان عريجة. ثم إن الإسترابة في الأمر ظهرت بوضوح على وجه البورى كما بدأ ايضاً أنه يفكـر فـى طريقة ذكية يسأل بها عن الحقيقة وأنه في نفس الوقت متوجس من معرفتها . شوح شوادفي بذراعه الطويلة كقحف الجريد بحركة من يريد طرق الحديد وهو ساخن :

– " أسمع يا أخانا ! أنت قتلت رجـلاً مظلومـاً كـان رجـلاً ولا كـل الرجـال ! وأخذت جزاءك وهو قليل قدام قصـف عمـر رجـل !! وديـدة خربـت بيـوت نـاس كثـيرين وأخـذت جزاءهـا هـى الأخـرى إذ طلبهـا الرفيـق الأعلـى ليحاكمهـا أشـد المحاكمة ! ومأواها المؤبد جهنم والعياذ بالله !! المسكينة الوحيدة بينكما هـى البنـت نورا جاءها لطف بعيداً عنك وتسكن الان فـى مستشـفى المجانين! زمانهـا مـاتت!

وداد لم تعد تزورها إلا صدفة !! المصائب الثقيلة حدثت في غيابك ! وها أنت ذا قد نجوت نفذت بجلك من المعركة !! أنت الوحيد الكسبان ! مازلت بصحتك وشبابك تستطيع الشغل والزواج والإبتداء من أول وجديد على نظافة ! هذا كل ما في الأمر فإياك وحركات الزعل التى لا تأتى بمصاريفها !!"..

الجحوظ في عيني البورى رغم الشرر المتطاير منه يشي بأنه كان قد استعد لتقبل مثل هذه المفاجأت الخطرة ، فظل جامد الوجه صلب الملامح لفترة طويلة خيم فيها علينا سكون مشحون متوجس . ثم بدأت ملامح البورى تلين شيئاً فشيئاً ، تم ترتعش تحتقن ؛ ثم انهرت الدموع غزيرة كالمطر..

نكسنا الرءوس في حزن شديد ، لم ينبس أحدنا بحرف ، بل إننى رغم عدم احترامي للبورى كمجرم عنيف رحت أغالب الرغبة فى البكاء ، فقد هالنى أمره تلك اللحظة . وكلما تصورنا انه استرد هدوء بالصمت والشرود، عاودته نوبة البكاء من جديد بشكل هستيرى ، يهتز جسده كله وينتفض ، وسط عبارات يرسلها شوادفى وزينهم العتريس : وحد الله ! ما منه فائدة ! أحمد ربك ! قدر ولطف ! ارحم نفسك !.. حتى ظهر عليه الضيق وشعر كأننا نريد أن نمنعه من فعل شئ يحبه ويهواه ؛ فإذا هو ينتفض قائماً بشكل مفاجىء : سلام عليكم ؛ ثم يندفع نحو الباب في حماسة هوجاء . صاح شوادفي :

– " رايح فين يا مجنون ؟!"..

– " أسافر إلى مستشفى الخانكة ! سيطلع على الصبح هناك بإذن الله !"..

– " يا أخانا هل جننت ؟ ماذا ستفعل في الخانكة ؟! تسلم نفسك للجهادية ؟ إعقل وأجلس نتفاهم !!"..

–" في صدرى بكاء كثير !"..

– " إه ! وهل لا ينفع البكاء هنا ؟!"..

– " طربة المرحومة لن تضيق ببكائى !"..

– " ولا هذه المصطبة ! نوح عليها حتى الصباح ! هذه مصطبة وتلك مصطبة! هناك عفاريت شريرة وهنا عفاريت طيبة !!"..

– " لن أهدأ إلا إذا بكيت على طربتها وكلمتها بما في ضميرى !! ولن أهدأ إلا إن قابلت نور الصباح ورأيتهـا بعينـى ! عنـدى عشـم أن الله يـرد لهـا عقلهـا حـين ترانى!! إن الله على كل شئ قدير وعشمى فيه كبير !!"..

– " معك نقود ؟!"..

– " ولا مليم !"..

– " فكيف تركب القطار ؟ كيف تذهـب إلى المستشـفى وانـت مثـل قلتـك ؟! إقعد نتفاهم قليلاً !"..

– " المشى سيريحنى !"..

– " طب خذ !"..

وغمزه ببريزة فضية :

– " سلم لنا على الإثنين ! ذى (واشار بإبهامه خلف ظهره نحـو المقـبرة) وذى (وأشار بسبابته إلى الأمام) واقرأ لنا الفاتحة في الحسين !"..

مد البورى يده على استحياء فأخذ البريزة . وكان الشيخ زينهم قد أخرج بريزة أخرى قدمها له :

– " وهاك بركة من سيدك العتريس !"..

فأخذها ، فوجدت نفسى منساقاً إلى نفس الفعل بلـذة كبـيرة ، ففـردت الـبريزة الورقية وقدمتها إليه :

– " وهذه منى !"..

فاختصنى بنظرة امتنان شديد ، ربما لأنه لم يكن يعرفنـى مـن قبـل ، ولـم يعـرف بعد من أكون . وجدت نفسى أمضى خلفه حتـى البوابـة . وظللـت أرقـب شـبحه وهو يتحول إلى عامود من الدخان الرمادى القائم يتلاشـى كلمـا ابتعـد غائصـاً فـى المقابر التى بدت هى الخرى كتلا من السحب الدكنـاء تلتحـق بالسـحب السـماوية فى أطراف خيمة الأفق .

النذيـــر

صرفني محمد أبو سن في لحظة مبكرة اندهشت لها. كانت مفاجأة ، ففي مثل هذه الليلة من كل أسبوع أعتدنا السهر في حجرة العليشي حتى صلاة الفجر نأكل ونشرب الشاى والقرفة والقهوة مع الفاكهة نقرأ نتكلم . صحيح أن نصيبي في الكلام يكون ضئيلاً جداً لا يتعدى عبارات عابرة قاصرة على إبداء الدهشة أو ربما الإعجاب ؛ لكن كلامهم ممتع لى إذ أسمع منهم العجب ، نفس الآيات ونفس الأحاديث النبوية التي سمعتها في المساجد من الخطباء والوعاظ مئات المرات ؛ أكتشف في هذه الليلة أن لها معان كثيرة أخرى وربما كانت مناقضة تماماً لما كنت أعرفه ؛ معان وتفاسير مشرقة تضئ الأفق تملأ الفؤاد بالرهبة والخوف من قلة الورع؛ تدفع الإنسان إلى الجرأة في الحياة ؛ توقظ في نفسه الشعور بالمساواة بين البشر ، بأنه وحاكم البلاد مخلوقين لا فضل لأى منهما على الأخر إلا بالتقوى واتباع الخير واجتناب المنكر. معان وتفاسير تجرد الحاكم من هالة الرعب تظهره في صورته الأصلية كشخص يخطئ ويصيب ويجب تبعاً لذلك أن يخضع لشريعة العقاب والثواب . لقد كنت أحب هذه السهرة لأنها كانت تعطيني حصيلة كبيرة من أقوال مأثورة مفحمة جامعة شاملة مع آيات قرآنية وأحاديث نبوية ذات معان مشرقة يمكن أن أستخدمها في الحياة خلال تعاملي مع البشر من زملاء ورؤساء وشرطة. أقوال وأشعار وآيات وأحاديث من فرط مرونتها وغناها واتساع معانيها تصلح للإلتحام بأى سياق والإنسلاك في أى خبط والافحام في أى مناسبة . أمتع الأقوال المأثورة ما انطوت على حكاية طريفة ؛ وأجمل الأمثال ما يقتضي تفسيره الإحالة على حكاية قديمة أو حادثة مثيرة . وألمع الحاديث النبوية ما انبثق عن أمر من الأمور أو قضية من القضايا أو مشكلة احتماعية . منتهى لحظات سعادتي واستمتاعي ان أعثر فجأة على مناسبة من المناسبات أو موقف من المواقف أو خلاف من الخلافات النقاشية ينطبق عليه بعض ما سمعته من تلك المأثورات فأنبرى مردداً العبارات كما سمعتها وحفظتها بالنص عن ظهر قلب، بكل ما أستطيع من فصاحة وحماسة ، حتى الأسماء البدوية والعربية المكعبرة كنت أجد استمتاعاً في

تصحيح نطقها ، وكم شعرت بلذة فائقة في نطق أم سلمة والثعالبي وابن أبي زرعة وابن الجعد وابن قحافة وابن لا أدرى من . الطريف أنني كنت أجد تجاوباً منهلاً لدى من يستمعون ؛ سرعان ما يعطونني انتباههم وآذانهم في طلب المزيد ؛ حتى إذا شعروا أن غزير علمي قد غاض عند هذه النقطة فحسب أو أن مد معارفي قد انحسر عند هذه الحكاية وحدها أكملوا هم بحكايات من عندهم تمضي في نفس الإتجاه تهدف إلى نفس الغرض ، الأمر الذى حفزني على مضاعفة حصيلتي من المأثورات على قدر ما أستطيع ؛ فلقد صرت أوقن من أن القوم في بلادنا على شاكلة واحدة في هذا الصدد : إما أن يمعنوا في الاصغاء المخدر إذا كانت حصيلة المتكلم من المأثورات البراقة غنية ؛ وإما أن يتباروا في المشاركة في الكلام باستدعاء وربما بتوليف حكايات وأقوال تمضي في نفس الإتجاه إلى نفس المعنى ؛ النجم فينا – فيهم – من يملك أكبر حصيلة من الحكايات والطرائف والنوادر والملح ؛ إنه الوحيد الذى يأسر القلوب ويشنف الأذان حتى ولو كان محض نصاب أو محتال – هكذا نحن ندور في دوامة لا يطفو على سطحها سوى المتخفف من أعباء الفكر والرأى والأمانة والضمير الحق ..

في سهرة العيلشى اكتشفت حقيقة هذه الظاهرة وتأكدت من أن الذين يخلبون لبنا بالحديث الطلى الشهى هم الذين يمكن أن نعطيهم ثقتنا بل كل ما في حيوبنا وقد نأتمنهم على شرفنا وأسرارنا نسلمهم مصائرنا . عرفت ان أبرعهم من كان يعرف مشاكل الناس وأوجاعهم . براعتهم تتجلى في قدرتهم على حقن الناس بأمصال من المأثورات والحكايات التاريخية المطابقة لأوجاعهم وكيف انتهت كما أراد لها الله أن تنتهى لا كما يريد العبد ؛ حينئذ يرعوى كل صاحب ألم فيرمى بكل أوجاعه ومشكلاته على أكتاف المشيئة الإلهية فيخلص من حملها طالما أن كل شئ يحدث للإنسان إنما هو قدر مقدور عليه أن يحتمله دون أن يواجهه لأن من الكفر مواجهة المشيئة الإلهية وتحديها ومن حسن الإيمان الامتثال لها واحتمالها بصبر كصبر أيوب ..

في سهرة العليشى تختلط المسائل اختلاطاً يعجز عقلى الصغير الضيق عن تفنيدها وفرزها ووضع كل شئ في خانته . في كل أمسية أكتشف الكثير من الإشراقات

مع كثير من المتناقضات فلا أعرف إن كانت التناقضات كامنة فى النصوص أم هـي ناتجة عن قصور فى فهمى وفهمهم للنصوص والتحليلات المطولـة المتقعرة ؛ لكنني أحببت لعبة الاستمتاع بالتأثير على الناس بالكلام المأثور المنمق الباعث على الرعشة الوجدانية . تكون في أعماقي مشروع واعظ متكلم جرئ يمكن أن أنتفع بـه إذا مـا ضاقت بي سبل العيش فى هذه المدينـة ؛ ولربمـا استطعت بواسطته - كمـا رأيـت الكثيرين منه - أن أحيا فى رغد من العيش أتزوج أجمل نساء العائلات الورعـات ؛ وكم في هذا الطريق من منتفعين ناعمين على موهبه عظيمة في إخفـاء شـخصياتهم الأصلية الحقيقية داخل عباءة الواعظ أو خلف لحية المجذوب أو فى إيقاع من يسـمى بالمفكر الاسلامى من كتاب الصحف والدوريات ..

كنت أرتب نفسي دائماً لهذه السهرة أترقبها طوال الأسبوع . الجميع أيضاً كان يحتفي بها وخاصة أبو سن ؛ فما بالـه الليلـة يبـدو متجهمـاً غير راغـب فـى السـهر أصلاً، بل غير راغب فى إطالـة الحديـث مـع أحـد ، فكلمـة ورد غطاهـا بسـرعة . الأكثر إثارة للدهشتي أنه - ربما لأول مرة في حياتي منذ عرفته - يبدو غير متحمس للعمل غير محتف بالزبائن ، بل انه سيغلق المحل قبل موعده اليومى بـأكثر مـن ثـلاث ساعات . ثم ما هذا ؟ البضاعة تضاءلت تماماً فوق الرفوف آبت إلى مايشبه العينات فأين ذهبت أكداسها المكدسة ؟! يالله إن العراء بعـد السـتر والصقيـع بعـد الـدفء أقصى مذلة !..

إلا أنني لم أسترسل فى التساؤلات المقلقة لأن ابتسامة شاحبة على وجه أبى سن كانت تكاد تغمز مصرحة بأن هذا الأمر مجرد إجـراء شـكلى لسـبب مـن الأسـباب المؤقتة . إكتفيت بفرحة الإنعتـاق مبكـراً ، وبخيبـة الأمـل فـى سـهرة مرتقبـة . قبـل انصرافى نادانى محمد أبو سن فرجعت من عند الباب ففتح الـدرج وسـحب حـوالى خمس جنيهات أزاحها نحوى قائلاً : خلها معك ! وهى تزيد على ما أسـتحقه عنـده بكثير . إزداد قلقى ، خاصة حينما أضاف قائلاً : إصرف منها بحساب دقيـق وانتبـه لنفسك جيداً ؛ فهززت رأسى موافقاً ومضيت أفكر في سهرة بأرخص التكـاليف . ثم خفت أن يقودنى الطيش إلى صرف مبلـغ كبـير فـى كـلام فـارغ فوليـت شـطر الوكالة وقد أضاءت فى رأسى حجرة سندس لعلى أصيب منها مرتعاً ..

عند باب الوكالة توقفت لبرهة وجيزة ثم رأيتنى أتجاوزه متجهاً إلى دار وداد ؛ فتيقنت أننى أرتاح للسهر فى شقة وداد أكثر من حجرة سنلس ؛ فشقة وداد حميمة، وبعيدة عن عين شوادفى الثاقبة ؛ ثم إننى قد ألفت رؤية ابنتها العاجزة و لم يعد منظرها يصيبنى بالقشعريرة إلا وأنا مسطول على الآخر ، وللمحة عابرة.

العُـــرْي

إنفتح الباب . طالعنى وجه وداد ذابلاً كأنها لم تنم طول حياتها .. نظرة العينين مطفأة ؛ ورد الخدود صار ليموناً جافاً مجعداً ، البسمة آبت إلى جرادة ميتة فوق الشفتين . إنسحب من داخلي شئ قوى كانسحاب الكهرباء من الأسلاك ؛ شعرت كأنني آخذ فى الخفوت شيئاً فشيئاً . غمزنى الظلام بالفعل لمدة توشك أن تصير دهراً ، مع أننى جوبهت بالضوء الساطع الساذج يغمر الممر إلى الشرفة ..

عرجت نحو الردهة المربعة على اليسار ؛ إرتميت جالساً على الكنبة البلدى مسنداً ظهراى للحائط فى أعياء . فوجئت بمن يواجهنى جالساً هو الآخر نفس جلستى على كنبة طبق الأصل من كنبتى . إنخطف بصرى إليه مع خفقة من قلبى ، إنه يشبهنى تماماً ، إنه أنا إذن ؛ هى إذن مرآة كبيرة عريضة استحدثتها وداد هاهنا . جاءت وداد فجلست أمامى مباشرة ولصقى فى نفس الوقت . منظرها كان مؤلماً حقاً ، فى جلباب بيتى أسود ؛ تظهر منه أطرافها البيضاء الشاحبة تبدو أمامى فى المرآة مثيرة جداً رغم هزالها ، باعثة على الإشفاق مع ذلك إذ لا حيوية فيها على الاطلاق . رأيت رقبتى فى المرآة تميل على صدرها :

– " مالك يا وداد ؟!"..

ليس يبدو أن هذا الصوت صوتى ، هذا الذى يرن فى صدرى فيعجبنى إيقاعه لأول مرة فى حياتى كأننى أكتشفه فى هذه اللحظة فحسب ؛ فأبداً أبداً لم أكن أعهد فى صوتى هذه النبرة الدافئة المضمخة بالحنان والود الحقيقيين :

– " ما فى شئ ! هل بى شئ ؟! يظهر أننى تعبت فى هذه السفرية أكثر من اللازم ! ياه ! كانت ثقيلة! لم ألقط نفسى بعد ! لتوى واصلة من محطة السكة الحديد ! تصور ! الآن فقط صدقت أنى وصلت إلى بيتى ! لحظة واحدة ! سأجى حالاً !"..

وتركت على صفحة المرآة طبعة من ابتسامتها الشاحبة ثم نهضت تحاول اشتنشاط نفسها . طقطقت عظامها كما يتفتت خبز يابس . تأوهت ؛ تمطعت مثنية جذعها إلى الخلف حتى عوت وهى تعتدل . مضت إلى الداخل . أشعلت سيجارة

ورحت أتأمل حلقات دخانها وهى تلتف حول رأسى تتسلقه كغلاف جوى يحيط بكوكب توشك الشمس أن تقترب منه . بعد قليل سمعت صوت الدش فى الحمام يهطل بوشيش منعش ، فانبثقت فى رأسى صورة جسدها عارياً تحت وابل المطر. وكان الراديو الفيليبس على رفه الخشبى فوق رأسى ، فقمت مستديراً إليه فضغطت على زره فاندفع صوته الهادر بالخرخشة والصيحات فأسرعت ببرم زر الصوت حتى انخفض إلى درجة الهمس المسموع ثم أدرت زر المحطات بسرعة تتجاوز أى كلام فى طريقة تتلكأ عند الأنغام ، حتى زحف صوت محمد قنديل مقبلاً من جراب الأثير يشع بالدفء الهادئ الواثق فى هدير الموسيقى بين شجو الناى وضرب الايقاع وصهللة الشخاليل : سما.. ا.. ا.. ح .. يا أهل السماح لوم الهوى جارح .. أصل السماح طبع الملاح يا بخت من سا.. ا.. مح . وكنت أشعر أننى على وشك أن أبكى ، إذ علقت الأنغام بمشاعرى فامتزجت فتوحدت بها . من خلف باب الحمام جاءنى صوت وداد : " علّى صوته شوية صغيرين " ؛ فرفعت الصوت قليلاً ، فجاء صوتها ثانية : " كمان شوية ". ثم جاءنى صوتها بعد برهة وجيزة صائحة كأنها تأمر إبنها الشقى : " هات البشكير من أوضة النوم " ؛ فخفق قلبى بسرعة وقوة مضطردة ؛ فيما نهضت مسرعاً بخطوات شبه عسكرية متحمسة ، فاقتحمت حجرة النوم فأدرت بصرى فيها على ضوء الممر ، متجنباً النظر فى البنت المستغرقة فى نوم عميق ، لمحت البشكير متدلياً من مشجب فى الحائط المواجه بجوار السرير. نزعته ، عبرت الممر ، ببساطة دفعت باب الحمام فى رفق بطئ ؛ هى واقفة عارية تتجلط فوق جسمها خيوط الماء ؛ فبدت فى هذه المساحة الضيقة جداً كنواة داخل جسم صلب . كانت كالحورية ، محلولة الشعر ، عريضة الكتفين والصدر ، كنزة الجذع ضيقة الخصر كأنه منحوت بفتلة ليشكل مساحة فاصلة بين حدود قارتين منفصلتين متصلتين ، حيث تنساب السفلى من نصف دائرة عريضة متداخلة الأقواس منشطرة الدوائر بين ساقين كأصبعين كبيرين من الموز البلدى المقشر. كدت أفقد صوابى ؛ لكننى تذرعت بوقار مبالغ فيه كأنى بالفعل ابنها وقد استحى من منظرها . قدمت إليها البشكير فى صمت ؛ فتناولته بابتسامة عريضة حقيقية هذه المرة وهى ترمقنى من تحت رموشها بنظرة متحدية متخابثة . فلما رأتنى مصراً

على افتعال الحياء سحبت البشكير وأعطتني ظهرها : شكراً ؛ فجحظت عيني ، واندفعت نظراتي كالجندول تدفعه الريح النشوانة فينزلق على ضفاف ظهرها العبقري ، ومؤخرتها أسفل الجذع كقعدة كبيرة في نهاية حبلين فوق حاملين من الرخام المرمري . ظللت واقفاً في مكاني لا أريم ؛ حتى انفرد البشكير حول جذعها وزحفت به يداها لتجفف الساقين وما بينهما ؛ ثم استدارت فجأة لتراني مصلوباً على الباب فتنفجر في ضحكة جزلة حبورة مبتهجة :

– " مالك واقفاً كاللوح ؟!"..

– " حسبتك تطلبين شيئاً آخر !"..

دفعتني بيد ، فيما تمسك بالأخرى طرفي البشكير محكمة أغلاقه حولها . أمسكت ذراعها البض الأبيض ، صرت أتحسسه ؛ أغراني بتقبيله ففعلت . ظللت ممسكاً به ثم رحت أنظر في عينيها ، فإذا الشمعة الخفية قد أضيئت في أعماق النن الأسود ؛ وإذا الحياة قد دبت في الخدين والشفتين ؛ وإذا العنق قد استطال فوق الكتفين العريضين . فوجئت بأنها صارت بين ذراعي بكاملها وقد تكور البشكير بيننا . صرت أرصفها بالقبل في كل بقعة من الكتفين إلى العنق إلى الشفتين إلى جدائل الشعر الأسود ومابين الثديين فالثديين . إستشعرت منها استسلاما تاما ؛ بل إن التذاذها بالرغبة كان واضحاً من مذاقها في ريقها في عينيها في رعشات جسمها لدى كل لمسة . بعد لهاث طويل سحبتها إلى الردهة . جلسنا فوق الأرض. كنت مشدوداً كالوتر ، محتقناً كالغاضب المكظوم ، أكاد أدك الحائط دكا . في سرعة متوترة خلعت ملابسي كلها ورميت بها كيفما اتفق ، ثم ارتميت بجوارها وبدأت حاشية التمهيد للهجوم الشرس بعد طول تحرق وحرمان والتياع . صعد البعير فوق الربوة حاول النفاذ من خرم الإبرة . دهورته الصدمة الأولى فاحترق دمه ولانت عظامه فجأة صار جلداً على جلد على رخاوة . بصبر خرافي راح يفكر في كيفية إمكانية أن يحول نفسه إلى فتلة رفيعة يلضمها في وهج الحلم الحي الذي تحول فجأة إلى موات ؛ ولكن دون جدوى .. ثم نفق البعير ..

وهكذا مر وقت طويل جداً أمضيته متكوراً على نفسي دافناً رأسي بين ركبتي مسنداً ظهري على الكنبة غارقاً في خجل وحسرة وتعاسة لا حدود لها . أفقت

على يد رخصة طرية تربت على ظهرى فى شئ كالمواساة مشوبة بقليل من حنان الأم فى صوت لاهب كالكرباج :

– " لا يهمك يا رجل ! إنها مسألة عادية ! تحدث فى أحسن العائلات ! على كل حال أنت منذ قليل كنت مائة فى المائة ولا أدرى ماذا حدث لك ! لكن ! قم نأكل لقمة ونشرب شاياً وحجرين لعل وعسى !"..

أكلنا علبة من السلمون مع بيض مقلى وجبن قريش وخيار وجرجير ، فامتلأنا. إنتقلنا إلى الشرفة التى أسدلت عليها وداد ستارة ثقيلة . كانت النار تزغرد فى المنقد بفعل تيار الريح ، ورائحة الشاى النفاذة تتصاعد من بزبوز البراد فوقه . إذ وضعت كوبات الشاى أمامنا قالت وداد :

– " معك عدساية أفيون ؟!"..

– " من أين يجئ لى ؟!"..

تبسمت ؛ نزعت الخاتم الذهبى من أصبعها ، سربت ظفر إبهامها فى تجويف الفص الداخلى وكحتت قشرة لابأس بها ؛ قسمتها نصفين ، مدت لى أصبعها بواحدة وشيعت الأخرى فى فمها وصارت تمصمص وترشف الشاى بلذة كبيرة ؛ ثم انخرطت فى تنظيف الحجارة وتعسيلها وتعميرها ؛ وانهمكت أنا فى تكسير النار وتنعيمها ..

لاحظت أننى أشرب بشراهة مثيرة للإنتباه . هى أيضاً كانت تشرب بنفس الشراهة . كانت شاردة وكنت أكثر شروداً ، تعيسة وأكثر تعاسة.. كلانا لم يستطع تبديد وحشة الآخر وإن كان قد آنسه بعض الشئ ؛ بل ربما يكون كل منا قد عمق وحشة الآخر . هذا ما طاف بخاطرى فيما تستقر عينى فى بلادة على وجه وداد وهى تنفث الدخان من منخريها وفمها بغزارة . ركنت النارجيلة جانباً تمهيداً لتغيير مائها وتنظيف الحجارة لدور جديد ؛ ثم مددت ساقيها على الأرض فاستراح مقدم فخذها فوق قصبتى ساقى الممددتين فكأننى وضعت ساقاً على ساق . أسندت رأسها إلى درفة باب الشرفة وأراحت ذقنها على صدرها واستغرقت فى شرود عميق عاقدة ذراعيها فوق صدرها وقد انسدلت رموشها فوق عينيها وبدت تعيسة جداً . حاولت الهروب من النظر فى وجهها ؛ كذلك حاولت الهروب من النظر فى

نفسي ؛ صرت أمعن التفكير في شئ ينتشلنا من قرار هذا البئر السحيق الكئيب ؛ لكن توتراً قوياً راح يصادر كل شئ يطرأ على بالى ، ويمور فى داخلى شيطان رجيم طائش الغليان يكاد يدفعنى إلى ان أضرب قبضة يدى فى الحائط ، أن أطيح في معركة جماعية برؤوس بمجموعة من المتفتونين ، أن أقوم لأندمج فى رقص أو حلقة ذكر ، أن أرمى بنفسى من هذه الشرفة لأطب كالبهلوان فى فناء الوكالة ، أن أمسك بشوادفى من عنقه فأظل أدقه فى الأرض حتى يتفتت ويتطاير تحته شظايا..

لحظتئذ أرسل الراديو خرخشة عالية ثاقبة للأذن ثم انضبط على صوت المذيع الذى انسحب لتنساب الموسيقى في صفاء وانسجام إذ راحت الوتريات تخمش فى مشاعرنا والإيقاعات تضبط أعصابنا ، ثم دخل صوت فريد الاطرش طروباً حزيناً شجياً : أحبابنا ياعين ماهم معانا .. رحنا وراحوا عنا .. ماحد منا اتهنى .. عينى يا عينى. شعرت بالدموع تنساب على خدى غزيرة قوية مندفعة . نظرت فى وجه وداد فإذا هو مغمور كله بغزير الدمع فى خيوط عديدة تنحدر فى تدفق رهيب . جاءت ضربة الايقاع النهائية فى الاغنية كأنها آخر نقطة فى معين الدمع فى عبارة البكاء الذى اقتحمنا فغسلنا كأننا وقفنا تحت المطر عارين ..

إن هى إلا لحظات قليلة حتى عاد الصفاء إلى العينين فزهزهت الأشياء قليلاً ، ونهضت وداد لتغير ماء النارجيلة ، وانعطفت أنا لتنظيف الحجارة وإحياء النار تمهيداً لطاقم جديد . حين عادت وداد من المطبخ كان وجهها ما يزال غارقاً فى الدمع فعرفت أنها استأنفت البكاء وحدها فى المطبخ وهاهى ذى تسح دون توقف. جلست ؛ أخذت تعاوننى فى تعسيل الحجارة وتعميرها لكن خيوط الدمع كانت تتقاطر فوق الحجارة. نحيت يديها عن الحجارة فى رفق، وبمنديلى جففت لها دمعها:

– " نت لست طبيعية هذه الليلة يا وداد ! ماذا حدث لك فى السفر ! أين كنت بالضبط ؟! لا تقولى أن شيئاً لم يحدث !"..

قالت والدمع يسح :

– " عمرى ما قرفت من الدنيا كلها كهذا اليوم ! كرهت كل شئ يجعلنا نتعلق بها ! دنيا دنية فعلاً مثلما يقول المثل ! لو رأيت الذى رأيته أنا اليوم لعشت عمرك

لحظة بلحظة وليكن ما يكون !! كل شئ مصيره للتراب ! العمـر كلـه مالـه قيمـة ! ياخسارة ! لم أعش فيه يوماً واحداً !! ضيعته مثل كل الناس فى وجع دماغ وكـلام فاضى ماله معنى !!"..

– " ماذا رأيت اليوم ؟!"..

– " نـور الصبـاح ! حبيبـة قلبـى ! أعـز واحـدة فـى حيـاتى ! رحـت لهـا لأن المستشفى جاءت فى سكتى فقلت أحود وياليتنى ما حودت ! لكنه النصيب ! ربنـا هو الذى جر رجلى إلى هناك من أجلها !!"..

وانخرطت فى البكاء الذى غلبها وأعجزها عن الكلام ، فأخذتهـا فـى حضنـى ، نيمت رأسها على صدرى ؛ رجوتها أن تهدأ وتحكى لى ما رأته بالتفصيل . فنظـرت فى عينى بلمعة من الدهشة لاهتمامى بأمر نور الصباح التى لم أعرفها ؛ ثم تعاظمت دهشتها فنزعت رأسها واعتدلت مستندة على درفة الباب ، وبدا على وجههـا أنهـا أمام قصة طويلة معقدة وانها تحاول اختصارها بقدر الإمكان ..

قانـــون الجنـــون

.. " أنت تعرف نور الصباح ؟ شوادفى حكى لك عنها ؟! أكيد !! ما أعرف ما الذى فكره بها الآن ! هو الذى فكرنى من حوالى يومين بدون مناسبة أوقفنى وسألنى عن أخبار نور الصباح ! قلت له : من مدة لم أزرها ! وفى الحال اشتقت إليها وقلت يا بنت لعله الفأل الحسن ! مادامت سيرتها جاءت فلابد أنها تطلبك ! لابد أنها محتاجة لك ! من يعرف لعلها شفيت أو تحسنت !! فى نفس الليلة جاءنى مشوار قريب من المستشفى قلت يا بنت هذا من تدبير الله أوصلك لحد عندها من غير تعب فاطلعى عليها !!"..

" ما حالها ؟! حالها عدم ! كنت دائماً أزورها كلما توفر معى القرش !! المسكينة لم تكن تعرفنى فى كل مرة !! يجيئون بها لى فى الإستراحة ! أو تصحبنى الممرضة إلى حجرتها !! تروح تبحلق فى بعيون زائغة ! تبتسم فجأة ! تقول : أزيك يا أختى وازى أولادك مش بخير ؟ وأبوكى طلع من السجن ولا لسه ؟! وأمك هنا معانا فى البلد وبتسلم عليكى كتير دانا حتى لسه شايفاها دلوقت حاكم الناس هنا فى البلد دى مش طايقين بعض بياكلوا فى بعض ، أهلاً وسهلاً يا أختى عاملة أيه ؟ بقى نبقى جيران الحيط فى الحيط وما أشوفك غير مرة واحدة كل يوم ؟!"..

" هلوسة فى هلوسة تقطع فى قلبى لمدة نصف ساعة فأترك لها طعاماً وفاكهة ونقوداً للتمورجية !!.. أرجع فأبقى أياماً طويلة أبكى كلما تذكرتها ! أنوى أن تكون آخر زيارة ! بعد شهرين أو ثلاثة يقول لى قلبى أنها تعرفنى ولا تعرفنى فى نفس الوقت !! عمرها ما نطقت اسمى ولا ذكرت أى شخص ممن تعرفهم !! قلبى يقول لى : يا بنت روحى لها إنها ستذكر اسمك هذه المرة لو نطقته تكون شفيت والباقى على الله وعلى !!..

" أول أمس ذهبت إليها ! وجدتها مريضة فى جسدها !! قالوا إنها كانت هادئة ولا يتسبب عنها أى ضرر !! وكانت تمسك بطنها وتتألم ! تتألم كالعاقلة الكاملة العقل !! تتكلم عن الوجع فى بطنها !! تطلب الدواء والغذاء !! تطلب أن يراها الحكيم !! تقوم بنفسها بتنظيف المواعين وترتيب الصحون وغرف الأكل فيها !!

تسوى الفراش !! تعطف على غيرها ! تعاملهم جميعاً كأبنائها ! حتى العجائز منهم كانت تعاملهم كأطفالها !! التمورجية السستر صديقتي ! أقصد صارت صديقتي ! أهديتها قميص نوم مرة ؛ وطرحة مرة ثانية ! وعلبة روج مرة ثالثة ! غير الفلوس ! وأعطيتها عنوان بيتى ! كل ذلك لكى تحس بمعزة نور الصباح عندى فتتذكرنى بهديتي وكلما تذكرتنى عاملت نور الصباح بما يرضى الله !!.. هى الأخرى صاحبت نور الصباح وأحبتها وأصبحت ترعاها حتى هدأتها ونظفتها وبقيت معها بالصبر والروح الطيبة وطولة البال تكلفها بأعمال وتحنو عليها حتى أصبحت تستطيع الجلوس معها بالساعات الطويلة تأخذ وتعطى فى الكلام والحديث كأى واحدة عاقلة لكنها لا تتذكر أى شئ عن اسمها عن اهلها عن بلدها عن أى شئ من ايامها الماضية !! وحينما تقول لها السستر أنت اسمك فلانة وبلدك كذا وأهلك كذا توافق ولكنها تنسى دائماً !! ولو قالت لها السستر في مرة ثانية اسماً ثانياً ومعلومات ثانية توافق ولا تتذكر ما سمعته من قبل حتي ولو كان بعد ساعة واحدة !!..

" لما افاقت لنفسها بقى دماغها غائباً !! طلبت الأكل فأكلت باستطعام !! ردت الروح في وجهها ! وبعد أن كانت تمشي في جنينة المستشفى شاردة ضالة أصبحت تمشى فيها بقصد الفسحة بين الاشجار وقطف بعض الثمار والضحك على بقية زملائها حيث أصبحت تنتبه لحركاتهم الغريبة وكلامهم الأغرب !!..

" فى المستشفى ليسوا كلهم غرقى في الجنون الشرس الشرير !! فيهم نصف العاقل ! فيهم الشديد العقل لكنه تعب فى وسط عقلاء النص نص فجاء ليجد الراحة وسط المجانين !! وفيهم مدعى الجنون هرباً من الإعدام من جريمة من ثأر من أى بلاوى !! كل هؤلاء رأيتهم بعينى ومشيت فى الجنينة مع نور الصباح أيام كان الشيطان سارحاً بها وهى ذاهلة عن كل شئ حولها !!..

" حكت لى التمورجية السستر ما يشيب الطفل : ولد ابن حرام من عمال المتعهد الذى يورد للمستشفى مأكولات وخضروات ! سرح بعقل نور الصباح !! تسلل إلى الداخل يسحبها معه حتى زنقها فى ركن بعيد بين شجرتين فى آخر النهار قبل التمام بمدة قليلة ! وفعل فيها الفعل الحرام ! مرة فمرة فمرة صارت

العملية بالنسبة لها لعبة أطفال لذيذة !! رأتهمـا أمـرأة أروبـة تدعـى الجنـون ! قـالت لناس من زوارها فقالوا للإدارة فلم تصدق ونهرتهم وطردتهم وحبست الولية !!.

" فلما اشتد الوجع على نور الصباح نطقتها !! جاءها عقلها فـى شـدة الوجـع فنطقت : أنا حامل !! فهزأوا بها ومسـخروها !! وكـانت التمورجيـة السسـتر فـى إجازة يومها ! فإلتمت النساء المجنونات كلهن ورحن يولدن نور الصباح فى الجنينـة يعبثن بها حتى بهدلنها آخـر بهدلـة مرمطنهـا فسـقطت فاقدة الوعـى تـنزف وهـن يجرجرنها كالذبيحة غارقة فى دمها !!.. لحقوا بها فى آخر لحظة ! نقلوهـا إلى عنـبر العلاج !! وثانى يوم جاءت التمورجية السسـتر وتولـت العنايـة بهـا!! وثـالث يـوم جئت أنا لأراها متمددة فوق الطاولـة فـى أواخـر الغيبوبـة !! قعـدت بجوارهـا وقتـاً طويلاً أبكى من كل عين حفان ! من حالها ومنظرها ! وأتعجب كيف يجئ شوادفى بسيرتها ؟ وتجيئنى أمها وأمى فى المنام ؟ وأسمع أن البورى طلع مـن السـجن ؟ كـل ذلك فى يوم بليلة لكى أجئ إلى هنا وأراها فى هذه الحالـة التـى لا تسـر حبيبـاً ولا عدواً ؟!..

" سبحانك يارب أنت شاهد على !! إن كنت أكذب تخرسـنى ! نـور الصبـاح فتحت عينيها فرأتنى بجوارها ! بحلقـت فـى وجهـى مـدة طويلـة ! جـرى الـدم فـى وجهها ! ظهر الفرح عليها شيئاً فشيئاً ! رفعـت رأسـها مقـدار شـبر! ونطقتهـا!! أي والله العظيم نطقتها بلسانها واضحة : وداد ؟! بنفس صوتها القديم الذى أحفظـه ! وبنفس طريقتها التى أحبها !! لم أستطع ضبط نفسى من الفرحة ! أطلقت زغرودة! ملت عليها ! أخذتها فى حضنى صرت أقبلها ودموع الفرح تغرقنى : يـا حبيبتـى ! عرفتينى يا حبيبتى ؟! أيوه أنا وداد حبيبتك الوحيدة فـى الدنيـا ! الحمـد لله أحمـدك يارب !!..

" لكن ! فرحة ماتمت ! إنكفـأ دماغهـا علـى ذراعـى ! إنتهـت ! نقلـب مهمـا نقلب! نجس النبض نهز الرأس لا فائدة !! راحـت !! من شدة صدمتي عجـزت عـن الصوات !! وخذ عندك نواح القلب المشقوق !!..

" كله كوم ؟ وكونى لم أقدر على استلام جثتهـا لدفنهـا هنـا بجوار أمهـا كـوم ثانى! هذا ما يقطع قلبى !! أنا صحيح مفلسة ونقلها مشـكلة علـى وحـدى ولكنـى

الله العظيم ندمت على عدم استلامها ولا أعرف كيف تركتها وعدت !!..
ياحبيبتي يا نور الصباح تكون هذه نهايتك وأمام عيني ؟! ليتني ما رحت ولا رأيتك ! ليتني ما صحوت هذا اليوم ! كنت سأرمي نفسي من شباك القطار! سبحان من هداني وثبت عقلي في رأسي حتى وصلت !!.."

" نفسي مكسورة !! قلبي مشقوق ! جثة نور الصباح تتخشب في عروقي !! أريد أن أطلع من هدومي ! أكره الدنيا وأحبها في لحظة واحدة !! من شدة خوفي أريد أن أطلع من هذه الحالة بأى شكل ! بسرعة ! شئ في صدري يقول لى : يا بنت عيشي ما تبقى لك من عمر ولا تفكري في أى شئ !!.. وشئ في قلبي يقول يارب ماذا تفعل المسكينة ابنتي لو أفتكرني الله مثلما أفتكر نور الصباح وهي في عز شبابها ؟!.. ويرد عقلي ويقول : يا شيخة فضك من هذه الوساوس وأنت لست تفهمين أكثر من الله سبحانه وتعالى الله سيتولاها ولن يطاوعه قلبه على تركها يتيمة وحدانية !!..

" نار تأكل قلبي الآن !! كان بودى لو بقيت المرحومة بوعيها نصف يوم ! لكى تدلني على تحويشة عمرها وعمر أمها !! لم يكن عندهما القليل ! أمها كسبت مكاسب الدنيا والآخرة ! ونور الصباح لم تكسب القليل ! ثلاثة أرباع ماكسبه بدر السعيد من بيع أطيانه ومواشيه ومن لعب القمار كان يصير ذهباً في يدى نور الصباح وصدرها وأذنيها ! باعت منه القليل كما قالت لى ! وفي الحق ماصدقتها فهي فيها خصلة أمها : تحب أن تخزى العين تتقى الحسد ! وتحب تخزين الذهب ولاتتزين به إلا عند مشاوير الشغل لكي يثق الناس فيها !! نور الصباح كانت صديقتي الروح بالروح وكانت تكذب على الكذبة ولا تطاوعها نفسها فتقول لى الحق ثاني يوم !! لمحت لى قبل مرضها أنها تنوى شراء بيت في بلدة بعيدة لتقبض منه إيجاراً شهرياً تستريح على حسه بقية عمرها ! وفكرت في فتح محل لبيع الفواكه! وفكرت في فتح قهوة ! وهذه المشاريع كلها أليست تحتاج لفلوس ؟! ولابد أن الفلوس كانت عندها تحت البلاطة !!..

" تعرف ؟ قلبي يحدثني أن شوادفي هو الذى فاز بالعملية كلها ! هو كالطربة لا ترد ميتاً !! خالتي وديدة كانت تثق فيه ! أقطع ذراعي إن ما كانت تثق فيه ! أقطع

ذراعى إن ما كان سرح بها وعرف مكان فلوسها وذهبها !! على كل حال مـا أنـا متأكده منه أنه ساعد خالتى وديدة على تشغيل شئ من فلوسها عنـد بعـض التجـار بمعرفته وشاهدتها أكثر من مرة وهى تقبض الأرباح من تجار الخضـار فـى السـوق!! وقبل مرض نور الصباح بأيـام قليلـة كـانت تكلمنـى عـن نيتهـا فـى فتـح موضـوع الفلوس مع شوادفى !! وهذا الملعون لم يزرها مرة واحـدة فـى المستشـفى ولم يفتـح سيرة الفلوس أمام أى أحد !!.

" هيبه !! ماذا أقول ؟! حسبى الله ونعم الوكيل !!"..

الإيـــاب

وأطرقت وداد في صمت لمدة طويلة ، فكأننا جالسين في سرادق العزاء . أردت أن أبدد هذا السكون المفاجئ الكئيب ، فاعتدلت أمام منقد النار صرت أنفخ في بقايا الفحم حتى شبت النار . كان ثمة حجارة لم تحترق بعد ؛ فأخذنا نشربها في تأن شديد . ثم وجدتني أقول لها :

– " قلت في أول كلامك كلمة حكمة : يجب إلا يضيع الواحد من عمره دقيقة واحدة ! فقومي إذن فاغسلي وجهك وسرحي شعرك وغيرى هذا الثوب ثم تعالى !".

رمقتني في تردد سأمان قرفان ، وصارت تنفخ الدخان ببطء كأنها تستخسره في الهواء . عاجلتها :

– "ها أنت أضعت من عمرنا دقائق طويلة وأضفت إلى همومنا هموما جديدة!! تعال نعيش اللحظة يعني نعيشها ! ننسى كل شئ! الحي أبقى من الميت !!".

هزت راسها في استسلام : ماشي . ونهضت في قليل من التكاسل . دلفت إلى الحمام فغسلت وجهها وتعطرت وتزينت بالأبيض والأحمر ، ولبست قميص نوم عارى الصدر والأكتاف يشف عن الجسد بكل تفاصيله . فما أن دخلت على هكذا حتى نهضت جيوش من النمل دفعة واحدة فغزت سائر عروقي فخفق قلبي بشدة وظل يخفق كأنه الزناد يدق زلطة يطق منها الشرر ليشبط في دمي السخن فيشتعل جسدى بالنشاط..

إستأنفنا الشرب من جديد وقد شعرت أنني صرت شخصا جديدا تماما ، كأن سيرة الموت قد حقنتني بمصل الحياة ، كأنني أزمع أن أتحدى موتا يقف لى بالوصيد . تغيرت في نظرى جميع معالم الأشياء ، زهزهت ، صرت أشعر أنني مستعد للتسامح في أشياء كثيرة ، والتغاضى عن أشياء كثيرة ، والتسليم بما قد تتمخض عنه الأمور من أحداث أو مفاجأة بنفس راضية دون أدنى اعتراض ..

جميع الحبال بداخلي تنشد تتصلب . من شدة الفوران تبخر القلق فازدادت الصلابة واحتقنت العروق ونفرت وغادرت مخادعها سعيا إلى اتصال حميم . الثلاث

الحجارة الباقية شربناها فى حوالى نصف ساعة ، خلل القبل والمرمغة والهرس النشوان المجنون . من ربوة عالية إلى ربوة أعلى ، ومن شعاب إلى هضاب ، ومن مرتفعات إلى منخفضات ، ومن قمم إلى سفوح تكشف للجمل بكل وضوح تمل أنه بالفعل .. لا يستطيع النفاذ من سم الخياط . لم يكن الفشل ذريعا ، لكن النجاح لم يكن كاملا . كنت فى الواقع أتحاور ، واحياناً أتصارع ، مع جثة نور الصباح ، التى - رغم أنى لم أكن رأيتها رؤية العين ولا سمعتها - لم تكن لتغفر لى أو لوداد محاولة الإنتشاء فوق جثمانها وانتهاك ذكراها . كانت تتقلب بين ذراعى كالمتهنة كالمقهورة المغلوبة على أمرها . حين قرطاس الماء الكثيف تحت الدش فى الحمام لم يستطع نزع جثة نور الصباح من أحضانى أو محوها من دماغى ..

أوقفت الماء بعصبية وناديت :

- " وداد !".

فجاءت منفوشة الجسد والشعر . وجدتنى أسألها :

- " لو سافرنا بعد قليل يمكن أن نلحق نور الصباح قبل أن يدفنوها ؟!".

إتسعت عينا وداد ، صاحت :

- " الله أعلم ، ولكن ما قصدك ؟!".

أخذت أجفف جسدى :

- " نسافر ونستلمها !!".

- " معك فلوس ؟!".

- " معى أجرة القطار ! أما مصاريف نقل الجثة فعندى فكرة نتصرف بها ! ما رأيك لو سافرنا فى قطار الصحافة ؟!".

- " ينصر دينك ! خلاص ! نسهر حتى موعد القطار ! أخرج حتى أستحم ! ولع النار وحط براد الشاى ! أنت ابن حلال ! لن أنسى لك هذا الجميل طول عمرى !".

وحين ارتفعت تكبيرة الفجر كنت أمضى وبجوارى وداد ، محتشمة الثياب تحت عباءة الفجر الرمادية ، فى طريقنا إلى محطة السكة الحديد . وكان ذهنى مشغولا

بكيفية التأثير على مجموعة من الناس لإقناعهم بنقل الجثمان من المستشفى إلى دمنهور بالمجان .

لأول مرة أعرف أن مستشفى الخانكة غير مستشفى العباسية إلا أن الناس فى بلادنا يطلقون اسم الخانكة على المستشفتين معا ، بل يطلقونه على كل من يظهر عليه شبهة اختلال ولو طفيفة في عقله ؛ بل وحتى من يتكلم فى بلادنا كلاما غير موزون يوصف فى الحال بأنه : خانكة ! أى أنه مجنون يستحق الذهاب إلى الخانكة. وحين وصلنا إلى مستشفى العباسية أخبرتنى وداد أن مستشفى الخانكة – المقامة فى بلد اسمها الخانكة على مبعدة حوالى ساعة سفر بالسيارة من القاهرة – مجعولة للحالات الخطرة ، للمجانين الحقيقين الذين يخشى من حالاتهم على الناس والأطفال وكل شئ ..

رأينا على باب المستشفى كثيراً من الناس يتناحرون مع البواب إخترقنا الزحام إليه . سالناه عن الجثة التى ماتت بالأمس واسمها نور الصباح ترك خان ؛ فقال إن رجلا فى الداخل جاء يتسلمها ويقول أنه أحد أقاربها . غمزته وداد بالقطعة الفضية، فتنحى لنا عن الباب وأشار إلى العنبر الذى ينقل إليه الموتى لحين تدبير أمر دفنهم . على باب العنبر لفت نظرنا رجل يجلس على درجة السلم السفلية مرتكزاً بكوعيه على ركبتيه مسنداً رأسه بين كفيه فى استغراق تام كأنه مات وانفصل عن كل ما حوله . كان شكله غاية فى التعاسة والبؤس بصورة مؤلمة ، وقد صنعت برك الدمع على صفحة وجهه قشرة شمعية لامعه ، وملامح وجهه مهانة متهدلة . شعرت بالإنعطاف نحوه ، ملت عليه ، تاملته ، إنه مألوف لدى ، أقتربت منه ، وقفت أرقبه. رفع رأسه ناظراً فينا . إنه البورى . شهقت وداد ضاربة صدرها وقد عقد الذهول لسانها :

– " البورى ؟! بسم الله الرحمن الرحيم !".

تمتم وهو ينهض فى استخذاء وهزال :

– " وداد ؟! إزيك يا وداد !".

إرتمى عليها محتضنا مقبلا ، ثم انفجر فى بكاء حاد ، بكاء طفل عثر على أمه فجأة بعد طول تشرد وضياع ..

- " طلعت إمتى يابورى ؟!".

- " من كم يوم كده ! ليتنى ما طلعت ! يظهر أننى لابد أن أرجع إلى السجن!! لم يعد لى أحد فى هذه الدنيا ! لا طعم للحرية ! نور الصباح مات ياوداد! جاءتها حمى النفاس كما يقولون هنا !! يا ربى ! حمى النفاس هذه لا تجئ إلا لمن كانت حبلى وولدت فى ظروف سيئة فمن أين تجئ لنور الصباح ؟! ألا تظنين يا وداد أنهم قتلوها ؟! إننى أسمع أنهم يقتلون المرضى هنا بحقنة وبالكهرباء ! إذا تعبوا معهم ! ولكن ياربى ! أنت كنت تزورينها يا وداد فهل كانت حالتها خطرة ؟ هل كان يركبها الهياج ؟! أنا لا أظن أبداً !! نور الصباح لم تكن مجنونة ! كانت مصدومة ! حسبى الله نعم الوكيل !!".

وراح يواصل البكاء ومن خلفه وداد مثل الكورس كأنهما فى مسابقة نواح ملتاع . ووقفت بينهما حائراً خجلاً لا أدرى ماذا أفعل ، رحت أغالب الدمع وأوقف ارتعاش شفتى السفلى . بصعوبة بالغة ومن خلال صوت مرتعش قلت :

- " لماذا كنت تجلس هنا هكذا ؟! هل أنت الذى جاء يستلم الجثة ؟!".

شوح بذراعه ، صاح بلهجة طفل تعيس عاجز:

- " طردونى ! مارضوا بتسليمها لى ! أولاد الكلب المجرمين ! حتى الجثة لا يسلمونها لأهلها ! يخافون أن نكتشف أثر الجريمة !!".

- " كيف منعوك من استلامها ؟ ما السبب ؟!".

- " ليس معى بطاقة شخصية !".

صاحت وداد :

- " ربى ! قطعنى ! ياما نصحونى أن أعمل لنفسى بطاقة !!".

- " أنا معى أوراق تثبت شخصيتى !!".

طلبنا مقابلة مدير المستشفى . قدمت له ما معى من أوراق تتضمن شهادة الميلاد وصحيفة الحالة الجنائية وشهادة اتمام الابتدائية وبعض أوراق خاصة بالمعهد ، واسمى مطبوعا تحت نصف عمود من الكلام حيث كتب محررها الأستاذ الكبير أمين الخولى تعليقا وصفنى فيه بالأديب الأستاذ . حكيت للمدير ظروف نور الصباح بكل تفاصيلها كما عرفتها ؛ حتى بدا أنه أقتنع بتسليمها لنا ؛ فقال :

– " ولكن هل جئتم بسيارة النقل ؟!".

فبكينا ثلاثتنا فى الحال بشكل مثير للإشفاق فعلا ؛ أبلغناه خلل البكاء أن ظروفنا المالية لا يعلم بها إلا الله وأننا مع ذلك مضطرين للقيام بهذا العمل الإنسانى لدفن الجثة بجوار أمها . رق قلب الرجل ، وطمأن خاطرنا بانه سيحاول استدعاء عربة الإسعاف لنقلها على حساب الحكومة . وبالفعل أمضى الرجل أكثر من ساعتين فى اتصالات تليفونية وكلام وصياح وشخط ونطر حتى جاءت السيارة بالفعل وتم تجهيز الأوراق التى وقعنا عليها ثلاثتنا ، وتصريح الدفن .. وجيء بالجثة ملفوفة فى ملاءة قديمة ، متصلبة كلوح من الثلج . ركبنا بجوارها ، وانطلقت السيارة . وفى طريق العودة كنت أغزرهم بكاء ، بشكل أدهشنى ، ولم أجد له نظيرا فى حياتى السابقة .

– " قفزت وداد من عربة الإسعاف إلى باب الوكالة وقفز البورى وراءها وأنا من خلفهما . هب شوادفى واقفا فى مواجهتنا ينظر فينا بتوجس مرتهب :

– " خير يا غجر ؟!".

صاحت وداد :

– " جئنا بجثة نور الصباح !".

بصوت دافئ فيه تهجد وخشوع صاح شوادفى :

– " خير ما عملتم !! إن شاء الله ربنا يجازيكم خير الجزاء فى الآخرة !! يا زينهم يا عتريس !".

هكذا نادى . فخرج زينهم من حجرته مهرولا :

– " خير يا شوادفى ؟!".

بنبرة استسماح ورجاء لينة :

– " جهز لنا الأوضة بتاعتك ! جثة نور الصباح وصلت ! ربنا يكرمك ويكفيك شر المرض !".

ثم امتدت أصابعه الغليظة الكبيرة فمسحت دمعة تحدرت رغما عنه على خده. وهتف الشيخ زينهم :

- " لا إله إلا الـلـه! إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون ! وسـعوا يـا أولاد ! جـاهزين يا شوادفى !".

لحظتئذ كـان السـائق وزميليـه بلباسـهما الكـاكى والكاسـكيت الأحمـر بطابعـه العسكرى قد أسرعا بسحب النقالة الخشبية المسجى فوقها الجثمان : تلقاها أحدهما خارج السيارة والآخر من الطرف المقـابل حتـى نـزل هـو الآخـر ، فمضيـا ، الأول معطيا ظهره للنقالة والآخر وراءه ممسكا بطرفيها الآخرين . إخترقا فنـاء الوكالـة إلى حجرة الشيخ زينهم العتريس فدخلاها . فى الحال انداح فى الأفق صوات رنان بالغ التفجع والحرارة ، كـان صـادرا مـن حجـرة الشـيخ زينهـم بصـوت زوجـه وابنتيـه الكبيرتين ؛ على سبيل التحية الواجبة لا ستقبال الميت . سرعان ما خرجـت قطيطـة من حجرتها مولولة ؛ تبعتها دميانة من البكية المقابلة ، ونزلت قوت القلوب العجوز جدة وداد تتدحرج على السلم نائحة بصوت هزيل مبحوح متوجع :

- " قلب أمك يا أختى ! ما كانش العشم يا حبة عينى !".

فى لحظات معدودة كان فناء الوكالة قد امتلأ بألسنة لهب حارقـة مـن الصـوات الملتاع فى مظاهرة كبيرة ؛ بقدر ما أثارته من هياج وانزعاج درف النوافذ المجاورة ؛ فإن شوادفى كان يستقبله فى شئ كثـير مـن الزهـو والرضـا . وحـين خـرج رجـلا الإسعاف بالنقالة الفارغة إلى السيارة إلتقاهما شوادفى فغمز كل واحد ببريزة فضيـة أثناء السلام عليه ، وذهب ليسلم على السـائق بنفس المنحـة الفضيـة . ثـم انعطفنـا جيمعا إلى شغل الصوات والبكاء فلم نسمع هدير سيارة الإسعاف وهى تنصرف .

كنا فى الضحى ما نزال ؛ والبعض من سكان الوكالة لم يخرج إلى عملـه بعـد . ولهذا امتلأت حجرة الشيخ زينهم بعـدد وفـير مـن نسـاء الوكالـة وجـيران الوكالـة بعضهن لم تسمع أصلا بنور الصباح . كذلك امتلأت مصطبة شوادفى وباحة البوابة على اتساعها بالمتقرفصين والمتربعين لا أحد يـدرى مـن أيـن جـاءوا . خبـط الشـيخ زينهم بعكازه الأرض فى رعشة صوت رهيب :

- " يا جماعة ! الله وكيل ! البنت لم تكفن ! ولم تغسل ! وهذه المـلاءة القديمـة لا تصلح كفنا !!".

في الحال نزع شوادفي من تحت المخدة منديلا محلاوياً ، فرده على الأرض أمام زينهم بحركة مسرحية ذات معنى ، إذ لوح بذراعه نحو المنديل قائلا : يلا يا إخوانا!.. ثم بادر فوضع فوقه بريزة فضية . وتلوى زينهم فى قعدته إذ يسرب يده إلى جيب السروال الداخلى عبر فتحة الجلباب والبالطو المتهرئ ، ثم سلبها ببريزة فضية رماها فوق المنديل . وهكذا صارت أجساد الرجال تتلوى وتعتدل والأيدى تمتد نحو المنديل بالبرايز وأرباع الجنيهات . فلما استقرت الأجساد تماما نهض الشيخ زينهم فكور المنديل فى يده هاتفا :

- " رمضان عريجة يأتى معى !".

فنهض رمضان فى الحال ومشى خلفه . وعلامة على انهماكه فى التفكير ورغبة منه فى التركيز سحب شوادفى منقد النار وحرك الجمرات المشتعلة فغذاها بقوالح جديدة ووضع كوز الشاى وسطها ثم جعل يبرم سيجارة من كيس السبارس ذى الرائحة النفاذة، وإذا هو متقرفص ممسك بكوز الشاى يهزه فوق النار تمكن من أرسال بضعة رجال إلى أماكن متعددة فى مهمات مختلفة . وإن هى إلا دقائق حتى كان قماش الكفن قد وصل إلى يدى الداية وبلغنا صوت تمزيقه وتفصيله ؛ وكان البورى وآخرين قد انتهوا من فحت المقبرة وتجهيزها ؛ وسيد زناتى جاء بالنعش من مكان ما ؛ والحانوتى عقد اتفاقا مع مقرئ سيجئ حالا ..

إشتعل الفناء بلهب الصوات الهادر مرة واحدة فيما الجثة خارجة إلى النعش ، وازداد ارتفاعا حتى أحاط بالنعش وهو يمضى يزحف ببطئ فى الفناء على أكتاف البورى ورمضان عريجة وسيد زناتى والحانوتى . جعل الصوات يزف النعش ويعلق بأذيالنا ونحن نسير نحو المقبرة فى مظاهرة صغيرة وقورة على جانب من الطرافة . وأمام المقبرة تقدمنا الشيخ زينهم فأقام الصلاة بهدوء ورزانة ورصانه يحسد عليها بحق ..

عند عودتنا وحتى المساء كانت مياه الغسل المرشوشة فى أرض الفناء ما تزال تعبق برائحة الصابون الرخيص والفينيك وكانت بعض الحصائر قد خرجت من الحجرات وفرشت على أرض الفناء وفوقها بعض المساند والوسائد والشلت تطوع بإرسالها ناس من جيران الوكالة . على واحدة منها جلس مقرئ ضرير رث الثياب

يكاد شال عمامته يسود من شدة الوسخ لكنه يملك صوتا ملائكيا جبارا ، رفيع النبرات حاد كشفرة الموس يخرط فى القلب والأعصاب خرطا يصعد بالسامعين إلى أعلى السموات السبع ويهبط بهم إلى قاع الأرض فكأنهم ريشة فى مهب رياحه العاصفة . كنا مجموعة من الرجال كعائلة واحدة تتربع على الحصيرة حول المقرئ ، نخفض الرؤوس فى خشوع ونبسبس بالإستغفارات وبالشهادتين يعقبها تنهد عميق حار. فيما بين الربعين انفتحت صنابير الكلام تحكى ذكريات نور الصباح وجمالها الفاتن وحلاوة طبعها وأدبها وأخلاقها وشبابها الذى لم تهنأ به يوما واحدا . وبنبرة يشع فيها الصدق قال شوادفى :

- " الحمد لله أن ألهمنا القدرة على القيام بالواجب ! إنها بنت حلال والله ! عاشت عمرها فى نكد وحسرة !! وحق الواحد القهار يا جماعة أننى يتفتت قلبى عند رؤيتى لمغترب يعود إلى وطنه ما بالك لو كان المغترب جسداً ميتا ؟! تذوب روحى! أبيع كل ما ورائى فى سبيل إكرامه ! إن كسفة وجه الإنسان صعبة لا يقبلها الله بالنسبة للإنسان الحى فما بالك بكسفة وجه الميت ؟!".

الشيخ زينهم العتريس تلقف منه حبل الكلام ، فاختصنا بكلمة عن معنى الوفاء عند الله ، وقيمة الجيرة ، وحفظ العشرة ، والتراحم والتواد ، وكيف أن شيخه وقطبه العتريس يرحمه الله كان يقول كذا وكيت فى هذا الشأن أو ذاك . ثم إن المقرئ استأنف القراءة بربع أخير ألحقه بطائفة من قصار السور ختم بعلها مناديا بالفاتحة ؛ فرفعنا الأكف جميعا واندمجنا فى قراءتها بخشوع كبير. ونهض الحانوتى ليوصل المقرئ إلى داره ؛ وذهب رمضان عريجة لينفذ أو ليخطط لجريمة جديدة ؛ ومضى شوادفى إلى ضجعته المعهودة فوق المصطبة بجوار البوابة ، ومضى الآخرون كل إلى شأنه . دعوت البورى لينام فى حجرتى حتى الصباح لكنه أصر على الإنصراف . و لم يكن يخطر ببالى أنه معزوم عند وداد إلا بعد أن خرجت فى عمق الليل ذاهبا إلى دورة المياه عبر الفناء فلمحت خيالهما معا على حافة الشرفة تلفهما ملاءة من الدخان الرمادى الخفيف .

الفجــر الأســـود

كانت الوحشة تغمر شارع السوسى وما حوله . هذا مابدا في عينى لأول وهلة من لحظة أن تجاوزت مبنى المديرية . الصبح ليس ككل الأصبحة الماضيـة . العين لا تخطىء أن ثمة كآبة مشبعة بالرطوبة تخيم على البنية والأرصفة وأسفلت الطريق وطوائف البشر ، بل وفي ضوء الشمس الشاحب الخالى من الدفء رغم أن الشمس البازغة الحمراء كانت ترقد فوق مبنى المديرية مباشرة . الحركة بطيئة والناس يمشون في سأم وقلة حماسة . حتى حمير العربجية وخيولهم كانت تدلى آذانها وتركض منكسة الرأس فى الأرض مسبلة الأجفان كأنها مساقة إلى الذبح . الأفندية الموظفون يطوون الجرائد تحت آباطهم ، بعضهم يخطف المانشتات الكبيرة فيما هو سائر على الرصيف يتلكأ واثقاً من أن غيره سيتفادى الإصطدام به . العمال والحرفيون والباعة يتجمعون أمام محلات الفول والطعمية يلوكون الساندويتشات فى غير شهية ، كل واحد يحاول الإنزواء على نفسه وتجنب فتح أى حديث مع الواقف بجواره . الطلبة الكبار يمضون فرادى بعد أن كانوا زرافات زرافات ، فكأنهم ضربوا فى السر ضربات قاصمة فصلت بين أبناء الحى الواحد الذين تعودوا انتظار بعضهم وربما المرور على بعضهم البعض فى البيوت للنزول سويا والإنضمام إلى بقية أبناء الحى لكى يتوجه ركبهم الطازج المنهل الجميل إلى مدرسة معيطى الثانوية أو مدرسة الزراعة على ترعة المحمودية أو مدرسة الصنايع أو معهد المعلمين أو معهد السكرتارية؛ هاهم يسيرون فى حماسة مصطنعة وانشغال مفتعل ، حتى إن لحق أحدهم بالآخر ألقى عليه صباح الخير وتلقى صباح النور ويروح أحدهما يحاول استباق الاخر فى السير ليبدو للناظرين أنه ليس معه ؛ فيبدو الجميع مسرعين لاهثين مضطربين لا علاقة لأحدهم بالآخر . أما الأطفال الصغار فإن وجوههم ليست تحمل نضرة كل يوم ، معظمهم مكشر مكلبظ الوجه كأنه مضروب ومنكد عليه قبل خروجه مباشرة .. فما الذى حدث فى المدينة يا ترى هذا اليوم ؟! من الواضح أن مصيبة عظيمة قد نزلت بالقوم فيما نحن فى الوكالة ملتهين فى دفن نور الصباح وتأبينها ؛ بل الأرجح أنها حدثت منذ قليل ..

على مقهى البسفور أكلت شريحة الخبز المحشوة بالفول مع كوب الشاى بالحليب ، ودخنت سيجارتين بلمونت من الخمسة الفرط التى اشتريتها منذ قليل . ونظرت فى ساعة المقهى المعلقة على الحائط فوجدتها تقترب من التاسعة صباحا ؛ فأيقنت أن محمد أبو سن زمانه الآن قد فتح الدكان وأشعل البخور وركب الفتارين الزجاجية على صدغى الباب وجلس يتصفح جريدة الأخبار . صورته الماثلة وهو تصفح الجرنان نبهتنى إلى الجرنان ؛ إذ لابد أن يكون نبأ المصيبة التى لابد أنها حلت بالمدينة قد وصل أمرها إلى الجرائد فاشارت إليه فى ركن قصى بعيدا عن أخبار الرئيس والحكومة . كشك السجائر الملاصق للمقهى يبيع الجرائد ؛ هاهى ذى الجرائد مفرودة تتدلى من حبال مشبوكة بمشابك الغسيل. ما نشيت بخط كبير أحمر: حل جماعة الإخوان المسلمين ن. الصفحة كلها على طولها لا تتسع لأى خبر آخر، كل العواميد بالبنط الأسود الكبير وتحتها خطوط ، والصفحة مزينة بصفوف من صور لوجوه ملتحية ترتدى الطرابيش والعمائم والطواقى ، وزبيبة الصلاة فى جباههم مقروحة رمادية ومسحة الصلاح تطغى على مسحة التشدد والصلابة . أجلت قراءة الموضوع إلى حين الوصول للدكان لأقرأه على مهل ..

حودت على شارع السوسى . بضع المحلات ما تزال مغلقة وهذا لا يحدث فى العادة ، فأبداً لايبطئ أصحاب المحلات فى اللحاق بزبدة البكور لرش الأرض أمام محلاتهم واستجلاب الفأل السعيد بوسائل شبه سحرية بتعاويذ يقرأها الواحد منهم فى سره ؛ فمن المستبعد أن تكون راحت عليهم نومة حتى العاشرة صباحا . دكان محمد أبو سن هو الآخر مغلق لأول مرة فى حياته فى غير أيام السوق . أيقنت فى الحال أن محمد أبو سن قد تم القبض عليه مساء أمس أو ربما فجر اليوم . اقشعر بدنى ، جف ريقى من شدة الخوف الداهم ؛ صرت أتلفت حوالى فى استرابة أحاول نفى صلتى بالدكان الذى أقف أمامه ، ثم ضحكت من نفسى فى نفسى غير أنها ضحكة تمخضت عن رحيق مر ؛ إذ دهمنى شعور بتوقع القبض على فى فترة لاحقة . تمثلت لى كل صور التعذيب التى أسمع عنها داخل السجون السياسية خاصة مع المتهمين بمحاولة قلب نظام الحكم بالحق أو بالباطل ، فمر يلهنى خاطر حازم الملامح ينذرنى بضرورة الهرب فى أسرع وقت ، الإختفاء من هذه المدينة

فوراً، ولكن إلى أين ؟ لو سافرت إلى قريتي فلن أكون ببعيد عن أيدى الشرطة. ولكن ما بالى أشغل نفسي بالهرب قبل أن أتأكد من حقيقة ما جرى ؟ هنا طرأ خاطر جديد أقوى : لو بدوت خائفاً فسوف يتشكك فى أمرك ذلك الخفى الذى يتعقبك ويعرف عنك كل شئ ؛ وجدتني استريح لهذا الخاطر على أساس أن هذا الذى لابد أنه يتعقبني لابد أيضاً أن يكون ملماً بحقيقة أمرى ومن ثم يعرف أننى لست عضوا بالجماعة ولست أمارس أى نشاط من أنشطتها وإن كنت أجلس مع دواوٍ من أعضائها المنظمين القائمين بأعمال فعلية فى حركة الجماعة . سرعان ما اكتشفت سذاجتى ، فدفعنى الخوف إلى المشى على غير هدى .

وهكذا وجدتنى أخترق وصلة محل العصير إلى شارع الصاغة الذى اعتدت أن أبتهج بفتارينه الزجاجية تبرق فيها المجوهرات والمشغولات الذهبية فى صفوف متراصة على الجانبين ، تتخللها محلات تبيع الحبوب أو الزكائب أو الخيش . وجدتنى تلقائياً أعرج على دكان حمدى الزواوى . شئ عجيب ؛ كأن أيام حمدى الزواوى ساعة منضبطة تمشى بدقة مذهلة ؛ هاهو ذا يفرك أرغفة الخبز فوق صينية الفول يشرع فى تناول فطوره . ما أن رآنى أسد فتحة الباب حتى ضرب جبهته بكفه كأنه يقول : " إنت ابن حلال مصفى " لكنه قال : " تجئ فى وقتك دائماً ". كعادتى قفزت راكبا فوق البنك امام صينية الفول ؛ فقفز هو خارجا ووقف بالباب صائحا: " صينية كمان يا حندوقة " ؛ وقفز عبر البنك إلى الداخل . مزق الرغيف فاقتطع لقمة صار يقلب بها الفول فى الطبق فتتصاعد الرائحة النفاذة للزيت الحار بالليمون وخلطة التوابل . قال من شدقين متكورين :

– " شفت ماجرى ؟!".

– " ماالحكاية بالضبط ؟!".

– " كان أسود فجر على البلد !! الحكومة قبضت فى الفجر على جميع أعضاء الإخوان المسلمين وعلى كل صاحب لحية كبيرا وصغيرا !! ليتها أمسكتهم فى السر والكتمان كما خيل لها أن تفعل!! إنما هى استعملت الخشونة والعنف! فتشت البيوت شقا شقا ! قلبت عاليها واطيها ! بهدلت الدنيا ! تطاولت على السيدات بالبذاءة وفحش القول والضرب بالشلوت !! نساء صوتت بحرقة واستغاثة ! أطفال

تصرعت ومازال الخوف يسكن قلبها وحاجات مؤلمة !! قد بكيت والله حتى انفلق دماغى لما وقع بصرى منذ قليل على أطفال محمد الخوالقة وهم متوجهون إلى المدرسة كأفراخ تمشى ذليلة مقهورة متجهمة الوجه بائسة !! هو جارنا وقد صحونا على الضجة عند القبض عليه وكان أطفاله وأطفال الجيران يصرحون فى رعب وهم يرون العسكر يقتحمون غرف نومهم ويبهدلون أمهم ويضربون أباهم فى قسوة ويلقون به فى عربة البوكس فورد !! شف كم طفلاً من أطفال الحضانة رأى أباه مخطوفاً وأمه تنضرب بالشلوت لتكف عن الصوات وبيتهم يتبعثر وكل مستورهم ينفضح ؟! شئ فظيع يا جدع ! والله ما يرضى الله بهذا أبداً !! هل يتركهم الله يفعلون بالناس هكذا ؟! ما أظن ! إن انتقامه سيكون شديداً !! صديقك محمد أبوسن ! هذا الرجل السكرة ! كنت تعال شف ماجرى له عند الفجر وهو قائم يتوضأ ! لو كان من مطاريد الصعيد قتال قتلى ما أمسكوه هكذا ولا ضربوه وجرجروه على الأرض تزغده دباشك البنادق وهراوات العسكر!! ما هذا الذى يجرى للناس فى عهد الثورة ؟! إفرض أنهم حاولوا قتل الرئيس عبد الناصر ولهم جهاز سرى يدرب الشبان على القتال ! إفرض أنهم ينوون القيام بثورة ! وأنت معك القوة ! يا أخى اقبض عليهم وحاكمهم باحترام فى حدود القانون ! إنهم ناس مسلمين وموحدين بالله مثلك ليسوا من اليهود ولا الإنجليز !! ثم ما الداعى للقبض على العجائز المسنين وعلى الطلبة وتلاميذ المدارس ؟ سيد العليشى مثلاً سيضيع عليه العام الدراسى ويعلم الله كم عاماً آخر سيضيع عليه !! ولكن ! أقول لك : مالناس دعوة ! هى يعنى كانت بلد أبونا ؟! أنا صعبان على الأطفال ! بكره يكرهوا الدين والقرآن والوطن وصنف الحكومة حتى كلمة الثورة نفسها سيتعقدون منها طول حياتهم !! والله لو كنت من جمال عبد الناصر ما كان يهمنى من أى أحد! ولماذا تهتم يا جمال ؟ أنت عملت الثورة والناس أيدتك وأحبتك وفرحت بك فما الداعى لأن تنكد عليهم بهذا الشكل ؟! أهى حرب ؟! كل ياعم كل خلنا نفوز باللقمة التى فى أيدينا ! يا عالم إن كنا نلاقيها بكره أم لا !!"..

وغمرنا صمت عميق استمر طويلاً فيما نأكل بشهية فائقة ونقضم رؤوس البصل الأخضر في قرقشة لذيذة . وفجأة طرقع حمدى الزواوى بأصبعه كأنه تذكر شيئاً خطيراً ؛ ثم هتف :

– " على فكرة ! بيت قريبك كان فيه تفتيش ! الحاج مسعود زوج ابنة عمك كان منظره يهلك من الضحك ! لم يكن حزيناً على أخذهم لولديه الكبيرين والتشليت في كل أفراد الأسرة ! إنما كان بلطم ويشق الهدوم على برنيات السمن وبلاليص المش التي انكسرت وأجولة البطاطس والعدس التى اندلقت بحثاً عن ذخيرة وأسلحة !! هذه والله حكومة عبيطة وغشيمة ! تظن أن القبض على الناس في الفجر يعتبر سراً ! وتنسى أن الحوارى التي خرجت هي نفسها منها تلتصق فيها البيوت التصاق الناس بالناس ! وأن من يتقلب في مرقده في آخر الحارة يشعر به الصاحى والنائم في أول الحارة ! إن كل فرد في الحارة الطويلة يعرف أن فلاناً يوجعه ضرسه وفلانة كانت تلد وفلاناً ضرب امرأته للأسباب الفلانية !! التفتيش كان كأنه في بيتنا !! والحكومة من عبطها تنسى أن الناس متشابكين ! فلان الفلاني من الإخوان المسلمين وأنا لست منهم بل مع الثورة لكن فلان الفلاني هذا في النهاية قريبي ابن خالتي زوج أختي ابن عمي زميل مدرستي صديق طفولتي!! ياحكومة ياهبلاء يا بنت القحبة ألم تفكري في هذا ؟! إنك لا يمكن أن تنزعي الشخص من داره إلى السجن نزع الشعرة من العجين لأنه ليس شعره ، وأهله ليسوا بعجين إنما الشخص المقبوض عليه يتسلخ ويترك تسلخات فيمن حوله ! تساوى كم طلعة هؤلاء الأطفال الأبرياء هذه الطلعة الحزينة البائسة إلى مدارسهم ؟! داهية تسم بدن الذى لا يحس ولا يشعر ! على إيري هذه الثورة التى تذل الأطفال وتكسر أنفهم !!"..

تأثرت جداً من كلام حمدى الزواوى . كان رغم مظهره اللامبالى وملامح وجهه المنبسطة شديد الغضب مع أنه ممن يحبون ثورة يوليو وينبهرون بشخصية جمال عبد الناصر . لحيئذ إندوش دماغى دوشة شديدة ، إمتلأ بطنين يعكس إحساساً بأن عشرات الناس يتعاركون بعيداً جداً بصوت مدوٍ غير واضح ؛ وكان عقلى يحاول النفاذ من هذا الطنين ليمسك ببرق الصفاء لعله يستكشف سبباً يدعو للإطمئنان

قليلاً. جعلت أدخن بلذة شاردة وقد اسودت الدنيا في وجهي تماماً ، وبدا لى الرجوع إلى بلدتى أمراً بغيضاً غاية البغض لكن لا مفر منه . إن الظروف كلها تتكاتف لتدفعنى إلى البلدة دفعاً ، فعلى أسوأ الأوضاع لن يكون هناك شوادفى يكبس على يافوخى مطالباً بالإيجار وبمعرفة كل شئ عنى وعن حياتى ؛ لكننى سرعان ما أصابنى الدوار كأن رأسى اصطدمت بحائط صلب ، لحظة أن تبينت أننى فى هذه المدينة يمكن أن أجوع وأتعرى وأنام على الأرصفة كالقمامة دون شعور بالفضيحة أما فى بلدتى فلست أستطيع : رأيت أمى قاعدة فى فتحة باب دارنا مدارية نفسها فى درفة الباب ترقب الطريق فى انتظار قادم مجهول لا يأتى أبداً ، تضع يدها على خدها كالمحكوم عليها بالبؤس الأبدى ، مرتدية جلابيتها السوداء الكالحة ، متبشنقة بالطرحة الجرباء ؛ وقد كبرت الملامح فى وجهها الأبيض الشاهق المستطيل كفردة أرنب ممسوكة من أذنيها ؛ تتنهد من أعماق قلبها كلما رأت أفنديا ماراً ، من معلمى المدرسة أو موظفى الوحدة الصحية أو الجمعية الزراعية . رأيتنى أهرب منها كما تعودت فأتسلل داخلاً من باب دارنا الآخر المطل على عطفة تفصل بين دارنا ودار أبناء عمى ! فلقد عرفت من تنهيداتها المستمرة فى ازدياد أن فشلى فى الدراسة هو الذى سبب لها كل هذه الحرقة ، هى التى تمنت أن ترانى أفندياً بشهادة رسمية من الحكومة ؛ وكانت هذه الأمنية قاب قوسين أو أدنى من التحقيق لولا خيبة الأمل التى حلت بى . فوجئت أن الدار أضيق مما كنت أتصور ، أظلم مما كنت أتذكر ؛ الحجرة التى تنام فيها قذرة ضيقة كظيمة مظلمة رطبة سوداء الحوائط بهباب الكون ولمبة الجاز ، تفوح منها رائحة الصنان والعرق المخزون والعطن ؛ الحصير متآكل الأطراف والوسط كالمنخل كالشبكة وأعواد البردى المتصلبة من فرط القدم والوسخ تترك آثارها محفورة على جلودنا فتبقى ظاهرة على وجوهنا وأفخاذنا وضلوعنا كشبكات مطبوعة بالحفر كنقش ولدنا به ؛ المخدات صلبة مزيتة ؛ البطانية مدعمة بقطع من الخيش والهلاهيل القديمة ؛ القتال يبدأ فى عز الليل حينما تتوق أجسادنا المنهدة لساعة نوم عميق ، حيث تتحرك جيوش جرارة من حشرات البق والقمل والبراغيث تتحرك فى أسراب ودوائر وبؤر ، تتخندق فى خياطة ملابسنا من الداخل وفى جميع أنحاء المخدات فيما بين الغرز ، لتغير على

أجسادنا المهدودة المهزولة ، فتظل طول الليل تتقلب فوق نار من اللسع والقرص والنغز لايخبو لها أوار ، تمتد أيادينا لتهرش فتتلامس أطراف أصابعنا مع أسرابها الآمنة منتفخة بدمائنا ملساء ناعمة ؛ ملابسنا دائماً مبرقشة ببقع من الدم الأحمر ، فأجسادنا وهى تدافع عن نفسها ضد جحافل القرص تتقلب تتحكك بالأرض بأعواد البردى فتنفعص الحشرات الشاردة فينسكب ما نهبته من دمنا ؛ الحجرة لا تدخلها الشمس أبداً، والفرش - إن جاز تسميته كذلك - يظل فوق السطح طول النهار فتهرب منه الحشرات إلى مستقر لها فى نفس المنزل حتى تتجمع وتزحف إلينا لتتوالد فوق أجسادنا كقطيع من الأغنام يرعى فى حقل بلا صاحب ؛ أبى العجوز البائس المعدم يفهم فى السياسة مع ذلك ، يظل طول الليل ممسكاً بلمبة الجاز يشعل منها فتائل من ورق الجرائد يمرر شعلتها فى أركان الحجرة فوق المصطبة الرفيعة التى ينام فوقها ؛ تزكم أنوفنا روائح كثيرة نفاذة خانقة ؛ رائحة البودرة التى توزعها الوحدة الصحية على الناس لنرش بها الفراش والمنزل كله ، رائحة دماء البق المنفعص والمحترق وهى حريفة مقبضة زاعقة ، رائحة احتراق الورق ، رائحة فساء الإخوة الصغار المستغرقين فى النوم من فرط التعب لا يشعرون بشىء بعد أن اخشوشنت جلودهم فلم يعد يؤلمها قرص كما فرغت دماؤهم فلم يوجعها لسع ؛ أبى الذى يفهم فى السياسة والذى كان فى يوم من الأيام زعيماً وفدياً فى بلدتنا وتم عزله بعد حل كافة الأحزاب ، يقول إن مقالة بصراحة لمحمد حسنين هيكل ليست صريحة تماماً إلا فى كونها أحرقت سرباً كاملاً من البق حيث أن لهبها يرتفع سارحاً فى زاوية الركن فتنسلخ حباب البق عن طين الحائط تتساقط فى قلب اللهب فنسمع طقطقتها فيعزو أبى ذلك - فى كثير من الزهو والثقة - إلى أن صورة هيكل المنشورة على صدر المقال أوهمت البق أنه موفد من قبل جمال عبد الناصر ليقول أن الذى أمر المحتل الإنجليزى بالرحيل عن البلاد ليس بعاجز عن إجلاء وإنهاء احتلال البق والقمل والبراغيث لأجسادنا وفراشنا ودورنا ؛ وكان رجال الصحة يجيئون أحياناً إلى دورنا يحملون بخاخة كبيرة كبخاخة الماء التى كنا نسقى بها الزرع ونرش الأرض أيام عزنا قبل الثورة ، فيرشون دورنا وفراشنا ، ومن يغمزهم بقرش أو بنصف فرنك يتركون له قليلاً من السائل فى زجاجة ؛ فكأن أبى حينئذ يوجه لهم

الشكر في حماسة بما يكاد يكون خطبة سياسية يقول فيها إن حرب الإستنزاف هذه يجب أن تظل معلنة على هذا العدو المحتل حتى يدركها عبد النـاصر بجيوشـه الجـرارة وأبطاله المغاوير من الضبط الأحرار البواسل . رأيـت كنبـة المنـدرة الـتي تعـودت أن أتسلل إليها كل ليلة هرباً من جحيم الحجرة فأظل أتقلب على خشبها العارى طـول الليل يسلقني البرد فأنكمش في نفس قدر الطاقة . آخر ليلة نمتها فـوق هـذه الكنبـة كانت الدار كلها حزينة من أجلي ؛ أمي لا ترفع يدها عن خدها ؛ أبـي يـزور عنـي كلما جاءت عيني في عينه ؛ أخي الذي يتعلم صنعة النجارة يتيه على بأنـه سيصبح صاحب صنعة في اليد أماناً من الفقر بعد أن كنت أتيـه عليـه بـالتعليم فـي مـدارس البندر ؛ أخي الذي يتعلم صنعة الخياطة يحاول كسب ودى لمعرفة ما ورائي من خبرة مع نسوان البندر والسينما وركوب الدراجات مما يوقنون أنـه السـبب فـي إفسـادى وإلهائي عن التعليم ، إخوتي الذين يشتغلون أنفاراً في حقول الوسية ينظرون لى بخيبة أمـل إذ كـانوا يتعجلـون اليـوم أتوظـف فيـه لأقبـض راتبـاً شـهرياً يدفعونـه للبقـال وللكسوة .. في فجر تلك الليلة خرجت متسللا خـاوى الوفـاض مـن كـل مليـم ، مشيت ستة كيلومترات حتى محطة القطار في بلدة مجاورة ، ركبت القطار مستسلماً لكل الإحتمالات ؛ كان القطار فارغاً تماماً فلـم يشـعر بركوبـي أحـد، بحثـت فـي الإختباء من الكمسارى في دورة المياه حتى محطة دسوق فنزلت وعـدت ماشياً فـي الإتجاه العكسـي حتـى انتهـي الرصيـف فمضيـت بـين الفلنكـات مشـواراً طويـلاً وخرجت من بين السلاك الشائكة على شارع في وسط البلد ؛ ظللت أتسـكع فـي الشوراع على غير هدى ، مررت بمسـجد سيدى ابراهيـم الدسـوقى ، شـعرت أنـه يناديني ، عرجـت عليـه ، دخلـت الميضـأة فاستنجيت ثـم توضـأت ثـم عـبرت إلى المحراب فأقمت صلاة الصبح ثم تربعت بجـوار المنـبر شـاعراً بهـدوء منقطـع النظـير، أمامي عشرات من طلبة المعهد الديني يـتربعون فـي أركـان المحـراب علـى مسـافات شاسعة مندمجين في قراءة الكتب فوق كراسيها الخشبية كالصلبان بهلفطـة وبسبسـة ولعاب سائل وحماسة فائقة ، بعض الأجساد تمددت في صحن المحـراب واستغرقت في النوم بكل اطمئنان ، تلفت حوالى قليلاً ثم مددت ساقي ثم طرحت ظهرى على الأرض شابكاً ذراعي تحـت رأسـي متـأملاً فـي السـقف المقبـب المزركـش بخطـوط

زخرفية متداخلة تتضوأ بألوان زاهية حمراء وخضراء وزرقاء مبهجة ثم مالثبت حتى استغرقت في نوم هنيء عامر بالونس فظلت أصوات صاحات باعة العرقسوس وشخاليل باعة الحلوى ونداءات الباعة وصيحات المجاذيب وكركرة العجلات وغناء المذياع تحيط نومي العميق ببطانة من الأنس الجميل المبهج حتى رأيتني أطفو شيئاً فشيئاً على سطح بئر النوم فأفتح عيني على يد حانية كأنها تنتشلني من الأعماق برفق ؛ كانت صفوف المصلين قد التأمت وارتفع اللغط ؛ إنتفضت قائماً متجهاً إلى الميضأة ثم عدت فلحقت بصلاة الظهر جماعة ثم خرجت بين أرهاط من الخارجين ؛ إتجهت مباشرة إلى شارع بجاور لمحطة السكة الحديد ، إنعطفت منه إلى حارة جانبية، حيث يوجد في أوله مكتب عيد العزيز الخبي المحامي ، في شقة في الدور الأرضي غائصة في الأرض تسبح في الرطوبة عبارة عن حجرة على يمين الداخل وردهة في المواجهة تتسع لمكتب وأربع مقاعد كانت منجدة ذات يوم لكنها تهرأت وتكسرت سستها فغاصت مقعداتها وأصبح الجلوس عليها لأكثر من عشر دقائق مؤلماً جداً، الحجرة مكتوب على بابها على رقعة سوداء صغيرة كلمة : المحامي ، والباب مفتوح وبالحجرة مكتب أكبر كثيراً وبضع مقاعد جلدية سليمة ونظيفة ودولاب زجاجي كبير مليء بالكتب المجلدة، وفوق المكتب أكداس من الملفات وسماط جلدي ونشافة خشبية ودواة حبر من البللور كبيرة وخنجر ورق ومسطرة ومجموعة ريش وأقلام ، وهي حجرة خالية دائماً إلا في لحظات من أول النهار وأول الليل حيث تمتلئ الحجرة بالفلاحين والمشايخ من أصحاب القضايا الأزلية التي لا يتم الفصل فيها أبداً، ويعلو صوت نقاشهم واحتدادهم ؛ أما مكتب الردهة في مواجهة باب الشارع فإليه يجلس توحيد المغربي بجسده التخين المرغدد ووجهه الدائري الأبيض المتدفق بالدماء في ملامح مكتنزة متكورة تضيق عيناه على اتساعهما وله تحت الذقن لغد جميل وغمازة في منتصف الذقن وغمازتان في الخدين المنتفخين قليلاً ، أقرب الناس شبهاً بأبي في خلفية الملامح ، سريع الضحك سريع البديهة سريع التقاط المفارقات ولوامع السخرية وغوامض الكلم ومكر الغمز في الحديث ، يضحك بتشحير أول الأمر ثم ما تلبث الضحكة حتى تكركر في صدره فيحمر وجهه يحتقن ويكون قد أعطى نفسه فرصة التفكير في إعداد الرد المناسب الذي لا يخيب ولا يطيش ولا

يخرج عن الموضوع أو عن حدود الأدب مهما كان مضطراً لذلك ؛ هو أنيق في ملبسه ، على سنجة عشرة دائماً ، رباط العنق كأنه منحوت فوق صدره بالمشبك الذهبي ، وأزرار القميص والسترة من فوقه من أعلى صوف الجلبزي وكذلك السروال والطربوش الأحمر القصير المعلق دائماً على مشجب خلف ظهره بجوار السترة حيث يبقى جالساً بالقميص وحمالات السروال على كتفيه كالصلبان ، فمثله لابد أن يتقن مظهر الأفندي بقدسية واحكام وإخلاص حتى لا يترك لطبقة الأفندية الأصلاء مثلباً يهاجمونه منه كدخيل عليهم . ذلك هو توحيد المغربي ابن عمتي وزوج عائشة بنت عمي الأكبر ، وهو وكيل هذا المحامي لكنه أكثر منه وعياً ولباقة وخبرة بالقنون وبمعاملة العملاء وأنواع مشاكلهم التي يستقطب منها القضايا يشجعهم على إقامتهما في المحاكم التي يرشدهم إليها كجهة اختصاص ، ليظل يستنزف أموالهم لسنوات طويلة إذ يظل يلقي الرعب في قلوبهم بتجسيد مخاطر القضية التي لا يتم الفصل فيها أبداً وتنفذ الأسباب لتأجيل جلساتها ؛ هو أيضاً مثقف مع ذلك ثقافة واسعة رغم أنه لم يحصل على أية شهادات دراسية فيما عدا التعليم الأول ى، يقرأ العقاد وطه حسين والمازني والمنفلوطي والغزالي وخالد محمد خالد ، يشتري جميع الصحف والمجلات على اختلاف أنواعها وألوانها فيقرأها بسرعة مذهلة ، كما أن لديه مكتبة منزلية عامرة ومبهرة يعير منها لأبي كلما نزل البلدة عصر الخميس من كل أسبوع ليغادرها فجر السبت ، يحاجج الخطباء والوعاظ ويعارض المعارضين والمؤيدين على السواء يقنعهم دائماً بتسرعهم بخطل آرائهم بغفلتهم عن الجانب الفلاني والزاوية الفلانية ، يخطب وده مرشحو الدائرة والأعيان تحسباً ليوم يرشحون فيه أنفسهم لأي شئ يستلزم تأييده ومناصرته ، يدخن في اليوم مائة سيجارة على الأقل من النوع المبطط ماركة كوتاريللي حيث يرمي السيجارة بعد منتصفها بنفسين ثلاثة ليشعل غيرها في الحال بالقداحة المعمرة بالبنزين ، وعلبته ممدودة على الدوام أمام الضيوف حتى غير المدخنين ، يصر على تقديم القهاوى والشايات بغزارة من مقهى على ناصية الشارع العمومي حتى يأخذ العملاء راحتهم فيتكلموا بوضوح وهدوء ليتمكن هو من إحكام الحصار حول رقابهم بحيث لا يفلتوا بأي حال من الأحوال ، يقنعهم بأن هذه القضية أو تلك

براءتها ربما السجن سنوات فحسب بدلاً من الإعدام ، يقول ذلك ليس من موقف المتفاوض في أتعاب بل من موقف الأخ الحاني الواقف في صفهم حريصاً على مصلحتهم حتى إنه يطلق على المتهم اسم : إبننا فلان أو عمنا أو خالنا فلان ؛ لابد من توقيع العقد ودفع العربون والرسوم والدمغات ودمغات الدمغات وبرطيل الكتبة والدفترخانة وبقاشيش السعاة والفراشين ، وإن هي إلا دقائق معدودة حتى يتحول كل ذلك إلى ملف أنيق مطبوع ينتقل ليوضع فوق مكتب الأستاذ بعناية كباب رزق جديد . في هذا المكتب زرت ابن عمتي مرات معدودة بصحبة أبي ، فكان يبالغ في الترحيب بنا ويذهب بنا إلى شقته في حارة بعيدة شرقي المدينة حيث تتغذى وتفرح بنا بنت عمي عائشة. وقد زرته وحدى حوالى ثلاث مرات على امتداد سنوات الدراسة في مديرية دمنهور فلاحظت أنه لا يرحب بي كثيراً بل يهملني طويلاً ثم يسألني عن الجماعة وعن أحوالي بغير حماسة وفي صوته نبرة حادة متغطرسة وفي النهاية يسألني إذا ما كنت أطلب شيئاً يمكنه القيام به ، فحين أؤكد له أن زيارتي محض زيارة فحسب يغمزني بشلن فضي ويحملني أمانة السلام . ولم أكن أحب زيارته أبداً إلا تحت ضغط قاهر ؛ مثلما حدث ظهر ذلك اليوم عقب تلك الليلة الليلاء : دخلت عليه وكان قادماً لتوه من المحكمة فجعل يتصفح الجرائد مع فنجان من القهوة ؛ فلما شعر بظلي يقترب رفع رأسه فابتسم ببشاشة وجهه المعتادة وأوشك أن يقف ليسلم على لكنه بدا كأنه تذكر فجأة أنني ولد فاسد بلطجي ضرب معلمه وانطرد من التعليم مخيباً أمل الأسرة كلها ؛ ظهرت على وجهه كل المقابلات التي انفرد به أبي فيها يحدثه عن أمري وما سببه له من وجع في عموده الفقري ؛ وهكذا سلم على بأطراف أصابعه في غير حماسة وقد انكمشت الابتسامة على شفتيه وغاضت الدماء في خديه ثم سحب يده من يدى فأشار بها نحو الكرسي كأنه يعطيني الإذن بالجلوس ، فجلست لصق المكتب ؛ تناول صندوق السجائر وهم بتقديمه نحوى لكنه استدرك فارتد به فأخذ لنفسه واحدة أشعلها ورشف من الفنجان رشفة ثم ألقى ببصره على الجريدة المفتوحة مستأنفاً القراءة عاقداً حاجبيه في تركيز مضيقاً جانبي عينيه خلف المنظار الطبي السميك المستدير كقعر الكوب الزجاجي . إغتظت منه لأنني كنت بحاجة لتدخين سيجارة رغم أنني

كنت وطنت العزم على الإعتذار إذا ما عزم على زاعماً أنني لا أدخن وان فساد أخلاقي بمجرد إشاعة ظالمة ؛ أما وقد فعل ما فعل وأثبت لى أنني فى نظره فاسد مهما حاولت الإنكار أو التحلى بحميد الخصال فإننى ما دريت إلا وأصابعى تمتد بكل جسارة فتنقض على العلبة المفتوحة فتأخذ سيجارة ثم على القداحة فتشعلها ، وبكل تبجح واستدراراً للكبرياء المجعصت واضعاً ساقاً على ساق وجعلت أدخن فى شراهة لذيذة متحدية، وقد عقدت العزم على الرد عليه بأقصى ما عندى من خشونة إذا حاول جرح إحساسى بأى حركة أو كلمة أو نظرة؛ لكنه لحسن الحظ لم يفعل، بل تجاهل الأمر تماماً وظل مستمراً فى القراءة لكن صفحة وجهه تشى بأنه يكظم غيظاً وحنقاً شديدين . نويت الإنصراف فور انتهائى من تدخين السيجارة دون أن أسلم عليه أو أستأذن منه ؛ إلا أنه سرعان ما طوى الجريدة وشد خيط الابتسامة الشاحبة على شفتيه المكتنزتين مثل شفتى عمتى تماماً ، ثم تنهد قائلاً فى أسى :

– " والآن ماذا وراءك أيها الشقى التعس ؟!"..

– " لاشئ ! مسافر إلى دمنهور فقلت أمر عليك لأننى لم أرك منذ ما يزيد على أربع أو خمسة شهور !"..

تجاهل كذبتى :

– " ولكن لماذا تسافر إلى دمنهور اليوم ؟!"..

– " الأستاذ طارق الشوباشى ناظر مدرسة الزراعة من بلدتنا كما تعرف! وعدنى بأن يقدم لى التماساً بالعفو عنى وإعادتى إلى المعهد بعد أن تأدبت عاماً كاملاً وعرفت أن الله حق !!"..

ولم يكن هذا قد دار بخلدى قبل هذه اللحظة مطلقاً ، بل لا أعرف كيف قلته ، لكن بدا على توحيد ابن عمتى كأنه تنبه إلى فكرة طيبة كانت غائبة عنه ، وبدا من الواضح انه استحسنها واكتشفها:

– " والله معقول ! قل له إن توحيد ابن عمتى يهديك أزكى السلام ويقول لك إنه لن ينسى هذا الجميل طول حياته وسيرده لك فى الأفراح بإذن الله!!"..

ثم نهض واقفاً، جمع كومة الجرائد والمجلات فتأبطها ، وضع القداحة فى جيب السترة الداخلى تاركاً علبة السجائر لأن بجيبه أكثر من واحدة وفى بيته الأكثر.

مضى خارجاً من المكتب منادياً على الولد الفراش منبهاً عليه أن يفتح المكتب ويرش أرضه في تمام الخامسة ؛ ومضى أمامى والولد الفراش فى اثره ، فتلكأت قليلاً ، وبسرعة طويت علبة السجائر فوضعتها فى جيبى ولحقت بهما على الباب . مشيت بجواره بقلب خافق بين الأمل والرجاء والخوف من ظلال ليل مقبل بعد قليل قبل أن أدبر له مأوى أو مثوى . قرب المحطة توقف :

- " ستركب القطار طبعاً ! لم يعد أمامك سوى ربع ساعة ! إكتب لى خطاباً فور وصولك يلغنى فيه عما تم مع الأستاذ الشوباشي ! هاك ربع جنيه صرّف به نفسك ! أراك على خير ! مع السلامة !"..

قبضت على ربع الجنيه ، سلمت عليه بقبضة مضمومة ثم اتجهت إلى شباك التذاكر مباشرة لألحق بقطار دمنهور الذى يصلها فى مدخل المساء ...

رأيت كل هذا وانا متربع فوق بنك حمدى الزواوى أدخن وأرشف من كوب الشاى في حيرة وشرود . شدنى صوت حمدى مشوحاً بذراعه أمام عينى : " إيه! رحت في ؟ تلاقيك بتفكر فى السجن " ، فانتبهت مرتعداً ، ولكن سرعان ما بدا لى السجن أرحم بكثير جداً أو على الأقل ليس أسوأ من العودة إلى بلدتى . لحظتئذ اعتدلت هابطاً عن البنك ، سلمت على حمدى ، ومضيت فاتحاً صدرى أبحلق بنظرات متحدية فى أى شرطى يقابلنى .

البير وغطاه

وقع الخبر على رأسي كدبشة مدببة ثقيلة نالتني على بوزي فدوختني . كدت أضرب صدري كالنسوان صائحاً : ياهوى ! لكنني عالجت الصدمة بابتسامة شاحبة حاولت أن أحجب بها نيراناً إرتفع أوارها في صدري ؛ ثم رأيتني أنظر لشوادفي بكل قدرتي على الإستنكار :

- " يا راجل حرام عليك ! ماهدفك من هذه الإشاعة ؟!"..

كركر شوادفي بالضحكة كطفل عابث شقي :

- " سبحان الله! رح بنفسك وشف بعينيك حتى تصدق !!"..

- " وداد ! تزوجت البوري ؟! كيف ؟!"..

- " لست أعرف ما الغريب في الأمر ؟!"..

- " لا يركبان ! غطاء صغير لإناء واسع !!"..

- " اسم الله عليك يا أخانا ! هذا هو المطلوب ! يسقط الغطاء في قلب الإناء!!"..

- " هو لا يكون غطاء إذن ! هما معاً يحتاجان لغطاء !!"..

- " دعك من هذه الخطرفة ورح خذ الحلاوة ! إنهما الليلة يحتفلان بالسبوع ! ركب الخليفة وبدأ المولد الذى لن ينفض أبداً !!"..

- " هذا آخر ما كنت أتصوره ! ولكن كيف حدث هذا من ورائنا ؟! إنهما حويطان !!"..

- " أنت نائم في العسل هذه الأيام ! منذ مدة وأنت مطيور ! من ياترى أكل عقلك ؟! وراءك سر هذه الأيام ! إن قلته لى نلت خيراً وعافاك الله ! وإن كتمته جعلت من صدرك قبراً تتعفن فيه جثث الأسرار فيشمها كل من يقترب منك !! طهر نفسك يا أخانا على الدوام !! إنفض ! أرأيت إلى الحمار يبرك في الأرض فجأة ويروح يتمرغ وينفض نفسه وينهق بكل قوة غيظه وألمه ؟! إنه مسكين ! لو لم يفعل هذا ما استطاع استئناف الحمل ! إنه ينفض الألم والحسرة وسوء حظه لأنه لا

يقدر أن يستدير ليقبض على زمارة رقبة راكبه فيأكلها ! شيال الحمول لابد أن يفعل هذا وإلا برك تحت الحمل فلم يقم أبداً !"..

كلامه كان مقنعاً ، لكنني مع ذلك يجب أن أحذره إن الأرض التي تصلح لأن أتمرغ فوقها مثل الحمار لأنفض نفسي ليست هي صدر شوادفي بالتأكيد . إلا أنني لم أجد مفراً من البوح له بأصل المشكلة التي باتت تؤرقني : أصدقائي كلهم تم القبض عليهم مع أنهم ليسوا جميعاً من المشتركين في تدبير أي حوادث اغتيال . أعرف أن خلية دمنهور بالذات من أهم الخلايا وأكبرها ربما لطبيعة أهلها ، فلقد سمعت أحاديث كثيرة من بعض المهمين في التنظيم يرجعون فيها كثرة عدد الصالحين في هذه المديرية إلى كونهم في معظمهم من أصل مغربي متجذر في الأرض من أيام الفاطميين ، والمغاربة بطبيعتهم أميل إلى التصوف والمجاهدة ، لا غرو فالسيد أحمد البدوي وابراهيم الدسوقي والشاذلي والمرسي أبو العباس والقباري والقنائي والسيوطي والطرطوشي وغيرهم من أصحاب الأضرحة والمقامات كلهم من المغاربة الصوفيين الذين تجذروا في مصر فبات لهم في نفوس المصريين مقامات عالية ومكانات مقدسة ذات جلال . من هنا فإن إخوانية الدمنهوريين في جميع أنحاء المديرية ربما كانت أعمق من غيرهم لأنها تتفق تماماً وطبيعتهم ، وهم تبعاً لذلك أعصاب قوية في جسد التنظيم الأم ، فمنهم أهم كوادره ، ومنهم طائفة متميزة من عتاة المتكلمين هيهات أن يفلت المستمع من سحرهم وصدق صلاحهم وصفاء قلوبهم ومغالاتهم في الإلتزام بالقيود ومجاهدة النفس وإخماد أطماعها وتطلعاتها وقتل مصادر اللذة فيها . وإني قد أعترف بتصلبهم الشديد في الذي يصح والذي لا يصح من أمور الدين والعبادات إلى حد بالغ الحدة والقسوة أحياناً على من يخضع لتعاليمهم .. لكن يصعب على الإعتراف بأنهم يقومون بشغل العصابات من قتل وتخريب وتدمير ؛ ربما لأنني مازلت أعيش هاهنا بعقلية الريفي الساذج السليم النية والطوية .. فليكن أمرهم ما يكون لكنني لا أنسى أن منهم من كان يعطف على ويساعدني على أمور المعايش دون أن يكلفني من أمري عسرا بل حتى دون أن يلزمني بالإشتراك في التنظيم ..

هكذا أنهيت كلامي لشوادفي . فحينئذ اعتدل واندمج في تفكير عميق ؛ جعل يلف سيجارة ؛ أشعلها وسحب الأنفاس بعمق ؛ ثم شوح قائلاً بلهجة من ينبهني إلى موضوع طال الفصل فيه مع أنه محسوم من الأساس :

- " يا أخانا إن وداد الغازية والبورى وسيد زناتي ورمضان عريجة وقطيطة وقوت القلوب الشامية ودميانة كلهم ليسوا مثلك محتاجين لمساعدة الإخوان المسلمين !! إنهم إخوان مسلمون من حالهم بغير أن يكونوا أعضاء في جمعية الإخوان المسلمين !! ألم تأخذ في المدرسة قرآنا يقول إن الله سبحانه وتعالى يكره الأحزاب والشيع ؟! دعك من مثل هذه الحجج التي تداوى بها كسلك !! الذين ذكرتهم لك يقلبون عيشهم بعرق الجبين ولا أحد منهم إلا ويبيت متعشياً في أمان الله !! أنت عدم المؤاخذة يا أخانا تبحث عن سلاسل تكتف بها نفسك !! لم يكفك أنك جالس في مطرحك الضيق لا تتحرك بل تجئ بسلاسل من حديد تربطها في عنقك !! إن التعليم لمثلك مفسدة يا أخانا !! وها أنت ذا فسدت في التعليم وانتهى الأمر فهل تقضي بقية عمرك تبكي على شهادة لم تنلها بسبب شراسة أخلاقك وتعديك على معلمك ؟! من قال إنك مظلوم سواك ؟! فضها سيرة واشتغل أى شغل يأتي بنقود فالشغل ليس عيباً مهما كان منظره إنما العيب أن تمد يدك لتشحذ أو تسرق !! يا أخي فلتسرق ولكن بصنعة لطافة دون أن تمد يدك للنشل !! إفعل مثلما يفعل الكثيرون !! هل تظن أن كل رائج بالمال جاء به من عمل شريف ؟! بالعكس يا أخانا فكلما كثر المال في يد الشخص كان دليلاً على قلة شرفه !! أنت تؤمن بالمثل القائل عن بلدنا إنها بلد بتاعة شهادات وأنا أحب أن أرى من ألف هذا المثل الكاذب لأضربه حزمتين على بوزه !! نحن بلد لا قيمة للشهادات فيها حتى شهادة أن لا إله إلا الله يقولونها برو عتب !! إسمع هذه الحكاية البسيطة : في نجع مجاور لبلدتنا في الصعيد الجواني كان يوجد رجل غلبان يدعى أبو رزق حاله مثل حالك مفلس على الدوام وبوزه فقر ونحس ولهذا أطلقوا عليه اسم أبو رزق! من فقره ونحسه تزوج وأنجب وهو بغير عمل ولا صنعة! فلما نخ ظهره تحت الحمل الثقيل ذهب لواحد من عائلته في الفرع الغني فتوسط له عند القسيس كي يعينه فراشاً في الكنيسة ! سأله القسيس هل تجيد القراءة والكتابة ؟

قال نعم ! هل تجيد عمل كيت وكيت ؟ قال نعم ! هل تستطيع الحضور كل يوم في الساعة الفلانية وتنصرف في الساعة الفلانية ؟ قال نعم !! فأمر بتعيينه في الحال لأنه سينفع الكنيسة في أمور كثيرة ! لكن القسيس وهو يوقع قرار التعيين توقف فجأة وسأله : أظنك تحمل الشهادة الإبتدائية ؟! فبوغت أبو رزق وقال : لا والله لم أحمل شهادة أبداً !! حينئذ طوى القسيس أوراقه وقال : متأسف يا ولدى فالقانون عندنا أن أى موظف لابد أن يكون يحمل على الأقل الشهادة الإبتدئية !! فمضى أبو رزق مغتاظاً يندب حظه التعس !! كانت امرأته أشطر منه وأذكى وكانت تشتغل دلالة تشترى الأشياء بالتقسيط وتبيعها للناس فى البيوت بالنقد الفورى ! أخذته ورحلت به إلى بلد أخرى لا أحد يعرفهم ! هدفها أن يتخلص زوجها من نحسه!! دربته على شغل التجارة ! أنت وغيرك من التجار الكبار يمده بما يطلبه من بضاعة يسدد ثمنها بعد أن يبيعها ! خذ وأعط يصير المال مالك هكذا آمن أبو رزق بهذا المثل فطبقه على نفسه فأصبح صاحب رسمال كبير يملكه غيره وينتفع به هو !! بيعة فى أثر بيعة إفتتح دكاناً ! أصبح للدكان مخزناً ! المخزن اتسع وفاض ! صار للدكان فروعاً فى كل البلاد ! بات أبو رزق من أصحاب الأموال !! ثم من أصحاب العقارات والأطيان والألقاب والمعارف من عليه القوم وحكام البلاد !! يمشى وسط حرس كبير ، وعربة تجرها الخيول المطهمة ! وأرصدة فى البنوك ! أصبح يتبرع لفعل الخير ويتبنى الكنائس والمساجد يعشقه المسلمون وصار عندهم فرخة بكشك !! إستقبلته الكنيسة التى طردته من جنتها فذهب ليزورها ويتبرع لها !! إستقبلته الكنيسة باحتفال كبير ! القسيس نفسه ألقى خطبة فى الإحتفال حممت الرجل بماء العطر والطهر الربانى المبارك !! وحينما ظهر للقسيس أن سعادة الباشا هذا هو نفسه أبو رزق الذى جاء ذات يوم يطلب شغلاً داعبه قائلاً : ولماذا لم تفكر فى الحصول على شهادة يا سعادة الباشا وهى سهلة عليك ؟! فضحك أبو رزق وعلق على الملأ بقوله ساخراً : لو كنت أحمل شهادة لكان زمانى الآن فراشاً فى الكنيسة!! وهكذا أمرك أنت أيضاً يا أخانا ! تريد أن تصبح فراشاً فى الكنيسة وتندم على ضياع الفرصة !! إسمع يا أخانا ! تريد من غد أن تجئ لتحاسبنى فتدفع ما عليك من شهور طويلة ويبقى معك ما تفنطز به وتنغنغ نفسك ؟! دعنى

أتصرف! بشرط أن تكون ليناً ! تتلحلح ! تكبر مخك ! هل البورى مفتح أكثر منك؟ نعم ! هل هو أجدع منك وأذكى ؟ إنه ملحلح ولا يربط نفسه بأى أوهام مثلك ! لقد تزوج وداد واعتبرها مشروع شغل !! سيشتغل مع سيد زناتى هو ووداد يصبحان من ضمن عدة الشغل عند سيد زناتى ! سيكسبان الذهب !! أنت أيضاً يا أخانا تستطيع أن تكون عدة شغل عند سيد زناتى !! أنت لون من العدة يمكن أن يتفوق على جميع الألوان ! سيفرح بك سيد زناتى ويعطيك عمولة كبيرة! وكلما أظهرت نشاطاً يزيد فى العمولة ويجعلك من المقربين إليه ! ترجع آخر النهار من شغلك تجده جهز لك العشاء من الفراخ المحمرة واللحم المشوى وتسكر معه بالخمر التى يقطرها بنفسه لنفسه !! هيه ! ماشى ؟! إتفقنا ؟! لاتهز رأسك وتدلدل أذنيك كالحمار الحرون ! قل نعم أو لا !"..

– " نعم !"..

هكذا وجدتنى مضطراً لنطقها بحرج وليكن ما يكون . فلأجرب هذا العمل لأعرفه على الأقل ؛ فإن الرغبة فى التجربة عندى أقوى من الرغبة فى الكسب أو العمل فى حد ذاته فى هذا المجال بالذات . ما أدهشنى حقاً هو حماسة شوادفى ، الذى ما صدق أن نطقت بنعم حتى انتفض قائماً ؛ ولأول مرة أراه يغادر المصطبة قائلاً :

– " قم بنا !"..

ثم مضى أمامى يجر ساقيه ويتبختر كبرج حمام من الطين الأسود ، يتمايل يمنه ويسرة فى طريقه إلى حجرة سيد زناتى .

البلابيص

حجرة سيد زناتي متحف صغير مبهر. هي أوسع حجرة في الوكالة كلها ، ولابد أنها كانت مصممة لغرض إدارى ، إذ أنها فضلاً عن اتساعها تتكون من ثلاث طوابق واطئة بعض الشئ ؛ الطابق الأرضى للنوم وكذلك العلوى ، أما ذلك الأوسط فقد خصص لقعدة سيد زناتي وسهراته واستقبال أفراد العدة عند التحاسب. جدران الحجرة كلها مغطاة بستائر من الكتان وردية اللون مغسولة جيداً، تتخللها شرائح من المرايا كصالون الحلاق تعطى الحجرة عمقاً واتساعاً كبيرين ، هناك صورة لجمال عبد الناصر باللباس العسكرى أثناء توقيع اتفاقية الجلاء مبروزة بماء الذهب ومعلقة في حائط الصدارة . فضاء الحجرة مزين بالورق الكريشة الملون في عناقيد وافرع وأشكال متكورة كالثريات والفاكهة . على الأرض كليم نظيف ، فوقه مجموعة من الشلت الصغيرة والكبيرة والمساند . الجو معبأ بروائح التبغ المحترق والمحمص والكحول والسمن البلدى المقدوح والتقلية ..

كان سيد متربعاً في الصدارة فوق شلتة ومسندين ، كل مسند عبارة عن فخذ هيفاء كالسنيورة براقة العينين ، هاتان هما زوجتاه الحديثتين الصغيرتين . على مقربة من الباب تتربع – متقابلتين – سنيورتان سميرتان تتألق في وجهيهما نضارة مدهشة لا تتألق إلا فيمن يعتبرن جمالهن شيئاً ثميناً يتعهدنه بالتربية والتغذية بعيداً عن مشاكل الحياة. أعرف أن هذه القمحية اللون المكحلة العينين تحت مقصوص شعر الجبين المتسرب من تحت المنديل أبو أوية المشغول بالترتر والفل ، بوجهها المستطيل ككوز العسل، وصدرها المشدود على وترين عريضين تحت جلباب من الشيت المشجر بألوان زاهية ؛ هي زوجة الأولى هنية ، التي تعتبر أساس شغلته وأول عدة اشتغل بها في حياته ؛ يقال عريشية الأصل مدربة على شغل أهلها كقصاصة أثر . أما هذه الجالسة قبالتها كالفهد بوجه دائر مورد مكتنز الملامح واسعة الفم دقيقة الأسنان يلمع في شدقيها الجميلين بريق سن ذهبى ، سائبة الشعر ينساب على كتفيها في جدائل سوداء فكأن وجهها مشكاة مضاءة مشكوكة في خيط خفى بين سحب من الظلال السمراء ، كل تفصيل في جسدها بض متختخ ، يكاد يتفجر في غير امتلاء

مع ذلك ؛ فإنها زوجه الثانية ستات ، التي أثبتت أنها العدة الحقيقيـة ؛ تتميز بأنهـا واسعة الرزق باستمرار ، تسيل لعاب العمـد ومشـايخ البـلاد وأعيـان المدن وكبـار تجارها ؛ تعرف كيف تدحلبهم فتضحك على ذقونهم تسقيهم الأونطـة ؛ هـي التـى تكفلت بتدريب الزوجتين الحديثتين وقد اختارت واحدة منهما ليتزوجها سيد زناتي أو كما يقول أهل السينما إكتشفتها وحلبتهـا ، تلـك هـي الجالسـة على يمينـه الآن واسمها إكرام ، واسم الدلع كرملة . أما الثانية علـى يسـاره - وهـي الرابعـة - فقـد اكتشفتها هنية في سوق الحياة فاختارتها زوجـاً لسيد زنـاتي أى ألحقتهـا بـالعمل ، واسمها جنات واسم الدلع جنونة . لاتغار إحداهن مـن الأخـرى ؛ فـالزواج بالنسـبة لهن جميعاً هو مصلحة يشتركن في بنائها مع سيد زنـاتي . إنهـن ذكيـات مفتحـات دائرات بقدر ما هن فاتنات موهوبات ؛ يعرفن أن العدة يجب أن يكون عائلة واحدة تحمي بعضها وتحنو على بعضها ؛ وهذه العائلة يستحسن بل يجب أن تكـون بوثيقـة شرعية ..

نهضوا جميعاً في استقبالنا باهتمام شديد . سلمنا عليهـم واحـدا واحـدا . تربـع شوادفي فيما بين إكرام وستات ، فيما تربعت أنا بين هنية وجنات . مـا أن جلسـنا حتى لاحظت وجود وابورى غاز مشتعلين بنار هادئة أمام كل من هنيـة وسـتات ؛ على الوابور الذى امام هنية طاسة كبـيرة ملانـة بـالتبغ عرفـت فـي الحـال أنـه فـرط أعقاب السجائر التي لا يتكيف سيد زناتي إلا بدخانها رغم وجود أكـثر مـن علبـة بلمونت كبيرة مطروحة على الأرض تدخن منها كل من جنات وإكرام . علـى نـار هادئة راحت هنية تقلب في التبغ بملعقة لكي تحمصه فتطرد من جوفـه بقايـا أنفـاس الآخرين ورائحة الصنـان والزفـارة الناتجـة عـن سـحق بعـض الأعقـاب فـي الأرض بالأحذية . أما الوابور الثاني أمام ستات ففوقه حلة متوسطة الحجم فيهـا مـاء حتـى الحافة ؛ في قلب هذا الماء فـي قلـب هـذه الحلـة حلـة أخـرى صغـيرة عائمـة ملآنـة بالسبرتو الأحمر ؛ فوق هذه الحلة مصفاة ؛ فـوق المصفـاة غطـاء ؛ على وهـج النـار الخافتة جداً يزداد غليان الماء فـي قعـر الحلـة الكبـيرة فتشـتد الحـرارة على الكحـول الأحمر في الحلة الصغيرة فيتحول إلى بخار يتصاعد فيلتحق ببخار الماء فيمتزج به فـي طلب اللجوء إلى غطاء الحلة الأملس فيعيد غطاء الحلة تسليمه إلى موطنه مـن جديـد

يسقطه قطرة فقطرة فى قلب الحلة الصغيرة وقد تحول إلى ما يشبه صفاء اللؤلؤ ؛ فإذا ما ارتفع صوت اصطكاك الحلة الصغيرة بالحلة الكبيرة علامة نفاذ الماء أطفئ الوابور وتركت الحلة حتى تبرد ، ثم تجيئ ستات بزجاجة من زجاجات الويسكى ، وبواسطة قمع صغير تعبئ الكحول الأبيض المقطر بعناية فى الزجاجة ؛ ثم توضع مع الكئوس أمام سيد زناتى بجوار الفول السودانى المقشر والترمس والخس والمش ؛ ليشرب ويدخن حتى آخر الليل ، حيث تبقى من عليها الدور فى المبيت فى حضنه هذه الليلة فى حين تنصرف الأخريات كل إلى سريرها ، إذ أن هنية تحضن من اكتشفتها وكذلك تفعل ستات . هكذا يطلع النهار على سيد زناتى وهو فى مطرحه هذا كملك الملوك فى حضنه سنيورة تسقيه شهد المحبة ويروى ظمأها بالحنان والفتوة . فما تكاد الشمس تبعث رسلها إلى فناء الوكالة مارة على سيد زناتى فى قعدته هذه من خصاص الشباك المطل على الشارع ؛ حتى يكون جميع نسوانه قد صحون واغتسلن وتزين على سنجة عشرة ، تحولن إلى سيدات من أبناء البيوتات الكبيرة ، تفوح منهن روائح عطر ثمين من ماركات شهيرة غالية الثمن كضرورة من ضرورات الشغل ؛ يلمع الذهب فى صدورهن ومعاصمهن وأصابعهن وآذانهن . بعدها بقليل يهل الرجال بقية العدة ، مابين بك أوجه من جلالة الملك، أو أفندى من موظفى الحكومة، أو عمدة من عليه القوم أو معلم فى هيئة مقاول أو شهبندر التجار؛ كل واحد من هؤلاء سيتسلم واحدة منهن، ليسرح بها على باب الله؛ لكل ثنائى خط معلوم وهيئة مرسومة بل وحوار محفوظ بل وخريطة للحركة مخطوطة ، كل ذلك يبتكره ويخططه سيد زناتى بعبقرية فذة فيما هو جالس يسكر ويلهو ، يحسب كل خطوة من خطوات العدة بل يكاد يحدد بكل دقة كم جنيهاً سيعود به هذا الثنائى أو ذاك تبعاً لطرافة فكرة كل ثنائى أو تراء موقفه وقدرته على استقطاب المشاعر والخواطر المقنعة . بمجرد اتكالهم على الله تكون الجرائد والمجلات كلها قد سربت إليه من حديد شباك الشارع ، فيضطجع على أى سرير فيقرأها كلها بحرفنة ووعى ، ثم يستغرق فى النوم العميق حتى الثالثة بعد الظهر فيصحو كالحصان ، ينزل إلى الطابق الرضى فيجد أن من كانت فى حضنه قبل ساعات قد أعدت له الطست وحلة الماء ، فيستحم ويرتدى أنظف الثياب ، ويخرج ليتسوق

الطعام من فراخ ولحوم وخضروات وفاكهة وسجائر وكحول ، ليعود فيشمر ذراعيه كأشطر السيدات فيندمج في نتف ريش وتخريط بصل ودعك طماطم وغسل ارز وقدح سمن ، حيث يحلو له أن يتابع نضج الطبيخ على البوابير ملطفاً حرارة الجو بكأس من الكحول الأبيض المقطر ، ويمز بقضمات منتزعة من الحلل ، منه مز ومنه اختبار لاستواء الطبيخ .

.. ما تكاد الشمس تسحب سفراءها من فناء الوكالة تمهيداً لقطع العلاقات بسيادة الظلام حتى تكون العدة قد شرعت تتوافد عائدة ، ثنائى بعد الاخر ، فى مواعيد منضبطة ، لابد ان يسمع الجميع أذان المغرب فى هذه الحجرة ؛ وغير مسموح بهامش للتأخير أبعد من أذان العشاء . الثنائى العائد ما أن يصل حتى تفتح المرأة حافظة يدها فتدلق الغلة على منديل مفرود أمام سيد زناتى ، حيث يرتبها فيما هو يجمعها فى حركة واحدة ، يعدها بسرعة هائلة ، يشرد قليلاً كأنه يراجع هذا الرقم على رقم قدره فى ذهنه للمشوار ، فى العادة إن لم يجئ الرقم كما توقع فإنه ربما زاد قليلاً أو كثيراً . يعيد عد النقود فى ترتيب آخر حيث يفصل عنها قيمة العمولة فيطويها كالسر يغمز بها الرحل قائلاً : ليلتك فل . يفصل مبلغاً آخر هو عمولة زوجه التى رافقت الرحل ، يضعها فى جيب من حافظته الجلدية الكبيرة ؛ يضع الجزء المتبقى فى جيب آخر . ما أن يكتمل جمعهم حتى تكون الطبلية الكبيرة قد امتدت بعديد من الأطباق يتصاعد منها الدخان الشهى ؛ يأكلون ، يدخنون ؛ يحتسون الشاى . ثم يبدأ الشطر الأول من السهرة ، يسميه سيد زناتى بالفرشة ، قوامه حشيش وأفيون ، هنية هى الخبيرة بأمور الرص والتوليع والتسليك والتحصية والتعسيل لأنها حشاشة قرارية ومتولية لحسبة الحشيش فى الحياة المزاجية لسيد زناتي. غير أن القعدة ليست تحشيشاً وأفينة فحسب ؛ إنما لها قوام يصلبها ويبدأ فى العادة مع أول حجر ، حيث يجئ ورق اللعب الجديد دائماً ، علبتان مضمومتان للعبة الكونكان على مدى حوالى ثلاث أو أربع ساعات لابد وأن تنتهى وقد عادت العمولات كلها من جيوب الرحال إلى جيب سيد زناتى . غير أن سيد ولد بجدع ، لا يرضيه أن ينزلوا من عنده بلابيص لا يملكون أجرة الحنطور أو ثمن الفطور، قرض كل واحد جنيهاً يسترده فى سهرة الغد . ثم إنهم يشرعون فى الإنصراف

مع دقة الساعة الحادية عشرة ، ليخلو سيد زناتي بنسائه الأربع في قعدة خصوصية ، حيث يبدأ الشطر الثاني من السهرة ، قوامه الكحول الأبيض المقطر ..

من حسن حظنا ، شوادفي وأنا ، أن جئنا في بداية الشطر الثاني من السهرة . تذوق شوادفي كأسا وضعه أمامه سيد زناتي فتقلصت ملامحه من شدة حرارة الكحول الشارخ في الحلق ، ثم قال :

- " جئتك بعدة تصلح طبلة وطاراً معا !! لك أن ترى فيه الطبلة أو الطار! أخونا هذا ابن حلال على ضمانتي ! ومفتح وداير ! يريد أن يأكل عيشاً بعرق جبينه ! عنده مخ نظيف ! كان في المدارس وأوشك أن يصير معلماً لولا سوء الحظ! مقصودي أنه متعلم وسوف ينفعك !"..

صرت هدفاً لغابة من العيون الساحرة راحت تطوف بجسدي كله متمعنة فاحصة ، يتصاعد منها الترحيب مخلوطاً بزهو وإثارة وقليل جداً من الإمتعاض . قال سيد زناتي وهو يسلط عينيه في عيني :

- " ياترى هل يعرف شغلنا ؟! إن شغلنا صعب لا يقدر عليه أي أحد !! المسألة ليست مسألة تعليم أو مدارس !! إنها توفيق من الله !! أهم شئ في شغلتنا أن الانسان منا يكون في وجهه القبول ! القبول اساسى في شغلتنا ! طالما في وجهك القبول من الأساس فإن الناس يصدقونك في كل ما تقول وتفعل حتى لو كنت كذاباً أفاقاً ! وحتى وهم يعرفون أنك تسرح بهم !!"..

قال شوادفي مشيراً بأصبعه إلى وجهي كنخاس متودك يجيد عرض بضاعته :

- " أخونا في وجهه مائة قبول ! أنظر في جبينه ترى شكل الهلال !! وأسنانه مفلوجة من الأمام كما ترى !! أي أنه محظوظ بإذن الله !!"..

مرة أخرى راحت العيون تطوف بي تتفحصني تتلكأ عند جبيني وثغري ، فيما رحت أتبسم في شعور بالحرج . قال سيد زناتي :

- " أهلاً به إذا كان معذوراً في قرشين فإن حبيبي تحت أمره !! ولكن عليه أن يكون محباً لشغلتنا هذه أولاً حتى يشتغلها بمزاج رائق كهواية محببة ! فلو أحبها سيجد أفكاراً كثيرة يبيعها للناس بالذهب !! شغلتنا شغلة كلام حلو منسق ! وتمثيل

أحلى ! إن كنت عدم المؤاخذة موهوباً في هاتين الناحيتين فإن مستقبلك معنا عسل وقشطة ! فما هي مواهبك ؟!"..

رد شوادفي بسرعة :

– " إن أخانا عضو فى فريق التمثيل فى الحرس الوطنى ! ومغرم بتأليف القصص والروايات ولديه كلام حلو ! والأهم من ذلك عنده رغبة فى العمل!! جربه وأنت مغمض العينين وسوف تشكرنى بعد ذلك !!"..

إنبسطت ملامح سيد زناتي وشع البريق الفضولى فى عينيه الواسعتين طويلتى الرموش :

– " دعنى إذن أفكر لك فى رسماية ! ولكن ماذا كنت تشتغل فى الأيام الفائتة؟!"..

تكفل شوادفي بالرد :

– " كان له صديق تاجر قماش من الإخوان المسلمين ! فكان يساعده فى الدكان فيعطيه ما فيه القسمة !!"..

شدتنا صيحة استحسان قادمة من ناحية الباب ، فإذا هى ستات وقد كررت صيحتها :

– " بس ! جاءت الفكرة يا سيد زناتي ! الفكرة جاءتنى ! حلو ! الإخوان المسلمين ! الجدع ابن حلال فعلاً يا شوادفي ! أنا التى سأدربه ! إتركوه لى أنا ! سأسرح معه ! سأقول لك الفكرة يا سيد وأنت تلفها وتطبخها ! أما الجدع فسيعرف الفكرة عند التنفيذ !!"..

شوح شوادفي قائلاً في تفاؤل :

–" الحمد لله! الخير على قدوم الواردين !"..

وتراجع سيد زناتي بظهره إلى المسند ساحباً نفساً من السيجارة :

– " خلاص ! على خيرة الله!"..

عدلت ستات نفسها ناظرة فى تتأملنى بدقة كأنها تقلبنى التقليبة الأخيرة قبل أن تشترينى :

– " حبيبى ! لى طلب بسيط هل تفعله من أجل خاطرى ؟!"..

- " طبعاً طبعاً !!"..
هكذا قلت مستشعراً الصدق في لهجتي ، ثم أضفت :
- " إإمري!"..
تحول وجهها إلى ابتسامة مضيئة بنور أحمر فاتن ، ثم هزت دماغها مطوحة بخصل من شعرها إلى الوراء ، وأردفت :
- " عندك ملابس نظيفة طبعاً ومحترمة ؟!"..
- " عندى بعضها ! يمكن أن أغسلها !"..
- " لا ! سيد زناتي يشترى لك بذلة كاملة محترمة من سوق العصر ! سوق الكانتو فيه ملابس يبيعها البكوات والأفندية بعد لبسة واحدة ! نشترى لك منها واحدة أو اثنتين بفلوس قليلة ونحاسبك عليها مما سيكرمك الله به إن شاء الله! فاهمني يا سيد يا زناتي ؟! لابد أن تشترى له بذلتين من سوق الكانتو ! على مقاسه وآخر شياكة ! بقميص أفرنجي وكرافتة !! و.. ممكن تنظر لي ياجدع ؟!"..
نظرت إليها محاولاً اعتقال ضحكة ، لكنني كنت مستمتعاً جداً بهذا المشهد الذى بدا لي طريفاً مسلياً . إستشعرت لذة فائقة من تركيز النظر في عيني هذه البطة الواسعتين المكحلتين ؛ مصدر اللذة فيما شعرت أن عينيها كانتا تمتصان نظرى تتشربان نظراتي في استيعاب واسع الحدقتين؛ فشعرت بلذة إضافية بمجرد تصورى أن القدر ربما يدبر لي مع هذه المرأة الشهية الجذابة حولات مثيرة . أسبلت عينيها قائلة في حسم :
- " أمامك عشرة أيام لنبدأ العمل !!"..
قال شوادفي مشوحاً :
- " عشرة أيام بحالها ؟! لماذا ؟!"..
صوبت ستات عينيها على شوادفي :
- " هذا شغلنا يا شوادفي ! العبارة ليست جهجهون ! الجدع لابد أن يربي لحيته !!"..
- " يربي لحيته ؟! سيشتغل فقيهاً أم طربياً ؟!"..
تجاهلته ستات ونظرت لي:

– " هذا هو طلبي عندك ! من الآن لا تحلق ذقنك ! بعد عشرة أيام تعال وأنا أنسقها لك أجعلها على شكل ذقون الإخوان المسلمين ! ويكون سيد زناتي اشترى لك البذلة ! رح معه إلى سوق الكانتو بعد يومين ثلاثة ليقيسها عليك !"..

قال شوادفي :

– " ما رأيك يا أخانا ؟!"..

– " موافق طبعاً !"..

فقال سيد زناتي :

– " خلاص ! قابلني بعد غد لنشترى لك أجمل بذلة تعجبك وتعجبني !"..

فانبرى شوادفي :

– " إذن أسمعونا الفاتحة !"..

أوشكت ضحكتي على الإنفجار ، لكنني اعتقلتها بشدة ، حينما رأيت الجميع – لدهشتي – قد رفعوا أكفهم نحو السماء واندمجوا في قراءة الفاتحة بورع متقن كأنهم في المسجد إثر انتهاء الصلاة . مسح الجميع بأكفهم على وجوههم ، ثم إن شوادفي وجه الكلام لي قائلاً إن الفاتحة تقصم ظهر الخائن ، فأومأنا جميعاً بالموافقة على قوله ، وشربنا نخب الفاتحة كل واحد رشفة من كأس واحد . وكانت الحجرة قد بدأت تبدو حميمة جداً ، بدرجة سمرتني في قعدتي كأنني لا أبغي انصرافاً ؛ لولا أن شوادفي رماني بنظرة تحتية ذات معنى فهمت منه أن الجماعة وراءهم شغل في الصباح الباكر فضلاً عن أن سيد زناتي وراءه مزاج لابد أن يشوفه قبل انبلاج الفجر . نفضت نفسي قائماً ، سبقت شوادفي إلى الباب فالسلم فالفناء متجهاً إلى حجرتي مفعماً بمشاعر كثيرة مبهمة مشوبة بنوع من القلق ؛ إلا أنني ألاحظ أني استعذبها ولا أرحب بالتفكير فيها ؛ ربما لأنني كنت متحمساً للتنفيذ في حقيقة الأمر . والشئ الوحيد الذى كنت واثقاً منه هو ذلك الهدير الضاحك الذى انبرى يهدر في صدرى بضحكات صاعقة ترجني رجاً ؛ فأيقنت أنها لابد أن تكون ضحكات ذلك المسمى بالشيطان .

الإهـــاب

شكل وجهى فى المـرآة أزعجنـى وأثـارنى ؛ كـدت أنكـر أنـه وجهـى ، حيث كبرت لحيتى إلى حجم عقلة الأصبع فاختفت بشرتى الشقراء تحت فروة خشـنة مـن الشعر الضارب إلى الشقرة كفروة الخروف، تبـدأ بشـريحتين بجـوار الأذنـين تتسـعان على الصدغين والخدين والذقن وواجهة العنـق. وكنـت أجـد صعوبـة فـى احتمالهـا وأشعر بضرورة التخلص منها وأكف عـن الهرش فيهـا؛ لكننـى سـرعان مـا نسيت حملها شيئاً فشيئاً حتى بدأت أعتادها..

وحتى بعد أن كبرت لحيتى لم أكن قررت بعد ما إذا كنت سـأقبل الإنتمـاء إلى طائفة كهذه من النصابين والمحتلين هم فى الأصل من السفلة الذين من المفروض أننى ذدهم احتماعياً وأخلاقياً وأدبياً وما إلى ذلك من تعبيرات تفتننى! فـالواقع أننـى منـذ مدة طويلة وأنا تراودنى الرغبة فى إطلاق لحيتى ولو على سبيل التجريـب أو التمـرد على شكل المألوف المثير للسأم ؛ ولم يكن يمنعنى من هذا سوى أننـى أرى كـل مـن هب ودب يطلق لحيته لينصب بها على الآخرين أو يعلن انتمـاءه إلى طائفـة معينـة ؛ ثم إن إطلاق لحيتى سـيدمغنى بطـابع الإخـوان المسـلمين فـأتعرض للـترحى ووجـع الدماغ بغير داع . إلا أننى فرحت بمنظر لحيتى الطويلـة، فقـد أضفـى علـى وجهـى طابع الصلاح رغم عدم وجود زبيبة الصلاة فى جبهتى؛ كما أضفى على شخصيتى مظهر الفنانين والشعراء والأدباء والفلاسفة..

سيد زناتى إهتم بمراقبة لحيتى بانبساط وتفاؤل، وقال إن اللحية قد أكدت لـه – بحسن منظرها – أننى أنحـدر بـالفعل مـن سـلالة طيبـة إذ أن شـكلى هكـذا يذكـره بشيوخ كثيرين من أهل الصلاح الحقيقى. إمتدت الأيام العشرة إلى شهر كامل حتى باتت لحيتى غابة كثيفة ؛ فاصطحبنى إلى سوق الكانتو ، فاشترى لى بذلـة كاملـة لم أكن أحلم بأناقتها طول حياتى السابقة ، من تلك البذلات التى أراها علـى أجسـاد عليه القـوم مـن البكـوات ومشـاهير النـاس ، بتفصيلـة محكمـة الأناقـة متسـقة علـى جسدى بالملليمتر . ومضينا فى ممر السوق الحافل على الجانبين بشتى أنواع الملابـس المعلقة علـى مشـاجب وحمـالات ، قـد تم تجديدهـا بوسـائل جهنميـة جعلتهـا تبـدو

وكأنها خارجة لتوها من المصنع . طوائف من الناس يقفون في قلب الطريق فيخلعون ملابسهم علناً ليقيسوا بعض الثياب ينخرطون في صياح وضجيج وصخب يدخلون في مساومات وفصال وحلف ايمان مغلظة . هاهنا يتم تغيير الأشكال وربما تحويلها : فلاحون خشنون حفاة يتحولون إلى أفندية ذوى أناقة تجذب الإحترام ؛ وشبان واولاد بلد يتحولون إلى أبناء ذوات بقمصان نصف كم بتفصيلات أجنبية ؛ آخرون يتحولون إلى ما يشبه البلياتشو . هنا عالم العجائب ، أغرانا بشراء معطف من الجبردين لى وواحد من الجوخ لسيد ، مع قميص من اللينوه وآخر من البوبلين ، ورباط عنق ، وجوربين ، وحذاء من الشمواه ؛ كل ذلك لم يتكلف خمس جنيهات، لدرجة أن سيد زناتى أعطانى - بالمرة - ثلاثين قرشاً ليكون حسابه عندى خمس جنيهات على القفل . خلعت ملابسى القديمة لأقيس هذه الجديدة في قلب السوق الحافل وسط أعداد لا تحصى من البشر دونما حرج ، حيث يتعاون جميع هؤلاء البشر على أن يتم كل هذا وسط الزحام في سهولة ويسر عجيبين ؛ حتى وأنت تقيس الهدمة سيشارك أكثر من واحد من الزبائن الواقفين في إبداء الرأى تطوعاً: تمام ! لائقة ! مفصلة عليك ! مثل الكعكة ! ياحلاوة ! نصيبك ! حظك يحب ! مبروك !.. ثم إنك إذا اختلفت مع البائع حو السعر فلابد أن يتدخل البعض لإنهاء العراك الفصالى بكلمات ملطفة ربما حلت الإشكال بالفعل : شوية عليك وشوية عليه ! نقسم البلد بلدين ! إعطه كذا !.. وهكذا رأيتنى فى مرآة البائع الواقفة بجواره كالباب المفتوح أفندياً ابن ناس . أخيراً دخلت في الإهاب الذى طالما وقفت أمامه صاغراً من المدرس إلى الطبيب إلى المدير إلى وكيل الوزارة إلى كل من أذاقونى وأهلى صنوف العسف والقهر والذلة . في الحال استيقظ الغضب في صدري دفعة واحدة كأن جميع محابسه قد سابت بفعل تلف لا إصلاح له ؛ شعرت أن قراراً يتشكل في رأسى بأننى لا يجب أن أخلع هذا الإهاب السلطوى المهيب ما حييت ؛ بالحق أو بالباطل ، مهما كانت الظروف والأحوال . وقال صوت في مؤخرة رأسى إن بلادنا لا تطلب من أحد شهادة أو سنداً قانونياً أو عرفياً لأى يفعله أو هيأة يضع نفسه فيها حسب مزاجه ، إذ أن كل شئ فى بلادنا يمكن أن تشتريه ! إما بالنقود وإما بالنفوذ أو بأى سلطان ، فما بالى لا أتشبث بإهاب يرضي غرورى بغض النظر

عما إذا كنت استحقه أو لا ؛ لقد رأيت ، أو لعلني سمعت قولاً مأثوراً ، معناه : إذا كنت في بلد لا تؤمن بالله فليس هناك تهمة بالكفر ؛ وإنى في الواقع لزعيم بأنى فى بلد لا تؤمن بالشرف إلا من قبيل الدعاية والمنظرة والفشخرة الكذابة ، فليس ثمة، بالتالى ، تهمة بالعار ..

وهكذا مضى سيد زناتى بجوارى كأنه خفيرى الخاص أو ناظر زراعتى ، يحمل ثيابى القديمة ، يتورد وجهه ببسمة كبيرة مضيئة مزهوة كأنه أنتهى من رسم لوحة فنية ناجحة وهاهوذا يطلب رأى الجماهير فيها ، يكاد يوجه الشكر والتحية لكل من يرمقنى بنظرة إعجاب بأناقتى . ولما رأتنى ستات على هذا المنظر لم تتمالك نفسها من الفرح فأطلقت زغرودة بغير صوت إذ اكتفت بوضع كفها كالمظلة على فمها ولعبت لسانها كالمكوك في غبطة وسرور واضحين ؛ ثم أمرتنى بخلع هذه الملابس والإحتفاظ بكويتها لنبدأ بها مشوارنا المنتظر ..

بعد أن شاهدت حلقة لحساب الليلة ، وجلسة القمار المعتادة ، وانصراف كل أفراد العدة ؛ بدأت سهرتنا الخاصة مع نشرة أخبار الحادية عشرة ؛ حيث عجزت عن رفض دعوة سيد زناتى على كأسين من الكحول الأبيض المقطر أو ماء جهنم كما يسميه ؛ إحتملت لهيبها الشارخ لأنى تعشيت معهم عشاءاً دسماً مشبعاً . جاءت ستات بأدوات الحلاقة الخاصة بسيد زناتى فإذا هى فى غاية النزاهة ، شفرة كشفرة الحلاق نظيفة ماضية ، فرشاة ذات يد من العاج كبيرة ، أنبوبة معجون ، طاسة نحاسية ، شريحة من جلد السيور لشحذ الشفرة . للدهشتى لاحظت وجود بعض أعداد من مجلة الدعوة ؛ أخذت ستات تتصفحها حتى جاءت بصورة بعرض الصفحة للشيخ حسن البنا بطربوشه القصير والنظرة الحالمة الوادعة فى عينيه ؛ راحت تتأمل فى لحيته بدقة ؛ ثم ربعتنى أمامها ، فردت الفوطة على صدرى ، رغت الصابون بالفرشاة فى الطاسة ؛ رسمت بالفرشاة خطوطاً على وجهى حددت بها شكل الذقن كما تريدها ، تنظر فى الصورة ، وفى وجهى نظرة ، تمسح الصابون بإبهامها عن بعض البقع . فلما نجحت فى تحديد الخريطة التى سيتم إزالة الشعر عنها جعلت تكثف الصابون فوقها ، وبدربة هائلة راح معصمها المتختخ المحتقن بالدم والإثارة يروح ويجئ فوق خدى وأسفل عنقى وبجوار أذنى . ثم جاءت

بالمرآة فصوبتها فى وجهى ، فهالنى منظرى ؛ كان صورة طبق الأصل من وجه الشيخ حسن البنا . دهشت للتطابق بين شكلى اللحيتين . لحظتها فهمت لماذا دوختنى سيد زناتى فى سوق الكانتو بحثاً عن طربوش قصير. وحين جاءت به ستات ووضعته فوق رأسى محاولة ضبط وضعه بحيث يظهر من تحته جانب صغير من جبينى، نظر سيد زناتى فى وجهى بإعجاب شديد ثم شوخ بذراعه مؤكداً أننى فى باكورة الصباح سأتكل على الله مع ستات لنلقط رزقنا.

الكواليس

الخطة التى رسمها لنا سيد زناتي كانت واسعة الأفق ، دقيقة التفاصيل ، محكمة الأطراف ، عبقرية ، لدرجة أنه زودنا بعدد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة عن على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وأبى ذر، التى يتردد ذكرها بكثرة على ألسنة المتحدثين من الإخوان المسلمين . دهشت جداً ؛ إذ كيف عرف سيد زناتي كل هذه المأثورات بل كيف تأتى له العلم بأصولها حتى أنه ينتخب منها هذه العناصر بالذات دون غيرها لكى نستخدمها كأدوات مساعدة نستند عليها وقت اللزوم. هاهو ذا يجرى أمامنا ما يسمى بالبروفة أو التدريب ، بأن يتقمص أدوار شخصيات قد تعترضنا أو تناقشنا أو تستدرجنا فى الكلام أو تدحلبنا لمعرفة حقيقة أمرنا بالضبط؛ ينبهنا إلى ما يتعين علينا قوله هنا أو فعله هاهنا ، وأى الكلمات وأى الحركات تكون طوق النجاة عند استحكام المور أو تأزم المواقف..

كانت ستات أبرع منى بكثير جداً فى الردود والتعقيبات المتميزة بذكاء خارق. كنت لسذاجتى أظنها وسيد زناتي لا يقرآن ولا يكتبان ؛ فلما لاحظت بدهشة بالغة صحة نطقهما للغة العربية الفصحى بتشكيلاتها الصحيحة وحروفها المفخمة خيل لى أننى أجلس مع رهط من كبار المثقفين المتنكرين . لم تطل بى الحيرة فى أمرهما ؛ فسيد زناتي قابل دهشتى الواضحة بابتسامة مشرقة قبل أن يخبرنى بأنه وستات من حملة الشهادة الإبتدائية نظام زمان بالمصاريف حين كانت ابتدائية ذاك الزمان تتفوق على توجهية اليوم فى مستوى العلوم والتحصيل واللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية. ثم برق فى عينه كثير من التحدى وهو يشير بأصبعه عمودياً إلى الأرض قائلاً إن الحجرة السفلية فيها تلال من كتب أدبية وثقافية ومجلات ربما لم أسمع بها فى حياتى رغم أننى أعتبر نفسى من المثقفين وألبس لباس الأدباء . وقبل أن أستعد لامتحانه عاجلنى بقائمة هائلة من الكتب الثمينة التى قرأها - وبعضها بالإنجليزية - مرات عديدة، من روايات تشارلز دكنز وشيكسبير إلى مقدمة ابن خلدون والأمالى والبيان والتبيين وزعماء الإصلاح لأحمد أمين وقادة الفكر لطه حسين والعبرات والنظرات للمنفلطى ؛ كما قرأ تفسير الجلالين وتفسير القرطبى ،

ودواوين أبى القاسم الشابى والشوقيات والبارودى وحافظ، وعبقريات العقاد ، وتاريخ ثورة ١٩١٩ ومصطفى كامل للرافعى، ولديه مجلات أبوللو والكاتب المصرى والرسالة والثقافة ، فإنه - يقول - إبن شيخ يحمل شهادة العَلَمية من الأزهر الشريف وما يزال على قيد الحياة فى بلدتهم كفر بولين ، وأن سيد حين رسب فى الدراسة الثانوية عدة مرات رفض العودة إلى بلدتهم لأن المشنقة كانت فى انتظاره ينصبها أبوه الشديد القاسى ، خاصة أن سيد أرهقه بالمصاريف من ناحية وبكثرة شكوى الناس منه من ناحية أخرى إذ أنه كل يوم يشتبك فى خناقة أو يضبطه البوليس باشتباه فى السرقة . ذلك أن سيدا كان يسرق بالفعل ليغطى مصاريفه ، غير أن براعته فى السرقة كانت تنجيه من المهالك ، لكن ما كل مرة تسلم الجرة ؛ إذ وقع فى قبضة البوليس متلبساً بسرقة دكان بقالة مع اثنين من أصدقائه ، قاوموا البوليس بشدة لكنه تغلب عليهم ؛ فكان نصيب سيد ثلاث سنوات قضاها فى الحبس ، ليخرج منه شخصاً آخر ، نسى أنه كان يهوى الأدب والشعر على وجه التحديد ، لكنه لم ينسى هواية القراءة فظل مواظباً عليها . وإنه ليعترف بأن القراءة أفادته كثيراً جداً ، فبها قد شعب مداركه واستغل خياله وأصبح مدرباً على حسن التصرف فى الخروج من المآزق ..

سيد زناتى إذن هو الصورة التى أرانى قريب الشبه بها إلى حد كبير جداً ؛ فهل ترانى أسير فى نفس الخط وصائر إلى نفس المآل كنتيجة حتمية ؟ هنا قام زلزال فى قلبى ، فصارت الأرض تميل بي يمنه ويسره ، وصرت أحاول التماسك بأى شكل . ثم رأيتنى أسأل سيد زناتى ولكن فى صيغة شبه تقريرية :

- " أنت طبعاً كنت تتمنى أن تواصل الدراسة فتصبح شاعراً أو أديباً مرموقاً؟!"..

فبثقة شديدة ، وبكل بساطة :

- " فى الأول كنت كما تقول ! لكننى ما من شريد بائس قابلته فى الحياة إلا يتضح لى أنه من هواة الأدب والشعر والزجل وأنه بسبب هذه الهواية المهببة ركبه لبؤس فلاحصَّل ولا وصَّل ! وفى يوم رأيت بيرم التونسى جالساً على مقهى يأكل كسرة فول ويتخانق مع الجرسون على قرش تعريفة ! كان منظره يصعب على

الكافر ولحظتها كان صوت أم كلثوم فى راديو المقهى يصدح بأغنية الأمل صارخاً بألم : ما التقتش إليك وسيلة ! و لم يكن الجرسون يعرف بالطبع أن هذا البائس الذى يصر على استرداد قرش تعريفة هو نفسه مؤلف هذه الأغنية الفياضة بالكرم والنور والخير ! ولو عرف لما صدق أن هذا الرجل محتاج لهذا القرش فعلاً !! لحظتها طلقت هذه الهواية بالتلاتة ! وأنا الآن كما ترى فل ! أعيش كما أهوى! حر نفسي! أضع رجلى فى عين التخين ! آكل أحسن أكل ألبس أفخر لبس أفعل ما يحلو لى!! فاسمع نصيحتى ونفض دماغك من هذه الأمنيات الطموحة المكلفة إن كنت تريد أن تعيش لك يومين فى أمان ولذة واطمئنان !!"..

نبرة الصدق كانت واضحة فى صوته. ومن الواضح أنه يريد بإخلاص أن أنجح فى مهمتى هذه تمهيداً للنجاح فى مهام أخرى كثيرة سوف تتبعها لابد . فجأة قال وهو يلكزنى بكأس صغيرة من الخمر الصحيحة من قنينة زوجتيه الصغيرتين :

– " إسمع هذا المطلع : من غير ما تتكلم .. عرفت قصدك إيه .. إيديه أهه! سلم.. حتخبى سرك ليه ؟ نظرة عينيك ! لمسة إيديك ! كل اللى فيك بيقول وداع!.. خلاص ! وداع !"..

ونظر فى عينى منتظراً التعليق ، فقلت منبهراً إنه مطلع جميل حقاً لأغنية من الأغنيات العصرية . قال إن لديه الكثير منها ، أكمل بعضها وأهمل الآخر . أسمعنى عدة مطالع متتالية فى خيط واحد ، لا يكتبها سوى واحد متودك فى أمور الهوى والموازين الشعرية والكلمات الجارية على ألسنة الناس . كما أسمعنى بعض أغنيات كتبها لمطربى الفراح والموالد والصالات بعضها وصل بصوت مطربيها إلى إذاعة الإسكندرية مثل أغنية يقول مطلعها الشبيه بالفولكلور : خاصم شهر وصالح يوم .. يوم فى الشهر ارتاح م اللوم .. ياللى مقضى هوانا خصام .. كفاية تسعة وعشرين يوم . سألته لماذا لا يقدم إنتاجه للإذاعة والسينما والإسطوانات ؟ فشخر من شدة سذاجتى قائلاً إن الإذاعة ليست لأمثاله ، ثم قال إنه يكتب لمزاجه ، وإن له لأصدقاء وصديقات من فنانى كباريهات مدينة الإسكندرية يزورونه أحيانا فى الوكالة ويزورهم فى الكازينو عندما يذهب للتصييف وغالباً ما ينزل ضيفاً على أحدهم فعندها يهبط الوحى فيرسل المطالع والكوبليهات بغزارة . وقال بكل بساطة

مدهشة إنه صديق لبعض كبار الضباط فى المديرية وبعض المشاهير من رجال الحكم المحلى ؛ فلم أشك فى كلامه ، إذ إنه بالفعل شخصية جذابة توحى بالثقة والشهامة والإيثار والقوة والفحولة ؛ تلك فى الواقع صفات بارزة فيه . نظر فى ساعة يده الجوفيال الصفراء ذات الجلدة السوداء ، إشارة إلى أن موعد انصرافى قد حان ، فتهيأت للإنصراف ؛ فقال كأنه يعطينى الدرس الأخير :

- "شغلتنا هذه أساسها الجرأة وجمود القلب! وعدم الخوف! إن خوفك هو الذى يشير إليك دائماً بأصبع الإتهام! هو الذى يبلغ عنك الشرطة أما الشرطى فغافل وليس بساحر يضرب الرمل ليعرف ما فى داخلك!! كن أمكر منه فلا تريه ما بداخلك !! كيف ؟ ببرود الأعصاب ! بالوجه الكالح الثابت ! بالقلب الجامد! بالكلام الموزون بالجواب على قد السؤال كلمة ورد غطاها هذا أول درس تتعلمه إذا وقعت فى تحقيق أو محضر ! لو زدت حرفاً واحداً فإن هذا الحرف ربما يكشف المستور ! إحفظ الخطة التى وضحتها لك جيداً وكن ثابتاً أمام ستات فلا خوف منها !!"..

وسلم على ؛ فمضيت نشوان الرأس بخمر المغامرة المثيرة . وكانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً ، ويجب أن أكون مستيقظاً فى السابعة حتى نتكل على الله فى الثامنة . ولم يكن فى جفونى أى رغبة فى النوم ، لكننى مع ذلك أسلمت نفسى للفراش وجعلت أستعيد شريط ماحدث وأسترجع تفاصيل الدور الذى سأمثله فى الصبح فى هزلية غاية فى الطرافة والإحكام .

القبول

وفقاً للخطة التى رسمها لنا سيد زناتي كان هناك مراقب لاشأن له بنا ؛ تمنيت أن أكونه بدلاً من التورط في القيام بدور فعلى قد يعرضني للبهدلة . سيركب المراقب معنا أى مواصلة نركبها كشخص لا علاقة لنا به ؛ يتابعنا خطوة بخطوة دون أن يلحظ ذلك أحد على الإطلاق ؛ حتى إذا دخلنا فى مجال الفعل دخل وراءنا كمواطن من عموم المواطني ن؛ فإذا لاحظ أننا قد تعرضنا لمأزق أو ورطة عابرة فإنه يتدخل باعتباره من أهل الخير ليساعد في إخراجنا من المأزق بسلام . هذا إذا كان الأمر بسيطاً ؛ لكنه موهل للتدخل على مستويات كثيرة مدهشة ، كأنه يتدخل بالعراك لصالحنا بحجة التخليص أو الوقوف بجانب المظلوم ، أو يتدخل لتعطيل الخصم عن اتخاذ موقف بشأننا حتى نتمكن من الزوغان ، أو يتدخل لتضليله. فإن وصلت ورطتنا إلى حد تقف عنده جهوده كأن يقبض علينا البوليس مثلاً فإنه يكون أسرع من البرق ، إذ يقفل عائداً إلى سيد زناتي لإخباره بأمرنا كي يسرع فى التصرف ، ويبقى هو مع ذلك يتابعنا من بعيد لبعيد . على أن من أكبر مهامه معرفة حجم الدخل الذى حققناه لينقل عنه تقريراً مفصلاً إلى سيد زناتي ..

ركبنا القطار إلى مدينة دسوق ، قاصدين مسجد سيدى ابراهيم الدسوقي على وجه التحديد . كان اليوم جمعة ، والخطة أن نحضر صلاة الجمعة فى مسجد الدسوقى من أولها ، بحيث ألحق بمكان قريب جداً من قعدة الإمام قبل صعوده إلى المنبر: فالمفروض أننى مدرس لغة عربية في إحدى المدارس الثانوية فى الفيوم مثلاً ، جئت إلى هذه البلدة أنا وزوجي – هذه – لكي نزور الدسوقي وبعض أقارب لنا ؛ فاحتك بى نشال صفته كذا وكذا – حسب مواصفات بعض مشاهير النشالين فى هذه البلدة – إحتال علينا متنكراً فى هيئة شيال سيوصلنا إلى عنوان أقاربنا ، لكنه في منتصف الطريق اختفى بحقائبنا التى تحوى هدومنا ومتاعنا ، وبعد اختفائه ظهر لى أنه قد لهف المحفظة من جيب السترة الداخلي حينما رفعت ذراعي لأساعده في الشيل حيث انفرجت فتحة السترة فبرز طرف المحفظة فنشلها بخفة يد لم أشعر بها وفيها نقودى وبطاقتى الشخصية ؛ وقد ذهبنا إلى البندر فحررنا له محضراً بالواقعة

وهذا رقمه وتاريخه - (وهو بالمناسبة محضر حقيقى أجريناه بالفعل فى قسم الشرطة ونحن فى الطريق إلى المسجد) - وكان الفصل السخيف أننا حين وصلنا إلى أقاربى وجدنا رب البيت بعيداً عن السامعين فى محنة ربنا يفك ضيقته - (مشيراً من طرف خفى ذكى إلى أنه مقبوض عليه ضمن حركة اعتقالات الإخوان المسلمين التى لاتزال طازجة) -والمشكلة الآن أننى وزوجى نبغى السفر إلى محل إقامة أهلنا فى الصعيد الأقصى ، وليس معنا من النقود لا أبيض ولا أسود ..

كانت زوجتى - ستات - ترتدى ثوباً غاية فى الحشمة والوقار يليق بزوجة أفندى من كبار موظفى الدولة ، تغطى وجهها ورأسها كله بطرحة بيضاء لا تفصح عن ملامح وجهها وإن أبرزت شبحها مجسداً. وكنت قد أعددت فى رأسى الديباجة الموضوعة سلفاً بإتقان، والتى تتألف من بضع آيات معينة وجزء من حديث نبوى شريف وبعض كلمات شهيرة من شعارات الإخوان العميقة المؤثرة، معجونة فى بعضها بلباقة فى اطار معنى مستهدف : أن يتأثر الإمام بموقفى ومأزقى المادى من الوجهة الإنسانية المحضة ، وأن يعتبر بهذه الأوامر الإلهية والأسانيد الدينية والأخلاقية التى تضع أى متدين حقيقى أمام ضميره ؛ وأن أغمز فى الحديث غمزات مواربة دون تصريح كامل ، بحيث يفهم الإمام من طرف خفى أننى فى حقيقة أمرى عضو كبير وضالع فى جماعة الإخوان المسلمين وأننى هارب من أمام عين الحكومة بحثاً عن مأوى وأننى أطلب هذه المساعدة لتمكننى من الهرب إلى مكان أبعد حتى تنجلى الغمة عن سماء البلاد . كان لابد أن أنجح فى أداء هذا الدور المركب حتى أستفيد قدر الإمكان من حالة التعاطف القوية بين عامة الناس وجماعة الإخوان المسلمين من أبناءهم وأهلهم ، إلى جانب أن الكثيرين سيتعاطفون معنا ليس حباً فى الإخوان بل كرهاً فى هذه الثورة التى أشبعتهم إرهاباً وأوامر عسكرية ..

حضر الإمام فوجدنى فى انتظاره لصق المنبر مندمجاً فى قراءة خافتة ، فى حالة متقنة من التهجد والتبتل العميقين ؛ ثم قمت فأديت بعض الركعات ، ثم زحفت نحو الإمام فسلمت عليه والتحمت به . يبدو أن جوهر الأحاديث التى طالما سمعتها بشغف من أصدقائى المقبوض عليهم جميعاً قد حضرت كلها ، فصار لسانى يسبح بمهارة فى بحر من العبارات السخنة البراقة ، تركزت فى جانب كبير منها على

طلب الستر من الله فيما نحن مقبلون عليه من ظروف وأحوال وأحداث ، وحول مظاهر الضلال والفساد ، والضعف البشرى فى عصر المادة ، والخوف من الطغيان ومن بطش الطاغوت الذى حل بصدور القوم لينزع مكانة الله . لفرحتى الشديدة لاحظت أن الإمام يتجاوب معى فى انفراده ، إذ يتابع كلماتى فيؤيدها بالدعاء بطلب الرحمة والهداية والرجاء فى أن ربنا يولى من يصلح . حينئذ طرقت الحديد وهو ساخن :

– ".. تصور يا مولانا أنه قد حدث لنا اليوم كذا وكيت فى بلدتكم المباركة؟!"..

فلما انتبه وبان عليه الإهتمام عاجلته : إعلم يا مولانا أن اسمى كذا وكذا ، وأصلى وفصلى كيت وكيت ، وحكايتى ربنا ما يوريك . ثم أشرت إلى زوجتى الزائفة التى كانت منزوية إلى بعيد وسط موجة خفية لكنها ملحوظة من نظرات التساؤل والإستنكار والسخرية . فبدت على وجه الإمام أمارات الأسف والتأثر الشديدين ؛ ثم شيع لزوجتى نظرة مستطلعة تفيض بالحرج والأسف . هى الأخرى كانت جاهزة ؛ فما أن تلقت نظرة الإمام حتى تكست رأسها فى الأرض وصار جسدها يهتز بعنف علامة على أنها مندمجة فى بكاء حاد خشية الفضيحة مما يدل على أنها لم تتعرض لمثل هذا المأزق السخيف من قبل . قال الإمام بصوت متهدج :

– " دعها تنتقل إلى زاوية النساء هاهنا !! كل ظالم منه لله !! لا تحمل هماً على كل حال فأهل الخير كثيرون والحمد لله ! وبإذن الله كله يهون !"..

قمت متجهاً إلى ستات ، فانحنيت عليها وربت على ظهرها برفق هامساً فى أذنها بعض همسات . فسربت يدها بمنديل حريرى من تحت الطرحة ومسحت عينيها من دموع زائفة ؛ ثم استندت على يدى قائمة ، منكسة رأسها ، إذ أن معظم الصفوف قد جعلت تنظر إلينا فى استطلاع ، تركز البصر على لحيتى وطرحتها البيضاء ، وطربوشى القصير المطابق لطربوش حسن البنا حتى فى ضجعته قليلاً إلى الوراء ، والعطر السخى الوقور المنبعث منا كريح المسك الرصين النفاذ . إتجهت هى حيث أشرت لها على زاوية النساء ، فيما عدت أنا فتربعت فى مكانى بجوار الإمام ، مستغرقاً فى حالة الحرج والأسف التى رسمتها بدقة مستفادة من التدريبات الطويلة

فى الفريق المسرحى للحرس الوطنى التـابع لشـعبة الإخـوان المسـلمين ومقـره نـادى الموظفين بدمنهور الحبيبة . طاف بى خاطر عبقرى أوحى لى بأن هذه فرصة يجب أن أختبر فيها قدرتى على التمثيل ، فبالغت فى الإندماج ، صـرت أستهدف عواطفـى بمشاهد مؤثرة وكلمات ومواويل وأغنيات باكية ، حتى ارتعشت عضلات وجههـى بالفعل فضغطت بأسنانى على شفتى السفلى ، وأطبقت جفنى كأننى أعصر ليمونـة جافة لم يتساقط منها سوى قطرات هزيلة مـن دمـع شـحيح . لم أكـن فـى الواقـع محتاجاً لأكثر من هذا ، إذ ماكدت أخرج المنديـل لأجفـف بـه عينـى حتـى جـاءنى صوت الإمام كأنه صوت الخلاص والإطمئنان :

– " وحد الله يا رجل! كل شئ سيهون بإذن الله ! ربنا يفك ضيقتك وضيقتنـا جميعاً ويرد غربتنا !! إن أهـل الصـلاح والتقـوى لا يهـانون ! وإن شـاء الله ستجد أولاد الحـلال دائمـاً فـى سـكتك ! ولكننـى أنبهـك إلى أن نواحينـا كلهـا ملغومـــة بالشرطة وأخشى أن تكون فى رحلتك هذه كالمستجير مـن الرمضـاء بالنـار !! إن هنداوى دوير من بلدة تجاورنا وهو من هو فى الجهاز السـرى ولهـذا فالمنطقـة كلهـا مقلوبة !! إن كنت واحداً منهم فإن الله معك ولن يتخلى عنك!!"..

فكأنه ضغط على زر كهربى فانهمرت دموعى فى الحال غزيرة ساخنة حقيقية ، حتى صرت لا أستطيع إيقافها ؛ وفى أعماقى فرح طفولى غامر لنجـاحى المبهـر فـى الإختبار ..

حين صعد الإمام على المنبر خطب خطبة فى منتهى الذكاء واللباقة، شـرح فيهـا ما يطرأ على المجتمع والناس من قلة تراحم ومن تجاف ، نتيجة الخوف من غير الله ؛ وصب جام غضبه على الأيام السوداء والزمن الوغد الذى أسلمنا للإستعمار الكـافر بـالله ليسومنا سوء العذاب ، ويؤصل الشر فى نفوسنا حتى بعد رحيلـه ؛ ودعـا الله أن يحمى الثورة المباركة لأنها خلصتنا منه بأعجوبة كمـا أزالـت رمـز الطغيـان دون إراقة قطرة دم واحدة وهذا كرم من الله للشعب المصرى لأن الدماء دائماً أبـداً هـى دماء الشعب عندما تسيل على الأرض ؛ والتمـس للثـورة العـذر فـى تأخير مواسـم الحصاد والرخاء ؛ وحث الناس على العـودة إلى مبـادئ الـتراحم والتقـوى كشـاطئ أمان وحيدين أمامهم ؛ إذ أننا فى مثل هذا الزمن الوغد إن لم نتراحم فنساعد بعضنا

بعضاً والملآن يكب على الفارغ فلن يرحمنا الله سبحانه وتعالى بل سيسلط علينا من أنفسنا من يفسق فينا ويسفك الدماء .. اللهــم لا تؤاخذنـا بمـا فعلـه السـفهاء منـا.. آمين.. اللهم ولّ أمورنا خيارنا ولا تولى أمورنا شرارنا.. آمين.. اللهـم كـن لنـا ولا تكن علينا.. آمين.. اللهـم لا تؤاخذنـا إن نسـينا أو أخطأنـا.. آميـ .. يـ .. ين!! كانت آمين هذه الأخيرة ترج أرجاء المسجد كأنها صادرة عن كـائن خرافـي يمـلأ أحشاء الكون كله ؛ وصحن الجامع الحافل الواسع اللامع بالثريات والرخـام وألـوان السقف الزخرفية البديعـة يـردد أصـداء الآميـ .. يـ .. يـن فـي مسـاحات عريضـة متكاتفة كمواكب صوتية تسعى إلى معانقة السماء..

بعد الصلاة في التسليمة الثانية كان خفقان قلبي قد تزايد بصورة مقلقـة ؛ لـولا أنني لاحظت أن الإمام يسرع في ختام الصلاة كمن وراءه مهمة كبيرة يود إنجازهـا قبل إنصراف المصلـين . وفعـلاً ، ماكـاد بعـض المصلـين يتـأهبون للإنصـراف حتـى انتفض الإمام واقفاً :

- " لحظة من فضلكم ياعباد الله !"..

فتوقـف الجميـع ، وعـادت الأحذيـة إلى أماكنهـا ، واسـتقر بعضهـا فـي أيــدى أصحابها . رفع الإمام ذراعه في تأثر وانفعال :

- " يا إخواننا من عباد الله ! ربنا لا يوقعنا جميعاً في أى ضيقة! وهذا أخ مسلم تعرض لظرف سخيف هو وأولاده في بلدتنا فوق أن ظروفه فـي الأصـل صعبـة مـن حالها! فالمؤمن مصاب كما تعرفون ! وهو الآن لا يطلب من الله أكثر من المسـاعدة ولو بأجرة السكة الحديد ليعـود إلى أهلـه آمنـاً مكرمـاً ! إن الله يحـب الذيـن آمنـوا والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كـان بهـم خصاصـة ! والمؤمـن للمؤمـن كالبنيـان المرصوص يشد بعضه بعضا !"..

في الحال أسرع واحد ففرد منديلاً على الأرض ورمـى فوقـه ثلاثـة برايـز فضيـة ذات رنين حلو صاف . تبعه غيره فوضع ربع جنيه ؛ ثـم انهـالت الشـلنات والـبرايز وأنصاف الفرنكات الفضية والقروش كالمطر . صار قلبي يتراقص طربـاً علـى أنغـام الفضة وهي تشخلل هاطلة مصافحة وفودها المتواصل ، فيما نكست رأسـي متمتمـا بالدعوات كالأغنية تحت موسيقى الفضة . كومة النقـود ترتفـع وتتسـع ، والقـروش

البرونزية الحمراء المشرشرة الثقيلة تتدحرج ساحبة معها أنصاف الفرنكات الخفيفة إلى بعيد فسرعان ما تشكل حاشية سرعان ما تتحول إلى كومة مجاورة . كنت حائراً في كيفية التصرف لولا أن جاءني صوت صاحب المنديل يوجه النصيحة في صيغة غير مباشرة :

– "لم فلوسك ياحاج ! أنت مكسوف ولا ايه ؟ حط في جيبك واستنى لسه الخير كتير جاى !!"..

رفعت رأسي ناظراً تجاهه فإذا هو المراقب المكلف بمتابعتي ، وقد تقمص دور واحد من المصلين المتبرعين . صرت أكبش وأضع في جيوبي بسرعة واتزان ؛ والقادمون من آخر المسجد يرون كومة النقود صغيرة فيزيدون الهبة أضعاف ما انتووه . قبل خروج آخر مصل فوجئنا ببعض الرجال الملتحين ذوى الجلاليب القصيرة والذلات والقفاطين يقبلون نحونا حاملين بعض اللفائف يقدمونها إلى :

– " لقمة صغيرة !"..

حدست أنها تحوى خبزاً وكباباً مشوياً . شكرتهم ودعوت لهم بالستر. ثم حملت الهبة ونهضت واقفاً أتلفت بحثاً عن ستات ، التى رأيتها تقبل نحوي كالأوزة الوقورة تتعثر فى خجل متقن الصنع . فلما رأت المراقب واقفاً قبالتى ظهر عليها كأنها لا تعرفه ولا شأن لها به . رأيت من الذوق – وحسن الصنعة أيضاً – أن أسلم عليه شاكراً فضله وفضل بلدياته على إكرامهم لنا هذا الكرم الوفير ؛ فأرخى جفنيه على عينيه وهو يسلم على ويغمزنى بقبضته قائلاً بلهجة ذات معنى :

– " إتكلوا على الله ! طريق السلامة ! خلى بالك من نفسك ! ربنا معك !"..

مددت ذراعى لستات فتأبطته فعبرنا عتبة المسجد إلى الشارع ؛ فمضينا بخطوات بطيئة وقورة في اتجاه السكة الحديد . مررت بمحلات حلويات الصردى فاستيقظت طفولتى المحرومة من حلوى الصردى المشهورة في قريتنا ، كدت أعرج عليها لشراء بعضها لكننى رسمت الجهامة على وجهى ومضيت نحو شباك التذاكر فقطعت تذكرتين إلى دمنهور ..

ولم تكن الشمس قد لمت كل غسيلها بعد من فناء الوكالة حينما دخلناها مندمجين في الدور بتصلب يصعب تفتيته، حيث كانت ستات ماتزال تتأبط ذراعى،

ومشيتنا ما تزال وقورة بطيئة غير أنها تكاد ترقص طرباً. كانت رائحة الدجاج المحمر تستقبلنا مغطية على صيحات شوادفى الصاخبة بالغبطة والمزاح والسخرية :

- " ياترى على النفخة الكدابة دى سبع ولا ضبع ؟!"..

فرمت إليه ستات بنظرة متعالية من فوق كتفها واستأنفت السير بجوارى بحركة مسرحية راقصة . وكان سيد زناتى قد سمع زفة شوادفى فخرج لاستقبالنا فى فتحة الباب حيث أحمر وجهه من شدة الإنبساط والتفاؤل . فما كادت نظراتنا تتلاقى حتى اتسعت البسمات وتلألأت على الوجوه . سلمنا على سيد بحرارة أفعمته بالأمل الكبير ..

جلسنا نعد النقود . كانت أكثر من مائة وخمسين جنيهاً ، ثروة كبيرة جداً بالطبع . وزعها سيد ، فنفحنى أربعين ، وأربعين لستات ، وثلاثين للمراقب ، وبضع برايز زائدة أرسلها لشوادفى تحية له على اكتشافه لى كعدة جيدة ، وتقديراً لنجاحى أعفانى سيد من دفع الجنيهات الخمس التى كسانى بها . وبعد أن أنهى قسمته العادلة أشعل سيجارة محمصة واستند بظهره على المسند :

- " هذا هو الشعب المصرى ! كل قرش دفعه كان يتمنى فى الواقع لو كان سهماً فى قلب العدو ! إنه يكيد به للحكومة ! ويشترى الواحد لنفسه جميلاً مشابهاً إذا ما وقع ذات يوم فى مأزق مماثل ! الحمد لله أن وفقك فى مهنتك ! أنا كنت متأكدا من هذا ! وهذا هو المبلغ الذى كنت أتوقعه !! الآن عليك أن تستعد يوم الجمعة القادمة لتكرار نفس العملية فى بلدة ثانية فى مسجد كبير مشهور ! ولكن بتمثيلية جديدة سيوفقنى الله فى اختراعها حينما تسخن دماغى !"..

قرب انتهاء السهرة كانت دماغ سيد زناتى قد سخنت بالفعل ، وتمخضت عن تمثيليات كثيرة . ورغم أننى لم أكن على شئ من الحماس لتكرار العملية ربما بدافع الحرج وربما الخوف ؛ فإننى انصرفت على وعد بالمجئ فى باكورة الصبح لأسرح مع ستات سرحة سريعة . ما كدت أرمى نفسى على الفراش حتى فاحت فى خياشيمى رائحة عطر ستات فاستحضرت جسدها كله ووضعته فى حضنى طوال الليل .

الليلة الكبيرة

كانت ستات تنسق لى لحيتى استعدادا للقيام بنفس التمثيلية غداً الجمعة فى مسجد الأحمدى بطنطا . عندما صافحت أنفاسها العطرة وجهى وهى تقترب بفمها المطبق على عقدة الفتلة التى تنتف بها الشعيرات الهشة حول أذنى وأنفى ، تذكرت لحظتها أننا وحدنا فى الحجرة بطوابقها الثلاث ، وأننى جالس على نفس الشلتة التى يجلس عليها سيد زناتى . خفق قلبى بشدة وتسارعت أنفاسى كأننى اكتشفت نفسى عارياً فجأة فى قلب الشارع ، أو كأننى لقيت فى الطريق لقية ثمينة وأخشى أن يشاركنى فيها من رآنى أو ينتزعها منى ..

كان سيد زناتى قد سافر فجر اليوم إلى القاهرة لحضور الليلة الكبيرة لمولد الحسين ابن على عليهما السلام . تلك هى عادته السنوية : حضور الليالى الكبيرة لموالد المشاهير من الأقطاب الدسوقى والأحمدى والحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والنبوية والقنائى وحتى ذلك المسمى بأبى سريع المدفون فى مكان بعيد فى أقصى الصحراء القاحلة والطريق إليه شديد الوعورة ، ومع ذلك يحرص على الذهاب إليه أكثر من حرصه على أى شئ آخر ، لأن سره باتع ، يكفى أن هذ العدد الغفير من الناس من جميع أنحاء البلاد يسافرون إليه دونما أى شعور بالمشقة ؛ أغلب الظن لقضاء أسبوع كامل فى لهو وصخب لا تحدهما حدود ، حيث يفجر الناس ويفسقون عياناً بياناً دونما رقيب أو حسيب . الموالد بالنسبة لسيد زناتى – كما فهمت من شواهد كثيرة – تعتبر سوقاً واسعاً لمشروعاته العديدة فى التغرير بالسذج والإستيلاء على ما معهم من نقود ، حيث يبيع لهم الأوهام والضلالات . على أن أهم ما يجذبه إلى الموالد هو الإلتقاء بأمرأة تصلح أن يضمها إلى عدته أو برجل يصلح للقيام بإحدى المهمات . أما مولد الحسين بالذات فإن سيد زناتى يذهب إليه بدافع التقوى فحسب ، وبحكم حبه الحقيقى لآل البيت كلهم . زيارته السنوية للحسين وللسيدة وللنبوية هى نذر لابد أن يفى به مهما كانت مشاغله كثيرة . فى العادة يأخذ نساءه الأربع ، لكنه اليوم صعب عليه أن يضّيع على ستات وعلى نفسه فرصة مكسب كبير ربما أكبر مما حصلناه من مساجد أخرى ومحطات

سكك حديدية ، فأكد لنا أننا سنعود من طنطا آخر النهار مجبورين بإذن الله وعلينا أن نفسخ أنفسنا في طنطا ونتعشى بأى مبلغ يرضينا ..

صارت يد ستات تدعك خدى برفق ونعومة بحثاً عن أى شعرة متخفية لكى تنزعها بالفتلة . جعل صدرها يلامس كتفى ويتهدل فوقه . سخنت الدماء فى عروقى ، إنتفض بداخلى شعور بالرغبة العارمة التى لا تقاوم . أمسكت بيدى ستات ، دعكت شفتى فيهما على سبيل الإمتنان لعنايتها بى . كان سيد زناتى قد ترك لى ربع زجاجة كونياك أعدل بها مزاجى هذه الليلة حتى أنام بعمق استعدادا لمشوار الغد . قلت لستات إننا يجب أن نراجع تفاصيل التمثيلية التى سنلعبها غداً ؛ فقامت وجاءت بالزجاجة ، وأعدت بعض المزة الشهية، وأعدت النار وحجارة الجوزة لنشرب حجرين يعدلان مزاجها الميال للحشيش أكثر من الخمر التى تعتبرها رجساً من عمل الشيطان ..

إشتعل مزاجنا واشتط إلى بعيد ؛ فسرح بنا زورق الحديث فى مسالك ودروب وشعاب غريبة وبعيدة : حدثتها عن الكثير من وقائع حياتى ، عن قريتى ، عن أهلى، عن البنت التى كنت أحبها فى البلدة ، عن ابنة عمى والجفاء القائم بينها وبيننا ، بل حدثتها عن حبى لبدرية بحرارة أوشكت أن تقودنى إلى الإعتراف بما حدث بينى وبينها ؛ كما حدثتها عن مشاكلى النفسية مع زملاء المعهد من ابناء الأسر المستريحة وتحيز الأساتذة لهم والنظر إلى أمثالنا باحتقار وتأفف ؛ وعن المشاكل القضائية التى قامت بين أبى وأبناء إخوته حول ميراث قطعة أرض مالحة بيعت فى النهاية لنسدد بثمنها الضئيل أتعاب المحامين ورسوم المحكمة التى استدناها عند رفع الدعوى . وكنت الاحظ أنها تستمع لى بشغف واهتمام ، ونظراتها تشع بالتعاطف الممزوج بالإستلطاف والإعجاب ، بل صرحت بأنها تستطيب قلبى . هى الأخرى حدثتني عن نفسها : إن أمها من بلدة كوم حمادة وأبوها من بلدة الطود ؛ كان جاويشاً فى الجيش ومات فى حصار الفالوجا فى حرب فلسطين فى أواخر الأربعينيات . تزوجت أمها من شيخ خفراء البلد السابق ، زواجاً عرفياً بدون ورقة رسمية إذ أن أمها كانت تريد أن تحافظ على المعاش الذى تتقاضاه من الحكومة كل شهر وفى نفس الوقت تنعم بزوج ينفق عليها ويرضى شهوتها . وكانت ستات فى

السادسة عشرة من عمرها حين استملحها زوج أمها فبات يغازلها غزلا صريحا مكشوفاً ، وينتهز الفرص للإنفراد بها وتفتيح وعيها على ما لم تكن تعرفه من امور النساء . وقد حاولت هي أن تهرب منه لكنه حاصرها بقوة ، غرر بها ، سلبها عفافها ذات يوم في عشة الدجاج فوق سطح المنزل مثل فيلم كمال الشناوى وشادية . وأحست هي باللذة فاستمرت اللعبة أصبحت تستجيب له كلما دعاها بل اصبحت تنتظره كل ليلة . وكان قد هددها بالقتل إن هي أخبرت أمها بذلك أو جاءت بسيرة ما حدث أمام أى أحد . إلى أن ظهر المستور بانتفاخ بطنها ، فتم عزلها في المنزل خشية الفضيحة . إرتاعت أمها طالبت زوجها بالتحقيق فى الأمر لمعرفة اسم المعتدى كى يدفع ثمن غلطته . المؤلم أن زوج أمها عقد لها بالفعل محاكمة ليلية قاسية محاولاً إجبارها على ذكر اسم الفاعل ، أى فاعل ، يذكر لها أسماء معينة يشك فيها لكى تختار واحدا تتهمه . عقدت الدهشة لسانها ، لم تعرف كيف ترد ، لا تجد غير البكاء والتهديد بحرق نفسها . فى لحظة يأس صرحت لأمها أن الفاعل هو زوجها لا أحد غيره . واجهته الأم ، وواجهته ستات ؛ فما كان منه إلا أن انهال عليهما ضرباً بالمسوقة ، وعير الأم بابنتها ، زعم أنهما جلبتا له الفضيحة والعار ، رفع صوته بالغضب والهياج قبل أن تحاصره الشائعات فى الكتمان : خذوهم بالصوت لئلاً يغلبوكم . الفضيحة أصبحت حاضرة فى كل مكان فى البلدة تفضى بها شواشى النخيل للريح فتلقح بها شبابيك البيوت وأسطح المنازل وموردة الغسيل على شاطئ المصرف ووابور الطحين . الأم المسكينة الغلبانة لم تجد مهرباً من الهرب ، فكرت في الموت لكنها كانت مؤمنة ؛ تمنت أن لو كان للبنت أخا أو أبن عم أو ابن خال إذن لأراحها من عار البنت . فى فجر يوم مسود الوجه سحبتها الأم وخرجت متوكلة على الله إلى أى مكان لا يعرفها فيه أحد . أدركتهما الشمس المسودة الوجه كجمرة غطسانة في غبار الفحم المهيب نارها. تحت ظل صفصافة بعيدة فى زمام بلدة بعيدة أجلستها الأم فى دورة حوض ساقية مهجورة ؛ فشختها ، سطحتها على ظهرها ، جاءت بعود أخضر من جذر الملوخية أو البطاطا لا تذكر ، أدخلته فيها عن أخره ، فكأن سيخاً من الحديد المحمى بالنار قد اندب فى أحشائها فثقبها . صوتت من نخاع قلبها ، فكتمت أمها أنفاسها

بطرف شاشها فصارت تعض الشاش تزوم تزأر ، والدماء تنهمر زاحفة ببطء في حوض الساقية تتخلله كتلة صغيرة . إنزلقت منها كتلة كبيرة لزجة عرفت من قلبها أنها الجنين ، فراحت تغالب الألم والعذاب تتمنى أن تأخذها غيبوبة لا تفيق منها أبداً. مع ذلك رأت أمها وهي تسرع بتجفيف دمها وغسلها ، تمتاح بالحفان من بئر الساقية وتغسل ، تضع فيها بعض أشياء مصنوعة من بعض أصناف العطارة داخل حفاض ، حتى أوقفت سيل الدماء . حملت نصفها الأعلى بكل ما تبقى فيها من قوة بائدة ؛ مضت تجرجر نصفها الأسفل على الأرض وحدائل شعرها متدلية تكنس الأرض كجدائل الصفصاف. وسط أشجار التيل نيمتها ممددة على ظهرها ، خلعت الملس الأسود المكشكش الأضلاع ، فردته فوق شواشي أشجار التيل ، فصنع مستطيلاً من الظل حبس تحته الهواء غربله حوله إلى نسيم طرى في قيظ الضحى في عز زمتة النيل في بئونة . جلست بجوارها تبكى بحرقة ينتفض جسدها فتصدر الأرض من تحتها ونيناً كالدوى المكتوم الذى يحدث عند اقتراب القطار من بعيد:

- " بقى كده ياستات ؟ إخص عليكى يا أختى ! طب قوليلى من الأول قبل ما تقع الفاس فى الراس ! فطنينى ! لكنه الكلب المسعور ! ربنا ينتقم منه ! أشوف فيه يوم! أشوفه متقطع حتت تحت عجل القطر ! أشوف الكلاب بتاكله ! أنا أستاهل يتعمل في كده ؟! ليه يارب ؟! دانا مؤمنة ومصلية ! دانا غلبانة وحدانية !! يمكن أذنبت وأنا ما اعرفش! إنت وحدك اللى تعرف والعبد ما يعرف! إنت اللى عالم بحالى ! أروح فين بيها دلوقت ؟! سامحنى يارب ! النبى حبيبك تسامحنى! سايقة عليك الإمام والسيدة زينب والسيدة نفيسة وسيدنا الحسين ! خذ بيدى ونجنى من دي البلوى ! نذر على إن نجيتنى من الفضيحة وسترت عرضى أن أعمل ختمة وليلة لأهل الله!!"..

كانت ستات تعرف أن أمها لن تغلب إذا ما استراب فيها أحد من السائرين . خلل الغيبة المتقطعة شعرت ستات بأمها وهى تترك القفة بجوارها وتقوم فتجمع أعواد الحطب والقش وفروع الأشجار اليابسة ؛ جاءت ببعض قوالب من الطوب نزعتها من عشة متهالكة بجوار الساقية ، صنعت منها كانوناً ، كومت فيه الحطب ،

أشعلت فيه النار ، أخرجت من القفة حلة فيها دجاجة مسلوقة بالأمس ، وضعتها فوق النار ، صارت تنفخ وتمروح بذيل جلبابها ؛ حتى سخن المرق ؛ فأنزلت الحلة ووضعت مكانها حلة صغيرة مليئة بالمغات المخلوط بالسمسم والسمن البلدى . ثم انقطعت الصلة بين ستات وبين كل شئ حولها لمدة طويلة كأنها الدهر ؛ إلى أن شعرت بيد تلكزها برفق تحت ذقنها ، ثم بيدين ترفعان رأسها عن الأرض ، فاعتدلت قاعدة شاعرة ببطن أمها يلتصق بظهرها . بيسراها أحاطت كتفها الأيسر؛ بيمناها صارت تغرف بالمغرفة من السلطانية وتقربها من شفتي ستات هامسة بصوت يشبه مواء القطط : " إشربى يا اختى ! كلى !"، فتشرب ، وتفصص لحم الدجاجة إلى شرائح تسربها في فم ستات . ثم قالت الأم وهى تعيدها برفق إلى وضعها متمددة على ظهرها :

- " فيه كمان فرختين طايبين ! أول ما تجوعى اطلبى وأنا أسخن واديكى !"..

ونهضت إلى الكانون فافرغت شراب المغات المحلى بالسكر فى كوب كبير، وعادت فأنهضتها من جديد وسقتها كوب المغات ثم نيمتها . وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الإحمرار حينما اقترب منهما رجلان أحدهما عجوز والآخر شاب فتى. تقدم العجوز فسأل الأم عما تفعله فى أرضه ؟ فانهمرت باكية ، حكت له كيف أن زوجها فلان الفلانى من البلدة الفلانية قد أغضبها فسحبت ابنتها هذه قاصدة أهلها فى كوم حمادة لكن البنت كانت حاملاً فتعبت فى الطريق فسقطت وهى الآن لا تعرف ما الذى ستقوله لزوجها الغائب فى ترحيلة شغل . فتقرفص العجوز بجوارها ، وأرسل أبنه الشاب إلى البلدة فجاء بحصير وبطاطين ومخدة وداية وعشاء وسكر وشاى . قلبت فيها الداية فاطمأنت على سلامتها ، سقتها شيئاً ثم فرشت الحصير والمخدة ونقلتها إلى نومة مريحة بغطاء ؛ وجلست مع الأم فاندمجتا فى همهمة وحديث غير مفهوم لها . تناولن العشاء أرزاً محمراً باللحم البتلو والحمام. وهبط الليل فاشتعل منقد النار ، وجاء كل أصدقاء العجوز وأولاده فسهروا معه فى سفح الساقية تحت شجرة الصفصاف حتى الصباح ؛ فانصرفوا ؛ وجاءت زوجه وبناته يحملن الفطير الذرة واللبن الرائب والقشدة والرقاق الناعم والبيض المقلى فى السمن. أكلن ، وبقين فى كلام وحديث حتى أذان المغرب فانصرفن ماعدا الداية .

وبعد العشاء جاء العجوز بصحابه فسهروا ثانية . وكانت ستات قد شعرت بأنها استردت بعض وعيها ، فصحصحت ، شبعت من الطعام ، شعرت أنها في الصبح يمكن أن تستأنف السير مع أمها إلى أى مكان تريد . الرجل العجوز إتضح أنه شيخ عرب ؛ لم يقبل ترك الأم وابنتها وحيدتين في الطريق في هذه الظروف، فأمر ابنه أن يوصلهما بالركائب حتى يسلمهما لأهلهما في كوم حمادة ؛ مما اضطر الأم إلى قبول الذهاب لأهلها رغماً عنها . هناك لم يجد الشاب أحداً يستقبله ليعمل معه الواجب ، تركهما عند باب الدار وقفل عائداً . الأم نفسها لم تجد من يبش في وجهها لأن الخبر المشئوم سبقها واستقر ؛ فأمضيتها ليلة في غاية من السوء في دار أهلها، حيث لم يبق من أهلها على قيد الحياة سوى خالة رجلها والقبر، وابن عم عجوز شغلته تملى في بقايا بيوت الوسية لا يمكث في البلدة أبداً. في الصبح خرجت الأم وابنتها من جديد . إلى بلاد الله خلق الله، بلد تشيلهما وبلد تحطهما حتى وصلتا إلى دمنهور المدينة الواسعة التي يتوه فيها الناس وتنستر الخطايا. باعت الأم عقدا وقرطا ذهبيين كانا كل حيلتها ، إشترت عدة شاى بنصيحة أهل الخير ، إستقرت على الرصيف أمام محلج بركات تقدم الشاى والقهوة والقرفة والينسون لعمال المحلج والدكاكين المجاورة ، وتطبخ العدس والفول النابت لإفطارهم ، هي تصنع ذلك وستات تحمل الطلبات على الصينية توصلها هنا وهناك . بحثتا عن مأوى للنوم ، دلهما أولاد الحلال على وكالة عطية . في نفس ليلة وصولهما كان سيد زناتي خارجاً لتوه من السجن وجاء يسكن الوكالة ؛ وطد علاقته بشوادفي حتى أخلى له هذه الحجرة . كانت الأم وابنتها في الحجرة السفلية فصار سيد زناتي يشاغب ستات يطارحها الغرام وهي تصده بقوة وعقدة نفسية من الرجال . إلى أن لمست حبه لها واستعداده للتضحية من أجلها ، فرضيت به زوجاً على سنة الله ورسوله . ما كادت الأم تطمئن إلى أن ابنتها أصبحت مسئولة من رجل شديد البأس حتى ودعت الحياة في هدوء ، وبدون مرض ، نامت في الليل كالعادة ، وفي الصباح لم تستيقظ ؛ فأقام لها سيد زناتي جنازاً لائقاً ، ودفنها في مقابر الصدقة ، ومنع ستات من شغلة الشاى هذه ؛ أخذ يدربها على شغله الذى أحبته بقدر ما أحبت شخصية سيد ، فهو ما يزال يحبها أكثر من بقية زوجاته وإن كانت عافيته

باتت تذهب كلها للصغيرين ، ومايزال يجد متعة في أن يقرأ لها في آخر الليل ما يعجبه من صفحات كتبه ومجلاته التى باتت هى تنسقها وتحافظ له عليها ، باتت تحبها هي الأخرى ، لأنها علمتها أشياء لم تكن تخطر لها على بال ..

كانت سحب الدخان تملأ فراغ الحجرة وكنا كسمكتين في بحر من الدخان الأزرق الرمادى ، والجو ساحر ، وستات كالبلطية الكبيرة تترجرج بالحيوية منفعلة بالحكى تضحك تارة تعبس أخرى لكن في إطار من المرح الجميل. كانت وهى تحكى تسقينى وتلامسنى وتحاضننى وتعانقنى بكل بساطة وأريحية وثقة بالنفس قوية، كصديق يتصف بالجدعنة والصفاء ، فلم يطرأ على ذهنى أنها امرأة وأنثى كالبطة فيما أنا شاب مهروس بشوق الرغبة المكبوتة من زمن طويل . مع ذلك كنت أشعر بلذة شديدة العذوبة ..

وفيما تغمرنا هذه اللحظة البديعة ، تصاعد عند البوابة لغط فيه خشونة وشخط وأمر ونهى . همست ستات بشئ من الإضطراب :

– " الحكومة وصلت ! منذ مدة لم نر وجهها ! على كل حال هم لن يفعلوا بنا شيئاً لكنهم مزعجون لا نأخذ منهم غير النكد والسفالة وقلة الأدب ! أنا الأخرى أعطيهم على دماغهم لا أفوت لهم فائتة ! لكنى لن أقدر الليلة أن أمسهم بسوء لأن سيد غير موجود وهم من النوع الذى يخاف ولا يختشى ! أقل شئ سيأخذونى إلى البندر لأنام فى التخشيبة مع المومسات والسناكيح ! ولهذا سأفعل هكذا ولن أفتح الباب حتى لو كسروه !!"..

ثم رفعت جذعها الممتلئ ، ومدت ذراعها البضة نحو أعلى الحائط بجوار الباب ، فضغطت على زر النور فانطفأ ، سقط فوقنا الظلام الدامس . بدربة أزاحت منقد النار وكراكيب العدة إلى جنب ، وزحفت بإليتيها على الأرض فحاذتنى . إصطدم وجهها بوجهى وامتزجت أنفاسنا فطوقت عنقها فهبطنا سوية على الأرض متمددين؛ فإذا بى أغيب فى حضنها الثرى السخى ، فأختفى تماماً فى بطانة من القطيفة الناعمة الحارة المتملة . ميزنا فى اللغط صوت شوادفى :

– " ياب.. ي.. يه سعادتك بتشرفنا هنا باستمرار !! أنت سعادتك تعرف أن وكالتى لا يسكنها أحد من الإخوان المسلمين!! لا يسكنها سوى الإخوان الكفرة!!

سوى الغلابة المقاطيع ! فلماذا تشك فى كلامى ؟! أنا من تفسى سأبلغكم فى الحال إذا اشتبهت فى أى واحد ! ألا تذكر سعادتك أننى جئت من نفسى لحد مكتبك وسلمتك أوراق الولد الذى كان عندى وقبضتم عليه ؟! أنا لست منتظراً تشريفكم للتفتيش كل يوم والثانى ! لا يرضينى تعبكم فخل عنكم التعب !!"..

ميزنا صوت الضابط يرد عليه فى غطرسة وجفاء وسوقية :

- " يا ابن القحبة أقول لك إن واحداً من كبار الإخوان يسكن هنا مع زوجته! هى بالأمارة سمينة مربربة ! بيضاء موردة الخدين ! وهو مدرس لغة عربية فى الفيوم يعنى هارب ! تابعهما المرشدون حتى رأوهما يدخلان هنا فلا يخرجان ! رأوهما أكثر من مرة ! فهل نكذب مرشدينا ونصدق خولاً مثلك ؟!"..

- " يا سعادة البيه الخول ليس أنا فأنا مثل أبيك ولا يصح أن تغلط فى بدون سبب! وأنا صاحب وجع لو ضربتنى كفا وقعت ميتاً ! ربنا يحميك لشبابك فأنت مثل إبنى وأولادى كبار مثلك ولهم فى مراكزهم شنة ورنة !!"..

همست ستات وهى تحتوينى بعمق:

- " كذاب ! ما أحد يعرف له أهلاً ولا بلداً !!"..

وهمست أنا :

- " يا ابن الكا.. ا.. لب ! سلمت الأوراق ولم تعطها لى كما اتفقنا ! يالك من جبان لئيم !"..

اللغط يقترب ، يزداد خشونة . صوت زغد واحتجاج وزمزقة . صوت شوادفى يعدد :

- " هذه الحجرة يسكنها ولد طالب بمعهد المعلمين أغلب من الغلب وفى حاله وسبق أن عرضت عليك أوراقه ! هو الآن مسافر إلى بلدتهم وسيعود غداً صباحاً!! وهذه حجرة دميانة وها أنتم تسمعون صوت عذاب القرد العجوز يبحث عن خلاصه أنظر من هذا الخرم الواسع ترى كل شئ !! وهذه حجرة المواوى مفتوحة وهاهو ذا متلقح كالبهيمة أمامكم !! فتشوه فربما يخبئ فى جيبه شيخاً من الإخوان المسلمين!! وهذه حجرة المداح وزوجته وطفليه مفتوحة هى الأخرى على وسعها فتشوا أجسامهم لو أردتم !! وهذه حجرة رمضان عريجة الذى يشتغل معكم مرشداً

وأنتم أدرى بتحركاته الآن مني !! وهذه حجرة زينهم العتريس وأولاده ادخل نشرب الشاى معهم مساء الخير يا زينهم !! وهذه حجرة الولية بتاعة البخت والودع وهى سهرانة الآن عند صاحبتها وداد !! وهذه حجرة الولية بتاعة الدق ساالخير يا حلبية !! لو أحببت أن تدق لك اسمك على سمانة ذراعك تكون عملت بطاقة شخصية أحسن من بطاقتكم لا تضيع ولا تتلف !! هذه حجرة قطيطة بتاعة الحلاوة سا الخير يا قطيطة سلمى على البيه ! على فكرة عندها فراخ بلدى محترمة لما تحب سعادتك تأكل ظفر !! وهذه حجرة سيد زناتى صاحبكم حبيبكم وأنتم تعرفون عنه كل شئ .. و.. تاهت ولقيناها ! سيد يقول لكم على كل شئ دائماً وأنتم تثقون فيه فاسألوه عن حقيقة الأمر !! من حسن الحظ أنه سافر اليوم هو وعدته كلها إلى مصر لمولد الحسين شئ لله يا أم هاشم ! هاهى كل الحجرات أمامك يا بيه مفتوحة فادخلها كيف تشاء لكن لا شأن لنا بالمغلقة لأنها أمانة فى عهدتى طالما أصحابها غائبين ! إن كنت تظن أن أحداً يختبئ فى هاتين الحجرتين المغلقتين فهات لى إذنا من النيابة وتعال نكسرها على عهدة النيابة لأكون أنا فى السليم ! أنت رجل بتاع قانون وتعرف مسئوليتى !!"..

سمعنا صوتاً جديداً لعله صوت ضابط آخر يقول فى نبرة وعيد وتهديد :

- " على كل حال ! الوكالة ليست بعيدة عن أعيننا ! سنترقب هذا الرجل فى كل وقت ! فإن ظهر خارجاً من هنا فإننا سندك هذا العمود كله فى طيزك ! لن نرحمك ! ستكون متستراً على مجرم وستدخل السجن ! نهايتك على يدى بإذن الله يا شوادفى الكلب ! هيا بنا !!"..

وصار اللغط يتباعد . ولست أدرى أمن الخوف واليأس أم من الرغبة الحارقة والتحام الجمرة بالريح حدث رغم أنه لم يكن وارداً فى الحسبان . ذلك أن اللغط ما كاد يختفى نهائياً حتى كنا ؛ ستات وأنا ، قد تحولنا إلى جسد واحد ينتفض بعنف اللذة النشوانة المجنونة العفية وعمق سحرها واشتداد حرارتها يكاد يفتت نفسه يذيبها فى لهب صبى مشتعل الأوار ؛ نشوة بدت بلا بداية ولا نهاية وإن تخللتها محطات عابرة لالتقاط الأنفاس . ومع ضوء الصباح نزلنا إلى الحجرة السفلية فاغتسلنا وتناولنا فطوراً شهياً ، فى صمت عميق . وبدون أى كلمة ، وبكل تفاهم

صامت شفيف تربعت أمام ستات ، التى أمسكت بموس الحلاقة وراحت تزيل لحيتى بهدوء ومزاج رائق . فلما نظرت فى المرآة رأيتنى وجهاً جديداً تماماً كامل النضارة والتألق برائحة الكولونيا . ثم قمت فارتديت ملابسى كاملة ، وقامت ستات فواربت الباب برفق ، فدخل ضوء الصباح مرطباً رمادياً أليفاً حميماً ، وفتحت شراعة الشباك ، فسالت خيوط الشمس كالعسل تفرش نفسها على الأرض .
وجاءت بعدة الشاى واشتعل الوابور . وفوجئنا بالجرائد كلها طازجة تنسرب من شراعة الشباك تسقطها يد خفية تعودت أن تفعل هذا كل يوم . رحت أتصفحها بشغف ؛ وعلى إيقاع وش الوابور الأليف الونيس رحت أقرأ بصوت عال لكى تسمع ستات ، فيما راحت هى تنصت بشغف وتهز يدها بالبراد فوق اللهب .
ورحنا نترقب وصول سيد زناتى لنتندر أمامه بما حدث ، ليفكر لنا فى تمثيلية جديدة بعد أن انكشفت الفولة القديمة .

الليـــلاء

صار من الواضح أن شيئاً غير طبيعي لابد قد حدث لسيد زناتي وجماعته في مولد الحسين . فمنذ مجيئه وهو مكفهر بصورة ظاهرة للعيان مع أنه يجتهد في إرخاء عضلات وجهه وشدها على قالب الإبتسامة العريضة ليبدو طبيعياً . ولكن من الذى يصدقه ؟ إنه ينسى من حوله نسياناً تاماً لفترات طويلة يمضيها في شرود مع الشرب بتركيز عميق ؛ وكالمجذوب الدرويش يقطع لحظات شروده بشهقة أو آهة أو زومة ذات معنى لا تصدر إلا كرد فعل لاكتشاف جديد ؛ مما يشير إلى أنه في حوار عميق مع نفسه تظهر آثاره على صفحة وجهه بوضوح في بسمة عابرة أو غضبة مفاجئة بلا سبب واضح . ثم إن الأشياء تقع من يديه بسهولة لاختلال في أعصابه أو لعدم الإحساس بالأشياء في بعض اللحظات . ولأول مرة في حياته ينغلب في لعب القمار وكان من الواضح أنه يلعب لمجرد استبقاء الرجال حواليه أطول فترة ممكنة ثم اضطر إلى الموافقة على انصرفهم ، حتى خبر مجيئ البوليس إلى الوكالة وتربصه بنا لم يترك عليه أى أثر يذكر حتى لكأنه لم يسمعه أصلاً تقول الكتابات المطبوعة على ورق لفها إنها من شارع المديرية في دمنهور وليست من سيدنا الحسين كما وعد قبل سفره ، هاهى ذى ملقاة بجوارنا على الأرض في إهمال كجثة القتيل . أخيراً طلب العشاء فانفكت اللفائف وطرحت محتوياتها من كباب وكفتة وكبدة ومخ وسلاطات أكلنا بتركيز برءوس منكسة لا ينبس أحدنا بحرف . من لحظتها كف سيد عن فتح فمه ، وكالأخرس جعل يطلب الشيء بالإشارة الحاسمة التى لا تحتمل التأويل أو التأجيل . وأخيراً زهقنا أنا وستات :

– " حصل إيه يا فلانة ؟!"..

– " مفيش !"..

– " حصل إيه يا علانة ؟!"..

– " مفيش !"..

– " طب قولى أنت يا فلانة ؟!"..

– " أنا شخصياً ما اعرفش !"..

– " طب وانت يا علانة ؟!"..

– " علمى علمكم !!"..

– " طب مالك يابو عرب ؟!"..

– " شوية كده فيه مسألة شاغلانى !"

– " نسيبك تنام ؟"..

– " لأ ! سأروق حالاً !"..

وفعلاً بدأ يعتدل مزاجه قليلاً بعد الكأس العاشرة وحرق حوالى ربع أوق الحشيش الأخضر الفواح ذى النفس الكثيف الدخان . إلا أن ضحكاته كانت صافية، ونظراته تائهة ، ونكاته سمجة قديمة تافهة لا تبعث على الضحك بق تبعث على الرثاء خاصة أنه يفترض أنها ستطربنا بطرافتها وعمق دلالتها ، بضحك عالٍ أجوف ، فنضحك على ضحكه حتى صرنا كالمجانين المستغرق ضحك هستيرى بلاسبب واضح . إلا أننى وستات التقطنا خيطا تلافت نظراتنا بسرعة خاطفة لكنها كافية للتلاقى : لقد ضبطنا سيد زناتى أكثر م وهو يسرب إلى حنّونه نظرات قلقة يائسة فيها إشفاق وأسى ؛ فأدركنا أن السبب يكمن فى شئ خاص بها ..

ثم إن الخيط بدأ ينجلى شيئاً فشيئاً وببطء شديد ، فقال المرسال الخفى بين وعينى ستات أننا قد التهينا فى حالة سيد زناتى وأهملنا حالة حنونة مع أنه الأليق بالحداد . كانت فى حالة يرثى لها حقاً ، شاحبة الوجه تبذل جهداً كى تبدو متماسكة طبيعية . كانت تقريباً شبه ذاهلة كأم فقدت جميع أبنائها واحدة فى زلزال كونى ، ومن حين لآخر تضع يدها على بطنها متألمة فيها ت من بطنها أصوات زغولة وكركبة . ولو تمعنا فيها من لحظة وصولهم فى الضحى لعرفنا أن حالة سيد كانت فى الواقع رد فعل لحالة حنونة غير الطب إضافة إلى أن عودتهم فى الضحى تعنى أنهم لم يحضروا الليلة الكبيرة ..

وكان الليل قد بدأ يسعى حثيثاً نحو المنتصف حينما هدأ اللغط فى فناء الو بين طوائف النائمين فى العراء خاصة أولئك التجار المتنقلين والباعة الس إستعدادا للتبكير بالفرش فى سوق إحدى القرى المجاورة . صارت أصداء ا

تؤوب إلى هسهسات ووشوشات ، ليطفو على سطحها صوت دندنة جذابة جـداً . على أثر زحفها كفت الأصوات كلها كأنها تدعو صاحب الدندنة إلى رفع صوتـه . كانت مجرد ياليل فـي دائرة نغمية بهلوانيـة بـين صعـود وهبـوط كأنهـا تنطـق الآه بعشرات الأحساسيس نيابة عن آلاف المسـتمعين بالنـبرة التـي تطـن فـى صدورهـم بجميع درجات الإنفعال . ماكاد يختمها بوقفة حاسمة كالنقطة في نهاية الجملة حتـى ارتفع هدير جـارف كرعـد السـماء صائحـاً: " الـل.. ا.. ـــه.. الله ! تـانى والنبـى ياجدع ! الله يفتح عليك ! إيه الحلاوة دى ؟ كروان ؟!". فى الحـال تحـول الجميع الذين هم كل واحد من بلد ، إلى مستمع واحد . سمعنـا أصوات أبـواب حجـرات الوكالة تنفتح لكى تشارك في الإستماع وتشارك بالحضور فى مضاعفة التشـجيع . حتى شوادفى هو الآخر صاح من فوق مصطبته :

– " أنت ليلتك فل من زمن طويل لم تعرج ! بشرة خير إذن ! فهـذه الوكالـة منحوسة بالدم ! آن الأوان لفرحة نشتاق إليها ! فغـن ! غنـى فيهـا يـاجدع كيفمـا يحلو لك ! نريد الليلة أن نضربها صرمة هذه الدنيا الوسخة !!"..

في الحال تقلبت صفحات جميع الألوان على وجهى سيد زناتي وجنونة . بدأت جنونة تفقد السيطرة على نفسها ، ركبها الهم ، تقلصت ملامحها تقبضت عقدت ما بين حاجبيها ظهر عليهـا رعـب حقيقـى غـير مفهـوم . جمدت ملامـح سيد جمـود الموت، تحجرت الإبتسامة على شفتيه صارت كفتحة فم الجمجمة . تململـت جنونـة في جلستها غيرت من وضعها عدة مرات صارت من فرط القلق تجرب وضع رأسها على كفها فى الدقيقة الواحدة أكثر من مـرة . أخـيراً نظـرت إلى سـيد فـى ضراعـة حقيقية ، شدت صوتها بصعوبة فائقة من قاع بعيد :

– " عن إذنك يا سـيد أنـزل امـدد شـوية تحـت ! أنـا تعبانـة ! دمـاغى حينفلـق نصين!!"..

فتحركت الإبتسامة علـى شـفتيه كسـمكة ميتـة تتهـدل بـين فكيـه ؛ هـز رأسـه بالموافقة فيما تزوم عيناه بنظرة كدنا نسمعها تقـول : الأمـر هكـذا إذا ؟ لا بـأس لا بأس!! لكن سيد لم ينطق مع ذلك بحرف ، بل نظـر إلى الصغـيرة الثانيـة علـى يمينـه وأذن لها بحركة من ذقنه أن تصعد هى الأخرى لتستريح إن كانت مرهقة من السفر.

فلبت أمره في الحال كأنها كانت تنتظره ، وكانت أسرع من حنونة من النهوض ، بل إنها مدت يدها لحنونة فتعلقت هذه بها ونهضت واقفة تكاد تترنح. عبر فتحة الباب الداخلي في المواجهة كان السلم الحلزوني الضيق ذي الدرابزين الحديدي الصدئ يئن في يدى امرأتين إحداهما تهبط إلى أسفل والأخرى تصعد إلى أعلى، فكنا نشاهد ظهراً بمؤخرة مدببة يلقى ظله على وجه بصدر مدبب ينسلخ كل منهما عن الآخر . فتح سيد علبته الصفيح وعبأها بسجارة محمصة التبغ يحتفظ بها في كيس كبي ر، ثم أشعل سيجارة نفث دخانها بعمق ؛ ثم هب واقفاً ، عبر فراغ الحجرة إلى الباب المطل على الفناء ؛ فلبس شبشبه ونزل إلى الفناء قائلاً إنه سيعود بعد قليل ليكلمني في موضوع ..

بقيت وحدى مع ستات والعرايشية .. ما كادت خطوات سيد تلتحق بأرض الفناء حتى مالت كل من العرايشية وستات نحو بعضهما في انجذاب مغناطيسي يعكس شوقاً حاراً للودودة والنم ، ثم دار الهمس بفحيح يتلون بإيقاعات رهيبة ، حتى اضطررت لثنى جذعى وإماله رأسي نحوهما لكي أتمكن من الإستماع ، لكن صوت المغنى كان قد انجلى وتوهج ولعلع ينضح بالحرقة ونار الجوى والعذاب والحيرة والالم والتفجع :

- " أنا لو شكيت ربع مابى للحجر ليدوب.
الأوله للنبى .. والثانية لأيوب
والتالتة غربتى.. والرابعة المكتوب
والخامسة كنت غالب.. صبحت أنا المغلوب
والأوله للنبى ...

- " يا.. ا.. ا.. ه.. كمان والنبى ! الله يفتح عليك !"..

- " سجان بقتل الغرام مأمور ومتوصى
عايش على خروم الباب كل من بص
شعلل قليب السجين بالنار وبالبص
أنا قلت يا سجان بحبح لى أشوف خلى
قال لى عشانك ياواد مأمور ومتوصى

قاضى الغرام بربرى واللى حكم تركى
صفيت لمين يازمن لما حتصفى لى
دا الغالى بعته رخيص وترخص الغالى

كان فى صوته حرقة ولوعة ، وبحة نواح رنانة كصليل أجراس الكنائس . ورغم الضجة الصخبة التى هبت فجأة بصيحة استحسان مدوية تكاد تفتت أصحابها فى سبيل أن يستمر هذا المغنى فى إرسال نواحى الشجى الأسيان الملتهب اللآهب ؛ رغم ذلك فإن بكاء حنونه العنيف المنتحب قد صعد إلينا من الحجرة السفلية بكل وضوح يكاد يفتت أكبادنا ؛ بكاء إنسانة معذبة لا تملك من أمر نفسها شيئاً لعلها هى ذلك السجين الذى إئتمر عليه مأمور بتوصية خاصة ؛ لعل بكاءها نعيا لحاله ، لعله إشفاقاً وتأثراً على ذلك لو شكى ربع ما به للحجر لذاب من شدة التأثر..

صار من السهل اكتشاف الروابط بين هذا المغنى بكلماته وأنغامه وبين ما يحدث الآن لكل من حنونة وسيد زناتى . هذا المغنى ليس بمجرد مغن ؛ إنما هو بالإضافة إلى ذلك عاشق حقيقى ومكتو بنار أحرقت قلبه لاشك . وهذا المعشوق باعث هذه النار فى قلب هذا المغنى إما أن يكون على وجه التحديد حنونة أو تكون هى فى موقف مشابه . هذا الغناء إذن هو إذاعة موجهة إلى السجين والسجان بعرضحال يطلب الإنصاف والتعاطف..

بعد أن شبعت ستات والعرايشية من الودودة المقطومة الحروف الخارجة من الأنف أحياناً ، صحت فيهما بعصبية أن يطلعانى على حلية الخبر قبل أن يصيبنى الجنون . جعلت ستات تطوح كفيها فى ولولة واستهوال تخبط صدرها بيدها. مالت العرايشية نحوى بابتسامة ذابلة بجفاف الحلق من الخوف والتوحس، قالت إن سيد زناتى كان نازلاً بهن على سرادق الطريقة الشاذلية كالعادة كل عام . إحتفل الرجال بهم قدموا لهم ثريد العشاء بهبر اللحم . أثناء العشاء لاحظ سيد أن رجالاً من المتحلقين طبق الثريد المجاور كانوا يركزون البصر على حنونة كالمذهولين . ولاحظت العرايشية أن سيد قد انبسط فى أول الأمر إذ أنه تعود على مغازلة الناس لحنونه وانبهارهم بجمالها الفلاحى الوحشى الذى يفلت عيارهم غصباً عنهم ؛ لكن العرايشية بدأت هى الأخرى تهتم بالأمر بعد أن رأت أن دم سيد قد بدأ يتعكر على

وجهه المكفهر ؛ إذ أن الذين ينظرون إلى جنونة صاروا يميلون على بعضهم بعضاً يتهامسون يعيدون النظر ثم يتهامسون ويتناحرون فتنفلت أصواتهم فنسمع بعضهم يقول في ثقة :

" هي ! نعم هي ! أقطع ذراعي إن ماكانت هي بعينها ! لو علم الناس أنها هي وموجودة هنا تكون فرجة خطرة ! تكون أسود ليلة ! هل الجماعة هنا ؟! أنا شفت فلان نفسه هنا ! وفلان أيضاً ! ياللمصيبة ! الغريم وغريمه وغريم الغريم كلهم معنا هنا ؟! أيكون مقسوما لنا أن نرى كارثة ؟! ربنا يستر ولا يحدث التلاقي !! الواجب أن نبلغهم ! الواجب ألا نبلغهم !! لا ! نبلغ اللحم على الأقل لكي يلم لحمه !! فضوها سيرة يا إخواننا واخزوا الشيطان ! ليتنا ماجئنا هنا ! ليتنا ما شفنا ! خلاص! لا شفنا ولا رأينا !! وهل نستطيع ؟!".. العرايشية تأكدت أن سيد قد أنصت لهذه الدمدمة الكلامية كلها . أما جنونة والمضروبة الأخرى فلم يلحظا شيئاً ساعتها. أحست العرايشية أن سيد زناتي انقلب حاله إعتراه القلق منذ أن تابع جيران الشريد وهم يغسلون أيديهم ويتسللون واحداً وراء الاخر خارجين من السرادق مع أنهم من المفروض أن يبقوا للمشاركة في الذكر وفي خدمة غيرهم من القادمين الجدد. ظهر على سيد أنه متوجس من حدوث شيء، لكنه أمسك نفسه وظل مبتسماً يسلم على الناس ويرد تحيتهم . وكان قد جلس مع نسوانه الثلاث في الصف الأيمن القريب من الطريق العام ، على يمينه جنونة ، وعلى يساره المضروبة الأخرى ، وبجوارها العرايشية ، عينها سائحة على الطريق تتسلل بين قامات الرجال باحثة عن مقدم خطر توقعت حدوثه . وقد حدث ، لم يمض أكثر من ربع ساعة حتى رأوا مجموعة من رجال شبان يزحفون نحو السرادق في تهيب وحذر منبهرين بالأضواء والصخب، ظهر من بينهم بعض الذين كانوا يأكلون بجوارهم ، وقد جعلوا يغمزون القادمين الجدد فيما يشيرون إلى جنونة ، فما يكاد الواحد منهم ينظر إليها حتى يفتح فمه في ذهول ، وتفلت منه صيحة ترقة : " هي طبعاً ! يابنت الفرطوس !"، وكان البعض منهم ينصرف مسرعاً بعد نظرة التأكد ، والبعض الاخر يبقى واقفاً في مكانه لا يريم ولا يجول بصره عن جنونة ..

المصيبة أن حنونة هي التي فضحت نفسها بنفسها دون أن تدرى ، سقطت من فمها شهقات عديدة لدى وقع بصرها المفاجئ علـى أكثر من شخص ، مع كل شهقة كان سيد زناتي ينظر إليها وإلى الشخص فتتعاظم دهشته . وكان الصييت قد انجلي ولعلع صوته في الميكرفون ، تطرحت على وحداته وأنغامه أجساد الذاكرين فاشتعل السرادق بالصهللة وبالصلاة على النبي مدوية في كل الأرجاء في كل حي.
إلا أن وفود الغرباء الناظرين إلى وجه حنونة لم يتوقف سيله كل دقائق بوجوه جديدة ترشقهم بالنظرات المنذهلة تتسلق جسد حنونة كله بأسف أو حسرة أو تشف أو احتقار أو إشفاق . إلى أن دخل وفد مكون من خمسة شبان أنقاء يجذبون شاباً أنيق الثياب جميل الصورة كسيدنا يوسف الصديق ، لكنه مهزول ضعيف البنيان كالناقة لتوه من مرض طويل قاس . وقف في مواجهتهم كطفل منبهر بالعثور على لعبته الحبيبة التي كانت ضاعت وفقد الأمل في لقائها ؛ كاد يصيح من شدة الفرح باسمها ؛ لكنه كان خجلاً حيياً ، أطبق فمه لحظة أن شرع يهتف ؛ ثم انهمرت الدموع من عينيه بغزارة ، فصار يمسحها بكمه الواسع لتعود فتنهمر من جديد ؛ وإذا به ينهار قاعداً في مواجهتها . أما هي ، فياحسرة عليها ، راحت لوناً وجاءت لوناً ، لم تتمالك نفسها من لطم خدها بكفها في حرقة ولوم وتأنيب ، نكست رأسها في الأرض لتتكون في حجرها بحيرة من الدموع حسرة على سيد زناتي وما جرى له ساعتها من حرقة وحيرة ، كمن غطسوه في قازان مياه مغلية .
مادروا إلا وهذا الشاب النحيل قد نهض متسللاً نحو الميكرفون ، منتهزاً فرصة انتهاء الصييت من وصلته التي اختتم بها طبقة ذكر وصار للذاكرين أن يجلسوا لالتقاط أنفاسهم استعدادا لطبقة آخرة . أمسك الشاب بالميكرفون ، وتسللت الآه من صدره ربانية ندية مبللة بعرق من حرارة الشوق ؛ ياليل ياعين وحلها لمت عليهم جمهور بقية السرادقات المجاورة والمارين في الطرقات . دخل الشاب بموال حكى فيه قصته منذ اختفت حبة قلبه حتى اليوم ، وتفاصيل ماجرى للأهل والخلان. صار جسد حنونة يهتز بعنف البكاء مثلماً يحدث الآن . شعر سيد أنهم صاروا فرجة الناس كلها ؛ مال على أذن العرايشية ورسم لها أن تصطحب حنونة وتتسلل بها خارج السرادق توهم الناظرين أنها ذاهبة بها إلى دورة المياه عند الباب الأخضر ؛

على أن تنتظر بها هناك . وبعد برهة مال على المضروبة الأخرى ورسم لها أن تلحق بهما فى هدوء . وبعد وقت قليل تسرب هو خارجاً وراءهن متحسساً الطبنجة فى جيب الصديرى والمطواة قرن الغزال متخفية فى أسورة الفانلة الحابكة . ماكاد يلحق بهن حتى احتواهن بذراعيه فرمى بهن فى أول عربة أجرة صادفته ، صائحاً بالسائق : باب الحديد بسرعة يا اسطى . فلحقوا بأول قطار أقلهم إلى دمنهور فى مطلع الضحى . وآخر ما كانت تتصوره العرايشية أن الشاب المغنى يعرف خط سيرهم فيلحق بهم إلى الوكالة وهو وبعض صحابه الذين كانوا معه ؛ وهاهو ذا يطارد حنونة بغنائه ، هو ذا الآن يرفع عليهم صوته بقضية يطلب الحكم فيها بقضاة عدول ومحلفين منصفين ..

رأيتنى أهب واقفاً ، وأنزل مدفوعاً برغبة جامحة فى رؤية هذا الشاب والإستماع إلى شكواه بدقة وإمعان لعلنى أقف على كل تفصيلة فيه .. هالنى منظر الجموع المتراصة فى كل فناء الوكالة لا أحد يشعر بهم ؛ وقد بدا أنهم جميعاً قد عثروا صدفة على ليلة فرح مجانية آمنة من المكيدة والغدر فآثروا قضاءها حتى النخاع طرباً وانبساطاً. بحثت عن بقعة أجلس فيها قرب المغنى ، الذى وقف فى المنتصف تقريباً، وأحاط به جمع من رفاقه بمثابة بطانة تردد خلفه بعض الترجيعات الموجوعة . كان يلف حول نفسه من حين ليواجه كل مجموعة لبعض الوقت ، شأن المغنين المحترفين المدربين على معاملة الجمهور ..

سمعت صوت سيد زناتى ينادينى . تلفت حوالى ، فإذا هو جالس على مصطبة شوادفى يجرع كئوس الكحول المقطر ويدخن سجائر الحشيش .. خرمت إليه بين أجساد متكورة وأخرى متربعة أو متفرفصة أو راكسة ، وكل الأعناق مشرئبة شاخصة إلى المغنى . كانت المصطبة مزدحمة ، يجلس عليها وحولها إلى جانب شوادفى سيد زناتى وزينهم العتريس ورمضان عريجة والبورى والحانوتى ومتعهد أطفال الشحاذة والمداح والمواوى وبعض ناس من جيران الوكالة ..

كان المغنى قد تعب من الشكوى ، وطال انتظاره لطلعة وجه محبوبه . وبعد أن كان يدور حول نفسه أثناء الغناء مجاملة للجمهور صار يتلفت بحثاً عن وجه محبوبه ليس بين الجالسين فحسب بل وخلف الأبواب والشبابيك ؛ فلما يئس من ظهوره

أطلق الموال يناديه بصريح العبارة وضراعة النغم ؛ يسوق عليه الأولياء والأقطاب أن يتعطف عليه فيريه وجهه ولو للمحة عابرة ، أن يرحم ، أن يقدر هذه الرحلة الشاقة التى قطعها وراء طيره كى يراه ويتأكد أنه مايزال على قيد الحياة ؛ ناهيك عن غربته السابقة وماحدث له فيها من عذاب أليم بسببه ..

هنا قال سيد زناتى فى حرارة كأنما يحدث نفسه :

- " الولد قطع قلبى ياجدعان ! ماعدت قادراً على احتمال المزيد ! أنا من دم ولحم فلابد أن يكون في قلبى رحمة ! قسماً بالله لأطيبن قلبك وأداوى جرحك ربنا يداوى لنا جروحنا جميعاً !! سأفعل ما يفعله الرجال الذين لم تكن تحلم برؤيتهم !! سأشتريك بفعل خير منقطع المثل ! تظنني قاطع طريق ابن ليل تأويه وكالة عطية ؟! لا ياحبة عينى وحق أمك التى لم أتشرف بمعرفتها بعد ! أنا سيد زناتى والأجر على الله !! سأحكم بالعدل وأنا راسخ صامد ! ليس من قضاة تحكم بالعدل فينا فلأجرب أنا الليلة مقعد القاضى !! إذا كان الحكم سيوجع قلبى وهو عدل فإن الحكم بغير العدل سيقطع قلبك !!"..

تيقنت لحظتئذ أننى أشهد شخصاً آخر تماما . وتبادل الجالسون نظرات عابثة ظنا منهم أن فرط الشرب قد أدخل سيد زناتى إلى مرحلة الشعور بالعظمة والهذيان؛ فيما عدا شوادفى بالطبع ، الذى يفهم شخصية سيد زناتى على حقيقتها بكل دقة ، وإلا ما تجنبه وسلم بوجوده كنجم من نجوم الوكالة ليس من الذكاء كسب عداوته إذ أنه - كما حكى لى شوادفى مراراً - بقدر أن شراسته وعنفه ينطوى على جدعنة وطيبة قلب لا مثيل لهما . وكنت أظن أن شوادفى يقول ذلك على سبيل تبرير مبالغته فى تقدير سيد زناتى تقديراً ربما وصل إلى حد الخضوع لإرادته فى بعض الأحيان . وضح الآن أن سيد قد حكى له الحكاية ليكون سنداً له إذا ما تفاقم الأمر. هاهو ذا يوجه إلى شوادفى نظرة ذات معنى؛ فهمها شوادفى فى الحال؛ فأومأ للشيخ زينهم العتريس ؛ فقرب هذا رأسه من رأس شوادفى ، الذى مال على أذنه فهمس بشئ تلقاه زينهم العتريس بهزة من رأسه ؛ ثم نهض متجهاً إلى المغنى ملوحاً بعصاه فى الهواء علامة على طلب الصمت بلهجة من يقول : سمع هو.. و.. و..س. فصمت الجميع ، وانتظر المغنى باسماً . فاتكأ زينهم العتريس على عصاه وصاح :

- " أنتم ليلتكم فل بالصلاة على الحبيب ! ذى ليلة من ليالى العمر ! شرفنا المغنى وصحبته الله يعمر بيتهم ! ربنا يمتعهم جميعاً بزيارة النبى مثلما أمتعونا !! أسمعونى الصلاة على النبى ! زيدوه صلاة ! الأمر وما فيه أن الجدع المغنى ينتع من أول الليل حتى أول نهايته ونحن نسمع ونقول الله الله دون أن نضع فى أعيننا حصوة ملح ! إن المغنى من لحم ودم مثلنا ! زمانه الآن يموت من الجوع وهو غريب عن بلدتنا والغريب مكروم لأجل النبى ! أسمعونى الصلاة عليه ! زيدوه صلاة ! يكفيكم هذا الليلة أم أنكم نسيتم قيامكم فى طلعة الضوء لتفرشوا فى السوق وبينكم وبين بلدة السوق مشوار سخن ؟! أما الجدع المغنى فوراءه هو الآخر سوق أنقح وأشد !! هو بصراحة معزوم عندنا الليلة ! فهات صحبتك وتعال يامن وهبك الله موهبة الكروان !!"..

دبت الحركة والحيوية فى الجموع تحت الأضواء الكابية كموجات بحر يمور قاعه بالإضطراب فصارت تتلاطم كمياه عكرة مسودة مزرقة ؛ كل واحد راح يحامى على موقعه يتمدد محدداً بجسده حدوده الآمنة ؛ فى تناحر ولكز ولطم ولكم وجذب ودفع وهمس وصيحات مكتومة وتهديد تتلوه صفعات وركلات وبصقات تقابلها شلاليت ؛ فيما وقف المغنى وبطانته فى بقعة محايدة فى الوسط ينتظرون بتوجس سيادة الهدوء حتى ينفذوا إلى طريق نحو مكان العزومة . هى زومة واحدة بعثها شوادفى من فوق المصطبة كزأرة السبع الذى يظهر فى مقدمة بعض الأفلام الأجنبية: فتح فمه وأغلقه فحسب ، فكأن بوابة ضخمة زيقت بخشونة فيما تجر ثقلها . فى الحال كفت الحركة تماماً كأن شوادفى بهذه الزأرة قد طرح فوقهم غطاء الصمت والسكون .. فصار الفناء كأرض ترتص فوقها كثبان وأكوام من الرديم الأسود ..

شرع المغنى وبطانته يتحركون خلف الشيخ زينهم العتريس فى اتجاه البوابة عبر برزخ رفيع بين الكثبان وبعضها مشمرا ذيل جلبابه . إلا أن سيد زناتى نهض مقبلاً مشيراً بذراعه للشيخ زينهم أن يرتد عائداً بهم إلى حجرته . فمضى بهم ؛ فيما سحبنى سيد من يدى ومضى بى نحو البوابة دون أن يفتح فمه . وخرجنا ، جعل يمشى فى سرعة وحماسة بخطوات متسقة رشيقة واثقة ، وثوبه الحرير السكروتة ذى

اللون السمنى ، بنصف ياقة وبكمين يضيقان عند الرسغين بلا أسورة تشطرها من الداخل كسرة المكواة الحادة ، يهفهف مع الخطوات مزغرداً بالريح . ذقنه فى مستوى صدره ونظره ممتد إلى بعيد تركيز غريب . وكنت ألهث بأقصى طاقتى لكى أحاذيه في السير فلم أجد فرصة لأى أسئلة ؛ لكننى توجست من هيئته الجادة بوجهه المكفهر المهموم ، وحدست أن يكون ذاهباً لاستدعاء الشرطة للقبض على المغنى وصحبته ملفقاً لهم تهمة مطاردته حتى مسكنه للإعتداء عليه بنية خطف زوجه . منظره يقول هذا . وكم كانت دهشتى عظيمة حين رأيته يخرم فى الشوارع الأمامية النظيفة الغالية الأسعار فى كل شئ مبتعداً عن منطقة البندر بشرطته ؛ وإذا هو يتوقف أمام محل ختعن الكبابجى ، أشهر وأكبر مطعم فى المدينة لا يرتاده سوى عليه القوم الذين يفهمون فى أصناف اللحوم وطزاجتها ونفسها الشهى . تقدم من الكيس فطلب ثلاثة أرطال من الكباب والكفتة وستة أزواج من الحمام ؛ دفع مبلغاً مدهشاً دون أن يطرف له جفن ؛ دفع بقشيشاً براحة اليد للرجل الموضب وظل يراقبه حتى انتقى له أطايب القطع . حملنا اللفة الكبيرة الفخيمة وخرجنا إلى السوق، فاستبضع أكياساً من الفاكهة مع زجاجة كونياك وتشكيلة من الأجبان والمخللات . حملنا كل ذلك وعدنا بنفس السرعة دون أن ينبس أحدنا بحرف . إلا أنه عند اقترابنا من بوابة الوكالة نظر فى دهشتى مبتسماً لأول مرة منذ عودته من المولد ، وفى غبشة البدر النائى أضاءت البسمة وجهه فغيرت معالمه تماماً ، فبدا الجانب المتاخم لى جميلاً وقوراً ذا هيبة تليق بكبار المفكرين والأدباء المستغرقين على الدوام فى النظر والتحليل . لوى رقبته ناظراً فى وجهى :

- " طبعا تستكثر المبلغ الذى صرفته الآن مع أننى قادم من سفرية مكلفة ؟! الفلوس فى النهاية هى أتفه ما فى الأمر كله ! ليتها فى داهية فلوس !! إن الجدعنة غالية الثمن يا صاحبى وليس كل جدع يقدر على دفعه مع أنه جدع !! أما الفلوس فأمرها ساهل فمثلما تجئ تذهب ومثلما تذهب تجئ !! أما ثمن الجدعنة فلا يذهب هدراً أبداً !! هذه أغلى نصيحة تأخذها من أخيك سيد !! ما تعرف ديته إقتله !! ومالا تعرف ديته سايسه !! والباب الذى يجيئك منه الريح سده واسترح ! وإن أتاك خير يكلفك شراً فاستغن عنه يكون أكسب لك !! تلك هى معتقداتى فى

الحياة ومع ذلك لا استطيع العمل بها معظم الوقت ! فإنها تحتاج لتدريب قوى منـذ الصغر ولهذا فأنا أقولها لك حتى تضعها مسماراً فى رأسك !! أنت إن عرفت أشياء كهذه ولم تعمل بها تتعذب فى حياتك كلما فعلـت عكسـها !! وعلـى فكـرة ! إن كل ما أفعله فى حياتى هو عكس ما أتمنى وما أرضى ولست أعرف حتى الآن لمـاذا أفعل ما أفعل وإن عرفت فربما أقلعت لكننى أعرف فى قـرارة نفسـى أننـى لابـد أن أعرف ذات يوم ولابد أن يعتدل ميزانى وأعيش كخلق الله ولـو ليـوم واحـد !! أنـا الليلة سأعوض كل ما فاتنى من سلوك حسن !!"..

ثم دلف من خلل الباب بجنبه ؛ فتبعته ، فشيعنا صوت شوادفى بالهناء والشفاء ، ملوحاً إلى أنه قد يلحق بعد قليل .

المرســال

لابد أن بالحجرة سحر جعلها كالمطـاط تتسع للكثـيرين رغـم الظـن بضيقهـا . العرايشية متربعة على جانب من فتحة الباب ؛ وستات فى مواجهتهـا علـى الجـانب الآخر . الشيخ زينهم العتريس فى الصدارة ؛ بجواره المغنى ، وثلاثـة شبان يقاربونـه فى العمر وفى اللون والوسامة وخفة الظل والعمامة الصعيدية المتأنقة فى لفـة الشـال وطرفه المتدلى على جانب الرقبة ، والثـوب النظيـف ذى الأكمـام الواسـعة والأتـك التعريض . أبدا لا يظهر عليهم أنهم أهل بلطجة أو صياعة أو خربشة ، إنما يشـملهم سمت وقور ، أقرب إلى حياء الفنانين وتواضعهم ..

رمينا السلام وأنزلنا اللفائف . فتناولت كل من العرايشية وستات بعضها . قامتا فى الحال فنزلتا إلى الحجرة السفلية . نهض الجالسون فى استقبالنا ، فسـلمنا عليهـم بحرارة شديدة ، ثم اتخذ سيد زناتي بجلسه المعتاد ، وأشار لى فجلسـت قبالتـه بجـوار الشيخ زينهم فى مواجهة المغنى واثنين من صحبـه ، وبجـوارى الثـالث يفصـل بينـى وبينه الشيخ زينهم ، وأفصل بدورى بينه وبين ستات . قال سيد زنـاتى وهـو يـدور برأسه نحوهم فى ترحيب وأريحية :

– " أنتم شرفتم ! أهلاً وسهلاً !"..

– " الله يشرف مقدارك يا راجل يا أمير الأمرا !"..

هكذا نطقوا فى نفس واحد . كان المغنى قد تربع فى ثقة واطمئنـان كأنـه وثـق تماماً من وصوله أخيراً إلى شاطئ الأمان وهـاهى ذى مراكبه الحـائرة التائهـة ترسـو على البر بعد طول شتات رهيب وسط عواصف وأنـواء . وضـع كفـه علـى صـدره علامة الإمتنان ، ومشيراً إلى ذاته : محسوبكم بديـع عبـد المـولى ؛ ثـم أشـار إلى مـن يجاوره : وهادى أبو الحسن ؛ وإلى المجاور له : جلال المحمدى ؛ ثم إلى المجاور لى فى مواجهته : وحجاج أبو سماعين ! أصحاب الروح بالروح مولودين مع بعض متربيين مع بعض ما نفترق عن بعض ما نتخير عن بعض ولا عن السامعين !..

قلنا جميعاً فى نبرة استحسان :

– " أهلاً وسهلاً بكم ! شرفتم ! أحسن ناس !"..

أضاف المغنى كأنه نسى معلومة مهمة فى شهادة ميلاده :
- " مركز جرجا !"..
- " أحسن ناس !"..

زادت همهمة الرد فى وقع الشبشب الحريمى المطرقع بحدة على درجات السلم . كانت العرايشية مقبلة بالصينية ، عليها الأكواب والزجاجتين والأجبان والمخللات. انحنيت فسحبت الطبلية العجيبة التى صممها سيد بحيث يمكن تطبيقها كالحقيبة وركنها بجوار الحائط كمسند للمرفق . فردتها ، بمساعدة الشيخ زينهم وضعت عليها ما معها ؛ ثم أقعت ؛ صارت توزع الأكواب أمام الجالسين ؛ فتحت زجاجة إذ قبضت بطرف أسنانها الجميلة على قطعة الفلين فشدتها ؛ صبت فى كل الأكواب ؛ إعتدلت فى قعدتها بجوار الباب . ثم دخلت ستات بصينية كبيرة ؛ فرفعنا الأكواب في أيدينا ، فصارت تنقل من الصينية إلى الطبلية أطباق الكباب والكفتة والحمام والخبز والفاكهة ؛ ووقفت فى انتظار الأوامر ، فشيع لها سيد زناتى نظرة ارتفعت لأعلى قليلا ثم هبطت إلى أسفل ، فاستدارت ستات نحو السلم فصعدت درجتين ونادت ؛ ثم هبطت أربع درجات ونادت ؛ نفس النداء : فلانة ! ففى الحال سمعنا خطوات النازلة ورأينا شبح رأس الصاعدة . دخلتا تربعن أربعتهن فى بقعة صغيرة متاخمة للباب حيث قربت لهن العرايشية طبقاً متخماً بالكباب..

شمر الشيخ زينهم ذراعه صائحاً : باسم الله ، وشرع يأكل ؛ فانقضضنا جميعاً على الأكل والشرب حتى أتينا على كل ما أمامنا فى لحظات معدودة . وكانت شهية الحريم أقل ، فتبقى فى طبقهن بعض قطع تملأ رغيفين ، وقدراً لا بأس به من الأجبان . وإذا بنا نسمع لغطاً عند البوابة يطول أمره ويتردد فيه اسم الحاج سيد زناتي ، مما جعل سيد زناتى ينتبه مبتسماً فى إصغاء ويقول فى نبرة تفاؤل : بشرة خير ! لقد حججني بالمجان !.. بعد قليل سمعنا صوت خطوات قادمة ؛ فى أثرها ظهر شوادفى داخلاً بانحناءة كبيرة كى لايصطدم رأسه بحلق الباب . سلام عليكم وعليكم السلام ؛ ثم تقرفص أمام بقايا الطعام فسحب رغيفاً حشاه بعض قطع منتقاه من اللحم ثم طواه كالقرطاس وجعل يقضم ويتكلم معاً :

– " هناك مجذوب يسأل عنك يا أبا عرب ! يقول إنه مرسال خصوصي قادم لك برسالة من سيدى القنائى !!"..

صاح الشيخ زينهم العتريس قبل الصعايدة :

– " شئ لله يا سيدى عبد الرحيم !"..

وشوح سيد زناتى بذراعه علامة على أنه يرغب فى زحلقته ؛ ثم أشار إلى رأسه بحركة من يقول : أنا فايق للمجاذيب الساعة دى ؟! فقال شوادفى بكل جدية :

– " لا ! إنه ليس من المجاذيب الذين هم فى بالك ! ليس معتوهاً ! بل إنه فى منتهى الإتزان والعقل ! شكله ومظهره لا يقل عن شيخ طريقة محترم ! إصح للون ! أنا أيضاً فكرت أن أزحلقه وحاولت لكنه مصمم على مقابلتك شخصياً لأن الرسالة أمانة والأمانة كما يقول لابد أن تسلم لصاحبها يداً بيد !! كأن سيدى عبد الرحيم القنائى ما يزال على قيد الحياة يبعث بالمراسيل !! إنما الرجل فى عينيه عقل لايتزعزع ! قصدى أن تقابله على الأقل لتعرف من هو وما خبره ! بسرعة وتنتهى منه لأنه مصمم على الجلوس بجوارى حتى يراك !! ظنى أنه يحتال ليقضى الليلة عندى بالمجان لكن مظهره يشى بالفلوس وبأنه متعود على العز والسيادة !!"..

تفكر سيد زناتى قليلاً فى انشغال بال ، فهتف زينهم :

– " وما المانع يا مولانا ؟ ليس كثيراً على سيدى عبد الرحيم أن يبعث المراسيل وهو نائم فى ضريحه !! إن سره باتع ما فى ذلك شك ! ومن يدرينا ؟! لعلها رسالة مهمة فلاداعى لأن نستهزئ بالرجل وإلا فإننا نستهزئ بسيدى عبد الرحيم شخصياً إذ أن كرامة المرسال يا مولانا من كرامة سيده ! أخذت لى بالك يا مولانا ؟! صرت أشعرت الآن يامولانا أننا لو كسفنا هذه الرجل فلن يوفقنا الله فيما نود فعله!!"..

شوح شوادفى وهو يطرح بآخر قضمة فى فمه الشبيه بشاروقة الفرن :

– "الرجل يا أخانا قال شيئاً غريباً ! قال إنه خرج من حضرة سيدى عبد الرحيم بعد صلاة العشاء فقطع الطريق من قنا إلى هنا ماشياً !! وقد تأخر كل هذا الوقت لأنه حود فصلى ركعتين فى مسجد سيدى جلال بأسيوط ! وحود فصلى ركعتين فى السيدة زينب ! ومثلهما فى مسجد الإمام ومسجد السيدة عائشة

والسيدة نفيسة ! ووجد نفسه قريباً منا فانتهز الفرصة فصلى ركعتين في رحاب شيخ العرب وركعتين في رحاب أبي العينين ! وفي دمنهور صلى ركعتين في جامع التوبة قبل أن يجئ إلى الوكالة !! ظننته يهذى لكنه قال أمارة بطحت دماغي ياأخانا! قال إن سيدى عبد الرحيم القناوى كان يعرف أن سيد زناتي سيقضي الليلة الكبيرة كلها في مولد الحسين ولهذا أرسل مرساله إليه في الشادر الذى كان فيه فلما ذهب إليه رأى سيد زناتي يركب الأوتوموبيل مع حريمه عائداً إلى هنا فتركه مدركاً أن سيدى عبد الرحيم هو الذى أوعز إليه بالرحيل لأن الله يحب أن يستره وسيدى عبد الرحيم لا يفعل هذا إلا مع من يتوقع أن يكون من بين مريديه المهمين الذين يعطيهم سره !!"..

حينئذ هتف الشيخ زينهم العتريس في وجد ملتهب وصادق الحرارة :

- "الله أكبر ! الله أكبر ! اللهم صلى على كامل النور ! إبعث يا عم ! ياجمود قلبك ياذا الرجل ! تسمع كل هذا ولا تأتى به في الحال ؟! أعف عنه يا سيدى عبد الرحيم ! حلفتك بحق سيدى العتريس !!"..

إقشعر بدني وسمعت طقطقة شعيرات في رأسي فهرشت مكانها ، وانعكست أنوار اللمبة النيون المدورة الملتصقة بالسقف ، على الوجوه ، فبدت الوجوه كلها ذات لون فزدقي شاحب . وقال سيد زناتي وقد ضوعفت حيرته :

- " حاجة ما كانت على البال ! فلا حول ولا قوة إلا با لله ! ياقاعدين يكفيكم الله شر الداخلين !!"..

وقالت العرايشية بصوت متهدج بحرارة الإكتشاف وفطنة أهلها سكان المخيمات من البدو الرحل :

- " قلبي يحدثنى أن الرسالة التى يتكلم عنها هذا المرسال تتعلق بما نحن فيه الآن!!"..

- " الخير على قدوم الواردين ! يعلم الله أني ما قصدت إلا خيراً ! على كل حال هاته يا شوادفي !"..

بخطوتين اثنتين صار شوافدى في قلب الفناء صائحاً :

- " تفضل يا شيخ العرب ! الدار أمان !"..

فسمعنا صوت حوقلة وبسملة وهمهمة مبهمة مع خطوات تقترب . ثم أطل علينا سمت عملاق مهيب ملء هدومه . فقمنا جميعاً واقفين لنسلم عليه في احترام وتبجيل . كان أبيض الوجه دقيق الملامح وسيماً ، بلحية طويلة كثيفة نظيفة لكنها تتخللها شعيرات بيضاء مهيبة إلى حد الإيحاء بالرهبة ؛ يختفي فمه تحت حسور من الشوارب الملتحمة بشعر الخدين ؛ يلبس جلباباً من الصوف الفرسكا ذا لون رصاصي تطل من فتحة صدره خطوط القطنية الشاهي تحتها ، تلمع في ثناياها نقط صغيرة هي الأزرار الصدفية للصديري تحت القطنية الشاهي ؛ يتعمم بشال حريري كبير فوق زعبوط مغربي مدبب كالهرم أحمر اللون ؛ يضع على كتفيه عباءة من الجوخ الأسود، ينتعل حذاء برقبة وأستك ؛ وبيده عصا رفيعة من الشوم المهذب ؛ لكأنه عمدة بلدة كبيرة ، إلا أن عينيه المكحولتين فيهما شرود أشبه بالذهول ، لا تستقر نظراتهما على شئ بل هي أصلا غير مصوبة إلى شئ ولو بشكل عابر . إن لمعة الجنون بارقة فيهما بصورة غامضة لكنها مؤكدة على نحو ما . قال بصوت غنائي رصين رحيم فصيح النطق لبق العبارة منغوم كالفقيه إذ يتلو القرآن المرتل :

– " السلام على من اتبع الهدى من أبناء حواء وآدم !"..

– " عليكم السلام ورحمة الله وبركاته !"..

سلمنا عليه واحداً واحداً فكان يجارينا في كبرياء وغطرسة كمن يريد الإنتهاء من مهمة ثقيلة ممجوجة ، إذ يكتفي بلمس أطراف أصابعنا في سرعة . وسعنا له مكاناً بجوار سيد مباشرة ، واختصه سيد بشلتة سمينة ، لكنه رفضها بلطف مفضلاً الجلوس على الأرض متربعاً بحذائه كيفما اتفق . ما كاد يستقر في قعدته حتى أخذت حنونة تعيد تنسيق ما تبقى من طعام داخل الطبق وتقدمه له فأزاحه بلطف أيضاً، وفي صمت ، أخرج من جيبه الجانبي تمرة شقها نصفين فوضع النصف في فيه ودس الآخر في سيالته ..

– " تشرب شاى يا شيخ العرب ؟"..

– " تشكر تشكر يا ولدى ! لكن أزيحوا من أمامي هذه الزجاجات الكريهة ! أنت يا ابن الزناتي لا تعرف قيمة نفسك ! وسيدى القناوى يعرفها !!"..

إمتدت يد العرايشية فجمعت الأكواب ؛ فمد ذراعه في لطف وغمغم بما يعني أنه رجع في كلامه ثقة منه في حسن نيتهم وأنه لا يحب أن يقطع مرحهم وصفو مزاحهم . فأعادت العرايشية الأشياء كما كانت ؛ ثم ترددت قليلاً ، ثم صبت الخمر في كل الأكواب . هنا التفت الرجل إلى سيد زناتي :

- " هيه! أنت الحاج سيد زناتي طبعاً ! صورتك معي من لحظة خروجي ! زودني بها سيدي عبد الرحيم ! أما الرسالة فإنها بسيطة لكنها مهمة : يقول لك سيدي عبد الرحيم القناوي رضي الله عنه وأرضاه : الأمانة التي لقيتها ذات يوم في عرض الطريق لا تفرط فيها حتى تردها لأصحابها كاملة غير منقوصة ليجازيك الله خير الجزاء !!"..

ثم صمت . فحط علينا صمت مطبق ، وأتجهت أبصارنا كلنا إلى سيد زناتي ؛ الذي اندمج في شرود عميق حجظت له عيناه ، فراح يفكر في انشغال مهموم :

- " أمانة ماذا ؟! أنا لم ألق أي شئ في الطريق طول عمري ! ياما حلمت في طفولتي بمحفظة ألقاها في الطريق أو كنز في حفرة لكن شيئاً من هذا وذاك لم يحدث أبداً !! يعلم الله أني ما أذكر شيئاً ! فإن كان سيدي عبد الرحيم متذكراً فسأكون مسروراً لو فكرني !!"..

شوح الرجل قائلاً في فروغ بال :

- " هذا ما قاله لي شيخي ومولاى ! وما على الرسول إلا البلاغ ! اللهم إني قد بلغت! اللهم فاشهد !!"..

فبدا الإنشغال في أعيننا جميعاً ؛ وظهر التوجس واضحاً في عيون الصعايدة . قال الرجل كأنه يشفق علينا :

- " على كل حال أنا قاعد في رحابكم لبعض الوقت فربما تتذكر ! سيدي عبد الرحيم لا يكذب ولا يخترع ! كل ما في الأمر أن الحياة لهو ولعب وزينة والإنسان فيها نسّاى بطبعه ! عودوا إلى ما كنتم فيه فاشربوا وفرفشوا ! لا يخدعنكم وجود جسدي أمامكم ! فسأخطف رجلي للصلاة في مسجد سيدي أبو المكارم بجواركم!! إتركوا جسدي في حاله حتى أعود إليه فأحمله فأمضي به إلى شيخي ومولاى كي أبلغه رد الرسالة !!"..

ثم تململ فى جلسته ، صار يعدل نفسه وسمته فى عدة اتجاهات حتى تمكن من تحديد جهة القبلة ، فولى وجهه تجاهها ، فصار وجهه قبالة السلم الداخلى بانحرافة يسيرة ، وظهره فى مواجهتها بانعطافة حادة ؛ مما جعل الحريم ينزوين عن الساحة الفراغية أمامه كأنهن يخشين من قطع الطريق أمامه إلى السماء . اندمج فى صلاة حقيقية قطعت صلته بالجالسين تماماً . إعتدل سيد زناتى مفتعلاً ابتسامته قائلاً :

– " يرجع مرجوعنا لموضوعنا ! ما حكايتك بالضبط ياسى بديع ؟! لا تخبئ شيئاً فنحن إخوة ! قل لنا الحكاية من طق طق لسلامو عليكم !"..

فاعتدل بديع متنفساً الهواء بعمق ، كأنه أنقذ من الغرق .

بديـــع

.." حكايتى بعد الصلاة على الحبيب عجب فى عجب ! لو كتبت بسن الإبر على مآقى البصر لكانت عبرة لمن اعتبر !! ظلمنى الصديق والحبيب والزمن !..

" كان ياما كان شاب اسمه بديع ! شغلته فكهانى ! ربنا فاتح عليه ! لديه محل فى سوق البلد ورسمال وفير والأشيا معدن ! قلبه مجروح بسهم الفن ! وجرح الفن دواؤه الحب !!..

" كان يحب الله فى خلقته ! فى برتقاله وعنبه وعنابه وخوخه ورمانه وبلحه وكمثراه والمانجو والجوافة والتفاح والتين ! عشق بستان الله تبارك صنعه : إذا كانت هذه فاكهة الدنيا المباحة حتى للفاسقين فما بالك بجنة الآخرة المدخرة للأبرار والصالحين والمطهرين ؟!..

" أصبح يغنى للفاكهة كأنه يغنى للحب نفسه! ويغنى للحب كأنه يغنى للفاكهة بأنواعها : يافكيه وبديع ياتين ياللى حلف ربنا باسمك ياتين !! بلادك بعيدة ياعنب والغربة خطفت لونك !! ياصوابع الحبيب ياموز !! ياورد الخدود ياتفاح !! ياخوخ خانونا الحبايب واحنا لم خنا !!..

" فكهانى فكيه ! قلبه نزيه ! يغنى فى الأفراح بالمجان !! كل الصبايا فواكه ! وكل عروس فكيهة !! موال الفكهانى لا يتبدل أبداً وإن تجدد دائماً !! لو نساه يذكره به العشاق فى الأفراح !..

وصل الكلام فى الغنا لفكيهة ! أخت صاحبه العزيز ! لا عمره شافها ولا كان يحلم أن يشوفها ! لكنها أخذت مواله رسالة شخصية لها !! أحبت الفكهانى وقعت فى غرامه وهو لا يدرى !!..

" الحب كالعطر لا يتخفى أبداً ! وصل الخبر بالشوق للفكهانى ! حرك شعوره شعلل فؤاده ملأه بالشوق بالخيال بالأمان أصبح يغنى للحبيب بالعينية ! أصبح يغنى لحبيب معين مقصود لذاته !! أصبح موال فكيهة قاصداً شخصية فكيهة وحدها بعد أن يقصد الفاكهة فى أصل وجوده !!..

" سخن قلب الكلام فأضاء النغم وانجلى الصوت صاعداً من قلب موجوع لسعته نار الحب بحق وحقيق !! بعد أن كان الغناء خيالاً حلواً أصبح تجربة حية تخلب لب السامعين تصل إلى قلوبهم بسرعة النار فى حطب جاف!!..

" فى البلدة مائة فكيهة بالاسم ! لكن موال الفاكهة هو الذى أصاب بغير تصويب فرشح بدلاً من الفاكهة فكيهة أخت صاحب الفكهانى المغنى !!..

" قال الفكهانى المغنى : يا دار ما دخلك شر ! فأنا فكهانى ميسور الحال تتمناه أى فكيهة فى البلد ! وحبيبة القلب هى أخت صاحبى فما الذى يمنعنى من خطوبتها على سنة الله ورسوله والمؤمنين ؟!..

" جمع الفكهانى وجوه قومه وراحوا يخطبون فكيهة للفكهانى ! المغنى صاحب أخيها الروح بالروح !! لكن الزمن طبيعته الغدر بسبب وبلاسبب !! قوبل الفكهانى بمالا يستحقه من الجحود والنكران !! رأى الفكهانى غدر الزمن فى عينى صديقه العزيز فركبه الهم والألم!!"..

" صاح الفكهانى من فجيعته : ما الذى غيرك يا عبد المولى وأنت صديقى الصدوق ؟!.. لا أنت صديقى ولا أعرفك وليس لك عندى أى طلب ولا أى حاجة !!.. لماذا يا عبد المولى كفى الله الشر ؟!.. ليس صديقاً من تغزل فى أخت صديقه علناً وفضحها فى نفير الأفراح ! ألك عين بعد هذا كى تجئ وتطلب يدها؟! أتريد أن تكمل الفضيحة ؟! أتجعلهم يقولون كان بينه وبينها أمر الله ؟! أتظن أن مجيئك خاطباً يعفيك من ذنب الخيانة والبدء بالعيب يا بديع ؟! من الذى أطلعك يا بديع على الأماكن التى وصفتها فى موالك من جسدها ؟! لقد أبدعت فى وصفها يا بديع فأين رأيتها وكيف تمليت من صورتها لتعرف لون عينيها وطول رموشها وجدائل شعرها ونحول خصرها ورمان صدرها وخوخ خدودها وتفاح كعبها ؟! أرأيت كل ذلك بعينيك يا بديع ؟!..

" قال الفكهانى لصديقه القديم الحميم : يا عبد المولى إنه موال قديم قدم الفاكهة والجناينية ألّفه غيري عن الفاكهة الفكيهة ولم أضف إليه إلا صوتى الذى يشيل مشاعرى فوق حسى !!..

" قال عبد المول ى: ولكننا لو زوجناك أختي فكيهة تثبت للناس أن الفضيحة كانت على أساس فلا دخان بغير نار !! وسيصدق الناس أنك بحكم صحوبيتك لى اتصلت بأختي من وراء ظهرى وهذا تطير دونه الرقاب !!..

" يهديك يرضيك يا عبد المولى ! لا فائدة !! يا عبد المولى أنا واقع فى حب البنية من أظافر قدمي إلى شعر رأسي !! لا فائدة !! يا عبد المولى والبنت تحبنى وترحب بالزواج منى ! ركبه العفريت : بنت من هذه التى تحبك : أتقولها فى وجهى يا بديع ! ألست أملأ عينيك إذن ؟! أعندنا بنات تعرف هذا الكلام ؟! الحساب ليس وقته الآن يا بديع وأنت من الآن لم تعد صاحبى ولم أعد أعرفك !!..

خرج الفكهاني غارقاً في دموعه ووجعه ! شعر أنه ربما يكون أخطأ فى حق البنية ! صمم أن ينقذها من الفضيحة بأى ثمن لأن الشبان سيتراجعون عن التقدم لخطبتها ولسوف يكون مصيرها واحداً من اثنين : إما أن يلتزم أحد شبان عائلتها بالزواج منها وإما أن يقتلها عبد المولى يعنى هى فى الحالين مقتولة مقتولة !!..

-" راح الفكهاني يبعث المراسيل كل يوم بغير جدوى ! عبد المولى يرفض كل محاولة للكلام في الموضوع من أساسه ، لم يكرم وفادة الكبراء الذين توسطوا لديه !! البنت راشدة والفكهانى كامل الرجولة فلماذا لا يتم الزواج بإرادتهما ؟! إشتكى الفكهاني للعمدة ! العمدة سأل البنت هل ترغبين فى الزواج من بديع يا فكيهة قالت نعم ولا زوج غيره مدى الحياة !! فلما سمع عبد المولى قولها هذا قصرت رقبته أمام الرجال فبيت النية على قتلها فى أواخر الليل !!..

" تأكدت البنت من غدر أخيها ! فحين أصبح الصباح لم يجدوها فى الدار ولا فى البلدة كلها !! قامت المناحة ! أصبح الفكهانى أكثر انشغالاً بالبحث عنها من أخيها !! داخ وراءها فى كل البلاد ! صرف رسماله فى السفر ! أغلق دكانه ! ساءت حاله ! أصابه الهزال ! جاءوا ببنات الدنيا فلم يقبل بغيرها بديلاً !!..

" صار الغناء في الأفراح والموالد سلوته الوحيدة يطفئ فيه ناره ! صار يغنى كما يقرأ الساحر تعاويذه وتعازيمه لعل ضراعته تصل إليها حيثما تكون فيرق قلبها فتعود إليه !! والزمن الغدار النذل يمضى ببطء فلا يأتى البريد بأى أخبار !! نسيها الناس باتت بجرد خبر قديم لا يصح تذكره !! أصبح اثنان فقط فى هذه الدنيا

ينتظران فكيهة : بديع ليتزوجها ويبدأ حياته وحنته ! وعبد المولى ليقتلها ويغسل عاره ..

" وبالأمس بينما كان المغنى يتجول فى شوادر مولد الحسين جاءه نفر من صحابه بالبشارة : طائرك التائه منك ظهر الليلة فى قفص مع سجان فى الشادر الفلانى !! الروح ردت فى الفكهانى ! إندفع يجرى ! لم تسعه الدنيا من الفرح لما رأى طيره يجلس أمامه وجها لوجه ! كاد يرتمى فى حضنها ويبكى ويشتكى لها لوعة الفراق وفرحة اللقاء غير المنتظر ! لكنه لم يستطع لأن طيره كان فى يد غيره!! كاد يسقط مغشياً عليه من القهر لولا أن ألهمه الله برؤية النفير لحظة انتهاء الصيبيت! أمسك بالنفير وراح يبثه ذات نفسه ! فى غمضة عين وانتباهتها لم يجد طيره !! أكان حلماً كاذباً لمدة وجيزة ؟!..

" نزل يجرى متخبطاً فى الشوارع ! رأى السجان يضع طائره فى سيارة ! والسيارة تنطلق ! صاح كالثكلى يستنجد بالناس لإيقاف سيارة خطفت قلبه ! من حسن حظه شاهده واحد من الشادر يعرف السجان معرفة شخصية ! أعطاه اسمه وعنوانه ! رمى الفكهانى بنفسه فى سيارة وأوصاها بأن تلاحق السيارة الحاملة لطيره ! لحق بها ! ركب نفس القطار ! جاء إلى هنا !!..

" أما الفكهانى المغنى فإنه أعوذ بالله من قولة أنا !! وأما فكيهة فإنها هذه التى تجلس بجوار الباب وقد تغير شكلها أصبحت من الهوانم تكشف وجهها وذراعيها ولابد أنها أطلقت على نفسها اسماً آخر غير اسمها الحقيقى !!"..

وفكيهة

.." نعم أنا أحببته ! أحببت بديع الفكهاني من قبل أن يضعني بدلاً من الفاكهة في الموال !! كونه صاحب أخي من صغرهما لا دخل له في الموضوع !! يعني لو ما كان صاحباً لأخي عبد المولى كنت سأحبه سأحبه !..

" هو كان يدخل دارنا مع عبد المولى كثيراً لكن عمري ما تمليت منه ولا شفت شكله كله ! إنما شفت حسه عندما يغني في الأفراح ! لا فرح بغير صوت بديع الفكهاني يغني فيه !! ولا فرح إلا وأنا جالسة على سطح الدار ومن حولي كل الصبايا تتفرج على بديع الفكهاني ! حسه الحلو يسعى فوق الأسطح يأسرنا فنبكي من الفرح ونفرح من البكاء لا نريده ينتهي أبداً من الغناء !! كل الصبايا كن يحببنه! لأنه هو الفرح ! حتى اسمه ! حين يذكر أمام أي صبية أو أمام أمها فإنها في الحال تبسط كفيها نحو السماء تهتف : إنشاء الله يارب بشرة خير!!..

" سيرة بديع الفكهاني إذا جاءت في أي كلام فإنها بشرى بالفرح الذي لابد سيقام ليغني فيه ويشعلل خيال الرجال وقلوب الفتيات وصدور النساء !! وكل صبية تسمع غناء بديع الفكهاني يجيئها هاتف يقول لها إن بديع يقصدها هي بالذات ويغني لها !! تشعر بنفسها في الحال ! تزداد النصف حلاوة ورواقة !! لما يغني بديع الفكهاني ينسحر الرجال ينسون همومهم يتصالح المتخاصمون ليجلسوا معاً صافي يالبن حتى يسمعوا بمزاج دون تنغيص ! الفرح يعم ويشمل ! الكل يصير عريس يعود إلى داره رائق المزاج خلي البال يقيم عرساً في داره !! شوارع البلدة ترأ كلها تسهر الدكاكين في الحواري تبيع وتشتري والحركة لا تكف !! طوائف جاءت من البلاد القريبة لتسهر في الفرح ! والكل في حركة وبهجة وزغاريد وأعيرة نار لكن صوت بديع الفكهاني هو الذي يغطي على كل شئ ! يدلق النفير موجاته فيحضنها الهواء يوزعها بالعدل على كل أذن في كل دار ! ويكون أوضح وأصفى للساهرين في الغيطان !!..

" يوم المنى ليلة أن شعرت أنني فكيهة الموال وأنني العنب والخوخ والرمان والتفاح والمشمش والمانجو والكمثرى !! في مواله القديم كان يشبه الناس بالفاكهة

فليلتذاك سمعته يشبه الفاكهة بى ! فالعنب فيه عناقيد صدرى ! والخوخ سرق حَمار خدى ! والتفاح يتساقط من كعبى!!..

" من القلب للقلب رسول هكذا يقول المثل ! وقلبى دائماً أصدق من عقلى! سمعت الطرق على بابه فانتفضت تلقيت المرسال الذى نبه قلبى إلى أن الموال جواب مبعوث لى أنا وحدى ومكتوب عليه اسمى وعنوانى وأوصافى !! صورتى كانت فيه: العين الواسعة طويلة الأهداب ! والرقبة الطويلة العريضة النحر !! مرة فى إثر مرة ! ليلة تعقب ليلة ! شعرت أنه يتعذب يصرح طالباً أن أحن عليه أن أرد ولو بكلمة بلمحة بإشارة يد تخبره أن الرسالة وصلت وأنى على العهد باقية حتى يحين أوان اللقاء !!..

" أقول الصراحة : بعثت إليه ! هل أنكر ؟! هل أقدر على الإنكار ؟! هل يستطيع الزمار تغطية ذقنه أثناء النفخ فى المزمار ؟! ولماذا أنكر ؟! هل فعلت حراماً؟! وقعت فى المحظور ؟! إرتكبت جريمة بشعة ؟! بعد الشر عنى فأنا تربيت على الغالى ! لست أفعل جريمة إذا بعثت لصاحب أخى بالسلام مع أخته ! مجرد السلام ! بعدها دخل سلامى فى الموال ! وجاء فى الموال جواب يرد على السلام بألف سلام وتحية ! طلب الدخول من الباب الشرعى ! رحبت طبعاً ورقص قلبى من الفرح ! لن أجد عريساً أحسن من بديع ولكن كيف أقول هذا وبلدتنا تحرم كلمة الحب إذا طلعت من فم الصبية أو صرح بها الصبى ؟! هل البنت فى بلدتنا لها رأى ؟! الحب موضوع للغناء فحسب !! خفت أن أبعث له بالسلام ثانية ! سكت وأنا على جمر النار !!..

" وفى ليلة دخلوا على القاعة ! قالوا إن بديع الفكهانى فى المندرة مع عبد المولى جاء يخطبنى وعبد المولى يعاركه يحبس دمه فى كل كلمة ! ما أعرف لماذا كبرت فى دماغ عبد المولى ؟ جاء الجدع يخطبنى وهو الذى تتمناه أى فتاة من أكابر العائلات! ووضع نفسه تحت أمر عبد المولى يطلب منه يشاء ليتم الفرح !! هب فيه عبد المولى! خلق له خصومة غير مفهومة !!..

" عبد المولى مخه ناشف ! ونشفان مخه خرب بيتنا أكثر من مرة ! حكم على بالإعدام ! شردنى ! حرمنى من حبيب قلبى الذى تمنيته وتمنى هو رضائى !!..

" كرهت عبد المولى لأنه يحدد مستقبلي في سجن لا نهاية لمدته !! من الغيظ تحديته ! قلت للعمدة بالفم المليان وبصريح العبارة إنى أحب بديع الفكهانى ولن أتزوج بغيره !! غلى الدم فى عروق عبد المولى ! إستعد لقتلى فى نفس الليلة ! قتلى للمرة الثانية !! لم يهمنى القتل بالسكين بعد أن ذبح قلبى وصفى دمه بغير سبب سوى الغرور وحب النفس !!..

" أنا لم أهرب من القتل ! إنما هربت انتقاماً لنفسي من عبد المولى !! رحبت بالموت لكننى لو تركته يقتلنى شفيت غليله ورفعت رأسه فى البلد على حساب ظلمى وحسرتى !! قلت لنفسى : أنانية بأنانية ! سوف أهرب لأجعل عبد المولى يعيش بقية عمره غارقاً فى العار حتى أذنيه !!..

" وأنا لم أكن عاراً عليه لكنه هو الذى خلق العار لنفسه ولى ! فليتشرب هو الآخر من كأس الحسرة التى سقانيها !!..

" كنت أعرف أن من خرج من داره قلّ مقداره ! وأن الغربة ذل وبهدلة ! لكنها أهون ! الغربة نصف الموت الذى كنت سألقاه بسكين عبد المولى! إنما ربك كريم ! تركت بر الصعيد كله ركبت القطار إلى طنطا شئ لله يا شيخ العرب ! هو الذى نادانى ! هاتف قال لى يا بنت اركبى هذا القطار الذى يزدحم عليه الناس بكثرة ! قلت للناس أمام شباك التذاكر لماذا هذه الزحمة على هذا القطار ؟ قالوا نحن ذاهبون إلى مولد البدوى قلت شئ لله يا شيخ العرب وركبت معهم ! دخلت مقام الشيخ أقرأ له الفاتحة وأطلب منه أن يكون معي فى غربتى ويوقف لى أولاد الحلال فى سكتى بكراماته عند الله !! بعدها بقليل رأيت العرايشية هذه تتكلم معى ثم تعزمنى على الغداء ! كلمة منى كلمة منها حكيت لها ظروفى كلها !! قالت لا يهمك من شئ طول ما أنت معنا !!..

" نمت معهم ! بعد انتهاء المولد أتوا بى إلى هذه الدار فبدأ الفأر يلعب فى عبى لكن الحق لله فاجأنى سيدي زناتى هذا بأن عرض على الزواج حتى أطمئن وأعيش معهم فى سلام ! قلت : وزوجاتك هؤلاء ؟ قلن قبله : الشرع حلل له أربعاً والمهم موافقتك أنت !! حسبتها فى دماغى : ليس لى مكان ولا أقارب وإن عشت مع

سيد زناتي وزوجاته فلن أسلم من الشيطان ولا من لسان الناس فخير لى أن أتزوجه على سنة الله ورسوله وأستريح !!..

" من حسن حظى أن سيد زناتي لا يحب خلفة الأولاد ووجع دماغها !! ومن يعيش بين قوم لابد أن يتطبع بطباعهم ! فكل النساء هنا يعرين أذرعهن وشعورهن ! لكنني بفضل الله لم أتجاوز الحلال خطوة واحدة !"..

الفاجعـــة

إعتدل الرجل المجذوب فواجه الجالسين ، وطوى المسبحة الطويلة فدسها فى جيبه ووضع يديه مطبقتين فى حجرة ؛ ثم قال كأنه لم يعترف بكل مادار من حوله:
- "والآن ماذا أقول لسيدى عبد الرحيم ؟! هل تذكرت ذلك الشئ الذى لقيته فى الطريق فحملته إلى هنا لتنتفع به أو تدخره ؟!"..

فنهره سيد زناتى بعصبية لم يستطع السيطرة عليها :

- " إنتظر يا عم حتى نحل هذه المشكلة العويصة !"..

ثم انتبه إلى أنه شوح فى وجه الرجل بغلظة على أثر نظرة عتاب قاسية وجهت إليه من عين الشيخ زينهم العتريس ؛ فيما يشبه الإعتذار أعاد قوله بهدوء :

- " عدم المؤاخذة نحن الآن فى شدة ! أنت طبعاً غير دار بشئ مما يجرى حولك! فخلك فى صلاتك وأورادك حتى نحل هذه المشكلة التى لم نكن نتوقعها ! أدع لنا فى صلاتك أن يوفقنا الله إلى الحل الصحيح !"..

بدا على وجه الرجل المجذوب أنه لم يفهم شيئاً مما قيل بل لعله لم يسمعه أصلاً ، إذ قال كأنه يبلغ الرسالة لأول مرة :

- " يقول لك سيدى عبد الرحيم إحتفظ بالأمانة حتى تردها لأصحابها الأصليين ! هذا كل مافى الأمر !!"..

- " ديك الأمانة على ديك أصحابها ! أقول لك إننا فى مأزق حرج فلا تخرجه منه وتشتت مخنا !"..

- " وأنا أقول لك قولة سيدى عبد الرحيم : إحتفظ بهذه الأمانة حتى تردها لأصحابها !"..

- " حاضر ! حاضر ! سمعاً وطاعة ! فهمنا ! حين أكتشف هذه الأمانة سأذهب بها بنفسى إلى سيدى عبد الرحيم شخصياً !"..

- " وإذن فلا تتأخر لأن قطارنا يتأهب للحركة ! يادوب تقوم فتلبس هدومك!"..

ثم نكس رأسه وأخذ يتمتم ببسبسات غامضة . ونهض سيد واقفاً ، قفز إلى الباب المطل على الفناء ، نادى شوادفى بأن يجئ حالاً . فكح شوادفى وسلك صوته بصعوبة من قلاقل النوم ، وقال بصوت متحشرج إنه قادم ..

وكان ضوء الصبح قد صبغ الدنيا بلون الإردواز ، وبدأ يختاط بضوء اللمبة النيون المدورة ويخنقه . ثم دخل شوادفى يدعك فى عينيه مبدياً دهشته من عمق نومه لدرجة أن الجميع النائمين فى الفناء قد انصرفوا دون أن يشعر بهم ؛ وتساءل إن كان ما حدث بالأمس من فرح حقيقى حافل قد حدث حقاً أم أنه كان يحلم بذلك فوق المصطبة ؟ فقال سيد زناتى إنه حدث والدليل على ذلك أن المغنى لم ينصرف بعد ؛ ثم أضاف أن الفرح الذى بحق وحقيق هو ما سيحدث بعد قليل . وكان قد انتعش فجأة بمجرد وصوله إلى الباب وعودته ؛ ثم أيقظ انتعاشته بكأسين متتاليين من الكحول الأبيض المقطر ؛ ووزع دوراً من السجائر وحبات الفاكهة على الجالسين؛ ثم قال بلهجة حكيم نطاسى فهم الدهر وألاعيبه وأخذ من متع الحياة كفايته :

– " شف يا أخ العرب ! أنت قطعت قلبى! وأنا لا يطاوعنى قلبى أن يكون حقك حلمك عندى وأحرمك منه ! يكفى أننى تمتعت به وقتاً طويلاً من الزمن اختصر من زمن متعتكم معاً !! كل شئ قسمة ونصيب!! فهذه هى حبيبتك فكيهة! سأطلقها الآن ! ولتعقد قرانك عليها فى أى وقت تشاء ! ولك أن تتسلمها الآن معززة مكرمة ! إن فكيهة جوهرة ثمينة وبنت حلال عفيفة نظيفة الذيل هذه شهادتى أمام الله ! أنت جدير بها وهى جديرة بك ! لها مبلغ فى دفتر التوفير يمكن أن ينفعكما ! والآن شف شغلك يا شوادفى !!"..

تربع شوادفى موجهاً الحديث إلى :

– " هات ورقة وقلماً يا أخانا وأنا أملى عليك !"..

بدت فى عيون الرجال نظرة استفهام غامضة ، تلقفها سيد زناتى ، فشرح لهم فيما يشير إلى شوادفى بكل جدية :

– " هذا هو مأذون الوكالة ! وهو الذى عقد قرانى على زوجاتى وكل من تزوج فى الوكالة !!"..

ثم سحب أجندة من قعر طاقة مجاورة لكتفه ؛ نزع منها ورقة سلمها لى مع الأجندة لأسند عليها . فلمع فى عينى شوادفى ذكاء جهنمى ، قال :

– " لقد تزوجتها باسم جنات عبد الخالق أبو عيش !! فهل تطلقها الآن باسمها الحقيقى ؟!"..

طق الشرار فى عينى سيد زناتى كأنه انتبه لهذا المأزق على حين غرة ، لكنه هتف :

– " معك حق ! ولكن لا ! لو طلقناها باسمها الجديد وهو الصحيح نكون طلقنا امرأة أخرى ! طلقها باسمها المكتوب فى عقد القران : جنات عبد الخالق ! وأضف إلى اسمها عبارة : التى أتضح الآن فقط أن اسمها فكيهة كذا !!"..

قال شوادفى كأنه يدعو لنفسه بإعلان مجانى :

– " أرأيت ؟! هذه ميزة أن تعقد قرانك عندى ! عند غيرى كان لابد أن تحدث الآن مشكلة تعطل الطلاق ! هى نفس المشكلة التى كانت تعطل الزواج ! هيا يا أخانا فاكتب ما أمليه عليك من صورتين لكى يأخذ كل من الطرفين صورة من عقد الطلاق !!"..

وجعل يملى على صيغة الطلاق ، والرجال يتبادلون النظر ويكتمون الضحك والدهشة والممزوجة بحب المغامرة لطرافتها ، كأننا جميعاً أطفال نمارس لعبة مشروعة. حتى إذا ما انتهى من الإملاء نقلت من العريضة صورة ثانية ؛ ثم قدمتهم لسيد زناتى فوقع عليهما بإمضائه ، ولجنونة فبصمت ، ولنفسى فوقعت بشهادتى والشيخ زينهم العتريس فوقع بشهادته ولشوادفى فوقع أيضاً . سلمت لكل من الطرفين صورة ، أطبقها ووضعها فى جيبه . ثم حانت منى لفتة عفوية إذ سقطت عينى فى عينى الرجل المجذوب ، فاصطدمت ببركان من النار المتأججة تعمل على إخمادها قوة خرافية ..

تأهب الرجال للقيام ، فيما راحت ستات تبكى فى صمت ، تجاوبها العرايشية بدمع قليلة . أما "المضروبة" الأخرى – والتى هى من اكتشاف ستات – فقد حط عليها ذهول تجمد فى عينيها فاستسلمت لشرود مذعور ؛ ربما لأنها بدأت تتذكر مصيراً مشابهاً قد يحيق بها ذات لحظة قادمة ..

وقف الرجال بالفعل ؛ فاضطرب الرجل المجذوب فجأة وظهر عليه التوتر وهاج البركان المشتعل فى عينيه ، لحظتها فحسب ، شعرت أن عينيه ليستا بعينى ناسك مجذوب بالعشق الإلهى ولا يمكن أن تكونا كذلك . فانتابنى كثير من القلق والتوجس . راحت جنونة تعانق النساء وتبكى بكاء الفرح العميق كأنها تقول لهن بشفرة يفهمنها جيداً : العقبى لكن بإذن الله تتحررن من هذه الوهدة فى الغربة الذليلة فتعدن إلى وطن الحلم القديم الأصيل .. وسلم الرجال على سيد زناتى واندمجوا فى شكر وترحيب ودعوة لزيارة الصعيد . ثم تسللت جنونة فأتت ببقجة ثيابها التى وضح أنها أعدتها من قبل ، وحين سلمت على سيد لفت يدها بطرف شالها، فقال لها :

– " إعتبرنى أخا لك ولبديع ! لن أنساك أبداً يافكيهة ! أقصد ياجنونة !"..

إنسلت بديع بلهفة فدفع جنونة أمامه محضناً عليها ، ومن خلفه صحابه ، فالمجذوب فسيد زناتى فزينهم العتريس فأنا تقرع خطواتنا على السلم فى جلبة كبيرة..

صرنا فى قلب الفناء . وهنا انفجر البركان الذى فى عينى الرجل المجذوب . لم يستطع السيطرة على نفسه ؛ إنفرط الهيكل الذى كان يضع نفسه فيه، فصار يشوح بحركات سوقية ويكاد يشخر ويسب الدين . لعله فعل ذلك بصورة أو بأخرى قبل أن يتكلم ؛ لكنه سرعان ما عاد فتشبث بالشخصية التى جاء بها ، فصاح :

– " قف مكانك أنت وهو !"..

كان الصوت مختلفاً تماماً ، ليس ذلك الصوت الناعم الذى ينم عن سذاجة وصفاء ، بل كانت صيحة ابن ليل خشنة قاسية . مع ذلك استرد هدوءه موجهاً الكلام لسيد زناتى فيما تسمر الجميع فى أماكنهم متوجسين منهولين :

– " خنت الأمانة يا زناتى ! لم تسمع نصيحة سيدى عبد الرحيم ! كان يجب أن تسلم الأمانة إلى أهلها !!"..

– " أى أمانة يارجل يا طيب ! الأمانة هناك فى السجن !"..

– " هذه الأمانة التى لم تفهمها أيها الغبى رغم أنك رجل داير ومفتح !"..

وأشار إلى جنونة ، ثم كرر :

– " هذه هى الأمانة ! لابد أن تسلمها لأهلها !!"..

– " وأين هم أهلها ؟!"..

– " أنا أهلها ! ولابد أن تسلمها لى غصباً عنك وعن أى مخلوق !!"..

صاروا ينظرون فيه بتوحس وذهول كبيرين . وقالت جنونة فى اضطراب واضح:

– " أنا ياعم لا أعرفك ! فمن أين طلعت ل ى؟!"..

بسرعة هائلة امتدت يده فخلعت اللحية المستعارة ، ورفعت العمامة ، وصاح بلهجة تتضح بالغدر والنذالة :

– " أنا أخوك عبد المولى يا فاجرة ! حتروحى منى فين ؟!"..

صرخت جنونة وتهاوت ، فتلقفها بديع وأسندها مغشياً عليها من هول المفاجأة، حملها كلبشة القصب على كتفه وانطلق يهرول نحو البوابة . لكن يد عبد المولى كانت أسرع من البرق ، شدت الطبنجة من تحت إبطه ، فى لمح البصر دوى الرصاص منطلقاً متلاحقاً فى دربة ومهارة . سقط بديع بحمله على الأرض ، فلحق بهما وأفرغ فى رأسيهما رصاصات ؛ وأسرع يغير مشط الرصاص بمشط جديد ، لكن سيد زناتى كالفهد انقض عليه من الخلف فطوقه بذراعين كالحديد ، فسقطت الطبنجة من يده فالتقطها واحد من صحاب بديع ثم تذكر فتركها تسقط من يده إثر صرخة من شوادفى تحذره من البصمات وتغيير المكان . ثم تقدم فكتف عبد المولى بحبل من مسد .

الحنين

طال بى السأم والقرف والفلس ، ودوشة الدماغ . كل يوم والثانى فى تحقيق ، من المباحث إلى النيابة إلى المحكمة . من حسن الحظ أن مصاريفى فى الأيام الأخيرة كانت قليلة ، والعمل كان نادراً . مزاج سيد زناتى بات متوعكاً مختلاً ، لا يجيد رسم الخطط التى تدر دخلاً كبيراً . ضؤلت المشاوير التى أقوم بها مع ستات ، دارت فى فلك تقليدى قليل الخبرة وإن كان يأتى برزق المصاريف اليومية : الإدعاء بأننا غرباء تعرضنا للسرقة ونطلب من الله ولا يكثر على الله أجرة القطار ، فلا يجتمع فى المنديل إلا ما يزيد عن أجرة القطار فعلاً بما يكفى عشوة ليلة أو ليلتين ..

كانت ستات قد استجابت لنصائحى السرية فنفرت من المشاوير السخيفة التى لم تكن تحبها فى الأصل لولا ضغوط سيد وظروف أكل العيش ؛ من قبيل النصب على بعض العمد ومشايخ البلاد وذوى الأملاك المتصابين ؛ بإقامة علاقة وهمية معهم تستنزف فيها مواردهم المادية دون أن تنيل الواحد منهم من جسدها شيئاً إلا اختلاس قبلة أو خطف حضن عابر ، لزم سبك الشغل ..

وبدأ سيد يحن لشيطان التأليف وكتابة الأغنيات التى ينوى هذه المرة أن يأخذها مأخذ الجد فيسعى بها إلى الإذاعة والمطربين والأفلام ، فكان يسمعنى كل ليلة أغنية كاملة جديدة تعكس أخلاقيات الشارع والحارة بألفاظ سوقية لكنها طريفة ومسبوكة فى أشكال موسيقية لها جمالها الخاص مع ذلك ، من قبيل : خد من قلبى وصر .. ياللى ساقينى الشقا والمر ؛ وياواد ياحموه سامعنى ولا لأه ؛ والغاوى ينقط بطاقيته .. إلخ إلخ . وكنت أقول له رأيى بصراحة ، فيظهر عدم الإهتمام به ، ويقول إننى مغرم بالأغنيات الذواتى الخرعة المايعة وإن المستقبل كله لهذا اللون من الأغنيات التى تشخر وتغنج وتشتم وتسب الديك مثلما يفعل الناس فى الشارع ؛ إذ أن مثله الأعلى محمود شكوكو يعتبر أشهر من غنى فى العالم العربى كله. العجيب أن الرسائل التى بدأ يبعث بها إلى الإذاعة والطربين والملحنين على عناوينهم التى أخذها من مجلات الكواكب وآخر ساعة كان يتلقى عليها ردوداً ترحب بأغنياته فى إعجاب شديد وتبلغه بأنها رهن التنفيذ ..

ولم يكن هذا ليضيرني في شيء ، خاصة أنني طوال قعدتي معه آكل شارب مدخن محشش دون أن أدفع شيئاً ، سواء سرحت في مشاوير أو لم أسرح . على أنه كان ينجح في الإنتفاع بي ، فبصنعة لطافة جعل مني سكرتيراً خاصاً له ، يمليني الأغنيات كي أكتبها فيما هو مندمج في لعب القمار ، يرسلني لشراء الفراخ والطعام الذي - كما ينبهني دائماً كمبرر لمشواري - سآكل منه ؛ أساعده في الطهي والتنظيف ؛ أذهب لاستطلاع بعض الأماكن التي قد ينوي القيام فيها بإحدى عملياته ثم أعود فأقدم له تقريراً شفوياً . شهور طويلة تعقبها شهور أطول ، في أثرها شهور أكثر طولا ومللا والضنك يتزايد ، وسيد زناتي يفقد شيئاً فشيئاً تمام السيطرة على زوجاته الثلاث ، فأصبح يتحمل شخطهن ونظرهن ، ويمضغ بعض الغمزات القاسية التي يوجهنها إليه ، ويبتلع ألمه إذا عادت إحداهن متأخرة في عمق الليل . لكنه كل حين كان يفقد صبره ، فيطيح فيهن جميعاً بضرب مبرح يكاد يكون شروعا في قتل ، بقضيب من الحديد وبالكرباج وأحيانا بالرأس والبونية والشلاليت ؛ وفي مرات عديدة حلف على الواحدة منهن ألا تنام في بيته ما دامت تأخرت ، فتجلس المسكينة ساعات طويلة على عتبة الباب فأفتح لها باب حجرتي لتنام فيها فيما أقفل عائداً إلى سيد فأبقى معه حتى الصباح ؛ وذلك أنه كان قد بدأ يطيل قعدة القمار حتى ضحى اليوم التالي ، سئمت تماما ، تيقنت أن حياتي فقدت كل معنى ، صرت أحن إلى أماكني القديمة التي انقطعت عنها ؛ فأهرب من مغناطيسية زناتي لأيام طويلة ، أتسكع فيها طول النهار ، أحوم الأماكن التي كان لي فيها أصدقاء وزملاء وذكريات ؛ أصطدم بالوحشة والكآبة والملل ، فثلاثة أرباع أصدقائي مقبوض عليهم ، إما لأنهم من الإخوان المسلمين ، أو من الشيوعين ، أو من أنصار العهد البائد ؛ إن بالحق أو بالباطل . إشتقت للإفطار مع حمدى الزواوى في دكانه ، لكنني فوجئت بالدكان مغلقا لعدة أيام ؛ فلما أضطررت للسؤال علمت أنه تم القبض عليه هو الآخر منذ وقت بعيد فأودع سجنا مجهولا بتهمة غامضة مجهولة ..

لكنني أدمنت حارة بنت عمي لسبب لا أدريه ، صرت أمر بها كل يوم تقريبا في أوقات متغيرة ، حيث أخترقها من أول شارع الصاغة أو من آخره ؛ فأراني

مرغما على الإلتفات والنظر مرتين ، من منزل بنت عمي ؛ كأنني أبحث فـي هذيـن المكانين عن شئ حميم ضائع لا أفقد الأمل في العثور عليه ..

إلى أن فوجئت بها ذات يوم خارجة من الحـارة ، وحدهـا ، تاركـة منزلهم فـي وسط الحارة محودة على الرصيف إلى الشارع العمومي ماضية في اتجاه مبنى المديريـة المتاخم لمحطة السكة الحديد ، دققت فيها النظر جيداً ؛ توقفت عند شـفتيها بـالذات كعلامة تميزها . كانت هي بعينها ، بدرية ، لكنها تلتف بمعطف مـن الفـرو الأسـود كالهوانم الكبار ، وجـورب أسـود على حـذاء أسـود ، وتتبشـنق بطرحـة سـوداء . إنتقلت إلى الرصيف الآخر كي أواجهها . واجهتنـي بابتسامة شـجعتني . إندفعـت نحوها ، كـدت آخذهـا بـالحضن لكننـي وضعـت كـل حـرارة الفـرح فـي يـدى إذ ضغطت بهما على يدها الرخصة البضة :

- " إزيك يا بدرية ! والله زمان !"..
- " فين أراضيك ؟ ما شغلتك هذه الأيام ؟!"..
- " لم ألتحق بعد بعمل ثابت لكنها مستورة والحمد لله !!"..
- " الحمد لله !"..
- " أين تذهبين الآن ؟!"..
- " لست ذاهبا إلى أي مكان ! يمكن أن أوصلك !"..
- " يا مرحبا !"..

مضيت بجوارها صامتا ، متحرجا بعض الشئ ، حتى وصلنا إلى ميدان السـاعة . فتوقفت ، جعلت تشير لى على بيتها الكائن ضمن عمارة مميزة الطراز ولونهـا مرمـا في آخر هذا الشارع الفرعي ، في الدور الرابع . بيت - تقـول - مريـح وجميـل لا يعيبه سوى أنه قطار الدلتا يمر بحذائه فكأنـه يخترق قلـب العمـارة يشـطرها ويكمـل الكارثة بصفيره الحاد كصوات المرأة الثكلى . قالت أيضاً أنها تفضل عـدم الذهـاب إلى بيتها الآن لأنها في ظروف سيئة والبيت في ظروف أسوأ ؛ وأنها تؤجل دعوتـي إلى بيتها لوقت آخر ؛ لكن لا مانع لديها الآن من أن ترافقني في الطريـق أو تجلـس معي في أي مكان لبعض الوقت . أشرت لها على قهوة الطلبة القريبة ذات الجـدران الزجاجية . قالت : ليكن ؛ ومضت بجواري فدخلنا المقهى. قلت فيما أقلب الشاي:

– " من فرحتى برؤيتك نسيت أسألك عن لبس الأسود فى أسود ! ما الحكاية؟!"..

نظرت فى وجهى باستنكار شديد ممزوج باللهشة مع قليل من الاستخفاف :

– " أنت إذن غائب عن الوعى ! لا تعيش فى الدنيا ! ألم تقرأ الجرائد أو تسمع الراديو أو الناس ؟! أمرك عجيب والله ياحدع !!"..

– " كفى الله الشر ! ماذا حدث يا بدرية ؟!".

حاولت أن تتكلم ، وبدا أنها تبحث عن صوتها ، عن قدرتها على تحريك شفتيها . إحمر وجهها صار فى لون اللهب ، تقلصت شفتها السفلى وانثنت تحت فكها العلوى ؛ وهطلت الدموع من عينيها . سرت عدوى البكاء فى بدنى ، فرحت أقاوم رعشة قوية تشملنى من رأسى إلى قدمى ؛ وبين حين وآخر أتمالك نفسى وأجفف دمعى صائحا بها : مالك يا بدرية ؟! فتشرع فى الكلام فيغلبها الدمع فيتحشرج صوتها ويضمحل قبل أن تتمكن من إتمام لفظة واحدة . وهكذا لمدة تزيد على الساعة ، وجهى فى وجهها نرتفق المنضدة يكاد رأسى يقرع رأسها نحاول أن نبعد الأنظار عنا بقدر ما نستطيع ، والجرسون يتابعنا من تحت لتحت بأسى شديد تتضح نظراته الخاطفة بالعزاء والمواساة. أخيرا اقتحم علينا المنضدة ببسمة عذبة كأنه يمس بها على رأسينا : " وحدوا الله بقى حرام اللى بتعملوه فى نفسكم ده !"، ورفع الصينية بالشاى فاتجه إلى النصبة الرخامية المستطيلة المتكررة فى مرايا الجدران ؛ ترك الشاى وجاء بغيره ساخنا طازجا ، فوضعه أمامنا . صرنا نشرب الشاى ، وكان صوتها قد بدأ ينسكب فى أذنى .

القــارورة

.." لقد شنقوا زوجى ! قالوا إنه من مؤسسى الجهاز السرى ! إختاروا له العمل المناسب ! قالوا إنه كان المختص بشراء الأسلحة وتخزينها بحكم خبرته العسـكرية إذ أنه كان ضابطا سابقا في الجيش !..

– " زوجى كان طيب القلب يعلم الله !! بيتنا ليس فيه سوى مسدسه المرخص والله كان يخاف منه خوف الطفل مـن لمس اللهـب !! لا يخرجـه مـن درج مكتبـه أبدا!!.

– " ألم تسمع محاكمته فى الراديو ؟! كانت تجئ كل يوم فى الجرنان !!"..

– " ضربوه حتى كسروا عظامه !! كان سيموت وحده بغير إعـدام لـو تركـوه أسبوعا واحدا !! الطبيب الشرعي قال لنا إنه مات قبل شد الحبل !!"..

– " يا للفظاعه ! عمرى ما رأيت حكومـة بهـذه القسـوة !! هـه !! يقولـون إن الإحتـلال رحـل عـن البـلاد !! والله إنـه لم يرحـل ! هــذه حكومـة أوسـخ مـن الإحتلال!!".

– " جاءونى ذات ليلة ! صحونى من النوم ! شـحنونى مغمـاة العينـين كـالبقرة المربوطة فى الساقية فى عربة زرقاء !! فلما فتحت عينى وجدت زوجـى أمـامى فـى غرفة مكتب فيها أفندى مهيب وضباط وعسكر ! قال الأفندى لرجـل ضخـم الجثـة كالحلوف : إخلع ملابسها وملابسك وهيا أرنا رجولتك وغنجها !!"..

– " ضربنى بالسكين فى قلبـى إبـن المفضوحـة ! تصـورت أننـى فـى مستشـفى المجانين ! وقفت مذهولة ! كل شئ فى جسدى ينتفض ويرتج "..

– " إبـن المفضوحـة الآخـر خلـع ملابسـه بـالفعل ! بقـى بالسـروال الداخلـى فحسب!! صار يقترب منى كالوحش فاشخاً حنكـه !! صـوت صرخـت تراجعـت للخلف ممسكة بطفاية سجائر ثقيلة من البللور متحفـزة لشـق رأسـه بهـا لـو أقـترب ثانية!!"..

– " إبن المفضوحة الأفندى رفع ذراعه يعنـى انتظـر !! أدار وجهـه نحـو زوجـى قال: تعترف أم نتركه يأكلها أمامك ؟! زوجى قال بكل ثبات : أولا أنا ليس عندى شئ أعترف به وثانيا إن كان عبدك هذا رجلا حقا فليريني كيف يأكلها !!"..

– " شعرت كأنه نفخ فى جسدى روح القوة ! نظـر الأفنـدى لـلرجل الوحـش قال: شف شغلك يا محظوظ فإنها جميلـة رغـم شـفتيها الغليظتـين !! صـار الوحـش يخطو نحوى ببطء فاشخا حنكه ! الأسنان الصفراء الكبيرة "..

– " صرت أصرخ وأتراجع أمامه حتى مسحت حيطان الحجرة بجميع أركانها!! توقف لحظة ثم انقض على مرة واحدة !! زغت من تحت ذراعيه ! ترنحـت نشـنت بالطفاية على صدره فتلقاها بساعديه فرماها فاندفع بقوة شريرة لا مـزاح فيهـا هـذه المرة ! كاد يفلح فى تطويقى وهو يلهث !!"..

– " زوجى الضابط السابق كان يلعب الرياضـة باسـتمرار وكـان قـوى الجسـد كجذع السنط ! فى لمح البصر سحب كرسيا ثقيلا كالداهية ! وبيديه الإثنتين هوى به فوق رأس الرجل الوحش فانطرح على الأرض جثة هامدة تندلق الدماء من أذنيـه وفمه!!"..

– " هجموا جميعا على زوجى ضربا بالشلاليت والبونيات حتى خلصه الأفنـدى منهم تجنبا للوقوع فى مسئولية موته من الضرب !!"..

– " قلبوا فى الرجل الوحش فلم يجط منطقا ! ظل منكفئا على وجهه يسبح فى بركة من الدماء !! أشار لهم ابن المفضوحة الأفندى فسحبونى فوضعوا العصبة علـى عينى ثم شحنونى فى السيارة الزرقاء فتركونى فى قلب البيت وانصرفوا .."..

– " بقى صوتهم فى ردهة بيتى زمنا طويلا يحذرنى مـن فتـح فمـى بحـرف عمـا حدث وإلا فالموت فى انتظارى وعائلتى كلها !!"..

– " لم أقل لك إن أخى الكبير والذى يليه فى السجن حتى الآن بغير محاكمة !! مرة يقولون إنهما من الجهاز السرى ! ومرة يقولـون بمجـرد اشتباه لعلاقتهـم العائليـة بالعضمة الكبيرة !! منهم لله ! منهم لله !!"..

– " أحببت زوجى المرحوم حبا كبيرا "..

– " ما كان قادرا على الانجاب نتيجة إصابة في جسده أثرت على أعصابه نالها في حصار الفالوجا في حرب ثمانية وأربعين !! يا ماحدثنى عن هذا الحصار وكيف أنهم رأوا الموت بأعينيهم في اليوم الواحد أربعا وعشرين مرة ! قال إن عبد الناصر كان معهم ! قال أيضا إن عبد الناصر كان معهم في الإخوان المسلمين ! لكنه لم يقل لى ما سر هذا الثأر البايت بين الثورة والإخوان المسلمين ؟! ولم يقل لى ما السر في الإخوان المسلمين إذا كنا كلنا مسلمين وأقارب ؟! لما كنت أسأله كان يضحك ويأخذنى في حضنه ويحكى لى عن شهيدات الإسلام حتى أنام "..

– " الله يرحمه كان يحبنى ! كان دائما حزينا من أجلى لأنه السبب في حرماتى من الخلفة مع أنه لا يقصر أبدا في واجباته كرجل ! طلبت منه أن أذهب إلى الدكتور فربما يكون العيب منى ! فمنعنى وقال إنه يعرف أن العيب فيه هو ! وأنه متأكد من ذلك من زمان !!"..

– " لكى يرضينى ويضمن حبى له كتب باسمى كل ممتلكاته : الشقة وفدان الأرض في بلدته وبعض المواشى في حوزة بعض أقاربه ! وأوصى أقاربه عندما زاروه في السجن ! أخبرهم بكل شئ حتى لا يضايقونى إذا تعرض هو للإعدام "..

– " الله يرحمه كان يعرف أن مصيره الإعدام ! وكان دائما يتصرف على هذا الأساس !! وندم في حياته مرة واحدة : عندما عرض عليه أصدقاؤه من المملكة السعودية أن يعيش عندهم كبعض زملائه معززوا مكرما في نفس وظيفته بالمرتب الذى يطلبه لكنه اعتذر وقال أن مهمته في مصر وليست في السعودية وليس من الرجولة ولا من الاسلام أن يهرب من مهمته حتى لو كان يعرف أنه معرض للموت في سبيلها !!"..

– "أنا أقول إن عدم إنجابه وتأكده من عدم الإنجاب جعله زاهدا في الدنيا وفي الفلوس !! كان كل همه وكل فرحه أن يرى المساجد ممتلئة بالمصلين كأنهم يصلون له هو!! سعادة الدنيا كلها تحط عليه حين ينجح في تخليص مسلم حقيقى من ورطة أو سداد دين ! مع ذلك لا يفرط في حق له عند أحد !! لابد أن يأخذه على داير المليم ! وربما أنفق على نفس الشخص في ظروف أخرى ضعف ما كان عليه له "..

– " أقاربه الآن يحبوننى ! لم يظهر منهم أى شئ يقلقنى ، ذهب أبى وسجل كل شئ ! واليوم كنت فى بلدته لتصفية بعض الحسابات مع أقاربه ! أكرمونى كرما شديدا ! حملونى بالفطير المشلتت والقرص والجبن والسمن وعسل النحل ! رأسهم وألف سيف أن أقبل هديتهم "..

– " على فكرة ! يمكن أن تخلصنى من الفطير بدلا من تركه للفساد ! أنا لا ثقل لى عليه ! تعال خذه ! سأنزله لك بالسلة والحبل !!"..

– " إعذرنى لعدم دعوتى لك بالصعود إلى الشقة فكل شئ بأوان !! لست أحب أن أريك منظر الشقة وهى فى حالة حداد على صاحبها !! كما أنى أحب أن أحترم ذكراه لوقت طويل !!"..

– " ما تقول ؟! مشروعك القديم ؟! زواجنا يعنى ؟! فكرة أن تتزوجنى ؟! أنا موافقة ولكن الموضوع يحتاج لتعب كبير ! لن يوافقنى عليه أحد ! وربما يحاربنا أقاربه ! تكون فضيحة بجلاجل وأنا لست حملها بعد ما حدث لى !! على كل حال هذا الكلام سابق لأوانه ! نضعه الآن على الرف حتى يؤون الأوان وأعدك أنى إن فكرت فى الزواج فلن أتزوج من أحد سواك إذا شاء الله لنا زواجا !!"..

مسك الختام

بعد حوالى عشر دقائق من وقوفى تحت شرفة الطابق الرابع ، هبطت السلة الكبيرة بالحبل . كانت ثقيلة تكاد تهوى إلى الأرض . ينحشر فيها كيس من الدبلان ملآن عن آخره بلفائف الفطير المشلتت والقرص الناعمة الشهية الرائحة وبرطمان العسل النحل وعلبة الجبن . صاحت بدرية من فوق إفريز الشرفة تنبه على بأن أفك عقدة الحبل وآخذ السلة كلها بما فيها . ثم بأطراف أصابعها سحبت من شفتيها قبلة ورمتنى بها . لوحت لها بيدى وقد شعرت كأن القبلة الطائرة قد هبطت على شفتى بالفعل فسال لعابى متحسساً مذاقها ..

علقت السلة فى ذراعى ومضيت من فورى إلى الوكالة شاعراً بالفرح والحماسة لأننى أخيراً سأتمكن من عمل واجب مع سيد زناتى ورجاله ..

دخلت بالسلة إلى حجرتى فوضعتها وقصدت حجرة سيد زناتى . كان الرجال لحسن الحظ كلهم هناك . لم يكن سيد زناتى قد أعد لهم أكلاً كالعادة لأن السوق نائم والدخل معدوم . أدركتهم وهم يتبادلون المقترحات حول علبة السلمون والجبن القديم بالأوطة والخيار . قلت بفخر خفى :

– " لا داعى للمقترحات ! عشاؤكم عندى ! فأنا قادم لتوى من البلد !"..

قال سيد وهو يشد الهواء بأنفه :

– " أشم رائحة فطير مشلتت !"..

– " مضبوط ! غارق فى السمن طازج !"..

– " بنا إذن إلى حجرتك ! أنت عزمتنا فلتكن العزومة فى حجرتك ! نغير الجو والمكان لعل ربنا يفكها !!"..

ثم نهض ؛ فنهضوا جميعاً . نزلنا فى موكب لطيف إلى حجرتى ، حوالى ست رجال وثلاث نساء . حملنا معنا بعض الشلت والمساند . جلسنا جميعاً على الأرض، فردنا الفطير والجبن والعسل فإذا به كمية كبيرة ، حتى اضطررنا لإرسال فطيرة كاملة لشوادفى ، وأنصاف فطائر لمن وجدناهم فى الوكالة ساعتها . أكلنا حتى امتلأنا وفاض الكثير . قررنا أن نكمل السهرة عندى ، فجئ بكل المعدات من

جوزة وحجارة وزجاجات كحول وحشيش ، وورق اللعب . وبدأت لعبة القمار ساخنة حامية .. وشبه عاريات جلس النساء الثلاث في وسطنا يقمن في مرح بخدمتنا وإلهاء المغلوب حتى ينسى ليزداد غلبه . والليل يمضي بنفس الحماسة دون أن ندرى ؛ حتى سمعنا لغطاً شديداً عند البوابة ، وصوت صفعة مدوية قالت إنها على وجه شوادفي ، كما قالت الأصوات المتعجرفة - دون أن تقول - إن الطاقم الذى يعرف شوادفي قد تغير كله ..

ما كدنا ننصت حتى انفتح الباب ؛ وطب فوق رءوسنا وفد كبير من الحكومة باللباس الرسمي والمدني . أوقفونا ، فتشونا ، أمعنوا في التفتيش حتى بين أوراق الكتب . حملونا جميعاً ومعنا ورق اللعب والنقود وزجاجة الكحول والمخدرات والجوزة والحجارة ، عبأونا في عربة الشرطة إلى مبنى المديرية . سين وجيم : من صاحب الحجرة ؟ قلت إنه أنا ! قالوا ل ى: مبروك عليك ! قضية لابسة لانقض فيها ولا إبرام !! إدارة المسكن للعب القمار ! وشرب المخدرات والخمر ! وتسهيل الدعارة !!..

زجوا بي في التخشيبة وحدى . أما الجميع فقد خرج بعضهم بكفالة والبعض الآخر بضمان معرفة سكنهم . ظللت أتمرد في التخشيبة وحدى كفأر مقهور في مصيدة لا سبيل إلى الخروج منها ؛ لا أحد يسمع خبطي أو رزعي أو صراخي ؛ حتى هدني التعب والقهر واليأس فأقعيت على الأرض . ثم تكورت على نفسي ، دافنا رأسي بين ركبتي المنتصبتين . إمتلأت خياشيمي برائحة عطر نفاذ أرستقراطي جذاب . رفعت رأسي مستطلعاً كأنني في حلم . لم أر أحداً في الظلام سوى كتل الظلام المتراصة في التخشيبة ، لا حس لا حركة لا صوت . تكورت من جديد في جلستي المقعية ، دفنت رأسي ، تسلل العطر من جديد إلى خياشيمي قوياً مبهجاً مثيراً للكآبة معاً ، ذلك أنني تبينت أن يدى قد تركت في صدرى ووجهي بقايا عطر بدرية الذى تركته في راحة يدى عند السلام مرتين . وفي الظلام الدامس رأيت قمراً شاحباً مخنوقاً يتمرد على جحافل السحب ليلقي على الأرض نظرة : كانت بدرية تمضي أمامي في خط مستقيم تتأبط قرطاساً من زهر البنفسج ، فلا

أرى سوى ظهر شبحها الملتف بالسواد يمضى نحو شاهد قــبر بـدا فـى رمشـة القمـر كقالب من الرماد الأبيض فوق فيل خرافى بارك على الأرض .

(تمت)

عـــربيـــة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043



خيرى شلبى . أصدق من استطاع وصف السلوك الشعبى معايشة داخل مكامنه وليس من وراء المكاتب المكينة . قلمه المتمرس عرف كيف يطوع الحرف الصامت ليغازل المعنى المطمور داخل اللوحة الغامضة ، فلا تملك أمام براعته فى هذا الا أن تزنها ـ الحرف والمعنى والصورة ـ لنفسك راضيا مستبشرا .

لو لم يكتب الروائى خيرى شلبى صاحب « الوتد » و «الأوباش » و « السنيورة» و«بورتربة » و « رحلات الطرشجى الحلوجى » . . سوى « وكالة عطية » لكفاة .

رواية تختصر لك الحياة فى مكان واحد هو الوكالة . وتختصر لك البشر فى شخص واحد هو «شوادفى» .

« المرأة الشعنونة تطلع مع الأفندى ذى الشكل المحترم فتسافر به إلى الأسكندرية لتمكث هناك أياما طويلة حتى تغربلها وتهز هزها ! يعنى لا تترك فيها حياً إلا وسلبت منه أشياء ! تختار عربات الأتوبيس السائرة على الخطوط الطوال ! تختار أشد العربات ازدحاما ! تركب ومن ورائها الأفندى ! ينحشران زحفاً داخل العربة !! عطر المرأة وجسدها مهرجان كبير . الجميع يحضنون عليها وهى تنزلق من بينهم فى سهولة ! بخبرتها تتوسم خيراً فى أحد الركاب فتقف أمامه مباشرة فيلتصق هو بها فى الحال سعيدا غائباً عن الوعى فيلتصق به الأفندى من الخلف ! صاحبنا يندلق على المرأة والأفندى فى لمح البصر ينتهى من تقليبه وسلب محفظته وكل ما معه بخفة يد لا ترى بالعين المجردة !! حين تشعر هى أن صاحبنا المندلق على مؤخرتها قد اكمل اندلاقه تعرف أن أفنديها قد أكمل استلابه ! فتكثر من حركات التألم ثم تستدير ناظرة إلى صاحبنا فى تأنيب واحتقار فيلتقطها أحد المتابعين فيدعوها فى الحال للوقوف مكانه موسعاً لها فى الأول حتى يبدأ الإلتصاق بها شيئاً فشيئاً معتمداً على أنها سترد له جميله بالسكوت عنه ! وهى تسكت عنه بالفعل حتى ينتهى الأفندى من تخليص مهمته ! قبل نهاية الخط بقليل يهبطان فلا يبقيا فى الشارع برهة واحدة ! لابد من الاختفاء فى حارات ملتوية أو فى تاكسى أو مترو ! المهم أن من يسعى وراءهما لا يمكن له اللحاق بهما أبداً ! فلا تنس أن الذين عملوها على أنفسهم فى الأتوبيس لن يجرؤ واحد منهم على إعلان فضيحته إذا أكتشف غفلته فى وقت مبكر !! » .

دار الأحمدى للنشر